
كتب قداسة البابا شنودة الثالث

البابا شنوده الثالث

حياة التوبة والنقاوة



حضرة صاحب القداسة والغبطة

البابا شنودة الثالث

بابا الإسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية

قصة هذا الكتاب

ليست التوبة يا إخوتى هى عمل المبتدئين فى الحياة مع الله ، إنما التوبة هى للجميع ، حتى للقديسين ، وهى جزء من صلواتنا اليومية .

كل إنسان محتاج إلى التوبة ، مهما عظم مركزه ، ومهما علا قدره وارتفع فى الحياة الروحية . كلنا محتاجون إلى التوبة ، بل إننا محتاجون إليها فى كل يوم ، لأننا فى كل يوم نخطىء . ولا يوجد إنسان بلا خطية ، ولو كانت حياته يوماً واحداً على الأرض .

بالتوبة نهيىء أنفسنا لسكنى الرب . وبالنقاوة نعاين الله أى نراه (متى ٥ : ٨) .

التوبة هى بدء الطريق إلى الله ، وهى رفيق الطريق حتى النهاية .

ولذلك كانت التوبة من أولى الموضوعات التى ألقيت فيها محاضرات عديدة من بداية عملى كأسقف للتعليم من حوالى عشرين سنة .

عشرات المحاضرات ألقيتها عن التوبة فى القاعة المرقسية بدير الأنبا رويس ، وفى اجتماعات الشباب والأسرات الجامعية . كما ألقيت محاضرات أخرى مركزة فى كنيسة الملاك بدمنهور ، وفى كنيسة مارجرجس بالمحلة الكبرى ، وفى بعض البلاد الأخرى ، وبخاصة فى السنوات من ١٩٦٥ إلى ١٩٦٩ .

وكنت أشتهى منذ زمان ، أن يصدر كتاب عن حياة التوبة .

ولقد جمعت محاضراته فعلاً ، وقدم للمطبعة فى أغسطس ١٩٧١ ، وتم طبع ثلاث ملازم منه . ثم جاءت مسئوليات البطريركية فشغلتنى عنه وعن إصدار أى كتاب آخر لمدة طويلة ، كانت فيها أعباء العمل متشعبة جداً لم تعطنى فرصة للكتابة على مدى سنوات . إلى أن شاء الله أخيراً أن أقدمه للمطبعة بعد اثنتى عِشرة سنة .

وبسبب تأخير صدور كتاب (حياة التوبة) هذا ، كان كثير من أحبائى يستعجلوننى ، قائلين فى لطف : ها قد تأخرت توبتنا بتأخر صدور الكتاب . أفترضى

أن تحمل مسئولية هذا التأخير أمام الله ؟ وكنت أجيبهم بالعبارة التى أكررها باستمرار «صلوا لكيما يعطينى الرب وقتاً» ...

ثم أعطانى الرب وقتاً ، وقدمت الكتاب إلى المطبعة ، وها هو قد وصل أخيراً إلى يديك. ولعل تأخره كان فرصة لأن أضيف إليه محاضرات أخرى ألقيتها فى الكاتدرائية الكبرى فيما بعد فى السبعينات .

وبعد ، أتظنون أنى استطعت جمع كل ما قلناه عن التوبة ؟

كلا ، بلا شك . فموضوع التوبة متسع ومتشعب ، وقد دخل فى موضوعات أخرى كثيرة من الحياة الروحية ، ودخل فى تأملاتنا عن المزامير وقطع الأجبية ، وسفر الرؤيا ، وسفر النشيد ، ورومية ١٢ ، ورجال الكتاب المقدس ، وفى محاضراتنا عن الخلاص ...

وقد أصدرنا بعض كتب أخرى صغيرة ، غير هذا الكتاب ، تحت عنوان «سلسلة حياة التوبة والنقاوة» .

صدرت منها كتب (اليقظة الروحية) ، (السهر الروحى) ، (الرجوع إلى الله) ، وكتاب (مخافة الله) فى طريقه إلى المطبعة أيضاً .

على انى لكى أستكمل لك هذه المجموعة عن حياة التوبة .

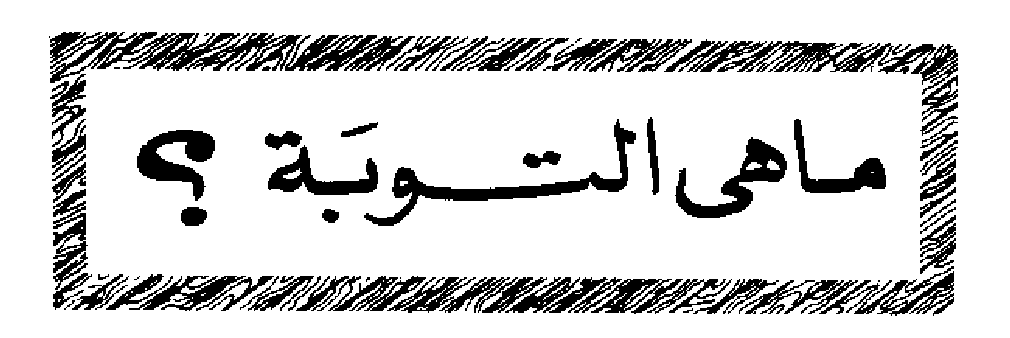
أتوقع أن أصدر لك قريباً كتاب (الحروب الروحية) .

الذى ربما يصدر فى مجموعة من الكتب الصغيرة أولاً ، ثم يجمع فى كتاب كبير. ليشمل الحروب الروحية بوجه عام ، ثم حرب كل خطية تعطل التوبة ، على حدة ...

ويبقى موضوع (التوبة والنقاوة) مفتوحاً ... إنه حياة ...

شنوده الثالث

الباب الأول



١ - ما هى التوبة .

٢ - نمو التوبة وكمالها .

٣ - دعوة إلى التوبة .

٤ - لا تيأس .

٥ - التوبة بين الجهاد والنعمة .

٦ - أهمية التوبة .

٧ - عوائق التوبة .

٨ - التوبة والكنيسة .

ماهى التوبة ؟

* ما دامت الخطية هى انفصال عن الله ، **فالتوبة إذن هى رجوع إلى الله** (١) .

والرب يقول فى ذلك « إرجعوا إلىّ ، أرجع إليكم » (ملا ٣ : ٧) . والإبن الضال حينما تاب ، رجع إلى أبيه (لو ١٥ : ١٨ ، ٢٠) . حقاً إن التوبة هى حنين الإنسان إلى مصدره الذى أخذ منه . وهى اشتياق قلب ابتعد عن الله ، ثم شعر أنه لا يستطيع أن يبعد أكثر...

* وما دامت الخطية خصومة مع الله ، **تكون التوبة هى الصلح مع الله** (١) .

وهذا ما ذكره معلمنا القديس بولس عن عمله الرسولى ، قال « إذن نسعى كسفراء عن المسيح ، كأن الله يعظ بنا . نطلب عن المسيح : تصالحوا مع الله » (٢ كو ٥ : ٢٠) .

والتوبة لا تقتصر على الصلح ، إذ بها يعود الله فيسكن فى قلب الإنسان ، ويتحول هذا القلب إلى سماء . أما غير التائبين ، فكيف يسكن الله فى قلوبهم حيث تسكن الخطية ؟! والكتاب يقول « أية شركة للنور مع الظلمة ؟! » (٢ كو ٦ : ١٤) .

* **والتوبة أيضاً هى يقظة روحية** (١) .

لأن الإنسان الخاطىء هو إنسان غافل ، لا يحس ما هو فيه . لذلك يخاطبه الكتاب قائلاً « إنها الآن ساعة لنستيقظ من النوم » (رو ١٣ : ١١) .

ولعله بهذا المعنى اعتبرت التوبة هى **رجوع الإنسان إلى نفسه** .

أو هى رجوع النفس إلى حساسيتها الأولى ، ورجوع القلب إلى حرارته ، ورجوع الضمير إلى عمله . وحسناً قيل عن الإبن الضال فى توبته « فرجع إلى نفسه » (لو ١٥ : ١٧) . أى أنه عاد إلى وعيه ، وإلى تفكيره السليم ، وإلى إدراكه الروحى .

---

(١) أنظر كتاب (الرجوع إلى الله) ، وكتاب (اليقظة الروحية) . فكل موضوعاتها مركزة على هذه النقط وحدها .

* ومادامت الخطية تعتبر موتاً روحياً ، كما يقول الكتاب عن الخطاة إنهم «أموات بالخطايا» (أف ٢ : ٥) ، **تكون التوبة إذن انتقالاً من الموت إلى الحياة** حسب تعبير القديس يوحنا الإنجيلي (١يو ٣ : ١٤) . وفى ذلك يقول القديس بولس الرسول «إستيقظ أيها النائم ، **وقم من الأموات ، فيضىء** لك المسيح» (أف ٥ : ١٤) . والقديس يعقوب الرسول يؤكد نفس المعنى إذ يقول «من رد خاطئاً عن طريق ضلاله ، يخلص نفساً من الموت ، ويستر كثرة من الخطايا» (يع ٥ : ٢٠) .

إن التوبة قيامة الروح ، لأن موت الروح هو انفصال الروح عن الله ، كما قال القديس أوغسطينوس ...

*** التوبة هى قلب جديد طاهر ، يمنحه الرب للخطاة ، يحبونه به .**

هى عمل إلهى يقوم به الرب فى داخل الإنسان ، حسب وعده الإلهى القائل «وأرش عليكم ماءً طاهراً ، فتطهرون من كل نجاساتكم ... وأعطيكم قلباً جديداً ، وأجعل روحاً جديدة فى داخلكم ... وأجعلكم تسلكون فى فرائضى ، وتحفظون أحكامى وتعملون بها» (حز ٣٦ : ٢٥-٢٧) .

*** التوبة هى التحرر من عبودية الخطية والشيطان ...**

ومن أغلال العادات الخاطئة ، ومن السير وراء الشهوات ...

ولا يمكن أن ننال هذه الحرية بدون عمل الرب فينا . ولذلك يقول الإنجيل «إن حرركم الإبن ، فبالحقيقة أنتم أحرار» (يو ٨ : ٣٦) . إنها حقاً حرية لأن «كل من يعمل الخطية هو عبد للخطية» (يو ٨ : ٣٤) .

نحصل على هذه الحرية ، إن كنا بالتوبة نثبت فى الحق ، وليس فى الباطل . والحق يحررنا (يو ٨ : ٣٢) .

*** التوبة إذن هى ترك الخطية ، ولكن من أجل محبة الله .**

ومن أجل محبة البر . لأنه ليس كل ترك للخطية يعتبر توبة . فقد يبعد الإنسان عن الخطية بسبب الخوف ، أو الخجل ، أو العجز ، أو المشغولية (مع بقاء محبتها فى القلب) ، أو بسبب أن الظروف غير متاحة . ولا تعتبر هذه توبة ...

أما التوبة الحقيقية ، فهى ترك الخطية عملاً وفكراً وقلباً ، حباً فى الله ووصاياه وملكوته ، وحرصاً من التائب على أبديته ...

* **التوبة الحقيقية هي ترك الخطية ، بلا رجعة .**

وهكذا تروى قصص القديسين الذين تابوا ، مثل القديس أوغسطينوس ، والقديس موسى الأسود ، والقديسات مريم القبطية وبيلاجية وتاييس وسارة... إن التوبة كانت فى حياة كل هؤلاء وغيرهم ، هى نقطة تحول نحو الله ، إستمرت مدى الحياة ، بلا رجعة إلى الخطية .

ويذكرنا هذا بقول القديس شيشوى «لا أتذكر أن الشياطين قد أطغونى فى خطية واحدة مرتين» ... ربما الخطية الأولى كانت عن طريق جهل ، أو تهاون ، أو ضعف ، أو عدم دراية بحيل الشياطين ، أو عدم حرص . أما بعد التوبة واليقظة ، فهناك كل التدقيق فى الحياة ، والإحتراس من الخطية .

أما الذى يترك الخطية ثم يعود إليها ، ثم يتركها ثم يعود ... فهذا لم يتب بعد . إنما هذه مجرد محاولة للتوبة ، كلما يقوم فيها الخاطىء تشده الخطية إلى أسفل . إن صك حريته لم يكتب بعد...

* **التوبة هى صرخة من الضمير ، وثورة على الماضى .**

إنها اشمئزاز من الخطية ، وندم شديد ، ورفض للحالة القديمة ، مع خجل وخزى منها . لذلك قيل عن التوبة إنها «قاضٍ لا يستحى» .

* **التوبة هى تغيير شامل لحياة الإنسان .**

ليست هى انفعالاً وقتياً نحو الله ، إنما هى تغيير جدى وجذرى فى حياة الإنسان ، فيه يشعر هو وكل من يعاشره أن حياته قد تغيرت ، وأفكاره تغيرت ، وكذلك مبادؤه وقيمه ونظرته إلى الحياة ، وطباعه وأسلوبه فى الحديث ، ومعاملاته للناس ، وعلاقته بالله . ونفسه أيضاً من الداخل قد تغيرت . وأصبح قلباً رافضاً للخطايا السابقة التى كان يحبها . ودخلت محبة الله إلى قلبه . وصار له منهج روحى يشعر فيه بلذة روحية .

ولهذا كله ، قيل بصدق عن التوبة :

* **التوبة هى استبدال شهوة بشهوة .**

هى شهوة للحياة مع الله ، بدلاً من شهوة الخطية والجسد .

وهنا لا تقتصر التوبة على الجانب السلبى ، الذى هو ترك الخطية ومحبتها ، إنما

تدخل من الناحية الإيجابية فى محبة الله وملكوته وطرقه...
إنها حرارة تسرى فى الإنسان ، وتشعله بالرغبة فى حياة طاهرة .
ولهذا قيل عن التوبة أيضاً :

*** التوبة تجديد للذهن .**

تجديد الطبيعة يكون فى المعمودية (رو ٦ : ٤) . أما تجديد الذهن فإنه يكون فى التوبة ، عملاً بقول الرسول «تغيروا عن شكلكم بتجديد أذهانكم ، لتختبروا ما هى إرادة الله الصالحة» (رو ١٢ : ٢) .

*** التوبة هى المفتاح الذهبى ، الذى يفتح به باب الملكوت .**

أو هى الباب الحقيق الموصل إلى السماء أو إلى الملكوت . لأنه بدون التوبة لا يملك الله فى قلوبنا... إن التوبة هى زيت فى مصابيح العذارى ، يجعلهن أهلاً للدخول إلى العرس (متى ٢٥) .

*** والتوبة هى القناة التى توصل إستحقاقات الدم من الصليب .**

إن الطريقة الوحيدة التى تمحى بها خطايانا بعد المعمودية . لذلك قال البعض عنها إنها «معمودية ثانية» ... إنها جحد للشيطان مرة أخرى . إنها فضّ للشركة التى بين الخاطىء والشيطان، ليدخل فى شركة مع الروح القدس (٢ كو ١٣ : ١٤) .

*** التوبة جمرة نار يلقطها أحد السارافيم من فوق المذبح .**

ويمحو بها إثم الخاطىء قائلاً له «قد انتزع إثمك ، وكُفِّر عن خطيئتك» (أش ٦ : ٧) . إنها الوسيلة الوحيدة التى تمحى بها خطايانا من كتاب دينونتنا... وما أجمل قول الرب فى ذلك : أنساها «لا أذكر خطيئتهم بعد» (أر ٣١ : ٣٤) .
ومن أهمية التوبة فى نوال المغفرة ، قول الرب «إن لم تتوبوا فجميعكم هكذا تهلكون» (لو١٣ : ٣) .

*** التوبة هى طريق الهروب من الغضب الآتى .**

على شرط أن تكون توبة حقيقية ، وأن تتناسب مع خطورة الخطية .
إن توبة أهل نينوى ، استطاعت أن توقف حكم الله عليهم بالهلاك . فلما تابوا رجع الله عن حكمه ، وعن الشر الذى أراد أن يفعله بهم فلم يفعله (يون ٣ : ١٠) .
وهكذا فى أحكام أخرى لله (أر ٢٦ : ١٣ ، خر ١٨ : ٢١ ، ٢٢) .

حقاً ما أجمل قول أحد القديسين : إن الله سوف لا يسألك : لماذا أخطأت ؟ إنما سيسألك : لماذا لم تتب ؟

*** التوبة إذن هى إبقاء الله عليك وعدم أخذك فى خطيتك .**

إن الله من عمق محبته ، أعطى الكل فرصاً للخلاص ، مهما كانت خطاياهم. فالله لا يأخذ أحداً فى وضع هالك ، قبل أن يعطيه فرصة ليتوب .

فالتوبة هى منحة إلهية وهبها الله للخطاة ، لكى تطهرهم ، وتريح ضمائرهم المثقلة بخطاياهم. وتعيد إليهم السلام الداخلى ، وتردهم إلى رتبتهم الأولى التى كانت لهم قبل الخطية.

*** إنها يد الله الممدودة ، يطلب أن يصالحك .**

إنها فرصة لصفحة جديدة ، يفتحها الله فى علاقته معك ، يغفر لك الماضى كله ، ويغسلك فتبيض أكثر من الثلج (مز ٥٠). فرصة تقوى فيك الرجاء ، وتبعد عنك اليأس مهما ساءت حالتك.

ولذلك قيل عن التوبة إنها باب الرحمة ، وإنها باب الغفران ، وإنها باب الحياة ، وإنها جسر يوصل بين الأرض والسماء.

هذا من جهة عمل الله فيها وما يقدمه من مغفرة. أما من جهة الإنسان فنقول عنها :

*** التوبة هى استجابة من الإنسان لدعوة الله إليه .**

إنها استجابة من الضمير ، لصوت الله فيه .

واستجابة من الإرادة ، لعمل النعمة معها .

إنها عدم مقاومة للروح الذى يعمل فينا لخلاصنا (أع ٧ : ٥١)، وعدم إحزان للروح (أف ٤ : ٣٠)، وعدم إطفاء للروح (١تس ٥ : ١٩).

*** سُئل مار اسحق عن التوبة ، فقال : هى قلب منسحق .**

إنها النفس المنسحقة الراجعة إلى الله . إنها الركب الجاثية ، والعيون الدامعة ، والقلوب المنكسرة. إنها أم الدموع والإنسحاق والإتضاع ، لأن التوبة تلد كل هؤلاء... تحطم كبرياء الخاطىء ، وتفتت قلبه الصخرى ، وتدخله إلى حياة الإتضاع.

قال مار اسحق أيضاً : ذبيحة التوبة التى نقدمها لله ، هى القلب الذى اتضع وانسحق ، وانكسر بدموع الصلاة أمام الله ، طالباً المغفرة عن ضعفه وميل طبيعته. أوليس هذا أيضاً ما قيل فى المزمور الخمسين ـ مزمور التوبة ـ «الذبيحة لله روح منسحق. القلب المتخشع والمتواضع لا يرذله الله».

*** قال الشيخ الروحانى : التوبة هى عذاب عظيم للشيطان مضادها .**

لأنها تخلص وتعتق المسبيين الذين سباهم بشره. وتعبه الذى تعبه فى سنين كثيرة ، تضيعه التوبة فى ساعة واحدة. زرع الشوك الذى زرعه بأرضنا ، وربى بحرص فى سنين كثيرة ، فى يوم واحد تحرقه وتطهر أرضنا .

إنها تجعل الزناة بتوليين .

من لا يحبك أيتها التوبة ـ يا حاملة جميع التطويبات ـ إلا الشيطان ، لأنك غنمت غناه ، وأضعت كل ما اقتناه .

يا أم الغفران ، إن الآب المملوء رحمة ، لا يغضبك إذا طلبت إليه ، لأنه وهبك أن تكونى **شفيعة للخطاة** ، وسلم لك مفاتيح الملكوت .

بعد أن زار يوحنا الدرجى دير التائبين ، ورأى إنسحاق نفوسهم بالتوبة ، وشدة جهادهم ، وحرارة صلواتهم ، قال :

طوّبت الذين أخطأوا وتابوا نائحين ، أكثر من الذين لم يسقطوا ولم ينوحوا على أنفسهم .

التوبة هى فرح فى السماء ، وعلى الأرض .

لأنه مكتوب « يكون فرح فى السماء بخاطىء واحد يتوب » (لو ١٥ : ٧ ، ١٠) . فإن أردت أن تفرح السماء ، تُب ...

وهى فرح على الأرض أيضاً : فرح للتائب وللراعى وللكنيسة كلها .

التوبة فرح لأنها دعوة للمأسورين بالإطلاق (أش ٦١ : ١) .

إنها فرح بالتحرر من عبودية الشيطان والخطية ، وفرح بلذة الحياة الجديدة النقية ، وفرح بالمغفرة ...

*** وفرح لأن التوبة هى حياة النصرة أو أنشودة الغالبين .**

فيها ينشد التائب مع داود « مبارك الرب الذى لم يسلمنا فريسة لأسنانهم ...

نجت أنفسنا مثل العصفور من فخ الصيادين. الفخ انكسر، ونحن نجونا» (مز ١٢٤: ٦، ٧).

على أن التوبة ليست هى الغاية فى الحياة الروحية ، وإنما :

*** التوبة هى بداية رحلة طويلة إلى حياة النقاوة .**

التوبة هى بداءة العلاقة مع الله . هى بداءة طريق طويل غايته القداسة والكمال. فالذى لم يبدأ التوبة حتى الآن، أى لم يبدأ أول الطريق، كيف تراه سيصل إذن إلى نهايته.

والذى يؤجل أول خطوة إلى حين الشيخوخة أو ساعة الموت ، كيف تراه يصل إلى قول الرب «كونوا أنتم كاملين، كما أن أباكم الذى فى السموات هو كامل» (متى ٥: ٤٨).

نمو التوبة وكمالها ..

التوبة كأية فضيلة ، ينمو فيها الإنسان ويتدرج .

ويظل ينمو حتى يصل إلى كمالها . فما هى نقطة البداية فى التوبة؟ هل هى ترك الخطية من أجل مخافة الله.

هناك نقطة قبل ترك الخطية ، وهى الرغبة فى التوبة .

لأن كثيرين لا يريدون أن يتوبوا . بل يجدون لذة فى الخطية تدعوهم للبقاء فيها. أو إن طباعهم جميلة فى أعينهم لا يريدون أن يغيروها... لذلك فمجرد الرغبة فى التوبة هى نقطة حسنة، تتلقفها النعمة التى تسأل: أتريد أن تبرأ؟ وتعمل عملها فى الإنسان. وتكون أول خطوة بعد ذلك هى ترك الخطية بالفعل.

لكن أهم من ترك الخطية بالفعل ، تركها بالقلب والفكر .

فهناك من يترك الخطية بالعمل . ولكن محبتها ماتزال فى قلبه، يحن إليها، ويندم على فرص معينة كان يمكنه فيها أن يخطىء ولم يفعل! مثل هذا الإنسان، ربما ترك الخطية من أجل وصية الله، وليس لأنه يكرهها...

المفروض أنه يتدرج فى التوبة حتى تنتزع الخطية من قلبه .

وكمال التوبة هو كراهية الخطية .

أى يصل إلى الوضع الذى يكره فيه الخطية من كل قلبه، ويشمئز منها، ولا يحتاج إلى بذل أى جهد فى مقاومتها، لأنها لم تعد تتفق وطبيعته. وهنا يصل الإنسان إلى حافة النقاوة. ونقاوة القلب موضوع طويل، سنفرد له فصلاً خاصاً فى الباب الرابع (علامات التوبة) ، أو ربما نخصص له الباب الخامس .

على أن ترك الخطية التى تتعب الإنسان ، أو البارزة فى حياته ، وكراهيتها... تأتى بعده درجة أخرى وهى :

ترك الخطايا التى تتكشف له بالنمو الروحى .

ذلك لأن الله من حنوه علينا ، لا يكشف لنا كل خطايانا وضعفاتنا دفعة واحدة حتى لا نقع فى صغر النفس. وإنما كلما نسمع عظات روحية، وكلما نقرأ فى كتاب الله وفى الكتب الروحية، تتكشف لنا ضعفات فى أنفسنا وتقصيرات تحتاج إلى علاج وإلى جهاد وإلى توبة .

وهكذا ندخل فى عملية تطهير وتنقية ، قد تستمر مدى الحياة .

لأن الشيطان قد يترك ميداناً ، ويحارب فى ميدان آخر .

والمفروض أن نكون مستعدين له فى كل الميادين . حتى الخطية التى نكون قد استرحنا منها فترة، قد يعاود القتال فيها . وبهذا تستمر التوبة معنا مدى الحياة...

كما أن التوبة ، لا يجوز أن تقتصر فقط على مكافحة السلبيات التى هى فعل الخطايا ، وإنما :

هناك توبة عن النقائص ، الخاصة بالنمو الروحى .

فالمفروض فى التائب أن يصنع ثماراً تليق بالتوبة (متى ٣ : ٨) . وبهذا يدخل فى ثمار الروح (غل ٥ : ٢٢) . فإن كان لا يأتى بثمر، فهو محتاج إلى توبة... إلى توبة عن خطية عدم الإثمار، لأن الكتاب يقول «من يعرف أن يعمل حسناً ولا يعمل، فتلك خطية له» (يع ٤ : ١٧) .

التوبة إذن ليست مرحلة وتنتهى ، إنما تستمر معنا .

لأنه ليس أحد بلا خطية ، ولو كانت حياته يوماً واحداً على الأرض. فكلنا نخطىء ونحتاج إلى توبة. وهكذا تصير التوبة بالنسبة إلينا عملاً يومياً ، لأننا فى كل

يوم نخطىء. و« إن قلنا إننا لم نخطىء ، نضل أنفسنا وليس الحق فينا » (١يو ١ : ٨) .

إنما هناك فرق بين توبة الخطاة وتوبة القديسين .

الخطاة يتوبون عن خطايا هى كسر صريح للوصايا ، وتدل على عدم محبة الله . أما القديسون فيتوبون عن تقصيرات طفيفة سببها الضعف البشرى . ويتوبون عن نقائص يشعرون بها لشهوتهم فى حياة الكمال التى يرون طريقه طويلاً أمامهم ، ومازالت أمامهم مراحل ليعبروها حتى يصلوا ، كل ذلك مع حفظ قلبهم فى محبة الله .

وقد وضعت لنا الكنيسة صلوات يومية نطلب فيها التوبة .

فى قطع الأجبية ومزاميرها كل يوم ، نلاحظ الصلوات الآتية :

١ - الإعتراف بالخطية واستحقاق العقوبة ، كما فى (مز ٦ ، ٥٠) ، وقطع الغروب .

٢ - طلب المغفرة ، كما فى قطع وتحليل السادسة ، وباقى الصلوات .

٣ - طلب إنقاذ الرب للمصلى من الخطية ذاتها ، كما فى تحليل الثالثة .

٤ - طلب إرشادات لمعرفة الطريق كما فى (مز ١١٩) ، وقطعة (تفضل يارب) .

٥ - لوم النفس وتبكيتها على سقوطها وتهاونها كما فى قطع النوم .

٦ - إيقاظ النفس للتوبة ، وتذكيرها بالموت والدينونة ومجىء المسيح الثانى ، كما فى قطع النوم ، وأناجيل وقطع نصف الليل .

هذا يدل على أننا نطلب التوبة كل يوم وكل ساعة .

وكمثال لذلك يقول المصلى فى قطع صلاة النوم « هوذا أنا عتيد أن أقف أمام الديان العادل مرعوب ومرتعب من أجل كثرة ذنوبى... فتوبى يا نفسى مادمت فى الأرض ساكنة » ، « أى جواب تجيبى وأنت على سرير الخطايا منطرحة ، وفى إخضاع الجسد متهاونة » ...

وفى صلاة الغروب « إذا كان الصديق بالجهد يخلص ، فأين أظهر أنا الخاطىء ؟ » . وفى صلاة نصف الليل « أعطنى يارب ينابيع دموع كثيرة ، كما أعطيت فى القديم للمرأة الخاطئة » .

وفى صلاة السادسة « مزق صك خطايانا أيها المسيح إلهنا ونجنا » .

وفى صلاة الثالثة « طهرنا من دنس الجسد والروح . وانقلنا إلى سيرة روحانية لكى نسعى بالروح ولا نكمل شهوة الجسد » .

و يعوزنا الوقت إن دخلنا فى تفاصيل التوبة فى صلوات الأجبية ، فهذا يحتاج إلى كتاب خاص .

بعد كل هذا ، هل يجرؤ أحد أن يقول إن التوبة مرحلة إجتزناها وانتهت ، ودخلنا فى السماو يات ، وفى طلب المواهب والمعجزات !!

الذى يظن أنه اجتاز مرحلة التوبة ، لم يفحص ذاته جيداً .

أو لم يفحص ذاته فى ضوء الوصايا ، و بروح الإتضاع ... من منا مثلاً وصل إلى محبة الأعداء ؟ (متى ٥ : ٤٤) . أو وصل أن يلهج فى ناموس الرب النهار والليل ؟ (مز ١) . أو من منا وصل إلى الصلاة كل حين دون أن يمل ؟ (لو ١٨ : ١)... الوصايا كثيرة ، ولم ننفذ منها شيئاً ... أخشى أن أتكلم عن التفاصيل ، فيقع البعض فى صغر النفس . فالصمت أفضل ...

إذن التوبة لازمة لكل منا ، وفى كل يوم من حياتنا .

ليت كل واحد منا يقرأ و يتأمل فى الدرجات الروحية التى وصل إليها القديسون ، ليعلم كيف هو خاطىء ! والأعجب أن القديسين الذين وصلوا إلى تلك الدرجات كانوا يقولون إنهم خطاة ومحتاجون إلى توبة ، وكانوا يبكون على خطاياهم ... ماذا نفعل نحن إذن ؟!

دعوة إلى التوبة ..

إن الله المحب للبشر ، بدافع من محبته لأولاده ، يدعوهم للتوبة .

ذلك لأنه « يريد أن الجميع يخلصون » (١ تى ٢ : ٤) . وهو لا يشاء أن يهلك أحد ، بل أن يقبل الجميع إلى التوبة (٢بط ٣ : ٩) . وهو من أجل خلاصهم مستعد أن يتغاضى عن أزمنة الجهل (أع ١٧ : ٣٠) . بل إنه يقول فى محبته العجيبة « هل مسرة أسر بموت الشرير ... إلا برجوعه ... فيحيا » (حز ١٨ : ٣) . هو يحبنا ، و يريدنا بالتوبة أن نتمتع بمحبته .

يريد بالتوبة أن يشركنا فى ملكوته ، ويمتعنا بمحبته .

إنها ليست مجرد أوامر يصدرها الله على أفواه أنبيائه القديسين، بل هى دعوة حب للخلاص «توبوا وارجعوا، لتمحى خطاياكم» (أع ٣: ١٩). «من رد خاطئاً عن طريق ضلاله يخلص نفساً من الموت، ويستر كثرة من الخطايا» (يع ٥: ٢٠). إذن هذا الأمر من أجلنا نحن ومن خلاصنا، الذى جعله يتجسد ويتألم لأجلنا، والذى لا نستطيع أن نناله إلا بالتوبة.

لذلك نرى فى دعوته لنا للتوبة ، مشاعر الحب ...

إذ يقول « إرجعوا إلىّ ، أرجع إليكم » (ملا ٣ : ٧) ، « توبوا وارجعوا » (حز ١٤: ٦)، «إرجعوا إلىّ بكل قلوبكم... إرجعوا إلى الرب إلهكم» (يوئيل ٢: ١٢، ١٣). ويقول فى محبته على لسان أرمياء النبى «أجعل شريعتى فى داخلهم، وأكتبها على قلوبهم. وأكون لهم إلهاً، وهم يكونون لى شعباً... أصفح عن إثمهم، ولا أذكر خطيتهم بعد» (أر ٣١: ٣٣، ٣٤).

وفى دعوته لنا للتوبة ، وعد بتطهيرنا وغسلنا .

إنه يقول « إغتسلوا ، تنقوا ، إعزلوا شر أفعالكم ... وهلم نتحاجج يقول الرب: إن كانت خطاياكم كالقرمز، تبيض كالثلج...» (أش ١: ١٦، ١٨). ويقول «أرش عليكم ماءً طاهراً فتطهرون. من كل نجاساتكم ومن كل أصنامكم أطهركم. وأعطيكم قلباً جديداً...» (حز ٣٦: ٢٥، ٢٦).

وهو يدعونا للتوبة ، لأننا نحن نحتاج إليها .

فهو يقول « ما جئت لأدين العالم ، بل لأخلص العالم » (يو ١٢: ٤٧)، «لا يحتاج الأصحاء إلى طبيب بل المرضى. لم آت لأدعو أبراراً بل خطاة إلى التوبة» (مر ٢: ١٧). نعم إن «إبن الإنسان جاء يطلب ويخلص ما قد هلك» (متى ١٨: ١١).

هذه التوبة إذن من صالحنا . وليست أمراً مفروضاً علينا .

ولنا نحن كامل الإختيار. الله يدعونا للتوبة ثم يقول «إن شئتم وسمعتم، تأكلون خير الأرض. وإن أبيتم وتمردتم، تؤكلون بالسيف» (أش ١: ١٩، ٢٠). والصالح لنا أن نسمع ونطيع، من أجل نقاوتنا، ومن أجل أبديتنا، ومن أجل أن نتمتع بالله.

هوذا الرسول يسمى دعوته لنا للتوبة « خدمة المصالحة » و ينادى «تصالحوا مع الله » (٢كو ٥ : ١٨، ٢٠) . فهل نحن نرفض أن نتصالح مع الله ؟! وهل من صالحنا رفض المصالحة ؟!

التوبة نافعة ، مهما كان أسلوبها ، باللين أو بالشدة .

ولهذا يقول القديس يهوذا الرسول «إرحموا البعض مميزين. وخلصوا البعض بالخوف، مختطفين من النار، مبغضين حتى الثوب المدنس من الجسد» (يه ٢٢، ٢٣).

كان القديس يوحنا المعمدان شديداً فى مناداته بالتوبة (متى ٣ : ٨-١٠) .

و يقول القديس بولس الرسول لأهل كورنثوس « الآن أنا أفرح ، لا لأنكم حزنتم، بل لأنكم حزنتم للتوبة » (٢كو ٧ : ٩) . ولذلك كان بعض القديسين فى عظاتهم يجعلون الناس يبكون، وكان ذلك نافعاً لهم. كما كانت عقوبات الكنيسة نافعة للتوبة وللخلاص...

لذلك كانت الدعوة للتوبة ، أهم موضوع فى الكتاب .

لكى يتنق الناس ، ولكى يخلصوا ... ولما كانت التوبة لازمة للخلاص، لذلك أرسل السيد المسيح قدامه يوحنا المعمدان، يهيىء الطريق أمامه بالتوبة، فنادى بالتوبة قائلاً «توبوا لأنه قد اقترب ملكوت السموات» (متى ٣: ٢). هذا الملكوت الذى لا يمكن أن تنالوه إلا بالتوبة. وقدم للناس معمودية التوبة...

وهكذا عمل التوبة سبق عمل الفداء . والمعمدان سبق المسيح .

والسيد المسيح نفسه نادى للناس بالتوبة « من ذلك الزمان ابتدأ يسوع يكرز قائلاً : توبوا لأنه قد اقترب ملكوت السموات » (متى ٤ : ١٧) . وكان يقول « قد كمل الزمان، واقترب ملكوت الله ، فتوبوا وآمنوا بالإنجيل» (مر ١ : ١٥) . ولما أرسل الإثنى عشر «خرجوا يكرزون أن يتوبوا » (مر ٦ : ١٢) . وقبيل صعوده أمر أن «يكرز باسمه للتوبة ومغفرة الخطايا لجميع الأمم مبتدأ من أورشليم» (لو ١٤ : ٤٧) .

كان أول كارز بالتوبة هو نوح . وتبعه أنبياء كثيرون .

مثل أشعياء (أش ١) ، وحزقيال (حز ١٨) ، و يونان (يون ٣)، و يوئيل

(يوء ٢)، وأرمياء (أر ٣١)... وهى أيضاً واضحة كل الوضوح فى أسفار العهد الجديد.

والدعوة إلى التوبة هى عمل جميع الرعاة والمعلمين والوعاظ ورجال الكهنوت وكل المرشدين الروحيين... وهى واضحة فى أقوال الآباء.

لقد اهتم الآباء جداً بالدعوة إلى التوبة :

قال **القديس الأنبا أنطونيوس** : أطلب التوبة فى كل لحظة.

وقال **القديس باسيليوس الكبير** : « جيد ألا تخطىء . وإن أخطأت، فجيد ألا تؤخر التوبة. وإن تبت، فجيد ألا تعود إلى الخطية. وإن لم تعد، فجيد أن تعرف أن هذا بمعونة من الله. وإن عرفت فجيد أن تشكره على ما أنت فيه ».

وقال **مار اسحق** : « فى كل وقت من هذه الأربع والعشرين ساعة من اليوم، نحن محتاجون إلى التوبة ». وقال أيضاً «كل يوم لا تجلس فيه ساعة بينك وبين نفسك، وتتفكر بأى الأشياء أخطأت، وبأى أمر سقطت، وتقوم ذاتك فيه... لا تحسبه من عدد أيام حياتك ».

إن الدعوة إلى التوبة لازمة للكل . ومما يستلفت النظر:

إن الدعوة للتوبة ، وجهت حق إلى ملائكة الكنائس السبع.

فالرب يقول لملاك كنيسة أفسس « أذكر من أين سقطت وتب » (رؤ ٢ : ٥).

وكلمة « تب » يقولها أيضاً لملاك كنيسة برجامس (رؤ ٢ : ١٦)، وملاك كنيسة ساردس (رؤ ٣ : ٣)، ولملاك كنيسة لاودكية (رؤ ٣ : ١٩). وقد أرسل الله ناثان النبي لينادى بالتوبة إلى داود النبى مسيح الرب...

إن دعوة الله بالتوبة تحمل شعور الإشفاق على أولاده .

فهو يريد الذين ضلوا أن يرجعوا إليه ، ليكون لهم نصيب فى الملكوت وفى ميراث القديسين، وفى شركة الكنيسة. لأن السلوك الخاطىء يمنع شركتنا بالله (١يو ١ : ٦)، ويمنع شركتنا مع بعضنا البعض «ولكن إن سلكنا فى النور، كما هو فى النور، فلنا شركة مع بعضنا البعض. ودم يسوع المسيح إبنه يطهرنا من كل خطية» (١يو ١ : ٧).

والله يقبل التائبين . وأمثلة ذلك كثيرة فى الكتاب :

لقد قبل الإبن الضال فى سوء حالته (لو ١٥) . وقبل المرأة السامرية التى كان لها أكثر من خمسة أزواج (يو ٤). وقبل اللص اليمين على الصليب (لو ٢٣ : ٤٣) . وصلى من أجل صالبيه لتغفر لهم خطيتهم (لو ٢٣ : ٣٤) . وقبل زكا رئيس العشارين (لو ١٩ : ٩) . ومنحه الخلاص هو وأهل بيته . وقبل متى العشار وجعله رسولاً من الإثنى عشر (متى ١٠ : ٣). ويكفى قوله :

من يقبل إلىّ ، لا أخرجه خارجاً (يو ٦ : ٣٧) .

بل أكثر من هذا ، أن الرب هو الذى يقف على الباب ويقرع منتظراً من يفتح له (رؤ ٣ : ٢٠). فإن كان يفعل هذا ، فبالحرى يفتح لمن يقرع أبواب رحمته الإلهية .

ومن جهة مراحم الرب على الخطاة ، صدق من قال :

إن مراحم الرب أقوى من كل دنس الخطية .

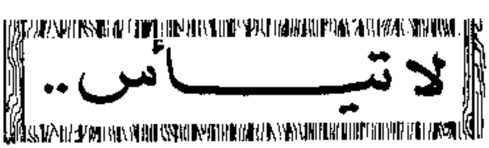
إن أبشع الخطايا وأكثرها ـ بالنسبة إلى مراحم الله ـ كأنها قطعة طين قد ألقيتها فى المحيط ... إنها لا تعكر المحيط ، بل يأخذها ويفرشها فى أعماقه ، ويقدم لك ماءً رائقاً . وقبول الله للتوبة ، إنما يكشف عن أعماق محبته الإلهية .

لذلك لا نستكثر خطيتنا على فاعلية دمه ...

ولا نستكثرها على عظم محبته وعظم رحمته .

وقد قال أحد الشيوخ القديسين : لا توجد خطية تغلب محبة الله للبشر . إنه هو الذى يبرر الفاجر (رو ٤ : ٥) .

أقول هذا حتى لا ييأس الخطاة إذا نظروا إلى خطاياهم .



فى هذه النقطة أتذكر خطاباً وصلنى من أحد الشبان منذ ٢٢ عاماً .

قرأته فتأثرت كثيراً ، لدرجة أننى بكيت ... ثم أرسلت له رداً ، أذكر أننى قلت له فى مقدمته « وصلنى خطابك يا أخى المحبوب ، ويخيل إلىّ أننى قرأته مراراً قبل أن أراه ... إنه صورة حياة أعرفها ، وقصة قلوب كثيرة ... » .

نعم ، إنها حرب تتعب كثيرين . أفكارها معروفة ، تتكرر فى اعترافات الناس وفى أسئلتهم الروحية . وسنحاول أن نتناول هنا كل فكر منها ، لنرد عليه .

١ - الشكوى الأولى : أنا يئست . لا فائدة منى .

إعلم يا أخى أن كل أفكار اليأس هى محاربة من الشيطان .

إنه يريدك أن تيأس من التوبة ، سواء من إمكانيتها أو من قبولها ، حتى تشعر أنه لا فائدة من الجهاد ، فتستسلم للخطية ، وتستمر فيها وتهلك نفسك...

فلا تسمع للشيطان فى شىء مما يقوله لك . وكلما تحاربك فكرة من أفكار اليأس ، ردّ عليها بقول ميخا النبى :

لا تشمتى بى يا عدوتى ، فإنى إن سقطت أقوم (مى ٧ : ٨) .

واعلم أن اليأس من التوبة ، هو أكثر خطورة من السقوط فى الخطية . وباليأس مات يهوذا هالكاً . واليأس يقود إلى الإندماج فى الخطية بالأكثر ، فيتدرج الخاطىء من سىء إلى أسوأ . وربما فى اليأس يحاربه الشيطان بأن يبعد عن أب اعترافه ، وعن كل إرشاد روحى وعن الكنيسة كلها... لكى ينفرد به بلا معونة !!

إن حرب اليأس حورب بها الأنبياء والقديسون . فقال داود النبى :

كثيرون يقولون لنفسى : ليس له خلاص بإلهه (مز ٣) .

ولكنه يرد على هذا فيقول « أنت يارب هو ناصرى ، مجدى ورافع رأسى... » .

إن داود لم ييأس من سقطته ، بل بكى عليها وتاب . ورده الله إلى رتبته الأولى . بل كان الله يفعل خيرات كثيرة مع عديدين ، وهو يقول « من أجل داود عبدى » (١مل ١١ : ٣٢ ، ٣٤ ، ٣٦) .

فلا تيأس إذن ، وتذكر الذين تابوا من قبل ...

وإن كنت قد يئست من نفسك ، فإن الله لم ييأس من خلاصك .

لقد خلّص كثيرين ، ولست أنت أصعب منهم جميعاً . وحيث تعمل النعمة فلا مجال لليأس . تقدم إذن إلى التوبة بقلب شجاع ، ولا تصغر نفسك .

٢ - يقول : كيف أتوب ، وأنا عاجز تماماً عن القيام من سقطتى ؟

لا تخف . الله هو الذى سيحارب عنك . والحرب للرب (١ صم ١٧ : ٤٧) . ولا تهم مقاومتك ، ضعيفة أم قوية . فالله قادر أن يخلص بالكثير أو بالقليل... إن

الله أقوى من الشيطان الذى يحاربك ، وسيطرده عنك . فلا تنظر إذن إلى قوتك ، إنما إلى قوة الله .

واصرخ وقل : توبنى يارب فأتوب (أر ٣١ : ١٨) .

وإن كنت عاجزاً عن أن تقيم نفسك ، فالرب قادر أن يقيمك . إنه هو الذى « يقيم الساقطين ، ويحل المقيدين » (مز ١٤٥) ، « رجاء من ليس له رجاء ومعين من ليس له معين » . كن كالجريح الذى كان ملقى على الطريق بين حى وميت ، عاجزاً عن أن يقوم . ولكن السامرى الصالح أتاه وأقامه (لو ١٠ : ٣٠)... أو كن كالموتى الذين أقامهم الرب ، ولا قدرة لهم ولا حياة .

٣ - تقول : حالتى رديئة جداً ، وفاقدة الأمل ...

أتراها فاقدة الأمل ، أكثر من العاقر التى قال لها الرب « ترنمى أيتها العاقر التى لم تلد ... » (أش ٥٤ : ١) . وأعطاها أكثر من ذات البنين ؟! إن حالتك قد تكون فاقدة الأمل من وجهة نظرك أنت . أما الله فله رجاء فيك . لا تجعل أملك إذن فى نوعية حالتك ، إنما فى غنى الله الذى يعطى بسخاء ، وفى حبه وفى قدرته .

٤ - تقول : ولكننى لا أريد التوبة ، ولا أسعى إليها .

طبعاً ، هذا أسوأ ما فى حالتك . ومع ذلك فلا تيأس . يكفى أن الله يسعى لخلاصك . وهو يريد لك أن تخلص . وصلوات قديسين كثيرين ترفع من أجلك ، مع تشفعات ملائكة . والله قادر أن يجعلك تريد هذه التوبة . وتذكر قول الرسول « لأن الله هو العامل فيكم أن تريدوا وأن تعملوا لأجل المسرة » (فى ٢ : ١٣) .
صلّ وقل : أعطنى يارب الرغبة فى أن أتوب ...

إن الخروف الضال لم يبحث كيف يرجع ، ولكن صاحبه بحث عنه وأرجعه إليه . وكذلك كان الحال مع الدرهم المفقود (لو١٥) .

٥ - تقول : هل من المعقول أن أعيش طول عمرى بعيداً عن الخطية ، بينما قلبى يحبها ؟! لو تبت عنها ، سأرجع إليها !

إن المغالطة التى يلقيك بها الشيطان فى اليأس ، هى أنك ستعيش فى التوبة بنفس هذا القلب الذى يحب الخطية ! كلا ، فسيعطيك الرب قلباً جديداً (حز ٣٦ : ٢٦) . وسينزع منك محبة الخطية . وحينئذ لن تفكر أن ترجع إليها . بل على

العكس، إن الله سيجعلك فى توبتك تكره الخطية وتشمئز منها. شعورك الحالى سيتغير...

٦ - تقول : حتى إن تبت ، ستبقى أفكارى ملوثة بصور قديمة .

لا تخف . فى التوبة سينقى الله فكرك . وتصل إلى «تجديد الذهن» الذى قال عنه الرسول (رو ١٢ : ٢)... كم كانت الصور الرديئة التى فى ذاكرة أوغسطينوس، وفى ذاكرة مريم القبطية! ولكن الرب محاها، ليتقدس الفكر بمحبته...

وثق أن الذين عادوا للتوبة، كانوا فى حالة أقوى. بل كثير منهم منحهم الرب مواهب ومعجزات مثل يعقوب المجاهد، ومريم إبنة أخى إبراهيم المتوحد، ومريم القبطية...

والتائب محبته أكثر، كالخاطئة التى أحبت كثيراً، لأنه غفر لها الكثير (لو ٧ : ٤٧). وداود فى توبته كان أعمق حباً واتضاعاً.

٧ - تقول : وهل يغفر الرب لى ؟ وهل يقبلنى ؟

إطمئن ، فإنه يقول « من يقبل إلىّ ، لا أخرجه خارجاً » (يو ٦ : ٣٧). وقد قال داود النبى «لم يصنع معنا حسب خطايانا، ولم يجازنا حسب آثامنا... كبعد المشرق عن المغرب، أبعد عنا معاصينا. لأنه يعرف جبلتنا، يذكرنا أننا تراب نحن» (مز١٠٣).

إنه لا يقبلنا فقط ، بل يغسلنا فنبيض أكثر من الثلج (مز ٥٠). ولا يعود يذكر لنا خطايانا (أر ٣١ : ٣٤، حز ٣٣ : ١٦، عب ٨ : ١٢).

تذكر أن نفسك غالية عند الرب ، من أجلها تجسد وصلب .

٨ - تقول : ولكن خطاياى بشعة جداً ...

أجيبك بقول الكتاب « كل خطية وكل تجديف يغفر للناس » (متى ١٢ : ٣١). حتى الذين تركوا الإيمان ورجعوا إليه، غفر لهم. وكذلك الذين وقعوا فى بدع وهرطقات وتابوا، غفرت لهم. وبطرس الذى أنكر المسيح وسب ولعن وقال لا أعرف الرجل، غفر له. وليس هذا فقط، بل أعيد إلى درجة الرسولية والرعاية.

حتى الذين كانوا فى موضع القدوة ، مثل هرون رئيس الكهنة الذى اشترك مع بنى إسرائيل فى صنع العجل الذهبى ليعبدوه (خر ٣٢ : ٢ - ٥)، لما تاب غفرت

له . وهوشع الكاهن العظيم ، إنتهر الرب من أجله الشيطان ، وألبسه ثياباً جديدة (زك ٣ : ١-٤) .

٩ ـ تقول : ولكنى تأخرت كثيراً . فهل هناك فرصة ؟

هكذا قال أوغسطينوس فى اعترافاته « تأخرت كثيراً فى حبك » . والرب قبله . إنه قبل أصحاب الساعة الحادية عشرة ، وكافأهم بنفس المكافأة (متى ٢٠ : ٩) . وقد قبل اللص اليمين على الصليب ، فى آخر ساعات حياته . وطالما نحن فى الجسد ، هناك فرصة للتوبة . لذلك نقول فى صلاة النوم «توبى يا نفسى مادمت فى الأرض ساكنة ...» . لأن الرجاء فى التوبة لا يتبدد إلا فى الهاوية ، حيث قال أبونا إبراهيم للغنى « بيننا وبينكم هوة عظيمة » (لو ١٦ : ٢٦) .

فما دمت فى الجسد ، أمامك فرصة للتوبة ، فانتهزها .

١٠ ـ تقول أخشى أن تكون خطيتى تجديفاً على الروح القدس .

أقول لك إن التجديف على الروح القدس ، هو الرفض الكامل الدائم مدى الحياة لكل عمل للروح القدس فى القلب ، فلا تكون توبة ، وبالتالى لا تكون مغفرة . ولكن إذا تبت ، تكون قد استجبت لعمل الروح فيك . ولا تكون خطيتك تجديفاً على الروح (١) .

التوبة بين الجهاد والنعمة ..

إن كلامنا عن عمل الله فى التوبة ، ومعونة النعمة ، لا تعنى أن يتكاسل الإنسان ويتراخى ، منتظراً أن الله يقيمه ، فهوذا الرسول يوبخ أمثال هؤلاء قائلاً :

لم تقاوموا بعد حتى الدم ، مجاهدين ضد الخطية (عب ١٢ : ٤) .

إذن من المفروض أن يقاوم الإنسان حتى الدم كل أفكار الخطية ، وكل شهواتها ، وكل طرقها ، ويبعد عن العثرات ، ويستخدم كل الوسائط الروحية التى تثبت محبة الله فى قلبه . وأيضاً ...

(١) أنظر كتابنا (سنوات مع أسئلة الناس) من ص ٢١ - ص ٢٣ .

يدخل فى حرب روحية ، ضد أجناد الشر (أف ٦) .

وفى هذه الحرب يقاتل ويصمد ، ولا يستسلم للعدو ، ويلبس سلاح الله الكامل لكى يقدر أن يثبت ضد مكايد إبليس (أف ٦ : ١١). ويكون فى كل ذلك ساهراً على خلاص نفسه (أف ٦ : ١٨). فالرسول يقول : إصحوا واسهروا ، لأن إبليس خصمكم كأسد زائر.

فقاوموه راسخين فى الإيمان (١ بط ٥ : ٨ ، ٩) .

إن الله يريد منك أن تقاوم ... وفى مقاومتك سوف تسندك النعمة بكل قوة. ولكن إظهر محبتك لله بمقاومتك الخطية. وصلّ ليعطيك الرب قوة على مقاومتها .

وهكذا تشترك مع الله فى العمل .

الإبن الضال لم ينتظر حتى يأتيه الآب فى الكورة البعيدة ليأخذه منها ، إنما رجع إلى نفسه ، وشعر بسوء حالته ، وعرف الحل ، ونفذ ، ورجع إلى الآب فقبله (لو ١٥). وأهل نينوى صاموا ، وتذللوا ، وجلسوا على الرماد ، وصرخوا إلى الله بشدة ، ورجعوا عن أفعالهم ، فقبلهم الله إليه (يون٣) .

والله ، لكى ينبهنا إلى واجبنا فى التوبة ، يقول :

« إرجعوا إلىّ ، فأرجع إليكم » (ملا ٣ : ٧) .

ويقول على لسان أشعياء النبى «إغتسلوا ، تنقوا ، إعزلوا شر أفعالكم... وهلم نتحاجج يقول الرب...» (أش ١ : ٦). ويقول فى سفر يوئيل النبى «إرجعوا إلىّ بكل قلوبكم ، وبالصوم والبكاء والنوح. ومزقوا قلوبكم لا ثيابكم...» (يوء ٢ : ١٢ ، ١٣).

إذن هناك واجب على الإنسان يقوم به فى عمل التوبة .

ولا يكتفى بأن يلقى نفسه عند قدمى الرب ، دون جهاد فى الداخل والخارج ! أو كما يقول البعض «عملك الوحيد هو مجرد تقبل عمل النعمة فيك» ! هل هذا الرأى يتفق مع توبيخ الرسول «لم تقاوموا بعد حتى الدم ، مجاهدين ضد الخطية» (عب ١٢ : ٤) ؟!

إذن فلنجاهد . ولكن لا نعتمد على أنفسنا ، بل نطلب يد الله العاملة معنا . وبجهادنا نثبت رغبتنا فى التوبة ، وجدية توبتنا .

أهـــمية التـــوبة ..

أهم ما فى التوبة ، أنه بدونها لا يتم الخلاص .

يقول الرب « إن لم تتوبوا ، فجميعكم كذلك تهلكون » (لو ١٣ : ٣) . وقد «أعطى الله الأمم التوبة للحياة» (أع ١١ : ١٨) .

وقد يقول البعض إن السيد المسيح قدم لنا دمه للخلاص والمغفرة . فما لزوم التوبة إذن؟ ألا يكفى دم المسيح؟ فنجيبه :

إن التوبة هى التى تنقل إستحقاقات دم المسيح فى المغفرة .

فالخلاص مقدم للكل . ودم المسيح كافٍ للكل . ولكن لا ينال منه إلا التائبون . حقاً إن دم المسيح «يطهرنا من كل خطية » ... ولكنه لا يطهرنا إلا من كل خطية نتوب عنها . وقد اشترط الرسول لهذا التطهير أمرين وهما «إن سلكنا فى النور» (١يو ١ : ٧) ، وأيضاً «إن اعترفنا بخطايانا » (١يو ١ : ٩) . وهذان الشرطان متعلقان بحياة التوبة ...

ولذلك فالتوبة تسبق المعمودية ، إذ فيها مغفرة للخطايا .

وفى هذا قال بطرس الرسول لليهود يوم الخمسين «توبوا وليعتمد كل منكم على إسم يسوع المسيح لمغفرة الخطايا» (أع ٢ : ٣٨) . والكنيسة فى معمودية الكبار تشترط الإيمان والتوبة والإعتراف . وقوانين الكنيسة تمنع عماد غير التائبين . أما بالنسبة للصغار ، فيكتفى بطقس (جحد الشيطان) لينوب عن التوبة .

ومن أهمية التوبة ، إنها تلازم الإيمان أو تسبقه .

وقال القديس مرقس الإنجيلى أن السيد المسيح كان يكرز قائلاً «قد كمل الزمان ، واقترب ملكوت الله . فتوبوا وآمنوا بالإنجيل» (مر ١ : ١٥) . والإيمان بدون توبة لا يخلص أحداً ، لأن عدم التوبة يهلك الإنسان (لو ١٣ : ٣) .

والتوبة تسبق التناول من الأسرار المقدسة .

فى العهد القديم قال صموئيل النبى « تقدسوا وتعالوا معى إلى الذبيحة» (١صم ١٦ : ٥) . وفى العهد الجديد يقول القديس بولس الرسول «... ليمتحن

الإنسان نفسه، وهكذا يأكل من الخبز ويشرب من الكأس. لأن الذى يأكل ويشرب بدون استحقاق، يأكل ويشرب دينونة لنفسه، غير مميز جسد الرب... لأننا لو حكمنا على أنفسنا، لما حُكم علينا» (١كو ١١: ٢٧-٣١).

والتوبة تسبق جميع أسرار الكنيسة المقدسة.

وذلك لكى يستحق الإنسان فاعلية الروح القدس فيه. ولكى ينال مغفرة بالتوبة، تؤهله لنعمة الروح القدس العاملة فى الأسرار.

إن توبة الإبن الضال، سبقت دخوله بيت أبيه (لو ١٥).

والتوبة هى شرط لازم لمغفرة الخطايا.

وفى ذلك يقول القديس بطرس الرسول «فتوبوا وارجعوا لتمحى خطاياكم» (أع ٣: ١٩). وما أجمل قول مار اسحق «ليست خطية بلا مغفرة إلا التى بلا توبة». التوبة إذن لازمة قبل وبعد المعمودية. قبل المعمودية لتؤهل لنوالها. وبعد المعمودية لمغفرة الخطايا التى تحدث بعد المعمودية.

عوائق التوبة..

لا يوجد شىء يحاربه الشيطان أكثر من التوبة...

ذلك لأنها تضيع كل تعبه السابق. لذلك تبدو أحياناً صعبة على البعض. لأنه حينما يريد الإنسان أن يتوب، يضع الشيطان أمامه كل ما يمكن من العثرات والعراقيل التى تمنع أو تعطل توبته، ومنها:

١ - **العثرات**، سواء كانت إغراءات أو فرصاً لم تكن متاحة من قبل، حتى تضعف أمامها الإرادة. ويمكن أن تكون البيئة إحدى العوائق التى تعطل التوبة بما تقدمه من عثرات ومن مفاهيم خاطئة.

٢ - مقارنة الخاطىء نفسه بمستويات ضعيفة.

يظن مع هذه المستويات أنه فى حالة حسنة لا تحتاج إلى توبة، أو تقف أمامه الأعذار، كأن يقول «كل الناس هكذا... فهل أشذ عن الكل؟!». طبعاً ليس عذراً أن تكون الغالبية مخطئة. فقد كان نوح محتفظاً ببره فى عالم كله شر. وكذلك كان يوسف الصديق وموسى النبى فى أرض مصر، ولوط فى سدوم.

٣ ـ ضعف الشخصية ، بحيث يمكن أن تنقاد للوسط المحيط .

والمفروض أن تكون للإنسان شخصيته الثابتة التى لا تنجرف مع الإتجاه العام. إن سمكة صغيرة يمكن أن تقاوم التيار وتسير عكسه ، لأن فيها حياة. بينما كتلة ضخمة من الخشب ـ قدر هذه السمكة مئات المرات ـ يمكن أن يجرفها التيار، لأنه لا إرادة لها. فكن قوى الشخصية ليمكنك أن تتوب. والرسول يقول «لا تشاكلوا هذا الدهر» (رو١٢ : ٢).

٤ ـ التأجيل : إن الشيطان لا يحاربك حرباً مكشوفة بالإمتناع عن التوبة، بل يدعوك إلى التأجيل بتقديم إغراءات معينة.

وللتأجيل خطورات منها : إن فرص التوبة قد تفلت . وكذلك فإن الخطية كلما استمرت ، تاخذ سلطاناً وتثبت أقدامها . وربما بالتأجيل مجرد الرغبة فى التوبة لا توجد ، والتأثيرات الروحية التى تدفع إليها قد تفقد مفعولها.

٥ ـ اليأس : والشعور بأن التوبة صعبة وغير ممكنة . وكما يقول يوحنا الدرجى : إن الشياطين ـ قبل السقطة ـ يقولون لك إن الله رؤوف ورحيم . أما بعد السقطة فيقولون إنه ديان عادل ، ويخوفونك لتيأس من مغفرة الله فلا تتوب . وقد تحدثنا فى الصفحات السابقة عن عائق اليأس وعلاجه.

٦ ـ البر الذاتى ، الذى فيه لا يشعر الإنسان أنه مخطىء .

التوبة هى تغيير حياة بحياة . والذى حياته جميلة فى عينيه ، كيف يغيرها ؟! إنه إن لم يشعر بسوء حالته ، فلا يمكن أن يتوب و يغير حياته.

كذلك لا يتوب ، من لا يبكت نفسه ، ومن يرفض تبكيت الآخرين .

ومن يظن أنه دائماً على حق ، وأن عبارات (توبوا ، وارجعوا) هى موجهة إلى غيره. وكذلك من يترك أذنيه لسماع كلام المديح و يصدقه ، ومن يفسر وصايا الله حسب هواه ، و يرفض أن يتبكت ضميره بسببها.

التوبة سهلة للمتواضعين . وصعبة على الأبرار فى أعين أنفسهم .

إنها سهلة للعشار المنسحق الشاعر بخطاياه ، وصعبة على الفريسى الذى يفتخر فى صلاته قائلاً : أشكرك يارب إنى لست مثل سائر الناس الظالمين الخاطفين الزناة... التوبة سهلة للمرأة الخاطئة التى بللت قدمى المسيح بدموعها . وصعبة على سمعان الفريسى الذى ظن أنه ليس خاطئاً مثلها . ولذلك حسناً أن الرب أظهر له

أنه هو وهى مديونان. ولكنه ليس له نفس حبها، إذ يرى دينه أقل بكثير (لو٧).

التوبة سهلة على الذين يعرفون أنهم خطاة، و يعترفون أنهم خطاة.

أما الأبرار فى أعين أنفسهم، فعلى أى شىء يتوبون ؟! مادام لا يعترفون بأنهم أخطأوا فى شىء! حقاً: لا يحتاج (الأصحاء) إلى طبيب، أى الذين يظنون فى أنفسهم أنهم أصحاء... !

هؤلاء، حتى إن جابهم أحد بخطية، إما أن ينكروها، أو يفسروها تفسيراً ملتوياً، أو يحملوا مسئوليتها على غيرهم، أو يجادلوا و يبرروا أنفسهم... ولكنهم لا يعترفون بخطأ، وبالتالى لا يتوبون...

ربما الذين يقفون أمام الناس كقدوة لهم، من الصعب أن يقولوا إنهم محتاجون إلى توبة. ليت هؤلاء يكونون أيضاً قدوة للناس فى الإعتراف بالخطأ وبالإحتياج إلى توبة. لذلك نقول إن التوبة قد تكون سهلة للموعوظ، وصعبة على الواعظ والخادم والمرشد ومن فى مستواهم.

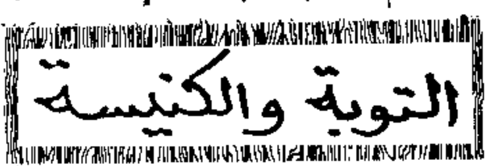
٧ - من عوائق التوبة أيضاً عدم وجود مخافة الله فى القلب.

وكما قال مار اسحق: حيث لا توجد المخافة، لا توجد التوبة أيضاً.

البعض ينفرون من المخافة باسم المحبة. ولبعدهم عن المخافة يقعون فى اللامبالاة، و يسقطون فى خطايا. وبهذه الخطايا يبرهنون على أنه ليست لهم المحبة التى تطرح المخافة إلى خارج (١يو ٤: ١٨).

مخافة الله تشعر الإنسان بخطاياه، فتدفعه إلى التوبة ...

وسنقدم لك عنها كتاباً خاصاً إن شاء الله.



الكنيسة لها عمل كبير فى توبة كل إنسان: يدخل فى نطاقه عمل التعليم والإرشاد، وعمل الرعاية والإفتقاد، ونقل أعمال الروح القدس وعطاياه من أجل خلاص كل أحد، ونقل استحقاقات الدم الكريم.

فالكنيسة هى التى تدعو الخطاة إلى التوبة.

هى التى تقوم بما أسماه القديس بولس الرسول « خدمة المصالحة » و« كلمة المصالحة » تنادى الخطاة أن «تصالحوا مع الله » (٢ كو ٥ : ١٨ - ٢٠) . وذلك عن طريق الوعظ والتعليم ، وتقدم كلمة الله للناس ...

وربما لولا عمل الكنيسة هذا ما تاب أحد .

والكنيسة تدعو إلى التوبة فى كل ما تقوم به من أعمال الرعاية .

بزيارة الناس ، وحل مشاكلهم بكل أنواعها ، الروحية والإجتماعية ... كأب حنون يهتم بأولاده ، ويقربهم إلى أبوة الله .

والكنيسة هى الوسط الروحى الذى يساعد على حياة التوبة .

بعيداً عن أوساط العالم المملوءة بالعثرات ، بحيث أن كل من يتوب يجد الكنيسة البيئة الصالحة التى يحيا فيها حياة روحية . وربما لولا الكنيسة ، لكان كل شعور روحى ينبت فى الإنسان تخنقه أشواك العالم فيذبل ويجف .

والكنيسة تقدم للتائب سر الإعتراف وتمنحه الحل والمغفرة .

وفى سر الإعتراف يشرح التائب كل ما فى قلبه ، وتستريح نفسه من أسراره المكبوتة ، ويقدم إلى الله كل ضعفاته وسقطاته فى سمع الكاهن ، لينال عنه حِلاً من الله ، من فم الكاهن .

وذلك بحكم السلطان الذى قال فيه الرب « من غفرتم له خطاياه ، غفرت له . ومن أمسكتموها عليه أمسكت » (يو ٢٠ : ٢٣) . وأيضاً بحكم قوله « كل ما تحلونه على الأرض يكون محلولاً فى السماء . وكل ما تربطونه على الأرض يكون مربوطاً فى السماء » (متى ١٨ : ١٨) .

وهكذا يخرج التائب من اعترافه ، وقد استراح ضميره .

إذ يكون قد سمع كلمة الحل والمغفرة من وكيل لله ، له سلطان أن يقولها ، حسب السلطان المعطى له من الله .

وهكذا يملك السلام على قلبه ، ويبدأ بدءاً جديداً .

والكنيسة فى سر الإعتراف تعطى الإرشاد الروحى .

حسبما قال الكتاب إنه من فم الكاهن تطلب الشريعة (حج ٢ : ١١) ، وهكذا

يشرح الأب لإبنه فى الإعتراف الطريق الروحى السليم الذى يسير فيه، لأنه لا يوجد أحد يستغنى عن المشورة، والكتاب يقول « هناك طريق تبدو للإنسان مستقيمة، وعاقبتها طرق الموت (أم ١٤ : ١٢)، كما يقول «على فهمك لا تعتمد» (أم ٣ : ٥).

وفى الكنيسة يجد التائب القلب الذى يأتمنه على أسراره.

فالأسرار الشخصية الخاصة بحياة الإنسان الروحية ، والتى تشمل سقطاته وضعفاته، لا يستطيع أن يأتمن عليها كل أحد. وربما لا يستطيع كتمانها تماماً لأن هذا الكبت قد يتعبه. ولكن عند الأب الكاهن يجد ضمان السرية، ويجد الحلول الروحية، ويجد اليد المخلصة التى تقوده فى حب وفى إخلاص.

والكنيسة تقدم للتائب كل بركات سر الأفخارستيا .

هذا السر العظيم الذى قال عنه الرب « من يأكل جسدى ويشرب دمى يثبت فىّ وأنا فيه» و«يحيا بى» (يو ٦ : ٥٦ ، ٥٧). وخارج الكنيسة لا يجد بركة هذا السر العظيم الذى يعينه فى توبته، ويغذيه روحياً، والذى «يعطى عنا خلاصاً، وغفراناً للخطايا، وحياة أبدية لكل من يتناول منه» (يو٦ : ٥٤).

ولكن لعل إنساناً يقول : مادامت التوبة تؤدى إلى المغفرة ، فما حاجتى إلى الكنيسة، وإلى الإعتراف والتناول والتحليل؟ فنجيبه :

بالتوبة تستحق المغفرة ، وبالإعتراف والتناول تنالها .

وفرق بين استحقاق المغفرة ونوال النعمة .

كما أن التوبة تشمل فى داخلها الإعتراف أيضاً. والتحليل جزء من سر التوبة. والتناول امتداد لفاعلية ذبيحة المسيح.

يقول : إن تبت ومت قبل قراءة التحليل ، فما مصيرى ؟

إن مت هكذا يرحمك الله . والتحليل يقرأ عليك فى صلاة الجناز.



الباب الثاني

دوافع التوبة

الفصل الأول : إن عرفت من أنت ، تسمو عن الخطية ..

الفصل الثاني : إن عرفت ما هي الخطية تهرب من الخطية ..

الفصل الثالث : إن عرفت نتائج الخطية ، تنفر من الخطية ..

الفصل الرابع : إن عرفت عقوبة الخطية ، تخاف من الخطية ..

الفصل الخامس : دوافع أخرى للتوبة ..

الفصـــل الأول

نريد أن نجعل توبتنا مبنية على أساس سليم ،
وعلى فهم صحيح للحياة الروحية والعلاقة مع الله .
وأهم دافع لنا إلى التوبة هو أن نعرف قيمة أنفسنا ،
أن يعرف الواحد منا مقدار نفسه ، ومن يكون ...
فاعرف يا أخى نفسك : من أنت ؟

إن عرفت من أنت
تسمو عن الخطية

فلو عرفت المقدار العظيم الذى لك ، والمركز الكبير الذى تشغله ، لكنت تربأ بنفسك السامية أن تنزل إلى مستوى الخطية . وهكذا لا يمكن أن تسقط ...

فمن أنت ؟



أنت يا أخى لست حفنة من تراب كما يظن البعض ... أنت نفخة قدسية خرجت من فم الله وحلت فى التراب . وهكذا صرت « نفساً حية » (تك ٢ : ٧) . ولست مجرد تراب أو طين ... يليق بك إذن أن تغنى فى فرح وتقول :

مــــا أنــــا طين ولكن	أنــــا فى الطين سكنتُ
لست طيناً أنــــا روح	من فم الله خرجــت
وسأمضــــى راجعاً لله	أحيــــا حيث كنت

إن وجودك فى هذا التراب - أيها الأخ المبارك - هو مجرد فترة غربة قصيرة ، ترجع بعدها إلى الله ، وتثبت فيه إلى الأبد . فاعرف غربتك ، وعش كروح ، تسمو عن المادة والعالم وأعمال الجسد ...

أنت ـ يا أخي ـ صورة الله . فهكذا قال الكتاب في قصة الخلق « وقال الله نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا ... فخلق الله الإنسان على صورته . على صورة الله خلقه » (تك ١ : ٢٦ ، ٢٧) .

فإذا كنت أنت صورة الله وشبهه ، فكيف تخطىء ؟! هل إذا تدنست بالخطية تظل محتفظاً بصورتك الإلهية ؟! كلا ، طبعاً . إذ **لا يمكن أن يراك إنسان في النجاسة والسقوط ويقول « هذا صورة الله » ! ...**

لذلك فإن القديس أثناسيوس الرسولي في كتابه « تجسد الكلمة » ، يقرر أن الإنسان عندما سقط ، تشوه ، وفقد صورته الإلهية . وأتى السيد المسيح ليعيد إلينا صورتنا الأصلية ...

لو عرفت أيها الأخ أنك صورة الله ، لا يمكن أن تخطىء ...

ولو عرفت أنك إبن الله ، فلن تخطىء كذلك ، لأن الإبن يجب أن يشبه أباه ...

ما أسهل أن نفتخر افتخاراً باطلاً ونقول إننا أولاد الله ، وأعمالنا لا تدل على ذلك... كما كان اليهود يفتخرون باطلاً بأنهم أولاد ابراهيم ، وأخجل الرب كبرياءهم بقوله « لو كنتم أولاد ابراهيم ، لكنتم تعملون أعمال ابراهيم » (يو٨ : ٣٩) . فإن كان أولاد ابراهيم يجب أن يعملوا أعمال ابراهيم ، فكم يجب أن يكون أولاد الله الذين على صورته ومثاله ؟ ...

هل نحن نحيا كأولاد لله ، حتى ندعى أولاده ؟

ما أسهل أن نخاطب الله في صلواتنا قائلين « أبانا الذى في السموات » ، ونحن لا نسلك كبنين لذلك الأب السماوى !!

تذكر يا أخي باستمرار أنك إبن الله ، واسلك في حياة البر حتى تستحق أن تدعى إبناً لذلك البار ، واضعاً أمام عينيك قول الكتاب « إن علمتم أنه بار هو ، فاعلموا أن كل من يصنع البر مولود منه » (١يو٢ : ٢٩) .

إذن إن كنت لا تصنع البر ، فلست تستحق أن تدعى إبناً لله ...

أخاف أن تكون عبارة « أولاد الله » سبب تبكيت لنا ، ههنا وفى اليوم الأخير ... من أجل هذا يشرح لنا القديس يوحنا الرسول هذا الأمر فيقول « أيها الأولاد ، لا يضلكم أحد . من يفعل البر فهو بار كما أن ذاك بار. من يفعل الخطية فهو من إبليس ، لأن إبليس من البدء يخطىء » (١يو٣ : ٧ ، ٨) ، أى أن من يفعل الخطية ، هو إبن للشيطان ، هو من إبليس وليس من الله ... يا للهول !

ثم يسجل لنا الرسول قاعدة جوهرية يقول فيها :

« كل من هو مولود من الله لا يفعل الخطية ، لأن زرعه يثبت فيه . ولا يستطيع أن يخطىء لأنه مولود من الله » (١يو٣ : ٩) .

بهذا المقياس يمكنك أن تقيس أيها الأخ نفسك عندما تقول إنك إبن الله . وهكذا فإن الرسول يختم كلامه بقوله « بهذا أولاد الله ظاهرون ، وأولاد إبليس (ظاهرون) ... » (١يو٣ : ١٠) .

إن شعورك بأنك إبن لله ، يذكرك بالطبيعة السامية التى وضعها الله فيك ، والتى عناها الرسول بقوله عن المولود من الله أن « زرعه يثبت فيه » . لذلك قال أيضاً « المولود من الله يحفظ نفسه ، والشرير لا يمسه » (١يو٥ : ١٨) .

ففى كل مرة تخطىء ، ينبغى أن تنسحق فى أعماقك ، شاعراً أنك غير مستحق للقب إبن الله .

لذلك فإن الكنيسة المقدسة تجعل المصلى يقول للرب كل يوم فى صلاة الغروب « أخطأت إلى السموات وقدامك ، ولست مستحقاً أن أدعى لك إبناً » . ولماذا « لست مستحقاً أن أدعى لك إبناً » ؟... لأنى أخطأت ، والمولود من الله لا يخطىء ...

لا بد أن نفهم جيداً المعنى العملى لبنوتنا لله ...

ندخل إلى أعماق هذا اللقب . ونسأل أنفسنا فى كل عمل نعمله ، وفى كل كلمة نقولها ، وفى كل فكر نرضى به ... هل نحن نعمل ونتكلم ونفكر ، كما يليق بأولاد الله ؟... إن بنوتنا لله ليست مجرد لقب . وإنما يجب أن نسلك بما تتطلبه هذه البنوة من مشابهة الإبن لأبيه ...

إن « الله روح » (يو ٤ : ٢٤) . « والمولود من الروح هو روح (يو٣ : ٦). فإن كنت أيها الأخ إنساناً جسدانياً، تسلك حسب الجسد وليس حسب الروح ، فكيف تكون إبناً لله الذى هو روح ؟! وكيف تكون مولوداً من الروح ؟...

إن الذى يعيش فى الخطية ، لا يستطيع مطلقاً أن يقول إنه إبن الله ، بل لا يستطيع أن يدعى أنه يعرف الله ، مجرد معرفة... وهذا يوضحه الرسول فى عبارته المخيفة التى يقول فيها :

« كل من يخطىء ، لم يبصره ولا عرفه » (١ يو ٣ : ٦) ... لأنه «من قال قد عرفته ـ وهو لا يحفظ وصاياه ـ فهو كاذب وليس الحق فيه » (١يو ٢ : ٤) هل فى حياة الخطية يمكنك أن تقول : أنا أعرف الله ؟! كلا ، إنه يجيبك و يقول : إذهب عنى ، لا أنا أعرفك ، ولا أنت تعرفنى ...

لذلك يا أخى ، إن تذكرت أنك إبن الله ، فينبغى أن تسلك كما يليق بالدعوة التى دعيت إليها (أف ٤ : ١) . أسلك مثله ، فى طريقه « كما سلك ذاك تسلك أنت أيضاً » (١يو٢ : ٦) . كما عاش المسيح على الأرض ، تعيش أنت ... فى ملء القداسة ، فى ملء الطهارة ، فى ملء البركة ... لأنه ترك لك مثالاً تحتذيه (يو١٣ : ١٥) ...

أما إن عشت فى الخطية ، فتأكد فى أعماقك أنك لا تستحق البنة لله ، لأن صورة أولاد الله ليست هكذا ...

وفى كل مرة تقول له « أبانا الذى فى السموات » ، ينبغى أن يوبخك ضميرك ، وتنسحق فى داخلك ، وتقول له : إن كان من تواضعك يارب ومن محبتك ، قد دعوتنى إبناً لك ... إلا أننى بأعمالى برهنت على أننى لا أستحق أن أدعى لك إبناً ... إجعلنى كأحد أجرائك ... إن أبوتك لى ـ وإن كانت تشرفنى جداً ـ إلا أنها تسحقنى سحقاً ، وتشعرنى بالفارق الكبير بين ما أنا كائن فيه وما ينبغى أن أكونه ...

أنت يا أخى لست فقط إبن الله ، ونفخة قدسية قد خرجت من فم الله ، وإنما أنت أيضاً هيكل لله ، والله يسكن فيك . وهكذا يقول لنا الرسول «أما تعلمون أنكم هيكل الله ، وروح الله ساكن فيكم . إن كان أحد يفسد هيكل الله ، فسيفسده الله . لأن هيكل الله مقدس الذى أنتم هو» (١كو٣: ١٦، ١٧) . «أنتم هيكل الله الحى . كما قال الله إنى سأسكن فيهم وأسير بينهم» (٢كو٦: ١٦) ...

شهوة الله منذ البدء أن يسكن فيك ، ينظر إلى قلبك و يقول «ها هو موضع راحتى إلى الأبد . ههنا أسكن لأنى اشتهيته» (مز١٣٢: ١٤) ... تقول له «عندك يارب الكنائس ، عندك الهياكل والمذابح . سكناك فى السماء ، وسماء السموات هى عرشك» فيقول لك : ولا واحدة من هذه تعجبنى مثل سكناى فى قلبك «ياإبنى أعطنى قلبك» (أم٢٣: ٢٦) ...

أنت أيها الأخ المبارك أهم عند الله من كنيسة مبنية ... إن تهدمت إحدى هذه الكنائس فما أسهل على البشر أن يعيدوا بناءها ، بجمع المال تبنى ... أما إذا تهدم إنسان مثلك ، فلا يمكن أن يعاد بناؤه إلا بدم المسيح . لا ملاك ولا رئيس ملائكة ولا رئيس آباء ولا نبياً ، يقدر أن يردك إلى رتبتك الأولى ، ليس غير دم المسيح ، فبدونه لا يكون لك خلاص ... أنت يا أخى أهم عند الله من كنيسة مبنية . أنت كنيسة حية ، أهم من الطوب والحجارة ، أنت هيكل للروح القدس ...

لقد سمح الله أن يتحطم هيكل سليمان ، ولا يترك فيه حجر إلا و ينقض ... أما أنت فمن أجلك أرسل الله الرسل والأنبياء والملائكة ، وعين الرعاة والكهنة والمعلمين ، ورتب كل وسائط النعمة ، وقدم استحقاقات الفداء العظيم «لكى لا يهلك كل من يؤمن به ، بل تكون له الحياة الأبدية» (يو٣: ١٦) .

إن كنت إذن بيتاً لله ، والله يسكن فيك ، فتذكر قول الكتاب «ببيتك يارب تليق القداسة» (مز٩٣: ٥) . واعرف أنك بالخطية تنجس بيت الله ، الذى هو أنت ...

أذكر إذن قول الرسول :

« كونوا أنتم أيضاً مبنيين - كحجارة حية - بيتاً روحياً ، كهنوتاً مقدساً ، لتقديم ذبائح روحية مقبولة عند الله بيسوع المسيح » (١بط ٢ : ٥) ...

إن السيد المسيح يبحث عن مكان يسكن فيه ، وهذا المكان هو أنت . وعندما قال الرب عن نفسه أنه « ليس له أين يسند رأسه » (لو٩ : ٥٨) ، لم يكن يقصد فقط البيوت المادية ، وإنما بالأكثر قلوب الناس ...

إن قلبك هو المكان الذى يريد الرب أن يسند فيه رأسه ... حقاً إن لذته فى بنى البشر... (أم٨ : ٣١) . وهو مايزال يقرع على بابك لتفتح له ... وفى اشتياقه إلى قلبك يقول « إن أحبنى أحد يحفظ كلامى ، ويحبه أبى ، وإليه نأتى ، وعنده نصنع منزلاً » (يو ١٤ : ٢٣) . وهكذا يأتى الآب والإبن ويسكنان فى قلبك ، وأنت من قبل هيكل للروح القدس ...

فيصير قلبك بهذا الوضع مسكناً للثالوث القدوس ... هنا ويعقد الصمت لسانى ، هيبة ، وإجلالاً ، لهذا القلب المقدس ... « ما أرهب هذا المكان !!! ما هذا إلا بيت الله وهذا باب السماء » (تك٢٨ : ١٧) ... هذا هو المسكن الإلهى العجيب الذى يأتى إليه الله من بعيد « طافراً على الجبال ، قافزاً على التلال » (نش٢ : ٨) ، ينادى نفسك العزيزة فى حب « إفتحى يا أختى ، يا حبيبتى يا حمامتى ، يا كاملتى ، لأن رأسى قد امتلأ من الطل ، وقصصى من ندى الليل » (نش٥ : ٢) . فإلى متى تنتظر يا أخى ولا تفتح ... !

تصور يا أخى أن الله الذى لا تسعه السموات كلها ، ولا الكون أجمعه ، الله الذى قال عنه داود « للرب الأرض وملؤها ، المسكونة وكل الساكنين فيها » (مز٢٤ : ١) ، الله هذا يقرع على بابك ، ويشتهيك مسكناً له ... هو يريد أن يعيش فى قلبك ، وتعيش أنت فى قلبه ، يثبت فيك وأنت فيه ، وتصير كنيسة مقدسة له ...

أذكر أننى فى يوم ما أرسلت خطاباً إلى أحد الأخوة المباركين ، قلت له فيه « سلم على الكنيسة المقدسة التى فى قلبك » . لأنى كنت أعرف أن فى قلبه كنيسة تصعد منها رائحة بخور ، وتخرج منها ألحان وتسابيح ، وترتفع فيها ذبائح روحية ... ألم يقل المرتل « فلتستقم صلاتى كالبخور قدامك ، وليكن رفع يدى ذبيحة مسائية » (مز١٤١ : ٢) .

إن عرفت يا أخى هذا ، أنك هيكل للروح القدس ، فلا تخطىء ، لئلا تحزن روح الله الذى فيك وتطفىء حرارته...

بل إن أتاك الشيطان يوماً بخطية ، تقول له :
إذهب عنى بعيداً ، فلست أنا لك ...
أنا بيت لله ، أنا مسكن لله ... أنا موضع مقدس للرب ...
أنا الذى يقرع الله على بابى ، لكى أفتح له ...
أنا هيكل للروح القدس ، أنا كنيسة مقدسة ...
أنا الذى يأتى إليه الآب والإبن ، وعنده يصنعان منزلاً ...
أنا مسكن للثالوث القدوس ..
هل أنا شىء هين ، يمكن أن ينجسه الشيطان ؟! كلا ،
أنا سماء ثانية ... عرش لله يجلس عليه ...
أنت يا أخى لست هذا كله فقط ، بل أيضاً :

أنت أخ للمسيح ، شريك للمسيح ، ووارث معه

تواضع عجيب من الرب أن يدعونا أخوة له ... نحن لا نجرؤ أن نناديه بهذا اللقب ، لأننا لم نصل إلى مستوى العبيد البطالين الذين فعلوا كل ما أمروا به (لو١٧ : ١٠) . ولكننا أمام تشريفه لنا ، يجب أن نسلك كما يليق بالدعوة التى دعينا إليها...

عجيب أن يقال عن الرب الإله إنه « بكر وسط أخوة كثيرين » (رو٨: ٢٩)... أخوة كثيرين ؟! يا للعجب... ! والعجيب أيضاً أنه « لا يستحى أن يدعوهم أخوة » (عب٢ : ١١) . وأعجب من الكل أن يقال عنه أنه « يشبه أخوته فى كل شىء » (عب٢ : ١٧)... وهكذا نرى السيد المسيح يقول للمريمتين « إذهبا قولا لأخوتى أن يمضوا إلى الجليل ، هناك يروننى » (متى٢٨ : ١٠) . ويكرر نفس العبارة للمجدلية « إذهبى وقولى لهم » (يو٢٠ : ١٧) .

ولم يقل هذا التعبير عن الرسل فقط ، بل قاله عن الكل ... «من يصنع مشيئة أبى الذى فى السموات هو أخى، وأختى ، وأمى» (متى ١٢ : ٤٨) . وقال عن الخير الذى يعمل مع الفقراء والمساكين «الحق أقول لكم بما أنكم فعلتموه بأحد أخوتى هؤلاء الأصاغر فبى قد فعلتم» (متى ٢٥ : ٤٠) .

إذن فأنت يا أخى أخ للمسيح ، وأنت أيضاً وريث معه... للمواعيد، وللمجد العتيد. إن كان قد قيل عنه فى مثل الكرامين الأردياء إنه هو الوارث (متى ٢١ : ٣٨) ، فقد قيل كذلك «إننا ورثة أيضاً ، ورثة الله ، ووارثون مع المسيح» (رو ٨ : ١٧) .

إعرف يا أخى إذن مقدارك من أنت : أنت أخ للمسيح ، وأنت وريث معه وليس هذا فقط بل أنت شريك له كذلك...

« إن لنا شركة معه » (١ يو ١ : ٦) . إنه اشترك معنا فى اللحم والدم (عب ٢ : ١٤) . ونحن إنما نؤدب «لكى نشترك فى قداسته» (عب ١٢ : ١٠) . نشترك معه فى آلامه ، لكى نشترك فى الفرح باستعلان مجيئه (١بط ٤ : ١٣) . قد دفنا معه (فى المعمودية) لكى نقوم معه (رو ٦ : ٤ ، ٥) . وسنعيش حياتنا عاملين معه (١ كو ٣ : ٩) . ونتألم معه ، لكى نتمجد معه (رو ٨ : ١٧) . وسنأتى معه على السحاب (يه ١٤) ونكون معه فى كل حين (١تس ٤ : ١٧) وحيثما يكون هو نكون نحن أيضاً (يو ١٧ : ٢٤) .

إنها شركة لك مع المسيح تبدأها الآن أيها الأخ المبارك وتستمر معك إلى الأبد. فاحرص على هذه الشركة المقدسة لأنك بالخطية تفقدها .

إنك لا تستطيع أن تستمر شريكاً للمسيح إن كنت تسير فى الخطية... لأن الكتاب حينئذ سيوبخك بقوله «أية خلطة للبر والإثم؟! وأية شركة للنور مع الظلمة؟! وأى اتفاق للمسيح مع بليعال ؟!...» (٢ كو ٦ : ١٤، ١٥) . إنك عندما تفعل الخطية ، تكون كمن يقول للرب : لقد فككت الشركة التى بينى وبينك . وقد بحثت لى عن شريك غيرك . أنا الآن شريك للشيطان ، ولم أعد شريكاً لك بعد...! أنظروا أى مجد يكون لنا عندما نسير فى طريق الله ، وأى نزول وانحدار وسقوط عندما نبعد عنه...

فكيف يمكن أن تفعل الخطية ، أنت يا شريك المسيح ، شريكه فى العمل وفى الآلام وفى المجد؟! أنت الذى تلبس المسيح فى المعمودية (غل ٣: ٢٧)، وتحيا، لا أنت، بل المسيح الذى يحيا فيك (غل٢:٢٠)...

وأنت لست فقط شريكاً للمسيح وإنما أيضاً :



وهكذا فإنه من البركة التى يعطينا إياها بولس الرسول أن تكون «شركة الروح القدس، مع جميعنا» (٢كو ١٣: ١٤). هذه البركة التى نأخذها من الكنيسة فى آخر كل اجتماع، وفى بداية القداس أيضا...

أنت شريك للروح القدس ، ليس فى الجوهر، وإنما فى العمل . إنه يعمل فيك، ويعمل معك، ويعمل بك، من أجل خلاص نفسك، ومن أجل خلاص الناس، فى نشر ملكوت الله، وفى بنيان جسد المسيح. أنت لا تعمل وحدك، وإلا كنت معتمداً على ذراعك البشرى، «وإن لم يبن الرب البيت، فباطلاً تعب البناؤون» (مز١٢٧: ١). الروح القدس هو يشترك معك فى العمل... وهو لا يعمل وحده، وإنما يشركك معه، لتأخذ بركة... أنت إذن شريك للروح القدس، شريك للطبيعة الإلهية، فى العمل...

والروح القدس يعمل معك دائماً للخير. وعندما تعمل الشر أو الخطية، إنما تعمل وحدك، وتكون قد رفضت شركة الروح القدس...

لذلك يقول الكتاب عن حالة الخطية «لا تحزنوا روح الله القدوس الذى به ختمتم» (أف ٤: ٣٠)، ويقول أيضاً «لا تطفئوا الروح» (١تس ٥: ١٩). وإذا استمر الإنسان فى حالة الخطية، فربما يتعرض لما خاف منه داود النبى حينما قال «روحك القدوس لا تنزعه منى» (مز٥٠: ١١)...!!

يا أخى ما أعجب أن يقال عنك إنك «شريك الطبيعة الإلهية» (٢بط ١: ٤)... بل ما أعجب أن يعاتبنا الرب بقوله: «أنا قلت أنكم آلهة (١)، وبنو

(١) ليس معناها أننا آلهة، من طبيعة الله، وإنما من حيث أننا صورة الله ومثاله. آلهة هنا بمعنى سادة، كما قال الرب لموسى «قد جعلتك إلهاً لفرعون» (خر٧: ١). ليس كخالق له، حاشا، إنما كسيد له...

العلى كلكم» (مز٨٢: ٦)... يالهذا المركز الكبير، و يالهذه الشهادة العظيمة... ! أو بعد هذا كله نخطىء ؟ أيصح أن يخطىء إله ؟! و يتمرغ فى الدنس ، وفى التراب ، وفى النجاسة... !

هل عندما نخطىء تكون شريكاً للطبيعة الإلهية ؟! كلا ، بل شريكاً للشيطان لأن الكتاب يقول «الذى يفعل الخطية هو من إبليس ، لأن إبليس من البدء يخطىء . بهذا أولاد الله ظاهرون ، وأولاد إبليس (ظاهرون) » (١يو ٣: ١٠) . إننا عندما نخطىء ننسى مجدنا العظيم ، ونفقد مراكزنا... ولذلك فإن الله بعد أن قال لنا «أنا قلت إنكم آلهة... » أكمل قائلاً « ولكنكم مثل البشر تموتون ، وكأحد الرؤساء تسقطون» (مز ٨٢: ٧)... ومن هو هذا الرئيس الذى سقط ؟ إنه الشيطان ، الذى كان قبلاً رئيس ملائكة... !

إن الإنسان الذى يخطىء ، هو إنسان لا يعرف مقدار ذاته . لذلك قيل عن الخاطىء إنه جاهل . عجيب أنه بعدما أكل من شجرة المعرفة صار جاهلاً ! لأنه التمس المعرفة بعيداً عن الله ، أو التمس معرفة تفصله عن الله . فلا يعرف ما هى ذاته ، ولا من هو الله ، ولا ما هى العلاقة بينهما...

يا أخى ، إعرف ذاتك ، من أنت ، حينئذ لا تخطىء ...



إن الكنيسة هى جسد المسيح ، والمسيح رأسها . ونحن ـجماعة المؤمنينـ هم الكنيسة . إذن فنحن جسد المسيح (أف ٤: ١١) . بل إننا «أعضاء جسمه ، من لحمه ومن عظامه» كما يقول الرسول (أف ٥: ٣٠) .

كل عضو فيك ، هو عضو المسيح . ولذلك فى كلام الرسول عن خطية الزنى قال «ألستم تعلمون أن أجسادكم هى أعضاء المسيح . أفآخذ أعضاء المسيح وأجعلها أعضاء زانية ؟! حاشا... » (١كو٦: ١٥) .

فكيف نخطىء ونحن جسد المسيح ؟!

كيف نخطىء إلى الرب الذى يعتبرنا كشخصه تماماً ، كل ما يمسنا يمسه ؟!... أليس أنه عندما عاتب شاول الطرسوسى ، لم يقل « لماذا تضطهد المؤمنين » ، وإنما قال له « لماذا تضطهدنى » (أع ٩ : ٤) ، لأنه يعتبرنا كشخصه تماماً . وعندما يطوب الرحماء فى اليوم الأخير ، سوف لا يقول لهم : أنتم أطعمتم الجياع وسقيتم العطاش ، وإنما سيقول لهم « كنت جوعاناً فأطعمتمونى ، وعطشاناً فسقيتمونى » (مت ٢٥ : ٣٥) . إلهنا هذا المحب ، الذى يعتبرنا كشخصه تماماً ، كيف يمكن أن نخطىء إليه ، ونجرح قلبه الحساس الحنون ؟!

إن الشخص الخاطىء ، إنما يقطع ذاته من جسد المسيح ، لأن جسد المسيح مقدس كله ...

وعضويتنا فى جسد المسيح يوضحها قوله «أنا هو الكرمة ، وأنتم الأغصان» (يو ١٥ : ٥) ، فعصارة الكرمة تصعد وتسرى إلى الأغصان فتمنحها الحياة... وكل غصن فى الكرمة تكون له صورة الكرمة ، وله ثمر الكرمة ، وله طبيعة الكرمة ، فهو صورة مصغرة من الكرمة نفسها ، وهو والكرمة شىء واحد .

فهل أنت غصن حقيق فى هذه الكرمة الإلهية ؟ وهل أنت تصنع ثمراً يليق بغصن حى؟ إن المفروض فى أغصان الكرمة أن تعطى ثماراً تماثلها ، أن تثمر عنباً يفرح الرب به ويشرب من نتاجه جديداً فى ملكوت الآب (مت ٢٦ : ٢٩) . ماذا تظنه كان يقصد عندما قال للمرأة السامرية «أعطينى لأشرب» (يو ٤ : ٧) . أتراه كان يريد منها ماءاً ، أم كان يريد أن يشربها هى ، كان عطشاناً إلى نفسها ليضمها إلى ملكوته . كان يريد أن يشرب من نتاج الكرمة ، من عصيره الذى سكبه فى قلب تلك المرأة...

فهل تسرى فيك عصارة الكرمة أيها الأخ المبارك ؟ هل تتمشى عصارتها فى كل عروقك ، وتجعلك تورق وتثمر؟ وهل أنت تثمر عنباً أم شوكاً ؟ فإن كنت تعطى شوكاً ، فلست إذن عضواً فى الكرمة . ويقيناً أن العصارة التى تسرى فيك ليست هى من الكرمة ... إعلم إذن أن الغصن الذى لا يصنع ثمراً ، لا ينفع ولا يصلح ، بل يقطع ويلقى فى النار (يو ١٥ : ٦) ...

وإذا قطع ، لا يصبح بعد عضواً فى الكرمة ... لقد انتهى أمره !!

إن الإنسان السائر فى الخطية ، هو غصن معاند ، قد رفض عصارة الكرمة ، رفض أن تسرى العصارة فى عروقه ، فجف وسقط ، أو قطع وألقى فى النار. أما الصالح ، فهو على العكس يفتح شرايينه جيداً لكى تدخل فيها عصارة الكرمة ، وبهذا ينتج ثمراً ، فينقيه السيد الرب ليأتى بثمر أكثر...

ما هو نتاج الكرمة الذى تريد أن تشربه منا يارب ؟

هو ثمركم ، أريد أن أتغذى بثماركم ، بثمر الروح فيكم (غل٥ : ٢٢) . هذا الثمر هو عمل الله فيكم . هو نتيجة تمشى عصارتى فى عروقكم . من أجل هذا إن تذكرتم على الدوام أنكم أغصان فى كرمتى ، وأعضاء فى جسدى ، فليس فقط سوف لا تخطئون ، وإنما بالأكثر سوف تثمرون ، وأفرح بثمركم .

هل عرفت يا أخى مقدارك العظيم . أنت لست فقط عضواً فى جسد المسيح ، إنما أيضاً :



أنت تأكل جسد المسيح وتشرب دمه ، فتثبت فيه ، ويجرى فى عروقك دم المسيح الطاهر النقى القدوس . ما أسماك وما أطهرك ! ... كتب أحد الأشخاص فى مذكرته بعد تناوله :

هذا الفم المقدس الذى تناول جسد الرب ودمه :
كلمة زائدة لا تخرج منه ،
ولقمة زائدة لا تدخل فيه ...

تذكر يا أخى باستمرار أن فك يتناول جسد الرب ودمه ، حينئذ لا يمكن أن تخرج منه شتيمة ، أو أغنية عالمية ، أو مزاح باطل ، أو كذب ، أو قسم ، أو غضب ، أو باقى خطايا اللسان...

وتذكر أن جسدك هذا يحل فيه جسد المسيح ، حينئذ تخاف أن تنجس هذا الجسد أو تجعله أداة للخطية...

أيها الأخ المبارك ، لا تنس نفسك ، أذكر من أنت ، وماذا يليق بك ، فلا تخطىء...

قال أحد القديسين

« يسبق كل خطية : إما الغفلة . وإما الشهوة . وإما النسيان...

وفعلاً ، يسبق الخطية النسيان ...

فنحن ننسى أنفسنا أننا صورة الله ، وأننا شبهه ومثاله ، وأننا أولاده ، وأننا مسكن لله ، وهياكل للروح القدس . وننسى أننا أخوة المسيح ، وشركاء الروح القدس ، وشركاء الطبيعة الإلهية ، وننسى أننا أعضاء فى جسد المسيح ، وأننا نتناول جسده ودمه ...

لذلك نخطىء ... وإن تذكرنا حقيقتنا ، ما أخطأنا ...

إنك فى حالة الخطية ، تكون قد نسيت كل أمجادك هذه ،
أو تكون قد فقدت كل أمجادك ... وضعت ...

☐

الفصـــل الثانى

لكى يتوب الإنسان ، لا يكفى أن يعرف من هو ...
إنما يجب أن يعرف أيضاً ما هى الخطية ...
ما هى طبيعتها الخاطئة ، وعقوبتها ، ونتائجها ، وأضرارها ...
لذلك نقول لك :



تهرب من الخطية

الخطية هى موت ..

حقيق أن « أجرة الخطيـة هى موت » (رو ٦ : ٢٣) ، « والخطية إذا كملت تنتج موتاً » (يع ١: ١٥). ولكن بالإضافة إلى أن عقوبة الخطية هى الموت ، نقول إن الخطية ذاتها هى حالة موت ، موت أدبى وروحى.

والشواهد على ذلك كثيرة :

فى مثال الإبن الضال ، قال الآب « لأن إبنى هذا كان ميتاً فعاش ، وكان ضالاً فوجد » (لو١٥: ٢٤). فوصفه بأنه فى حالة الخطية « كان ميتاً » . ولم يصبح حياً إلا بعد رجوعه ...

والقديس بولس الرسول يقول عن الأرملة المتنعمة إنها « ماتت وهى حية » (١تى ٥ : ٦). كما يقول عنا جميعاً « كنتم أمواتاً بالذنوب والخطايا » (أف ٢ : ١). « ونحن أموات بالخطايا ... » (أف ٢ : ٥).

وعندما أخطأ ملاك (راعى) كنيسة ساردس ، أرسل إليه الرب رسالة على فم القديس يوحنا الرائى يقول له فيها « أنا عارف أعمالك ، أن لك إسماً أنك حى وأنت ميت » (رؤ٣: ١).

فالإنسان الخاطىء هو شخص ميت ، لأنه انفصل عن الحياة الحقة بانفصاله عن الله ، والله هو الحياة ...

ألم يقل السيد المسيح « أنا هو القيامة والحياة » (يو ١١ : ٢٥) . «أنا هو الطريق والحق والحياة» (يو ١٤ : ٦) . حقاً «فيه كانت الحياة ، والحياة كانت نور الناس» (يو ١ : ٤) . فالذى ينفصل عن المسيح بالخطية ، إنما ينفصل عن الحياة ، فيعد ميتاً ، مهما كانت فيه أنفاس تتردد . لذلك صدق القديس أوغسطينوس عندما قال :

موت الجسد ، هو انفصال الروح عن الجسد ،
وموت الروح ، هو انفصال الروح عن الله .

فالخاطىء إذن هو إنسان ميت ، مهما ظن أنه حى وأنه يتمتع بالحياة !! إن الخطاة لا يفهمون الحياة فهماً سليماً . يظنونها مجرد تمتع بالعالم ولذاته . وهكذا عندما تتحدث إلى أحد الخطاة عن التوبة ، يجيبك قائلاً «أتركنى أتمتع بالحياة» . يظن هذه المتعة الجسدية حياة ، وهى موت ! كما قيل عن الأرملة المتنعمة أنها ماتت وهى حية .

فإن كانت الخطية موتاً ، ألا يجدر بنا أن نسأل أنفسنا :
أحقاً نحن أحياء ؟! كم هى إذن سنو حياتنا على الأرض ؟

غالب الظن أننا سنجيب على هذا السؤال بنفس إجابة أبينا يعقوب ، عندما قال لفرعون «أيام سنى غربتى ... قليلة وردية ... ولم تبلغ إلى أيام سنى حياة آبائى» (تك ٤٧ : ٩) .

حياتنا تقاس فقط بالأيام التى قضيناها مع الرب ثابتين فى محبته . أما فترات الخطية فى حياتنا فهى فترات موت . لا تقل إذن «أنا فى الأربعين من عمرى» ! فربما حياتك كلها لم تبلغ عشر سنوات مع الله . يا أخى إسأل نفسك : هل أنت حى أم ميت ؟!

أخشى ما أخشاه أن تنطبق على أحد فينا العبارة التى قالها الرب لملاك كنيسة ساردس :

« أن لك إسماً أنك حى وأنت ميت » ... ! (رؤ ٣ : ١) .

ترى إن نزل ملاك الآن ليعد الأحياء الموجودين فى الكنيسة ، من منا يجده حياً ، ومن منا يجده ميتاً ؟! ياللخجل ، عندما نعرف حقيقتنا ، أحقاً نحن أحياء أم أموات بالخطية ؟

بهذا يحكم كل منا على نفسه :

كل يوم مثمر وثابت فى الرب ، هو يوم حى
وكل يوم مر فى الخطية ، هو يوم ميت .

وبهذا يمكن أن تعرف عمرك وكم سنة لك ...

فلا تسمح يا أخى أن يضيع يوم من أيام حياتك ، ويموت ويدفن إلى الأبد . لأن الأيام التى تذهب لا يمكن أن تعود . أما الأيام الحية فهى خالدة... هناك لحظات فى حياة الإنسان تقتدر كثيراً فى فعلها . الدقيقة تساوى سنوات أو قد تساوى أجيالاً ...

لذلك عش حياتك كاملة ، دسمة ، غنية ، مثمرة ... تصور ساعة فى حياة بولس الرسول ، لها ولا شك قيمتها وقوتها ، وربما تكون هذه الساعة أطول من حياة إنسان آخر بأكملها .

يا أخى ، لا تفتخر باطلاً ، ولا تقل بغير حق : أنا إبن الله ، أنا صورته ومثاله . أنا هيكل للروح القدس ، أنا شريك للطبيعة الإلهية ، أنا عضو فى جسد المسيح ...!! كلا ، إن كنت خاطئاً فأنت ميت ، ولست شيئاً من هذا كله... تقول لله « أنا إبنك » ، فيقول لك « إذهب عنى ... لا أعرفك » ...

إن الخطية هى موت ... وهى أيضاً ضلال ، وضياع ، وتوهان ...



فى الأصحاح الخامس عشر من الإنجيل لمعلمنا لوقا البشير ، توجد ثلاثة أمثال تشرح لنا كيف أن « الخطية هى ضلال وضياع وتوهان » . مثال الإبن الضال ، ومثال الخروف التائه ، ومثال الدرهم المفقود ...

الإبن الضال ، ضل نتيجة لشهوات قلبه ، بقصد ومعرفة وتدبير ...
والخروف الضال ، تاه عن غباء وعدم معرفة وقلة خبرة ...
والدرهم المفقود ، أضاعه غيره ، أو وقع وظل واقعاً لا يتحرك ...

إنه أمر مؤسف حقاً ، أن ينظر الله فى كيسه ، فلا يجدك ... أمر مؤسف، أن يعد الله دراهمه و فلا تكون فى وسطها ... و يظل الله يبحث عنك فى كيسه وفى كل موضع ، أين تراك وقعت ، فلا يعثر عليك ... وأخيراً يعلنها حقيقة مؤلمة : لقد كان لى درهم ، ولكنه ضاع ... نعم ، ضاع وفقد ولم يعد له وجود ... أخشى عندما يحصى الله شعبه ، أ لا توجد أسماء مكتوبة فى سفر الحياة ، لأن الخطية قد أضاعتها .

أتعرف هذا يا أخى ، أنك عندما تسير فى طريق الخطية ، تكون قد ضعت ، ولم تعد فى يد الله ... ! نعم ، إن الخطية هى ضياع ، هى ضلال ، هى توهان . والخاطىء هو إنسان تائه ، سواء تاه بإرادته ، أم بجهله ، أم أتاهه غيره ...

إن الإبن الضال عندما خرج من بيت أبيه ، ظن أنه قد وجد نفسه و وقد وجد حريته ، وقد وجد ثروته ومتعته وأصحابه ... ولكنه فى الواقع ، لم يكن قد وجد نفسه بل أضاعها ...

والخروف الضال ربما شعر أنه قد ترك الحظيرة الضيقة المغلقة ، إلى الفضاء الرحب الواسع المفتوح . وأخيراً وجد أنه تاه ، وابتعد عن راعيه وعن أحبائه ...

إن الخاطىء يفهم الحرية والمتعة فهماً خاطئاً ... وبنفس الوضع ١٤ يظن الخطية نصرة تكون له هزيمة ...

الخطية هزيمة لا نصرة :

لنفرض أن إنساناً أهانك فأهنته ، واشتددت عليه فغلبته ، وأفحمته وأسكته ، واعتدى عليك فاعتديت عليه بالمثل أو بأضعاف ذلك ، أتراك إذن قد انتصرت ؟!

كلا ، بل انهزمت ، لأنك قد انغلبت من الإثارة ، وانفعلت ، ولم تقو على الإحتمال ، وغلبتك الخطية .

ربما تقول « أنا دافعت عن كرامتى ... أنا لم أترك هذا الإنسان يطغى على، بل أوقفته عند حده وانتصرت عليه ». قد تكون هكذا منتصراً فى عينى نفسك، ولكنك فى واقع الأمر مهزوم: قد هزمتك خطية الغضب، وهزمتك خطية المجد الباطل، وهزمتك خطية الإدانة، وخطية الإنتقام، وعدم المحبة. وعدم الإحتمال... لذلك يقول الكتاب فى (رو١٢: ٢١):

« لا يغلبنك الشر، بل إغلب الشر بالخير »

إن الإنسان الخاطىء، هو إنسان مغلوب من الخطية، وما أكثر الأسباب: هناك إنسان ينهزم أمام الجسد، وآخر ينهزم أمام الكرامة، وثالث ينهزم من شهوة الطعام، ورابع ينهزم أمام المال، وآخر أمام الغضب، وآخر أمام الحقد... الخ.

قد ينظر إنسان إلى إمرأة ويشتهيها، فيزنى بها فى قلبه. وفى كل ذلك يظن أنه قد لذذ نفسه وتمتع بذلك المنظر. ولكنه فى الحقيقة يكون قد انهزم أمام الخطية وسقط. منظر واحد قد غلبه وجعله يقع فى الشهوة... وقد تنظر الملائكة إليه من السماء وتقول:

« مسكين هذا الإنسان الضعيف، لم يستطع أن يحتمل منظراً من المناظر فسقط... باع الملكوت وخسره من أجل منظر تافه ».

فالإنسان الخاطىء هو إنسان مهزوم ومغلوب مهما أحاط نفسه بمظاهر القوة الزائفة، والإنسان البار قد يبدو ـ فى نبله، وسموه ـ مهزوماً أمام الناس، ويكون فى قمة انتصاره. والأمثلة على ذلك كثيرة...

قايين مثلاً عندما قام على هابيل وقتله، هل كان فى قتله لأخيه منتصراً أم مهزوماً؟ ربما ظن فى نفسه فى بادىء الأمر أنه قد انتصر على أخيه، لأنه استطاع أن يضربه ويلقيه على الأرض ويقتله. ولكنه فى حقيقة الأمر كان مهزوماً. لقد انهزم أمام الحسد والغيرة. وانهزم أمام الغضب والحقد، وفقد محبته، وهزمه شيطان القسوة، وهزمته خطية القتل... وهذا الذى ظن نفسه قوياً، عندما وقف أمام الله، ارتجف وارتعب فقال قايين للرب: «ذنبى أعظم من أن يحتمل. أنك قد طردتنى اليوم عن وجه الأرض، ومن وجهك أختفى، وأكون تائهاً وهارباً فى الأرض. فيكون كل من وجدنى يقتلنى» (تك٤: ١٣، ١٤).

مسكين قايين ... إنسان ضعيف غلبته الخطية . كذلك كان هيرودس الملك أيضاً عندما قبض على يوحنا المعمدان وألقاه فى السجن ، وأراد أن يسكت هذا الصوت الصارخ فى البرية فلم يفلح فقطع رأسه . فهل كان هيرودس قوياً عندما قتل يوحنا ، أم بالحرى كان ضعيفاً أمام شهوته وعزته وكبريائه وانقياده للنساء ... ؟! أكبر دليل على ضعفه ، أنه ظل يخاف من يوحنا حتى بعد موته . فلما ظهر المسيح ظن هيرودس أنه يوحنا قد قام من الأموات (مت ١٤ : ٢) .

وهكذا أنت أيضاً عندما تتسلط على غيرك ، وتهينه وتشتمه وتجرحه وتتهكم عليه ، ويبدو هو ضعيفاً ذليلاً أمامك لا يستطيع أن يقابلك بالمثل ... أتراك تظن نفسك قد انتصرت ؟! كلا ، بل هزمتك كل هذه الخطايا ، وغلبك الشر...

إن الخاطىء يظن النصرة حيث توجد الهزيمة ، ويظن اللذة حيث يوجد الضياع ، ويظن القوة حيث يوجد الضعف... لذلك قال الكتاب «لأنهم مبصرين لا يبصرون ، وسامعين لا يسمعون ولا يفهمون» (مت١٣ : ١٣) .

وبنفس هذا المقياس الخاطىء نظر البعض إلى صليب المسيح له المجد . فظن غير الفاهمين أن صلبه كان دليلاً على الضعف والهزيمة أو دليلاً على انتصار أعدائه عليه ، وكان الواقع عكس ذلك تماماً .

لقد كان صالبو المسيح فى موقف الهزيمة وليس فى موقف النصرة. لقد انهزموا أمام حسدهم وغيرتهم منه . وانهزموا أمام شياطين الكذب والقسوة والجبن ونكران الجميل . أما السيد المسيح فاستطاع أن ينتصر فى محبته وبذله ، ويقدم لنا الخلاص ، ويحطم مملكة الشيطان ، ويفتح الفردوس لمنتظريه ويتمم عمل الفداء العظيم... كانت منتصراً على طول الخط ، بعكس صالبيه الذين رجع كثيرون منهم وندموا...

كانت أحكام الناس مختلة ، فالخطية هى ضعف وهزيمة ... وماذا عن الخطية أيضاً :

الخطية إنفصال عن الله ، لأنه « أية شركة للنور مع الظلمة ، وأى اتفاق للمسيح مع بليعال » (٢كو ٦ : ١٤ و ١٥) .

وهكذا نرى أن الإبن الضال - فى خطيته - قد خرج من بيت أبيه وانفصل عنه .

والخطية ليست مجرد إنفصال عن الله ، وإنما هى خصومة معه..

إن العالم عندما أخطأ ، وقع فى خصومة مع الله عبر عنها طقسياً بالحجاب المتوسط الذى كان يفصل المؤمنين عن قدس الأقداس . لذلك عندما جاء السيد المسيح ، أقام صلحاً بيننا وبين الله ، ونقض الحاجز المتوسط ، وقيل عنه فى القداس «صالحت الأرضيين مع السمائيين» . صالحهم لأن الخطية كانت قد سببت خصومة بينهم وبين الله . من أجل هذا نصلى صلاة الصلح قبل أن نبدأ القداس... قبل أن نتناول نصطلح أولاً مع الله .

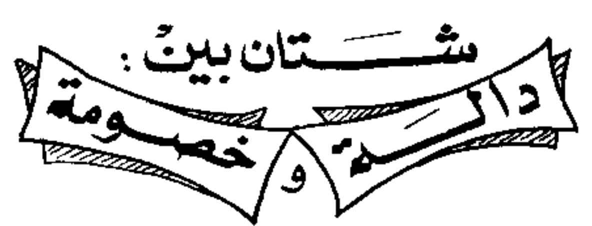
الإنسان الخاطىء بينه وبين الله خصومة . قد أغضب الله وأحزنه وانفصل عنه : ترك بيته وكهنته ، وترك كتابه ووصاياه ، وترك جسده ودمه ، وترك الكلام معه أيضاً - هناك خصومة إذن...

وكلما ازدادت الخطية ، ازدادت الخصومة ، وازداد الإنفصال عن الله . لقد وصلت هذه الخصومة بين الله والناس إلى حد مريع فى أيام أرمياء النبى ، لدرجة أن الله قال لنبيه «لا تصل لأجل هذا الشعب . ولا ترفع لأجلهم دعاء ولا صلاة ، لأنى لا أسمع لك» (أر١٢: ١٤) . ووصلت الخصومة إلى درجة أن قال الله «وإن وقف موسى وصموئيل أمامى ، لا تكون نفسى نحو هذا الشعب» (أر١٥: ١) .

ووصلت الخصومة إلى حد أن قال الله للعذارى الجاهلات «الحق أقول لكن إنى لا أعرفكن» (مت٢٥: ١٢) . وقال لآخرين «إنى لم أعرفكم قط . إذهبوا عنى يافاعلى الإثم» (مت٧: ٢٣) . «لا أعرفكم من أين أنتم . تباعدوا عنى يا جميع فاعلى الظلم» (لو١٣: ٢٧)... «لا أعرفكم» !! ياللهول ، و ياللخجل... الله ينكر معرفته بالإنسان ، و ينكر صلته به ، و يتبرأ منه ومن خلطته ، و يبعده عنه... أى ألم هذا ، وأية فضيحة...

وفى الخصومة ، قد تصل الخطية فى بشاعتها إلى درجة العداوة مع الله.
وهكذا يقول القديس يعقوب الرسول «أما تعلمون أن محبة العالم عداوة لله . فمن أراد أن يكون محباً للعالم فقد صار عدواً لله» (يع ٤ : ٤). وهذا المعنى يؤيده أيضاً القديس يوحنا الرسول بقوله «إن أحب أحد العالم فليست فيه محبة الآب» (١يو٢ : ١٥).

بعكس ذلك محبو الله ، فى صداقتهم له ، ودالتهم عليه ...



إن عرفنا مقدار الدالة التى بين الله ومحبيه . تملكتنا الغيرة ، و يلتهب قلبنا فنود أن نكون مثلهم . وسنحاول هنا أن نستعرض بعض أمثلة :

قيل عن أبينا إبراهيم إنه خليل الله. ونحن نستشفع به فى الصلاة، فنقول لله فى صلاة الساعة السادسة «من أجل إبراهيم حبيبك ...».

إنه حبيب الله ، صديقه ، بينه و بين الله دالة ...

عندما أراد الله أن يحرق سدوم ، قال الرب « هل أخفى عن ابراهيم ما أنا فاعله ؟! » (تك١٨ : ١٧). ياللعجب !! إن الله لم يرد أن يحرق سدوم قبل أن يخبر ابراهيم أولاً و يتفاهم معه فى الموضوع ... ومن يكون ابراهيم هذا يارب ؟ أليس حفنة من « تراب ورماد » (تك١٨ : ٢٧). كلا - يجيب الرب - إنه حبيبى وصديقى . لابد أن أخبره أولاً وآخذ رأيه . لا يصح أن يفاجأ بالموضوع كباقى الناس ...

ويخبر الله ابراهيم . و يتفاهم معه ابراهيم بدالة « أفتهلك البار مع الأثيم ... حاشا لك أن تفعل مثل هذا الأمر... حاشا لك . أديان الأرض كلها لا يصنع عدلاً ؟! ... **إنه أسلوب قد لا نستطيع أن نكلم به بعض البشر خوفاً منهم ، ولكن ابراهيم يكلم به الله بكل جرأة ودالة.** و يظل يتفاوض معه : عسى أن يكون خمسون باراً فى المدينة ... ربما نقص الخمسون باراً خمسة ... عسى أن يوجد هناك أربعون ... ثلاثون ... عشرة ... و يستجيب الرب و يقول « لا أهلك من أجل العشرة ... » (تك١٨ : ٣٢).

إنها صداقة مع الله ... عجب أن يوجد أناس لهم صداقة مثل هذه مع الله، يتفاهم معهم، ويتفاهمون معه...

• **نفس الوضع الذى حدث لإبراهيم مع الله، حدث لموسى أيضاً ...**

صنع اليهود عجلاً من ذهب وعبدوه. فغضب الرب جداً من هذه الخيانة التى خانوه بها، بعد سلسلة من المعجزات عملها معهم، وبعد سلسلة من الإحسانات قدمها إليهم. وفكر الله أن يهلك هذا الشعب. ولكنه رأى أن يخبر موسى أولاً. وبعد أن شرح الرب لموسى كيف أن هذا الشعب صلب الرقبة قال له «أتركنى... لأفنيهم» (خر٣٢: ١٠).

ونحن نقف فى خشوع أمام كلمة «أتركنى» ... ما معنى هذا الكلام أيها الرب إلهنا القادر على كل شيء... هل أنت محتاج أن يتركك موسى لتفعل؟ هل هو ممسك بك ليمنعك؟ وهل هو يستطيع؟

على أن عجبنا يزداد، ليس فقط من كلام الله، بل بالأكثر من رد موسى... فكما قال يعقوب للرب وهو يصارعه «لا أتركك...» (تك ٣٢: ٢٦)، هكذا قال موسى للرب... فى جرأة ودالة المحبة قال له «إرجع يارب عن حمو غضبك، واندم على الشر» (خر ٣٢: ١٢)... كلام جرىء عجيب... من يستطيع أن يقوله للرب، بل من يستطيع أن يقوله لأحد الرؤساء على الأرض...؟! ويعلل موسى احتجاجه: لئلا يقولوا قد أخرجهم بخبث من أرض العبودية، لكى يهلكهم فى القفر...

والعجيب أن الله لم يغضب من موسى، بل وافقه ... ونفذ له ما يريد... ويقول فى ذلك الكتاب «فندم الرب على الشر الذى قال أنه سيفعله» (خر٣٢: ١٤)... ما هذا يارب؟ يجيب إنهم أصدقائى، لهم دالة عندى. عجباً! أى رجل هو موسى هذا؟! بل أية دالة هى هذه بين الله وأحبائه... إن قرأ خاطىء عنها، يشعر بحرارة الغيرة تلهب قلبه... ليترك ما هو فيه، ويصير مثل هؤلاء...

• **مثال آخر نقرأه عن موسى :**

يقول الكتاب إنه كان على الجبل مع الرب «أربعين نهاراً وأربعين ليلة» (خر ٣٤: ٢٨)، هل تظنون أن كتابة الوصايا العشر على اللوحين كانت تستغرق كل هذه المدة من الله؟! هل تحتاج كتابتها إلى يوم من الله، إلى ساعة أو دقائق، أو لحظة...؟!

إنما الله قد استبق موسى أربعين يوماً على الجبل ، لأنه صديقه وحبيبه وكليمه ... الله يفرح بوجود موسى معه لأنه إبنه ... وموسى يفرح بالوجود فى حضرة الرب يتمتع به ...

وإلا قولوا لى أية مهمة كانت تقتضى الأربعين يوماً ... كل الوصايا التى أخذها موسى من الله لا تستغرق أكثر من يوم واحد . أما الباقى ، فهو فترة دالة وصداقة ومحبة ...

إن الله له أصدقاء وأحباء ، قال لهم علانية «لا أعود أسميكم عبيداً ... بل أحباء» (يو ١٥ : ١٥) . قيل إنه «كان يحب مرثا وأختها ولعازر» (يو١١ : ٥) . وعندما بكى على لعازر، قال الناس «أنظروا كيف كان يحبه» (يو١١ : ٣٦) . والقديس يوحنا الإنجيلى قيل عنه مراراً «التلميذ الذى كان يسوع يحبه» .

- **إن الله له أحباء ، لهم دالة كبيرة عنده وفى أيديهم يضع مفاتيح السماء ... يستطيعون أن يفتحوا السماء ويغلقوها كما يشاءون ...**

كلمة عجيبة نسمعها من إيليا النبى الذى قال « لا يكون طل ولا مطر فى هذه السنين إلا عند قولى» (١مل ١٧ : ١) ... عبارة (إلا عند قولى) عبارة عجيبة وقوية . فلم يقل إيليا «عندما يشاء الله» أو «عندما يأذن الله» ، بل قال فى ثقة وحزم «إلا عند قولى» ... وفعلاً أغلقت السماء حسب قوله ، وظلت مغلقة ثلاث سنين وستة أشهر... وكان جوع وتعب لكل الناس ... ولكن ظلت السماء مغلقة تنتظر قول إيليا ... وعندما تكلم مرة أخرى ، أمطرت السماء ...

مفاتيح السماء هذه التى فى أيدى القديسين ، تكلم عنها الشيخ الروحانى فى حديث عن صلاتهم ومفعولها ، فقال عنهم إنهم يكونون «**ليس كمن يصلى ، وإنما كمن يتقبل الصلاة ، كإبن اؤتمن على خزائن أبيه ، يفتحها ويعطى منها للناس ...**» .

نسمع مثل هذا عن القديس المتنيح الأنبا ابرآم أسقف الفيوم ، يأتيه إنسان فى مشكلة فيقول له «روح يابنى هاتلاقيها اتحلت» . تأتيه إمرأة تطلب نسلاً ، فيقول لها «ماتزعليش السنة الجاية يكون عندك إبن ...» ، يقول هذا حتى بدون صلاة،

ويحدث ما يقول عنه . إنها بركات يوزعها على الناس ، وهبات أخذها من الآب السماوى يعطيها بحنان لطالبيها ... ألا تملكنا الغيرة عندما نسمع عن أمثال هؤلاء ومكانتهم عند الله ...

• وأحباء الله هؤلاء ، لا يكتفى بمنحهم هذه الهبات ، إنما أيضاً يدافع عنهم ، ولا يقبل فيهم كلمة سوء ...

مثال ذلك : موسى النبي ... تزوج إمرأة كوشية ، وكان يبدو أن هذا ضد الشريعة ، لأن الرب قد منع الزواج بالنساء الغريبات . وفعلاً تضايق بسبب هذا الزواج هرون أخو موسى ومريم أخته ، وتكلما عليه ... فصمت موسى ، لأنه كان حليماً جداً . ولكن الرب لم يصمت ، ولم يقبل أن يقول أحد كلمة رديئة عن حبيبه موسى حتى لو كان القائل هو هرون رئيس الكهنة ومريم النبية أخت موسى وهرون ...

فاستحضر الله هؤلاء الثلاثة ، ووبخ مريم وهرون توبيخاً شديداً وقال لهما « إن كان منكم نبي للرب ، فبالرؤيا استعلن له و فى الحلم أكلمه . **وأما عبدى موسى فليس هكذا ، بل هو أمين فى كل بيتى . فماً إلى فم وعياناً أتكلم معه** ... فلماذا لا تخشيان أن تتكلما على عبدى موسى ؟ » (عد ١٢ : ١-٨) ، وضرب الله مريم بالبرص ، فإذا هى برصاء كالثلج ... فأخرجوها خارج المحلة سبعة أيام ...

ما هذا يارب الذى تفعله ؟! يقول :

إنه موسى عبدى ، حبيبي الذى ائتمنه على كل بيتى ، وأكلمه فماً فلم ...

كيف أسمح هؤلاء أن يهينوه وأنا صامت ؟! لا بد أن ينالوا عقوبة ، لكى يوقروه ، وكل من يسمع يوقره أيضاً ... لعل مثل هذا يفهم من قول الله لأبينا ابراهيم « وأبارك مباركيك ، ولاعنك ألعنه » (تك ١٢ : ٣) ...

إنها كرامة عجيبة يعطيها الله لأحبائه . ليس فقط أن يكونوا مباركين ، بل أكثر من هذا أن يكونوا هم أنفسهم بركة (تك١٢ : ٢) ... كما كان إيليا بركة فى بيت الأرملة ، وكما كان يوسف بركة فى بيت فوطيفار وفى أرض مصر ، وكما كان أليشع بركة فى بيت الشونمية ...

• ومن الكرامة العجيبة التى يعطيها الله لأولاده ، المعجزات التى يجريها على أيديهم ...

معجزات كان يمكن أن يعملها الله بنفسه ولكنه يعهد بها إلى أحبائه، ليكرمهم فى أعين الناس ... إنسان مريض مثلاً يصلى إلى الله أن يشفيه . فبدلاً من أن يشفيه الله بنفسه، يرسل إليه الله أحد القديسين فيشفيه... يرسل سيدتنا العذراء أو مارجرجس أو القديسة دميانة . ويمجد الناس العذراء ومارجرجس والقديسة دميانة ... ويفرح الرب ... وينشد فى آذان هؤلاء القديسين : من يكرمكم يكرمنى ... أنا أكرم الذين يكرموننى ...

ونسأل الرب : إلى أى حد تكرمهم ؟ فيقول :

يجلسون على اثنى عشر كرسياً حولى ، ويدينون أسباط إسرائيل الإثنى عشر (مت ١٩: ٢٨)... نقول له يارب كيف يجلسون معك فى مجدك، أنت الذى تقف أمامك الملائكة ورؤساء الملائكة؟ يقول «أنا أكرم الذين يكرموننى» . ونسأله : كيف يجلس هؤلاء يارب على كراسى القضاء فى يوم الدينونة ، بينما أنت الديان وحدك ، ديان الأرض كلها ، الذى تدين الأحياء والأموات ، وقد دفعت إليك كل الدينونة من الآب (يوه: ٢٢)؟ يجيب إن لذتى فى بنى البشر... إننى أحبهم ، وسأكرمهم أكثر...

إن كنت أنا ديان الأرض كلها ، فسيدينون الأرض ...
وإن كنت أنا ملك الملوك ، فهم سيملكون معى ...
وإن كنت سأجيء فى مجدى على السحاب ، فسيأتون على السحاب معى

سيكونون فى كل حين معى ، حيث أكون أنا يكونون هم أيضاً ...

الله يكرم كل هؤلاء ، بمحبته لهم ، وبسكناه معهم ، وبدفاعه عنهم ، وباعطائهم مفاتيح السماء والأرض ، وبإعلان كرامتهم للناس حتى يكرموهم أيضاً ، وبالدالة التى يعطيهم إياها حتى يكلموه من جهة أحكامه...

هذه فكرة موجزة عن الدالة التى يجدها الأبرار عند الله ، والكرامة التى يمنحها لهم ...

وعلى الجانب الآخر نجد الخطية عكس هذا ...
الخطية هى : حرمان من الله ،
وحرمان من الملائكة ،
وحرمان من مجمع القديسين .



إن الإنسان الخاطىء إنما يحرم نفسه من الله ، يفصله ذاته وقلبه عن الله ...

فالخطية قبل كل شىء هى عدم محبة لله . لأنه واضح قول الرب « من يحبنى ، يحفظ وصاياى » (يو ١٤ : ٢٣ ، ٢٤) . وواضح أيضاً قول الرسول « إن أحب أحد العالم ، فليست فيه محبة الآب » (١يو ٢ : ١٥) . الذى يحب الله يلتصق به ، وبكل ما يقربه إليه ... أما الذى يميل بقلبه إلى الخطية فإنه يبعد عن محبة الله ، لأنه لا يستطيع أن يحب الله والخطية فى وقت واحد .

والخطية هى أيضاً عصيان الله ، وثورة على الله ، وتمرد عليه :

هى عدم مخافة الله ، تطورت إلى استهانة بوصاياه ، وإلى كسر لها ، أمام الله الذى يرى الإنسان أثناء ارتكابه للخطية ، فى سهولة . فهى إذن عدم حياء من الله ...

أما الأبرار فليسوا كذلك . هوذا يوسف الصديق عندما عرضت له الخطية يقول فى إباء وخشية « كيف أصنع هذا الشر العظيم ، وأخطىء إلى الله » (تك ٣٩ : ٩) ... لقد كان الله أمامه حينما عرضت الخطية عليه . وهكذا اعتبر أن الخطية هى ضد الله ذاته ، وأنه بها « يخطىء إلى الله » ... وليس فقط إلى المرأة وإلى زوجها ... وبهذا المعنى نفسه قال داود النبى لله « إليك أخطأت ، والشر قدامك صنعت » (مز ٥٠ : ٤) .

مادامت الخطية إذن موجهة إلى الله ، وقدام الله ، فهى إذن تمرد عليه ... إنها ثورة على ملكوته ، وثورة على قداسته وصلاحه ، ومحاولة لطرده من القلب ، وتمليك غيره مكانه ...

ولما كان الله غير محدود ، لذلك كانت الخطية الموجهة إليه غير محدودة ، عقوبتها غير محدودة مثله . وإن قدمت عنها كفارة لابد أن تكون كفارة غير

محدودة. وبهذا أصبح غفرانها لا يتم إلا بذبيحة المسيح، ويوضع هذه الخطية على كتفيه ليحملها عنا، بكل ما فيها من نجاسة وعار...

الخطية تمرد على الله، وهى أيضاً معاندة لروحه القدوس.



روح الله الذى فيك، يريدك أن تحيا فى القداسة التى تليق بأولاد الله وهو يعمل فيك للخير والبر. فإن سرت فى طريق الخطية، تكون معانداً للروح...

لذلك يقول الكتاب « ولا تحزنوا روح الله القدوس الذى به ختمتم » (أف ٤: ٣٠). إذن فكل من يرتكب إحدى الخطايا، إنما يحزن روح الله...

ويقول الكتاب أيضاً « لا تطفئوا الروح » (١ تس ٥ : ١٩).

إن روح الله عندما يعمل فى قلب إنسان. يلهبه بالحب، ويلهبه بالحماس نحو الخير، ويلهبه بالغيرة المقدسة على نشر ملكوت الله... لأن إلهنا نار آكلة (عب ١٢ : ٢٩). وكل من يحوى الله فى داخله إنما يحوى ناراً ملتهبة... لذلك قيل عن الله: «الذى خلق ملائكته أرواحاً، وخدامه ناراً تلتهب» (مز١٠٤: ٤). ولهذا أمرنا الرسول أن نكون «حارين فى الروح» (رو١٢: ١١). لأن كل من يعمل فيه روح الله، لابد أن يلتهب بالحرارة الروحية. أليس أن روح الله عندما حل على التلاميذ الأطهار، إنما حلّ عليهم بألسنة « كأنها من نار» (أع ٢:٣)؟!

لذلك كله، نقول أن من يفعل خطية، إنما يطفىء الروح كقول الكتاب... وإطفاء هذه الحرارة، يقوده إلى الفتور. وإذا استمر فى الفتور يصل إلى برودة روحية، بحيث لا يؤثر فيه شيء من الوسائط الروحية التى تلهب غيره من الناس...

ومع كل هذا يظل روح الله فيه، ولكن حزيناً، وحرارته منطفئة...

ولكن أخوف ما نخافه على الخاطىء أن يفارقه روح الله... كما فارق شاول الملك فبغته روح ردىء من قبل الرب (١صم ١٦ : ١٤). هذه الحالة المحزنة هى التى صرخ بسببها داود فى صلاته قائلاً «لا تطرحنى من قدام وجهك، وروحك القدوس لا تنزعه منى» (مز٥١: ١١)...

هذه الحالة الخطيرة هى التى يسمونها « التجديف على الروح القدس »..

التجديف على الروح القدس ، هو الرفض الكامل الدائم لعمل الروح القدس فى القلب... من كثرة الشر، يصل الإنسان إلى حالة من قساوة القلب ترفض كل عمل للروح حتى الموت... وحينئذ لا يمكن أن يتوب ، لأن التوبة تأتيه نتيجة لعمل الروح القدس فيه، لأن الروح يبكت الإنسان على الخطية (يو١٦: ٨) . وإذ لا يتوب لا يمكن أن ينال مغفرة . لأن القديسين قد قالوا « ليست خطية بلا مغفرة، إلا التى بلا توبة» . وهكذا قيل إن خطية التجديف على الروح القدس لا مغفرة لها...

لكننا لم نصل بعد إلى هذا الوضع المملوء يأساً ... مايزال روح الله يعمل فينا للتوبة... فعلينا أن نستسلم لعمل الروح ، ولا نرفضه ، بعناد ...

إن كنا قد أحزنا روح الله من قبل ، فلا نستمر فى إحزانه...

وإن كنا قد أطفأنا حرارته فينا ، فلا نستمر فى إطفائها ...

لا يصح أن نستمر فى عنادنا ، لئلا يفارقنا الروح ، فنشبه الهابطين فى الجب...

ليتنا نكره الخطية ، التى تعاند عمل روح الله فينا . فإن الخطية خاطئة جداً ، إنها فساد للطبيعة البشرية .



من أجل هذا قيل عن الخطاة أنهم « زاغوا وفسدوا » (مز ١٤ : ٣)...

إن الإنسان هو صورة الله ومثاله . ولكنه فى حالة الخطية لا يكون كذلك، بل يكون قد فسد، وفقد صورة الله ...

لذلك أنا لا أوافق ذلك الذى يسقط ، فيدافع عن سقوطه قائلاً « هكذا شأن الطبيعة البشرية » ... «أنا معذور، طبعى كده» !

كلا ، ليست هذه هى الطبيعة البشرية كما خلقها الله الصالح ، الذى بعد أن خلق كل شىء، نظر إليه فإذا هو حسن جداً (تك١ : ٣١) .

طبيعتك البشرية يا أخى هى فى أصلها صالحة جداً . إنما أنت تشكو فى **سقوطك من طبيعتك بعدما فسدت بالخطية**... هذا الفساد هو الذى شكا منه

الرسول قائلاً «أما أنا فجسدى مبيع تحت الخطية... ويحى أنا الإنسان الشقى، من ينقذنى من جسد هذا الموت» (رو٧: ١٤، ٢٤)...

إن الخطية تتلف طبيعتنا، وتجعل مستواها السامى ينحط ...

لذلك فالخطية إنحطاط ... تصوروا إنساناً فى مركزه العالى كإبن لله، يحط نفسه إلى المستوى الذى يصير فيه إبناً لإبليس ...

و يبلغ من الحطة أن يتحول النور الذى فيه إلى ظلام ...

و ينسى مركزه العالى، و يعمل كأحد أولاد الناس...

الخاطىء إنسان ينحط فى نظر نفسه، وتقل قيمته أو تنعدم فى نظر نفسه... وسأضرب لكم مثالاً: هل يستطيع إبن ملك أن يجلس على كوم من الزبالة؟ قطعاً لا يستطيع... كم بالأولى إذن إبن الله ؟! ...

والخاطىء أيضاً لا ينحط فقط فى نظر نفسه، وإنما أيضاً فى نظرته إلى الناس. مثال ذلك، شاب ينظر إلى إحدى الفتيات نظرة شهوانية... لاشك أنه لو كان سامياً فى تفكيره لقال فى نفسه: هذه الفتاة هى هيكل للروح القدس كيف ألمسه أو أنجسه ؟! لا يمكننى مطلقاً أن أفسد هيكل الله. لأن «إن كان أحد يفسد هيكل الله، فسيفسده الله لأن هيكل الله مقدس هو» (١كو٣: ١٧). إنما ينظر الفتى إلى الفتاة بشهوة لأن مستواها قد انحط فى نظره... هذه هى الخطية التى تفسد الطبيعة البشرية، وتحولها من هيكل لله إلى أداة للفساد ...

وهى لا تفسد الطبيعة البشرية فحسب. بل تفسد الأرض كلها ... ولذلك قيل فى سفر الرؤيا عن الزانية العظيمة إنها «أفسدت الأرض بزناها» (رؤ١٩: ٢).

وماذا عن الخطية أيضاً ؟



● **إن الخطية نجاسة :**

لذلك فالملائكة الذين سقطوا تلقبوا بالأرواح النجسة (مر٦: ٧).

والأمراض التى كانت ترمز للخطية - كالبرص - كانت تعتبر نجاسة وكذلك

الحيوانات النجسة.

ونرى أمثلة فى الكتاب المقدس عن نجاسة الخطية، حيث يقول الوحى الإلهى على فم حزقيال النبى «إن بيت إسرائيل لما سكنوا أرضهم، نجسوها بطريقهم وبأفعالهم. **كانت طريقهم أمامى كنجاسة الطامث**... (حز٣٦:١٧)، وعن كسر السبت يقول «نجسوا سبوتى» (حز ٢٠: ١٣). وعن أخطاء الكهنة يقول فى سفر نحميا «لأنهم نجسوا الكهنوت» (نح١٣:٢٩).

ومن جهة القتل يقول الكتاب «لأن أيديكم قد تنجست بالدم. وأصابعكم بالإثم» (أش٥٩: ٣). وعن الزنا يقول «ونجست الأرض بزناك. فامتنع الغيث...» (أر٣:٢).

ووصف الخطية بالنجاسة لا ينطبق فقط على خطايا الزنا والقتل، بل حتى على خطايا الفم واللسان أيضاً...

فمن خطايا اللسان يقول السيد المسيح نفسه «ليس ما يدخل الفم ينجس الإنسان، بل ما يخرج من الفم هذا ينجس الإنسان» (مت١٥:١١).

وقد أطلق الرب كلمة النجاسة على الخطية عموماً. فقال عن الأبرار «عندك أسماء قليلة... لم ينجسوا ثيابهم، فسيمشون معى فى ثياب بيض لأنهم مستحقون» (رؤ٣:٤). أما عن الخطاة فقال «أتيتم، ونجستم أرضى. وجعلتم ميراثى رجساً» (أر٢:٧).

إن عرفت كل هذا يا أخى، أن الخطية نجاسة، لا بد أنك ستنفر منها. ستشعر أنك فى حالة الخطية «إنسان نجس»!! ستشعر أن كل كلمة خاطئة تخرج من فمك، إنما هى تنجسك. لأن الذى يخرج من الفم هو الذى ينجس الإنسان.

• **ولما كان الزنى هو أبرز ما فى النجاسة، لذلك اعتبرت الخطية زنى...**
وهكذا يقول الكتاب عن خطايا بنى اسرائيل «زنت يهوذا»، «زنت إسرائيل» (حز١٦) أى أخطأت كل من هاتين المملكتين...

• **وماذا قيل عن الخطية أيضاً...**

قيل إنها عار: «عار الشعوب الخطية» (أم ١٤ : ٣٤).

وهى أيضاً مرض: وهكذا قيل عن فم أشعياء النبى «تركوا الرب، استهانوا

بقدوس إسرائيل... كل الرأس مريض، وكل القلب سقيم. من أسفل القدم إلى الرأس ليس فيه صحة، بل جرح وإحباط وضربة طرية لم تعصب ولم تلين بالزيت» (أش ١: ٥، ٦).

والخطية أيضاً جهل : جهل بالله، وبالإيمان، وبالخير، وبما ينبغي أن يكون... وهكذا قال الرب «الثور يعرف قانيه، والحمار معلف صاحبه، أما إسرائيل فلا يعرف، شعبي لا يفهم» (أش ١: ٣).

وماذا تكون الخطية أيضاً ؟ الخطية أيضاً نقص، وعيب، وضلال، وعمى، وظلمة، ونسيان لله... وهي أيضاً ظلمة لأنها بعد عن النور الذى هو الله. ولذلك حسناً قيل عن الخطاة أنهم «أحبوا الظلمة أكثر من النور» (يو٣: ١٩)، وقيل أيضاً «أما الجاهل فيسلك في الظلام» (جا٢: ١٤).

أمران يجعلاننا ننفر من الخطية :
طبيعة الخطية البشعة،
ونتائج الخطية المريعة.

فما هى إذن : نتائج الخطية ؟

□

الفصل الثالث

إن عرفت نتائج الخطية
تنفر من الخطية

من نتائج الخطية الخوف والقلق :

١ الخوف والقلق

إنها تفقد السلام الداخلى ، وتملأ القلب بالخوف والإضطراب . إن القديس لا يخاف . ولذلك قال داود النبى «إن يحاربنى جيش ، فلن يخاف قلبى . وإن قام علىّ قتال ، فى هذا أنا مطمئن» (مز٢٦) . أما الخاطىء ، فهو على الدوام خائف ، فاقد لسلامه «لا سلام، قال الرب للأشرار» (أش ٤٨ : ٢٢) . وقال أيضاً «الأشرار كالبحر المضطرب» (أش٥٧ : ٢٠) .

لقد بدأ الخوف مع الخطية الأولى ، خطية آدم وحواء ...

لم نسمع عن آدم أنه كان يخاف الله قبل الخطية . بل على العكس عندما كان الله ينزل إلى الجنة كان آدم وحواء يقابلانه بفرح ويلتذان بالحديث معه . أما بعد الخطية ، فنقرأ أن آدم قد اختبأ خوفاً من وجه الله فى وسط أشجار الجنة . ولما ناداه الرب ، صرح آدم بخوفه قائلاً «سمعت صوتك فى الجنة فخشيت ، لأنى عريان ، فاختبأت» (تك٣ : ١٧) .

تصوروا أن الله المحبوب الذى يشتهى كل أحد أن يراه ، يصبح مخيفاً للخاطىء فيهرب من رؤيته !!

الله الذى هو «أبرع جمالاً من بنى البشر» ، «الذى حلقه حلاوة وكله مشتهيات» ، يصبح مخيفاً للخاطىء ! عندما يراه الخاطىء يخاف ، أو يهرب منه

ويختبىء منه لكى لا يراه !!

النفس المحبة لله تقول مع عروس النشيد « إنى أقوم فى المدينة فى الأسواق وفى الشوارع أطلب من تحبه نفسى ». وإن وجدته تقول « أمسكته ولم أرخه » (نش ٣: ٢، ٤). أما النفس الخاطئة فلا تضع أمامها سوى الآية التى تقول «مخيف هو الوقوع فى يدى الله الحى » (عب١٠ : ٣١).

فالله مخيف بالنسبة إلى الأشرار. وأما الأبرار فهم أصدقاء الله يفرحون به. قال القديس الأنبا أنطونيوس الكبير لتلاميذه « يا أولادى، أنا لا أخاف الله ، فتعجبوا من عبارته وأجابوه « هذا الكلام صعب يا أبانا » ، فقال لهم « ذلك لأنى أحبه ، ولا خوف فى المحبة ، بل المحبة تطرح الخوف إلى الخارج » (١يو٤ : ١٨).

تخيلوا معى يا إخوتى ، أن الله قد حضر الآن فى وسطنا. ترى كم واحد منا يفرح لمجيئه، ويدخل تحت أحضانه ؟... وكم واحد يهرب ويخاف ؟!

الخطاة يخافون لقاء الله ، لذلك يخافون الموت ويرتعبون منه ... يخافون ساعة الدينونة الرهيبة التى سينكشفون فيها أمام الكل... أمام الأعداء الذين يشمتون بهم ، وأمام الأصدقاء الذين كانوا يظنونهم غير ذلك ، أنقياء وأبراراً... لذلك عندما تأتى تلك الساعة « يقولون للجبال غطينا ، وللتلال اسقطى علينا » (لو٢٣ : ٣٠، هو١٠ : ٨). هؤلاء سيطلبون الموت ولا يجدونه ، ويرغبون أن يموتوا فيهرب الموت منهم » (رؤ٩ : ٦).

حقاً إن آدم عندما أخطأ بدأ يخاف ... زحف شىء جديد رهيب إلى داخل نفسه لم يكن موجوداً فيها من قبل... هو الخوف ، والرعب وفقدان السلام.

إن هذا الخوف الذى خاف به آدم من الله هو مبدأ الأمراض النفسية التى أصابت البشرية نتيجة للخطية ، لأن النفس بهذا الخوف بدأت تمرض.

إن الشخص البار محتفظ بسلامه ، هادىء ومسرور . أما الخاطىء فيفقد سلامه من الداخل ومن الخارج . **من الداخل ضميره يثور عليه... والروح القدس يبكته. ومن الخارج يخاف أن تنكشف الخطية كما يخاف من نتائجها وعواقبها.**

لم نر أبداً إنساناً خاطئاً يعيش على الدوام مستريح البال مهما نام ضميره. لابد أن يستيقظ هذا الضمير بعد حين ويثور عليه ويتعبه.

من أمثلة عذاب الضمير قصة تقال عن بيلاطس :

كان بيلاطس يعرف أن المسيح بريء ، ولذلك قال « ها أنا قد فحصت قدامكم ، ولم أجد فى هذا الإنسان علة مما تشتكون به عليه » (لو ٢٣ : ١٤) . وإذ كان جالساً على كرسى الولاية أرسلت إليه إمرأته قائلة « إياك وذلك البار . لأنى تألمت اليوم كثيراً فى حلم من أجله » . ولكنه أمر بحكم الموت ضد ضميره . ولأجل أن يريح ضميره راحة زائفة ، أخذ ماءاً وغسل يديه قدام الجميع قائلاً : إنى بريء من دم هذا البار» (مت ٢٧ : ٢٤) .

وتقول القصة إن بيلاطس عندما خلا إلى نفسه فى منزله ، وجد يديه ملطختين بالدماء فغسلها مرة ثانية . ولكن الدم لم يفارقهما . فغسلهما للمرة الثالثة وهو يقول «أنا بريء من دم هذا البار» . ولكنه عاد ووجد الدم مايزال يلطخهما . فاستمر يغسلهما مرات عديدة وهو يصرخ فى رعب قائلاً «أنا بريء من دم هذا البار» . إنها قصة تصور لنا مقدار الرعب وفقدان السلام الذى يصيب الخاطىء نتيجة لخطيئته .

إن الخطية متعبة . وقد لا يحس الإنسان بمقدار خطورتها إلا بعد وقوعها ، وربما بعد وقوعها بمدة ، حين يستيقظ الضمير ، من تلقاء نفسه أو بمؤثر خارجى ...

□

ومن أمثلة عذاب هذه اليقظة المتأخرة للضمير . قصة يهوذا الإسخريوطى

إن يهوذا لم يشعر ببشاعة خيانته فى بادىء الأمر . كان مشغولاً بالتآمر والمقابلات والإتفاقات . وكان مشغولاً بالمال وتسلمه . وبميعاد ومكان تسليم سيده . حتى إنذارات الرب له لم يحس بها . وأخيراً عندما حوكم السيد المسيح وحكم عليه بالصلب ... إستيقظ ضمير يهوذا ، وظل يعذبه ، فوجد نفسه أمام خطيئة بشعة ومرعبة . وبدأ يتذكر كلام الرب للتلاميذ «أنتم طاهرون ولكن ليس كلكم» ، « واحد منكم سيسلمنى » ... «إبن الإنسان ماض كما هو محتوم . ولكن ويل لذلك الإنسان

الذى يسلمه» (لو ٢٢: ٢٢)... وتذكر يهوذا أيضاً قول الرب له: ما تريد أن تعمله فاعمله بأقصى سرعة. ثم كلمة المسيح الأخيرة له «ياصاحب لماذا جئت» (مت ٢٦: ٥٠)، «أبقبلة تسلم ابن الإنسان» (لو٢٢:٤٨).

ولم يستطع يهوذا أن يحتمل كل هذا، وأتعبه ضميره جداً، فقام وذهب لرؤساء الكهنة «ورد الثلاثين من الفضة قائلاً: قد أخطأت إذ أسلمت دماً بريئاً. فقالوا ماذا علينا أنت أبصر. فطرح الفضة فى الهيكل وانصرف» (مت ٢٧: ٣). ومع كل هذا استمر ضمير يهوذا يعذبه وظل يعذبه بلا هوادة. وتسمرت صورة خطيئته فى عمق بشاعتها أمام عينيه... وأخيراً «مضى وخنق نفسه» (مت٢٧:٥).

يا إخوتى ما أبشع الخطية، وما أكثر رعبها، عندما يستيقظ الضمير إن الإنسان قد لا يحس بمرارتها طالما هو فى دوامة من الخطايا أو من المشغوليات. ولكن بمجرد أن ينتبه لنفسه أو يرجع لذاته، يتعب ويتألم من منظر خطيئته.

لذلك فإن بعض المجرمين يذهبون ويسلمون أنفسهم للعدالة معترفين بجرائمهم... لأنهم لم يستطيعوا أن يحتملوا تأنيب الضمير ولا القلق الداخلى الذى يتعبهم وفقدان السلام الناتج عن إحساسهم بالإثم. لذلك صدق قول الكتاب «لا سلام قال الرب للأشرار» (أش٤٨: ٢٢).

وهناك قاعدة هامة عند علماء النفس تقول إن المجرم يظل يحوم حول مكان الجريمة فى الأيام الأولى لحدوثها. لأنه يكون قلقاً وخائفاً من اكتشاف أمره. ويقول فى نفسه «يا ترى هل تركت أثراً أم لم أترك. وهل عرف رجال البوليس أم لم يعرفوا؟!». من أجل هذا فإن رجال النيابة والشرطة عندما يكتشفون جريمة يترصدون مكانها متخفين، لكى يكتشفوا كل الأشخاص المشتبه فيهم الذين يحومون حول المكان.

ومن أمثلة الخوف والقلق وفقدان السلام، ما حدث لقايين بعد خطيته:
عاش تائهاً وهارباً فى الأرض، خائفاً أن يقتله أحد كما قتل أخاه، شاعراً أن الله قد طرده عن وجه الأرض، وطرده من أمام وجهه (تك٤: ١٣، ١٤). وبهذا القلق قضى قايين حياته فى خوف. ولم يستفد من خطيته شيئاً... تطارده خطيته، ويطارده صوت أخيه الصارخ من الأرض.

هكذا الأمراض النفسية التى تصيب الخطاة نتيجة للقلق والخوف والإنزعاج والإضطراب وتوقع الشر باستمرار.

أما الأبرار فعلى العكس من ذلك يعيشون فى فرح وسلام ...

هم فى فرح مستمر، لا يضطربون، ولا يقلقون، ولا ينزعجون من الداخل. فالكتاب المقدس يقول «من ثمار الروح القدس محبة، فرح، سلام» (غل٥: ٢٢). إذن فالشخص الذى لا يعيش فى سلام، لا توجد فيه ثمار الروح القدس.

قيل عن القديس الأنبا أنطونيوس، فى القصة التى كتبها عنه القديس أثناسيوس الرسولى «مَن مِن الناس كان مضطرب النفس أو منزعج القلب، و يرى وجه الأنبا أنطونيوس، إلا ويمتلىء بالسلام». مجرد رؤية وجه الأنبا أنطونيوس -فى هدوئه وفرحه- كانت تملأ القلب بالسلام.

ليس كذلك الخطاة، ليسوا كذلك، بل هم فى حزن وعذاب، وبخاصة عندما يستيقظ ضميرهم و يلهبهم بسياطه. وقد أخذنا فكرة عن عذاب الأشرار كيهوذا وقايين...

ونريد أن نأخذ مثالاً عن عذاب الضمير للقديسين ممثلاً أفضل تمثيل فى قصة داود النبى:

فى أثناء الخطية، كان داود النبى فى نشوة اللذة الجسدية، فلم يشعر بخطورة ما كان يفعل...! حتى أنه أتبع خطية الزنى بخطية القتل، دون أن يتحرك ضميره أو يتحرج. ولكن بعد أن واجهه ناثان بخطيته، وبدأ يحس خطورة ما فعل، حينئذ استيقظ ضميره وبدأ يتعبه على الرغم من قول النبى له «الرب قد نقل عنك خطيئتك، لا تموت» (٢صم١٢: ١٣).

عندما استيقظ ضميره، بلل داود فراشه بدموعه. وصارت دموعه له طعاماً نهاراً وليلاً، ولصقت بالتراب نفسه، وعاش فى مذلة من نفسه، وصرخ إلى الرب قائلاً «إن عظامى قد اضطربت، ونفسى قد انزعجت جداً» (مز٦). ورضى بالمذلة من أجل خلاص نفسه، وقال فى ذلك «خير لى يارب أنك أذللتنى لكى أتعلم ناموسك» (مز١١٨).

حقاً إن الإنسان عندما تتكشف له خطاياه ، يصير من عذاب ضميره وكأنه فى جحيم .

هل تظنون أن « البكاء وصرير الأسنان » يكونان فقط فى البحيرة المتقدة بالنار والكبريت ؟ كلا ، بل يكونان على الأرض أيضاً ، عندما يتعذب الإنسان فى قلبه من هول خطاياه ...

يحدث هذا فى أوقات التوبة ، عندما يحس الإنسان التائب مقدار بشاعة خطيته ، ويبكى عليها بدموع وحرقة قلب ، ويلوم نفسه قائلاً : أين كان عقلى وتفكيرى عندما فعلت هذا ؟! ... ويظل ضميره يؤنبه ، فتصطك أسنانه من الألم والندم والخزى والعار والشعور باحتقار الذات ...

وفى الحقيقة خير للتائب أن يقاسى « البكاء وصرير الأسنان » ههنا على الأرض ، من أن يقاسيه هناك فى الأبدية على غير رجاء ...

رأينا أنه من نتائج الخطية الخوف ، وفقدان السلام الداخلى ، والمرارة ، وعذاب الضمير... على أن هناك نتائج أخرى للخطية ...

نتائج أخرى للخطية

الخطية تغير الإنسان تغييراً كلياً ، ومن نتائجها :

١ ـ فقد الصورة الإلهية :

خلق الإنسان على صورة الله ومثاله . ولكنه فى حالة الخطية لا يحتفظ بهذه الصورة الإلهية ، بل يفقدها . يفقدها من الداخل ومن الخارج أيضاً إذ تترك الخطية طابعها على وجهه وملامحه ، وعلى صوته وإشاراته بل تترك الخطية طابعها على زيه وملابسه . وحتى كلماته أيضاً وأسلوبه ولغته تعبر عن الخطية الكامنة فيه ، حسبما قيل « لغتك تظهرك » (مر ١٤ : ٧٠) . من أجل هذا قال معلمنا القديس يوحنا الحبيب « بهذا أولاد الله ظاهرون ، وأولاد إبليس (ظاهرون) » (١يو٣ : ١٠) .

فأنت أيها الأخ يا من غيرت الخطية شكلك وطباعك ، وأنت أيتها الأخت يا من غيرت الخطية وجهك وملابسك وصوتك . إرجعا إلى الله بالتوبة . وستغيركما التوبة فى كل شىء ، وتعيد إليكما الصورة الإلهية التى فقدتماها ...

وكما يفقد الإنسان صورته الإلهية بالخطية ، كذلك يفقد كرامته ...

٢ ـ فقد الكرامة :

كان الإنسان قبل الخطية نفخة قدسية خرجت من فم الله ، كان صورة الله ومثاله . أما بعد الخطية فإن الرب يقول له « أنت تراب ، وإلى التراب تعود » . عاد تراباً كما كان ، ولم يستحق أن يدعى صورة الله . اشتهى أن يكون له مجد الألوهية ، ففقد مجد البشرية الذى كان له .

ولأنه ـ كالحيوانات ـ إشتهى أن يأكل ، لذلك أعطاه الرب أن يأكل العشب (تك ٣ : ١٨) الذى كان من قبل طعام الحيوانات (تك١ : ٣٠) ..

وضاعت هيبته على الحيوانات وأصبح يخافها وصارت لها إمكانية أن تأكله بعد أن كان سيداً عليها جميعاً (تك ١ : ٢٦)... حتى الحية أصبح فى إمكانها أن تسحق عقبه (تك٣ : ١٥) .

حتى الأرض تمردت عليه ... وأصبحت تنبت له شوكاً وحسكاً (تك ٣ : ١٨) ، بل إن أقسى عبارة فى تمرد الأرض على الإنسان تظهر فى قول الله « متى عملت الأرض لا تعود تعطيك قوتها » (تك٤ : ١٢) ...

الإنسان الخاطىء هو إنسان فاقد للكرامة ، فاقد للإحترام . هو لعبة فى أيدى الشياطين وفى أيدى الأشرار ، ليست له هيبة ... بل أنه يفقد إحترام ذاته لذاته .

أنظروا إلى الإبن الضال ، وكيف صار يشتهى الخرنوب الذى تأكله الخنازير ، وكيف تمنى أن يكون كأحد الأجراء فى بيت أبيه ... ! بل أنظروا إلى نبوخذ نصر الملك وكيف مذعوا عنه جلاله وصار كأحد الحيوانات (دا٥ : ٢ ، ٢١) . وشمشون الجبار ، كيف أنه بالخطية فقد قوته وفقد كرامته ، وأذله وهزأ به أهل فلسطين (قض١٦ : ١٩-٢٥) .

لا يخدعك الشيطان يا أخى ، إذ يصور لك فى الخطية ملاذاً وشهوات ، ويعدك بكرامات وإغراءات . وعندما تذوق الخطية تجدها فى الآخر مرة كالعلقم ، تقودك إلى الذل ، وتفقدك كل شيء ... وتورثك الكآبة والضيق ، وتقودك إلى اليأس ، وتغطى بالخزى وجهك ...

وكما تفقد فيها صورتك الإلهية وكرامتك ، كذلك تفقد بساطتك ونقاوتك ...

٣ ـ فقد البساطة والنقاوة :

الإنسان البار هو إنسان نقى ، لا يعرف سوى الخير . أما عندما يخطىء ، فإنه يبدأ أن يعرف الشر أيضاً ، وهكذا يفقد بساطته . وينظر إلى الأمور بغير نظرته الأولى . ويعرف أموراً جديدة تسيئه معرفتها ، ويتمنى لو كانت تزول من فكره...

كان آدم وحواء عريانين فى الجنة ـ قبل الخطية ـ ولا يخجلان . يعيشان فى بساطة لا تعرف الدنس . ولكنهما بالخطية فقدا بساطتهما ، واضطرا أن يصنعا لهما مآزر...

وأنت أيها الأخ ، ماذا فعلت الخطية بك ؟ هل أفقدتك بساطة فكرك ، ونقاوة قلبك . هل غيرت نظرتك إلى الناس ، ونظرتك إلى نفسك ، ونظرتك إلى الأمور . ما أبشع هذا التغير . ليتك لا تتمادى ، حتى لا تفقد ما بقى لك من بساطة ومن نقاوة...

ليتك ترجع إلى الله بالتوبة ، حتى ترجع إليك نقاوتك الأولى . ويمنحك الرب ثوباً جديداً ، أبيض...

□

الفصــل الرابع

ها قد عرفت في الفصل السابق نتائج الخطية وما يمكن أن تحطمه في داخل النفس البشرية حيث تفقد صورتها الإلهية وبساطتها ونقاوتها وتورثها الخوف والقلق والعذاب والخزى والهوان، وبق أن تأخذ فكرة عن عقوبة الخطية ...

إن عرفت عقوبة الخطية تخاف من الخطيّة

ينبغي أن نعرف جيداً أن الله كما أنه رحيم ولا حدود لرحمته ، كذلك **هو أيضاً عادل** ولا حدود لعدله ...

وكما أنه شفوق يغفر الخطية ، كذلك هو قدوس يكره الخطية ...

غير أن البعض ـ للأسف الشديد ـ يستغل مراحم الله إستغلالاً رديئاً يقوده إلى الإستهتار وإلى الخطية، معتمداً إعتماداً زائفاً على مراحم الله !!

مثل هذا يخطىء كما يريد ، وإن وبخته يقول لك « إن الله رحيم ... وحنون ... وطيب ... لا يصنع معنا حسب خطايانا ، ولا يجازينا حسب آثامنا ...! الذى غفر للمرأة الزانية يغفر لى ، والذى غفر لزكا العشار يغفر لى أنا أيضاً ... والذى غفر لأوغسطينوس يغفر لى ويسامحنى ... والذى قبل إليه مريم القبطية وموسى الأسود ، يقبلنى أنا أيضاً معهم » ... !!

يقول هذا ، وينسى التوبة العجيبة العميقة التى كانت لأولئك القديسين ، والتى بسببها قبلهم الرب إليه. تلك التوبة التى كانت حداً فاصلاً فى حياتهم ، وتغييراً كلياً لسيرتهم ، فلم يرجعوا إلى الخطية مرة أخرى مطلقاً ، بل كانوا كل يوم يزدادون فى النعمة وينمون فى محبة الله ... ولم تكن رحمة الله لهم مجالاً للإستهتار أو للإستمرار فى الخطية ، حاشا ...

ينبغي أن نفهم عدل الله ورحمته فهماً سليماً يقودنا إلى التوبة. وفى هذا المجال ما أجمل أن نورد ما ذكره القديس بولس الرسول عن «لطف الله وصرامته» ...



هكذا قال الرسول العظيم معلماً :
« هوذا لطف الله وصرامته ،
أما الصرامة فعلى الذين سقطوا ،
وأما اللطف فلك ، إن ثبت فى اللطف ،
وإلا ، فأنت أيضاً ستقطع ... » .
(رو ١١ : ٢٢) .

لا يصح إذن أن نعتمد على لطف الله ، وننسى صرامته ...
ولا يصح أن نعتمد على رحمة الله ، وننسى عدله ...

رحمــة الله عــادلة :

إن صفات الله لا تنفصل عن بعضها البعض ، بحيث تقف واحدة منها مستقلة عن الأخرى. إنما نذكرها أحياناً منفردة، من جهة التفاصيل وليس من جهة الفصل، لكي يفهمها الناس. ولكنها متحدة لاهوتياً ...

الله عادل فى رحمته ، ورحيم فى عدله . عدله رحيم ، ورحمته عادلة. عدله مملوء رحمة، ورحمته مملوءة عدلاً. ولا يمكن أن نفصل رحمته عن عدله ...

هذه الوحدة القائمة بين الرحمة والعدل هى أساس عمل الفداء.

لو كانت رحمة الله قائمة بذاتها ـ بدون العدل ـ لكان يكفى برحمته أن يقول للبشر « مغفورة لكم خطاياكم » ، و ينتهى الأمر، بدون صلب ...

لكنه بالرحمة غفر الخطية ، وبالعدل دفع ثمن الخطية ...

ولأن الله عادل ، تجسد ومات عنا ، ليدفع ثمن خطيئتنا ...

العدل لا بد أن يستوفى حقوقه ، حتى لو أدى الأمر أن يأخذ الله جسداً، و يصير فى الهيئة كإنسان، و يأخذ شكل العبد، ويهان و يصلب و يتعذب ويموت ...

إن كان هكذا عدل الله ، فأين نهرب من عدله ؟

يمكن أن تشبه معاملة الله لك أحياناً بالمرآة : فكما أنك تنظر إلى المرآة في وقت ما فترى وجهاً بشوشاً فرحاً ، وتنظر إليها في وقت آخر فترى وجهاً حزيناً عابساً ، مع أن المرآة واحدة... هكذا - كالمرآة- يريك الله حالتك... تنظر إلى وجه الله ، فترى حالتك من الداخل . إن كنت تائباً ، ترى الله في لطفه . وإن كنت مستهتراً ، ترى الله في صرامته .

لطف الله وصرامته يمثلها الملاك الذى ظهر للمريمتين عند القبر...

هذا الملاك كان مخيفاً ومفرحاً ... كان مخيفاً للحراس لدرجة أن الكتاب المقدس يقول عنه «فمن خوفه ارتعد الحراس وصاروا كأموات» (مت ٢٨ : ٤) . ونفس هذا الملاك كان سبب فرح للمرأتين ومصدراً لبشرى مفرحة... هكذا الله مخيف للبعض ومفرح للبعض الآخر.

ولطف الله وصرامته يظهران عموماً في عمل الملائكة :

كلنا نتكلم عن ملائكة الرحمة . فهل ننسى أنهم أيضاً ملائكة للعقوبة والإهلاك ؟

نحن نعلم أن ملاكاً أيقظ إيليا النبي وهو جوعان ، وأعطاه طعاماً ليأكل . ومشى إيليا بقوة تلك الأكلة التي أخذها من الملاك أربعين يوماً (١مل١٩: ٦-٨) .

ونعلم أن ملاكاً أرسله الله إلى هاجر عندما أشرف إبنها على الموت عطشاً ، ففتح عينيها فأبصرت بئر ماء ، وشرب ولدها وعاش (تك٢١: ١٥-١٩) .

ونعلم أن ملاكاً نزل إلى الجب ، وسد أفواه الأسود فلم تضر دانيال (دا٦: ٢٢) .

كذلك ذهب ملاك إلى السجن ، وأخرج بطرس منه بعد أن فك السلسلتين من يديه (أع١٢: ٧-١٠) .

ويعوزنا الوقت أن نشرح عمل الملائكة الحالة حول المؤمنين وتنجيهم ، والملائكة المبشرة بالخيرات ، والملائكة التي هي «أرواح خادمة مرسلة للخدمة لأجل العتيدين أن يرثوا الخلاص» (عب ١: ٤) . غير أن طبيعة الملائكة الرحيمة لم تمنع أن تكون الملائكة أيضاً للضرب والعقوبة والإهلاك .

وسنضرب الآن أمثلة لملائكة أرسلهم الله للإهلاك والعقوبة :

من أمثلتهم الملاك المهلك الذى ضرب كل أبكار المصريين ، فماتوا جميعهم فى ليلة واحدة «من بكر فرعون الجالس على كرسيه إلى بكر الأسير الذى فى السجن، وكان صراخ عظيم فى مصر، لأنه لم يكن بيت ليس فيه ميت» (خر١٢: ٢٩، ٣٠)

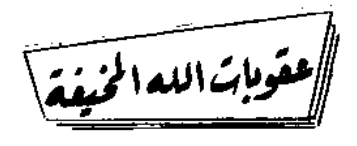
كذلك الملاك الذى رفع سيفه على أورشليم عندما أخطأ داود النبى وعد الشعب . ومات فى ذلك اليوم سبعون ألف رجل (١أى٢١: ١٤) .

ومن أمثلة ملائكة الإهلاك الملائكة السبعة أصحاب الأبواق الذين ورد ذكرهم فى سفر الرؤيا ، وذكر ضرباتهم المخيفة (رؤ٨: ٩) .

ولا ننسى أن أول ذكر للملائكة فى الكتاب المقدس كان مرعباً ، إذ طرد الله الإنسان من جنة عدن ، وأرسل الكاروبيم بسيف من نار لحراسة طريق شجرة الحياة حتى لا يأكل منها الإنسان (تك٣: ٢٤) .

ولعل اللطف والصرامة يتجليان فى وقت واحد فى الملاكين المرسلين إلى لوط ، أنقذاه وفى نفس الوقت ضربا الناس الأشرار بالعمى (تك١٩: ١٠، ١١) . كما يتجليان معاً فى قصة أليشع النبى مع نعمان السريانى ، إذ شفى نعمان من برصه ، وجعل البرص الذى كان عند نعمان يلصق بجيحزى «فخرج من أمامه أبرص كالثلج» (٢مل٥: ١٤-٢٧) .

إن كان الله هكذا فى لطفه وصرامته ، وهكذا أيضاً ملائكته وأنبياؤه ، فلنخف نحن أيضاً لئلا نتعرض لصرامة الله بسبب خطايانا ...



إن رحمة الله التى لا تحد ، لم تمنع ورود أمثلة لعقوبات مخيفة ، أوقعها العدل الإلهى على البشرية ، بسبب خطايا الإنسان التى تحدت قداسة الله ، وقاومت صلاحه ، وكسرت وصاياه...

● **مثال ذلك الطوفان ، الذى محا الله فيه الإنسان من على وجه الأرض ...** (تك٦: ٧) .

● **مثال آخر هو حرق سدوم وعمورة ...**

إذ أمطر الله عليها كبريتاً وناراً من السماء «وقلب تلك المدن وكل الدائرة ،

وجميع سكان المدن ونبات الأرض... ونظرت إمرأة لوط إلى الوراء فصارت عمود ملح» (تك١٩: ٢٤-٢٦).

... ونحن نقف أمام الطوفان ، وأمام حرق سدوم وعمورة ونتعظ ونفكر ...

من قال إن خطايانا هى أقل من خطايا سدوم ؟!

أو أقل من خطايا الناس وقت الطوفان ؟!

أو أقل من خطية إمرأة لوط التى صارت عمود ملح ؟!

ومن قال إن الله الذى أوقع هذه العقوبات فى القديم ، قد تغير فى العهد الجديد ؟!

أليس « هو هو ، أمساً واليوم وإلى الأبد » (عب ١٣ : ٨) «ليس عنده تغيير ولا ظل دوران» (يع ١: ١٧)...

• **هو أيضاً الذى فى العهد الجديد أوقع حنانيا وسفيرا ميتين**... من أجل أنهما كذبا فى حديثهما مع بطرس الرسول... وكم من الناس يكذبون أثناء حديثهم مع الآباء الأساقفة والآباء الكهنة بل مع الآباء البطاركة أيضاً... !

• وهو أيضاً الذى سمح لعبده بولس أن يقول عن خاطىء كورنثوس : «**حكمت ... أن يسلم مثل هذا للشيطان لإهلاك الجسد** ، لكى تخلص الروح فى يوم الرب يسوع» (١ كو٥: ٥).

• ومن أعنف ما ورد فى الكتاب المقدس عن عقوبات الله للخطاة : **اللعنات التى صبها الله على من يعصى وصاياه.**

وقد وردت قائمة بهذه اللعنات فى سفر التثنية إذ يقول الرب :

« ولكن إن لم تسمع لصوت الرب إلهك لتحرص أن تعمل بجميع وصاياه وفرائضه... تأتى عليك جميع هذه اللعنات وتدركك :

ملعوناً تكون فى المدينة ، وملعوناً تكون فى الحقل ،

ملعونة تكون سلتك ومعجنك ،

ملعونة تكون ثمرة بطنك وثمرة أرضك ، نتاج بقرك وإناث غنمك ،

ملعوناً تكون فى دخولك ، وملعوناً تكون فى خروجك .

يرسل الرب عليك اللعن والإضطراب والزجر فى كل ما تمتد إليه يدك لتعمله ،

حتى تهلك وتفنى سريعاً من أجل سوء أعمالك إذ تركتنى ...

تكون سماؤك التى فوق رأسك نحاساً ، والأرض التى تحتك حديداً ...

يجعلك الرب منهزماً أمام أعدائك ، فى طريق واحدة تخرج عليهم ، وفى سبع طرق تهرب أمامهم .

وتكون قلقاً فى جميع ممالك الأرض ...

ولا تنجح فى طرقك ، بل لا تكون إلا مظلوماً مغصوباً كل الأيام ، وليس مخلص ...

أيضاً كل مرض وكل ضربة - لم تكتب فى سفر الناموس هذا - يسلطها الرب عليك حتى تهلك ...

وتكون حياتك معلقة أمامك ، وترتعب ليلاً ونهاراً ، ولا تأمن على حياتك .

فى الصباح تقول ياليته المساء ، وفى المساء تقول ياليته الصباح ، من ارتعاب قلبك الذى ترتعب ، ومن منظر عينيك الذى تنظر ... » (تث٢٨: ١٥-٦٨) .

حقاً مخيفة ومرعبة هى هذه اللعنات . ومن شدة ما فيها من رعب ، أصمت عن تسجيل جميعها ...

إنها تعطينا فكرة عن قداسة الله التى لا تتساهل مطلقاً مع الخطية ، وتعطينا فكرة عن عدل الله الذى يجازى الخطية حسب ما فيها من بشاعة ، فليتنا نقرأ كل هذا ونتعظ ونتوب ... تاركين الخطية التى تسبب كل هذه اللعنات ...

● حقاً إن اللعنة دخلت إلى العالم نتيجة الخطية :

عندما أخطأ آدم ، قال له الرب « ملعونة الأرض بسببك » (تك٣: ١٧) . ثم تطور الأمر فزحفت اللعنة إلى الإنسان ذاته ، وهكذا قال الرب لقايين « ملعون أنت من الأرض التى فتحت فاها لتقبل دم أخيك من يدك » (تك٤: ١١) « ملعون أنت ... » تماماً مثلما قال للحية من قبل « ملعونة أنت ... » (تك٣: ١٤) . وهكذا تشابه الإنسان الخاطىء مع الشيطان « الحية القديمة » وحق أن يسمى الخطاة بأنهم « أولاد إبليس » (١يو٣: ١٠) ، أو أنهم « أولاد الأفاعى » (مت٣: ٧) .

ثم كانت لعنة الطوفان ، التى هى لعنة الإفناء (تك٨: ٢١) .

ثم كانت لعنة العبودية التى وقعت أولاً على كنعان ، حيث قيل له « ملعون كنعان . عبد العبيد يكون لإخوته » (تك٩: ٢٥) .

ثم كانت لعنات الناموس (تث ٢٨) التى شملت عقوبات عديدة ... كان منها الموت والمرض والوباء والفقر والفشل والظلم والقلق والهزيمة ...

وفى العهد الجديد لعن السيد المسيح شجرة التين المورقة غير المثمرة (مر١١ : ٢١) التى تعطى فكرة عن الرياء مع عدم التقوى ، وكانت رمزاً لكل من يسلك هذا السبيل .

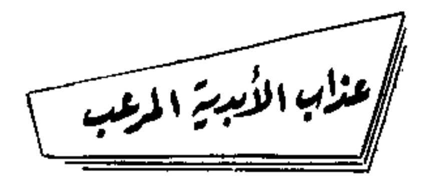
حقاً من يقرأ كل هذا ولا يخاف ؟!

ومن يحتمل أن يلعنه الله ؟!

بل من يحتمل أن يفقد البركة التى أخذها أولاً من الرب ؟!

فلنتب يا إخوتى لأن كل هذه الأمور قد تركت لنا مثالاً ، وكتبت لإنذارنا ، نحن الذين انتهت إلينا أواخر الدهور (١كو١٠ : ١١) .

ولنغسل خطايانا بدموع التوبة ، قبل أن يلحقنا يوم الدينونة الرهيب حيث لا ينفع بكاء ولا توبة .



إن مجرد التفكير فى يوم الموت و يوم الدينونة ، يبعث فى قلب الخاطىء قشعريرة ، و يقوده إلى التخشع والتوبة ...

إنه يوم رهيب مخوف :

يقول عنه أشعياء النبى « هوذا يوم الرب قادم قاسياً بسخط وحمو غضب ، ليجعل الأرض خراباً و يبيد منها خطاتها » (١٣ : ٩) . **« فى ذلك اليوم يطرح الإنسان أوثانه ... ليدخل فى نقر الصخور وفى شقوق المعاقل ، من أمام هيبة الرب ومن بهاء عظمته ، عند قيامه ليرعب الأرض » (أش ٢ : ٢٠ ، ٢١)**

وعن هذا اليوم يقول ملاخى النبى « فهوذا يأتى اليوم المتقد كالتنور . وكل المستكبرين وكل فاعلى الشر يكونون قشاً ، ويحرقهم اليوم الآتى ـ قال رب الجنود ـ فلا يبقى لهم أصلاً ولا فرعاً » (ملا ٤ : ١) .

حقاً إن يوم مجيء الرب لرهيب . قال عنه المرتل فى المزمور « السحاب والضباب حوله . العدل والقضاء قوام كرسيه . النار تسبق وتسلك أمامه ، وتحرق أعداءه من حوله . أضاءت بروقه المسكونة . **نظرت الأرض فتزلزلت . ذابت الجبال مثل الشمع قدام الرب ، قدام سيد الأرض كلها** » (مز٩٧) .

هذا اليوم الرهيب شرحه القديس يوحنا الرسول فى رؤياه فقال « ونظرت لما فتح الختم السادس ، وإذا زلزلة عظيمة حدثت . والشمس صارت سوداء كمسح من شعر ، والقمر صار كالدم ، ونجوم السماء سقطت إلى الأرض كما تطرح شجرة التين سقاطها إذا هزتها ريح عظيمة . والسماء انفلقت كدرج ملتف . وكل جبل وجزيرة تزحزحا من موضعها . وملوك الأرض والعظماء والأغنياء والأمراء والأقوياء وكل عبد وكل حر . **أخفوا أنفسهم فى المغاير وفى صخور الجبال . وهم يقولون للجبال والصخور أسقطى علينا ، وأخفينا عن وجه الجالس على العرش وعن غضب الخروف ، لأنه قد جاء يوم غضبه العظيم ومن يستطيع الوقوف** » (رؤ٦: ١٢-١٧) .

هذا هو حال الخطاة والأشرار فى ذلك اليوم . أما الأبرار فإنهم يصعدون إلى الرب على السحاب ، ويكونون فى كل حين مع الرب ، فى مجده ...

وبينما يكون الأبرار فى « فرح لا ينطق به ومجيد » (١بط ١: ٨) ، وبينما ترتفع تراتيل القديسين ومعهم قيثارات الله (رؤ ١٥: ٢ ، ٣) ، وبينما يتمتع هؤلاء بصحبة الرب وقديسيه فى أورشليم السمائية ... بينما هؤلاء فى النعيم ، يكون الأشرار فى عذاب لا يطاق ، لا يعرفون للراحة طعماً إلى الأبد .

عذاب الأشرار وآلامهم :

يقول الرب عنهم « فيمضى هؤلاء إلى عذاب أبدى ، والأبرار إلى حياة أبدية » (مت ٢٥: ٤٦) . ويقول أيضاً « يرسل إبن الإنسان ملائكته فيجمعون من ملكوته جميع المعاثر وفاعلى الإثم ، ويطرحونهم فى أتون النار . هناك يكون البكاء وصرير الأسنان . حينئذ يضىء الأبرار كالشمس فى ملكوت أبيهم » (مت١٣: ٤١ ، ٤٢) .

ما أشد هذا العذاب الأبدى الذى لا ينتهى ، فى بكاء وصرير الأسنان فى الظلمة الخارجية ، وفى لهيب النار ، يزيده ألماً تلك المقارنة التى تعقد بين حال الأشرار وحال الأبرار.

يصف بولس حالتهم فيقول « ... سيعاقبون بهلاك أبدى من وجه الرب ومن مجد قوته، متى جاء ليتمجد فى قديسيه و يتعجب منه فى جميع المؤمنين » (٢تس ١: ٩، ١٠).

و يقول أيضاً « سخط وغضب ، شدة وضيق ، على كل نفس إنسان يفعل الشر، اليهودى أولاً ثم اليونانى . ومجد وكرامة وسلام لكل من يفعل الصلاح ... » (رؤ٢: ٨-١٠).

لا شك أننا نخاف ونرتعش حينما نسمع هذا الرسول القديس يقول : «**فإنه إن أخطأنا باختيارنا -بعدما أخذنا معرفة الحق- لا تبق بعد ذبيحة عن الخطايا، بل قبول دينونة مخيف** وغيرة نار عتيدة أن تأكل المضادين» (عب١٠: ٢٦، ٢٧). و يعلل الرسول ذلك قائلاً «من خالف ناموس موسى، فعلى شاهدين أو ثلاثة شهود يموت بدون رأفة. فكم عقاباً أشر تظنون أنه يحسب مستحقاً من داس ابن الله وحسب دم العهد الذى قدس به دنساً وازدرى بروح النعمة فإننا نعرف الذى قال : لى الإنتقام أنا أجازى يقول الرب، وأيضاً الرب يدين شعبه. مخيف هو الوقوع فى يدى الله الحى» (عب ١٠ : ٣١)

والقديس يوحنا الحبيب ، الرسول المشهور بحديثه المستفيض عن محبة الله ، يتحدث فى رؤياه عن «البحيرة المتقدة بالنار والكبريت» (رو٢١: ٨). و يصف عقاب الخاطىء فيقول «**سيشرب من خمر غضب الله المصبوب صرفاً فى كأس غضبه، ويعذب بنار وكبريت أمام الملائكة القديسين** وأمام الخروف. و يصعد دخان عذابهم إلى أبد الآبدين. ولا تكون راحة نهاراً وليلاً» (رو١٤: ١٠، ١١). «وسيعذبون نهاراً وليلاً إلى أبد الآبدين» (رؤ٢٠: ١٠).

و يشرح كمثال لهذا العذاب عقوبة بابل الزانية فيقول «**بقدر ما مجدت نفسها وتنعمت، بقدر ذلك أعطوها عذاباً وحزناً**... وسيبكى و ينوح عليها ملوك الأرض الذين زنوا وتنعموا معها حينما ينظرون دخان حريقها، واقفين من بعيد لأجل خوف عذابها قائلين : و يل و يل» (رؤ١٨: ١٧-١٠).

ما أرهب تلك الدينونة . من أجل هذا وضعت الكنيسة المقدسة، أن يقال فى صلاة الستار «يارب إن دينونتك لمرهوبة، إذ تحشر الناس، و يقف الملائكة.

وتفتح الأسفار، وتكشف الأعمال، وتفحص الأفكار. أية إدانة تكون إدانتى أنا المضبوط فى الخطايا، من يطفىء لهيب النار عنى، إن لم ترحمنى أنت يامحب البشر...» .

والله لا يرحم الخاطىء، إلا إذا كان يتوب ...

حقاً، إنه خجل عظيم، أن تكشف جميع الأعمال والأفكار، أمام كل الناس والملائكة. من يستطيع أن يحتمل إنكشافه فى تلك الساعة ؟!

ومرعب أيضاً ومخجل أن ينفصل الخطاة عن الأبرار ... هنا على الأرض يجتمع الكل معاً، أنجس الفاسقين مع أقدس الصالحين. أما هناك فلا. يبدأ الله فيفصل الزوان عن القمح، والجداء عن الخراف، وأهل الشمال عن أهل اليمين. يحرم الخطاة من عِشرة القديسين إلى الأبد، ومن عِشرة الملائكة، ومن عِشرة الله ...

تصوروا الإنسان البار عندما ينتقل تحمله الملائكة مثل لعازر (لو١٦: ٢٢)، وتأخذه إلى أحضان القديسين... تقوده فى ذلك وتعرفه بكل أحد.

هذا هو نوح، وهذا هو هابيل، وهذا هو شيت، وباقى الآباء البطاركة

وهؤلاء هم موسى، وصموئيل، وأرمياء، وأشعياء، ودانيال، وباقى الأنبياء ...

وهنا الأنبا أنطونيوس، والأنبا مقاريوس، والأنبا باخوميوس، وباقى الآباء الرهبان...

وتعال لنريك الأنبا بولا، وأبا نفر، والأنبا ميصائيل وباقى الآباء السواح ...

وانظر هنا الأنبا أثناسيوس، والأنبا كيرلس، والأنبا ديسقورس، وباقى أبطال الإيمان...

وهنا مارجرجس، ومارمينا، والقديسة دميانة، وباقى الشهداء ...

وهؤلاء هم الملائكة، والقوات، والأرباب، والسلاطين، والشاروبيم، والسارافيم، وكل الجمع غير المحصى الذى للقوات السمائية...

إنها حفلة تعارف عجيبة تتعرف فيها الروح البارة على مجمع الملائكة والقديسين!

أما الخطاة فيكونون واقفين من بعيد، فى الظلمة الخارجية، بينهم وبين الأبرار هوة عميقة، محرومين من مجمع الأبرار، ومن متعة الخلطة بهم...

لا شك أنها مؤثرة جداً تلك الكلمات التى تشرح حالة الغنى فى الجحيم، إذ يقول الكتاب فى ذلك عنه:

فرفع عينيه فى الجحيم، وهو فى العذاب،
ورأى ابراهيم من بعيد، ولعازر فى حضنه،
فنادى وقال، يا أبى إبراهيم إرحمنى ...
وأرسل لعازر، ليبل طرف أصبعه بماء،
ويبرد لسانى، لأنى معذب فى هذا اللهيب.

(لو ١٦ : ٢٣ ، ٢٤)

يا للعجب !! أليس هذا هو لعازر المسكين الذى كانت الكلاب تلحس قروحه الذى كان هذا الغنى ينظر إليه من قبل فى اشمئزاز... وهوذا الآن قد تغير الوضع، وأصبح الغنى العظيم يشتهى أن يأتيه لعازر، ولا يحصل على مشتهاه...!

إن الخطية هى حرمان من القديسين، وهى بالأكثر حرمان من الله ...

كل هذا عن العقوبة الأبدية. ولكن بالإضافة إلى هذه، هناك عقوبات أخرى للخطية، عقوبات على الأرض.



للخطية عقوبتان : عقوبة أرضية، وأخرى فى الأبدية.

أما العقوبة الأبدية، فيمكن للإنسان أن ينجو منها بالتوبة. بعكس الأرضية التى قد يفرضها الله على الإنسان فيقاسيها على الرغم من توبته.

أبوانا الأولان كمثال :

عندما أخطأ آدم وحواء، ماذا كانت عقوبتها ؟ كانت هى الموت. هذا الموت خلصهما منه المسيح بموته. ولكن على الرغم من حكم الموت هذا الذى أنذرهما به الله من قبل. لم يقف الأمر عند هذا الحد، بل أوقع الله عليهما عقوبة أخرى أرضية.

فماذا كانت العقوبة الأرضية لآدم وحواء ؟

الطرد من الجنة كانت عقوبة مشتركة لكليها . وماذا أيضاً ؟

قال الرب لآدم « ملعونة الأرض بسببك . بالتعب تأكل منها كل أيام حياتك... بعرق وجهك تأكل خبزاً... » (تك٣ : ١٧، ١٩) . وظلت عقوبة التعب وعرق الجبين لاصقة بجميع أبناء آدم إلى يومنا هذا على الرغم من عمل الفداء العظيم على الصليب .

وقال الرب لحواء « تكثيراً أكثر أتعاب حبلك ، بالوجع تلدين أولاداً » . وجاء السيد المسيح ، وغفر للمرأة خطيئتها ، ومع ذلك فهى ماتزال تحبل وتلد بالتعب والوجع . إنها عقوبة أرضية ...

إن هذه العقوبة الأرضية التى وقعت على آدم وحواء ، هى مثال واضح لما يقاسيه الإنسان على الأرض نتيجة خطيئته حتى إن غفرها الله له فى السماء ...

مثال المرأة الزانية :

من المعروف أن السيد المسيح غفر لكثير من الزانيات كالمرأة الزانية التى بللت قدميه بدموعها ، ومسحتها بشعر رأسها . وكالمرأة التى ضبطت فى ذات الفعل ، وأنقذها الرب من الرجم قائلاً للمشتكين عليها « من كان منكم بلا خطية ، فليرجمها أولاً بحجر» (يو٨ : ٧) .

ومع هذه المغفرة فقد عاقب الرب المرأة الزانية بتطليقها وبعدم الزواج ثانية (مت٥ : ٣٢ ، مت١٩ : ٩ ، لو١٦ : ١٨) .

وكثير من الناس يتساءلون لماذا لا يسمح بالزواج للزانية ، وقد غفر الرب للمرأة الزانية . والجواب بسيط . يمكن أن يغفر الرب للزانية إذا تابت ، وهكذا لا تفقد أبديتها بل تجد لها نصيباً فى الفردوس . أما ههنا فإنه توجد لها عقوبة أرضية تكابدها جزاء خطيتها . مادامت لم تكن أمينة لزوجها ، فلا يمكن أن يأتمنها الرب على زواج آخر، بل تكون درساً لغيرها ...

والعقوبة الأرضية على أنواع :

إما أن تكون نتيجة طبيعية للخطية ...

وإما أن تكون ضربة من الله ...

وإما أن تكون عقوبة من المجتمع ، أو من الدولة ، أو من الكنيسة .

العقوبة الأرضية كنتيجة طبيعية للخطية :

هناك خطايا كثيرة تحمل عقوبتها فى ذاتها :

فالزانى مثلاً قد يصاب بالضعف أو الأنيميا أو بعض الأمراض السرية .

والذى يتعاطى المخدرات مثلاً قد يصاب بفقدان الشخصية وبتلف الأعصاب .

والذى يدخن قد يصاب بالسرطان أو داء الرئة أو ضغط الدم أو غيرها من الأمراض .

والطالب الذى يهمل دروسه ، له عقوبة على الأرض هى الرسوب والفشل .

والذى يلعب الميسر (القمار) ، يصاب بالفقر والعوز..

والأم التى لا تربى إبنها ، تقاسى الأمرين على الأرض من سوء أخلاق هذا الإبن .

كل هذه عقوبات على الأرض ، غير العقوبة الأبدية . وقد تمحى العقوبة الأبدية بالتوبة، وتظل العقوبة الأرضية كما هى. فالأم التى لم تربِ إبنها ، قد تتوب وتغفر لها خطيتها ، ويظل إبنها مرارة قلب لها على الأرض . والتلميذ الذى لم يذاكر ورسب ، قد يتوب ويغفر له الرب إهماله ، ولكن هذا لا يمنع أن سنة من عمره قد ضاعت على الأرض سدى... والذى تسبب له الخطية مرضاً ، قد تغفر له الخطية بالتوبة ، ويظل المرض معه كعقوبة أرضية هى نتيجة طبيعية للخطية .

● **العقوبة الأرضية كضربة من الله :**

قد يكون المرض مثلاً نتيجة طبيعية للخطية كالأمراض التى تنتج عن التدخين وتعاطى المخدرات والزنى وشرب الخمر ... الخ . على أن هناك نوعاً آخر من الأمراض يعتبر ضربة من الله. مثل ضربة البرص التى أصابت جيحزى تلميذ أليشع عقاباً له على محبته للمال وكذبه على معلمه (٢مل ٥: ٢٧)، ومثل ضربة البرص التى أصابت مريم أخت هارون وموسى عقاباً لها على تكلمها ضد موسى (عدد ١٢: ١٠)، ومثل ضربة الدمامل التى أصابت مصر عقاباً على قساوة قلب فرعون (خر ٩: ١٠) . ومثل ضربة الوبأ الذى أصابت بنى إسرائيل عقوبة على خطية داود الملك ، فمات منهم فى يوم واحد سبعون ألف رجل (٢صم ٢٤:

١٥). وعن مثل هذه الضربة يقول الرب فى لعنته للخاطىء «يلصق بك الرب الوبأ حتى يبيدك عن الأرض التى أنت داخل إليها لكى تمتلكها. يضربك الرب بالسل والحمى والبرداء والإلتهاب والجفاف واللفح والذبول فتتبعك حتى تفنيك... يضربك الرب بقرحة مصر وبالبواسير والجرب والحكة حتى لا تستطيع الشفاء» (تث٢٨: ٢١، ٢٢، ٢٧).

وغير المرض هناك ضربات أخرى من الله: كالفشل مثلاً... قد يكون الفشل نتيجة طبيعية لإهمال الإنسان وتقصيره، وقد يكون أيضاً ضربة من الله لزوال البركة (تث٢٨).

كذلك من أمثال هذه الضربات: الهزيمة، والعبودية، بل الموت أيضاً. إن الخطية هى موت، وعقوبة الخطية هى الموت أيضاً. مثلما حدث مع عالى الكاهن إذ لم يربِ أولاده (١ صم ٤: ١٨).

تأمل يا أخى فى حياتك. أنظر فى كل ما فعلته وفشلت فيه، لعل هناك خطية هى السبب فى كل ما يصيبك من ضربات.

• عقوبات للخطية من المجتمع والدولة والكنيسة:

هناك عقوبات للخطية تصيب الإنسان على الأرض لا يوقعها الله مباشرة، وإنما يوقعها المجتمع أو الدولة أو الكنيسة.

فمن العقوبات التى ينالها الإنسان الخاطىء من المجتمع الفضيحة والعار وسوء السمعة، بل قد يصل الأمر إلى الإحتقار أو إلى نبذ الإنسان من المجتمع الذى يعيش فيه وتحاشى الخلطة معه..

وقد تكون العقوبة الأرضية صادرة من الدولة كالأحكام التى يصدرها القضاء على المذنبين بالسجن أو الأشغال الشاقة أو الإعدام أو النفى. وقد يكون الحكم بالفصل من العمل أو بجزاءات مالية... الخ

وقد تجتمع العقوبات معاً. عقوبة من الله. مع فضيحة من المجتمع، مع سجن تحكم به الدولة...

وهناك أيضاً عقوبات كنسية كثيرة تشملها كتب القوانين الكنسية. ومن ضمنها الحرمان من التناول فترة معينة، أو الحرمان من دخول الكنيسة، أو الإيقاف عن الكهنوت أو التجريد... أو عقوبات أخرى لا داعى الآن لسردها. ولكنى أقول

أن الكنيسة عندما كانت صارمة وحازمة فى عقوبتها ، كانت جماعة المؤمنين أكثر قداسة وحرصاً وتدقيقاً ، وفيها خوف الله ...

وأنت أيها الأخ ، إسأل نفسك : هل ارتكبت خطأ تستوجب به حكماً كنسياً لم يطبع عليك؟ ربما تكون هارباً من مثل هذا الحكم ولا تستحق دخول الكنيسة حسب القوانين ..

إن العقوبة الأرضية أمر سمح الله أن يوقع حتى على أحبائه القديسين الذين جاهدوا لأجله وفعلوا معجزات بإسمه .





أخطأ داود النبى ، زنى وقتل ... ثم اعترف بخطيئته على ناثان قائلاً « أخطأت إلى الرب » وسمع العفو الإلهى بقول ناثان له « والرب قد نقل عنك خطيئتك . لا تموت » (٢صم ١٢ : ١٣) . **وهكذا رفع الرب عن داود العقوبة الأبدية . أما العقوبة الأرضية فبقيت ... وكيف كان ذلك ؟**

تاب داود توبة عجيبة وعميقة ، وصارت له الدموع خبزاً نهاراً وليلاً ، حتى قال « أعوم فى كل ليلة سريرى ، وبدموعى أبل فراشى » (مز٦) . وانسحق نفسه فى التراب وتذلل أمام الله ... ومع كل هذا ظل يطارده قول الرب « والآن لا يفارق السيف بيتك إلى الأبد ، لأنك احتقرتنى وأخذت إمرأة أوريا الحثى لتكون لك إمرأة . هكذا قال الرب ... هأنذا أقيم عليك الشر من بيتك ، وآخذ نساءك أمام عينيك وأعطيهن لقريبك فيضطجع مع نسائك فى عين هذه الشمس » (٢صم ١٢ : ١٠ ، ١١) ... وقد كان ...

فلم يفارق الزنى بيته متمثلاً فى خطايا إبنيه أمنون وإبشالوم . ولم يفارق السيف

بيته أيضاً حيث قام ضده إبشالوم. وخرج داود من أورشليم حافى القدمين وباكياً ومضطرباً وخائفاً من إبنه... وقضى فترات ذل وتعب على الأرض نتيجة لخطيته...

وحتى عندما أراد داود أن يبنى بيتاً للرب، وأعد كل شيء من حجارة وحديد، « ونحاس كثير بلا وزن، وخشب أرز لم يكن له عدد »، لم ينس له الرب الدماء التى سفكها، بل كان إليه كلام الرب قائلاً « قد سفكت دماً كثيراً... فلا تبنى بيتاً لإسمى، لأنك سفكت دماء كثيرة على الأرض أمامى (١أى ٢٢: ٣-٨). **وهكذا حرمه الرب من بناء الهيكل، وبقيت العقوبة الأرضية على الرغم من المغفرة فى السماء...**

تكرر الأمر مرة أخرى عندما أخطأ داود وعدّ الشعب، فغضب عليه الرب. عندئذ ندم داود: ضربه قلبه، فأحس بخطيئته وتاب عنها، واعترف بها إذ صرخ إلى الرب قائلاً « لقد أخطأت جداً فى ما فعلت. والآن يارب أزل إثم عبدك، لأنى انحمقت جداً » (٢صم٢٤: ١٠).

فهل رضى الرب بهذه التوبة منه، وهذا الإعتراف، وهذه الصلاة...؟ نعم، قبل توبته، وغفر له خطيئته، ومحا عنه العقوبة الأبدية. ولكن بقيت العقوبة الأرضية. **وهكذا مضى الرب فى معاقبته لعبده، وعرض عليه ثلاث ضربات شديدة تحمل معنى الإفناء والإهلاك، وهى الجوع والوبأ وسيف الأعداء!**

وقال داود مستسلماً « قد ضاق بى الأمر جداً. أقع فى يد الله ـ لأن مراحمه كثيرة ـ ولا أقع فى يد إنسان ». إلا أن الله على الرغم من هذا التذلل لم يشأ أن يعفو. وأرسل ملاكاً مهلكاً رفع سيفه على أورشليم وقتل منها سبعين ألف رجل، حتى صاح داود فى الم لا يطاق مخاطباً الرب « ها أنا قد أخطأت وأنا أذنبت. وأما هؤلاء الخراف، فماذا فعلوا؟! فلتكن يدك علىّ أنا وعلى بيت أبى » (٢صم٢٤: ١١-١٧).

ما هذا يارب الذى فعلته مع عبدك داود؟! أليس هو الذى قلت عنه « وجدت داود بن يسى رجلاً حسب قلبى »؟! (أع١٣: ٢٢). لماذا لا تتراءف وتغفر؟ يقول: نعم، أنا أغفر فى السماء، أما على الأرض فيأخذ عقوبته...

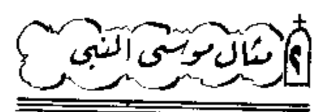
يا للهول ... ! حتى مع داود يارب؟!

حق مع داود الذى يحبك ، الذى قال لك « محبوب هو إسمك يارب ، فهو طول النهار تلاوتى » (مز١١٨) ؟! داود الذى كان ينهض فى نصف الليل ليشكرك على أحكام عدلك ، الذى كان يقول «سبقت عيناى وقت السحر، لأتلو فى جميع أقوالك» (مز١١٨) ؟! داود الى كان يقول لك «يا الله ، أنت إلهى ، إليك أبكر. عطشت نفسى إليك . إلتحقت نفسى وراءك» (مز٦٢) ...! داود رجل التسبيح والصلاة ، رجل المزمار والقيثار والعشرة الأوتار... داود تعمل معه هكذا ؟!

فإن كان الأمر هكذا مع داود ، النبى ، المحبوب ، فماذا نقول نحن عن أنفسنا ، وليست لنا مثل دالته ، ولا مثل قداسته ، ولا مثل توبته ؟!

علينا أن نستيقظ إذن ونصحو لأنفسنا ، لأن إلهنا عادل ويحاسب كل واحد حسب أعماله ، مهما كان مركزه الروحى عند الله نفسه .

إنه لم يفعل هكذا مع داود وحده ، بل مع موسى أيضاً :



مثال موسى النبى ، أصعب فى دلالته من مثال داود . من ذا الذى يستطيع أن يصف المحبة التى كانت بين الله وعبده موسى ؟! موسى حبيب الله وكليمه ، موسى رجل الآيات والمعجزات ، الذى شق البحر الأحمر، الذى ضرب الصخرة فأخرجت ماءاً . موسى الذى بصلاته حول الله المياه المرة إلى مياه حلوة ، الذى بصلاته أنزل اله المن والسلوى من السماء ، الذى كان رفع يديه أقوى من جيش يشوع . موسى الذى دافع الله عنه لما تقولت عليه مريم وهارون ، فضرب مريم بالبرص ، وقال لمريم وهارون «إن كان منكم نبى للرب ، فبالرؤيا استعلن له ، فى الحلم أكلمه . وأما عبدى موسى فليس هكذا ، بل هو أمين فى كل بيتى . فماً إلى فم وعياناً أتكلم معه لا بالألغاز، وشبه الرب يعاين . فلماذا لا تخشيان أن تتكلما على عبدى موسى» (عد١٢: ٥-٨) .

أخطأ موسى عندما ضرب الصخرة مرتين قائلاً للشعب المتذمر المتمرد «إسمعوا أيها المردة ، أمن هذه الصخرة نخرج لكم ماءاً» . فكانت النتيجة أن الله حكم عليه بعدم دخول أرض الموعد» (عد٢٠: ٧-١٢) .

ما هذا يارب الذى تفعله ؟ هل تنسى كل هذه العشرة الطويلة من أجل

خطية واحدة حدثت فى ظروف قاسية ؟! ولكن الله يصر على أن موسى لا يدخل الأرض ! ما هذا الذى تقول يارب ؟ دا على رأى المثل (طباخ السم بيدوقه) . وأنت تعرف كيف أنى تعبت من أجل هذا الشعب عشرات السنين ، واحتملت تذمره فى صبر وأنا أقوده فى البرية وهو متمرد صلب الرقبة... هل تنسى تعبى ، أنا موسى عبدك ، حبيبك ، صديقك ، كليمك... !

كل هذا ولا فائدة ، والرب مصر على عقوبته . وتضرع إليه موسى : أنا أخطأت ، يارب سامح ، يارب إغفر ، يارب إنس هذه الخطية «دعنى أعبر وأرى الأرض الجيدة» . وكأن الله يقول بنفس المبدأ...

أنا أسامح فى ملكوتى . أما ههنا فتنفذ العقوبة ، حتى على موسى .

ولما ازداد تضرع موسى النبى ، غضب الله عليه وقال له «كفاك . لا تعد تكلمنى أيضاً فى هذا الأمر» (تث٣ : ٦) . وأخيراً بعد إلحاح ، وتوسلات وتضرعات ، سمح له أن يرى الأرض من بعيد ، من على الجبل ، ولكن لا يدخل إليها !!

إن الله فى عدله لم يجامل موسى حبيبه على الرغم من دالته عنده . وأنت يا أخى ما هى دالتك ؟ هل مقامك عند الله أعلى من موسى ؟!

إن كان الأمر هكذا ، أفلا تشفق على نفسك وتتوب ، لئلا تتعرض لعدل الله نتيجة خطيتك ، فلا تشفع فيك حياة مقدسة سابقة . إن كان موسى وداود لم يفلتا من العقوبة ، فهل تفلت أنت ؟

أعطيك مثالاً آخر للعقوبة الأرضية هو يعقوب أبو الآباء :



يعقوب هذا الذى أحبه الله وهو فى البطن ، قبل أن يولد ، وقبل أن يفعل خيراً ، قال الله «أحببت يعقوب وأبغضت عيسو» (رو٩ : ١٣) . وأعطاه الرئاسة على أخيه الكبير وهو فى البطن ، فقال لرفقة «فى بطنك أمتان ، ومن أحشائك يفترق شعبان... وكبير يستعبد لصغير» (تك٢٥ : ٢٣) . يعقوب هذا أخطأ ، إطاعة لمشورة أمه التى كانت تحبه أكثر من عيسو، وخدع أباه وأخذ البركة...

فلم يتركه الله بدون عقوبة، على الرغم من ظهوره له، إذ نظر الله وجهاً لوجه (تك ٣٢ : ٣٠)، وعلى الرغم من المواعيد التي منحه إياها، والبركة التي زوده بها، والرؤى التي أعلنها له. إذ ظهر له على السلم الواصلة بين السماء والأرض وقال له «يكون نسلك كتراب الأرض... ويتبارك فيك وفي نسلك جميع قبائل الأرض. وها أنا معك، وأحفظك حيثما تذهب» (تك٢٨ : ١٤، ١٥).

على الرغم من كل هذا، كما غش يعقوب أباه، سمح الله لأولاده أن يغشوه بالمثل، عندما باعوا يوسف وغمسوا قميصه في دم تيس ذبحوه، وأشعروا أباهم أن وحشاً قد افترس يوسف. ووقع يعقوب في خدعة أولاده، ومزق ثيابه، وناح على إبنه أياماً كثيرة (تك٣٧: ٣١-٣٤). كذلك خدعه خاله لابان، وزوجه ليئة بدلاً من راحيل التي كانت أحب إلى قلبه والتي تعب من أجلها سنوات طويلة. وغشه خاله أيضاً في أجرته فغيرها مرات عديدة...

وظلت المتاعب تلاحق يعقوب، حتى أنه - في كلامه مع فرعون - لخص حياته في عبارة موجزة قال فيها» أيام سني غربتي... قليلة ورديّة» (تك ٤٧ : ٩)... حقاً إن خطيته كانت قد غفرت، وأظهر له الله رضاه بالبركة والرؤى والمواعيد. ولكنه -على الرغم من محبته له- لم يمنع عنه العقوبة الأرضية...

هل اقتنعت أيها الأخ المبارك بخطورة عقوبة الخطية. يعوزني الوقت لو ضربت لك أمثلة أخرى عديدة من الكتاب المقدس، إنما أترك هذا الأمر لتأملك الخاص. وأعطيك الآن مثلاً أو مثالين من تاريخ الآباء:

٤ مثال القديس موسى الأسود:

كان في مبدأ حياته قاتلاً وقاسياً. ثم تاب، وأتى إلى الدير وترهب، وتدرج في حياة النعمة حتى صار مثالاً للوداعة والطيبة ومحبة الأخوة، وبلغ من محبته أنه كان أحياناً يمر على قلالي الرهبان يحمل جرارهم سراً ويمضي إلى البئر ليملأها لهم ماءاً. ومنحه الرب موهبة الرؤى وصنع المعجزات. وتناهى في القداسة جداً حتى صار مرشداً روحياً لكثيرين. فأخذوه ورسموه قساً. وصار من أعمدة البرية المعدودين.

ولكن على الرغم من كل هذه التوبة ، وهذه القداسة ، وهذه المواهب ، هل نسي له الله خطاياه الأولى التي تستحق العقوبة ؟

نسمع أنه عندما هجم البربر على الدير ، هرب الرهبان ، ودعوا الأنبا موسى ليهرب معهم . فقال لهم : أنا أعلم يا أولادى أن البربر سيقتلوننى ، لأننى قتلت كثيرين فى شبابى . والكتاب يقول : « من أخذ بالسيف ، بالسيف يؤخذ » (مت ٢٦ : ٥٢) . وحدث هذا فعلاً ، وهجم البربر على أنبا موسى فقتلوه ، وتمت النبوءة ...

لعل البعض يتساءل : ما معنى أن يموت قديس عظيم هذه الميتة البشعة ، وقد تاب عن جهالات شبابه ؟! ولكنها طريقة الله . مثال آخر :

٥ مثال القديس الأنبا بيمن

قرأت قصة فى إحدى المخطوطات الثمينة بالدير ، قيل إن قديساً يدعى الأنبا بيمن كان متقشفاً جداً ، وكان يعيش حياة الفقر والعوز ، وتخلو مغارته من غطاء يقيه البرد بالليل ، هذا القديس زاره شاب فقضى الليلة فى مغارة أخرى إلى جواره . ولما أصبح الصباح سأله القديس بيمن كيف قضى ليلته ، فأجاب الشاب « تعبت من شدة البرد لعدم وجود غطاء » . فقال القديس فى خجل « أما أنا فنمت متدفئاً » . فسأله الشاب كيف كان ذلك ، فأجاب « أتى أسد بالليل ونام إلى جوارى فدفأنى بجسمه » .

ولما انذهل الشاب مما حدث للقديس وكيف يرقد إلى جواره أسد دون أن يفترسه . حينئذ قال القديس **« أنا أعلم يا إبنى ، أنه لابد ستفترسنى الوحوش فى يوم من الأيام . ذلك لأن شاباً طرقنى ذات ليلة فلم أفتح له وكان خائفاً وقد افترسته الوحوش فعلاً كما عرفت »** ...

وحدث ما توقعه الأنبا بيمن ...

هذه أمثلة للعقوبة الأرضية . ويوجد من أمثلتها الكثير جداً لمن يقرأ الكتاب ويطلع على قصص التاريخ ، وضعت كلها مثالاً لتعليمنا ...

• لهذا كله ، لا يصح أن نفهم مراحم الله الواسعة منفصلة عن عدله ، لئلا بحجة مراحم الله وحنوه وعطفه ، نقاد إلى الإستهانة والإستهتار ، ونرتكب

الخطية غير شاعرين بخطورتها ، وفى محبة الله لنا ننسى مخافته ... !

لأن بعض الناس تستبيح لنفسها الخطية ، وتظن أن الأمر فى منتهى السهولة ! مجرد دقائق تقضيها مع أب الإعتراف ، تعترف وتنال الحل ، وكأن شيئاً لم يحدث ... !! كأن وصايا الله لم تكسر ، وكأن قلب الله لم يُجرح ... !

حقاً أيها الأخ ، إن الأب الكاهن عندما يقرأ لك صلاة التحليل ، إنما يضيف خطيتك إلى الكأس التى شرب الرب مرارتها ، فتنجو من العقوبة الأبدية بدم المسيح إن كنت تائباً . أما العقوبة الأرضية فلها حساب آخر ربما لا تنجو منه ...

إحذر إذن لنفسك ، فالأمر ليس سهلاً كما تظن ...

ومع ذلك فلتعز يتكم ، ولكى لا تقعوا فى الرعب واليأس ، أقول لكم :

إن الله لا يعاقب بعقوبة أرضية على كل خطية ...

وذلك لأن خطايا الإنسان لا تحصى ، وهو فى كل يوم يخطىء ... « وفى أشياء كثيرة نعثر جميعنا » (يع ٣ : ٢) . فلو كان الله يعاقب بعقوبة أرضية على كل خطية ، لتوالت العقوبات فى غير نهاية ، وبغير حصر ، لتناسب عدد الخطايا ..

ولكن الله يترك الكثير ... ووسط مئات الخطايا ، قد يعاقب على واحدة منها ، حتى لا يستهتر الإنسان ويقع فى اللامبالاه ، وأيضاً لكى يتضع ويستفيد روحياً ، كما حدث لداود النبى .

إن العقوبة الأرضية ، هى ولا شك من مراحم الله ، يدعونا بها إلى اليقظة ، فنفيق من غفلتنا ، كما أنه يقودنا بها إلى الإنسحاق . فنشعر أننا أخطأنا ، وأننا أغضبنا الله منا ، فنتوب ، ونرجع إليه ... وهكذا ننجو من العقوبة الأبدية ، ليس لأن العقوبة الأرضية قد حلت محلها ، حاشا ! بل لأنها أيقظتنا لنتوب ، فنستحق المغفرة .

إننا إن تألمنا هنا ، فهذا أفضل من آلام الأبدية ، ومن عارها ...

ومع ذلك ، فإن كانت عقوبات الأبدية مخيفة ، فإن الأمر لا يزال بيدنا .
فحتى هذه اللحظة ، مازال فى أيدينا أن نقرر مصيرنا ...

لقد استطاع القديس بولس الرسول أن يقول بكل جرأة « وأخيراً وضع لى إكليل البر ، الذى يهبه لى فى ذلك اليوم الرب الديان العادل » (٢تى ٤ : ٨) .

فهل تستطيع أن تقول نفس عبارة القديس بولس ؟! ليتك تستطيع ...

وحتى إن كان إكليل البر قد وضع لك ، فاحترس ، و «تمسك بما عندك لئلا يأخذ أحد إكليلك» (رؤ ٣ : ١١) . وعش فى حياة التوبة والإحتراس كل أيامك .

إن الخوف من عقوبة الخطية ، يدفعك إلى التوبة . ولا شك أن هناك دوافع أخرى ، فما هى ؟...

□

الفصل الخامس

دوافع أخرى للتوبة

هناك دوافع للتوبة ، تصدر من داخل الإنسان ، من مشاعر قلبه ، ذكرنا الكثير منها . وهناك دوافع أخرى للتوبة تكون من الخارج ، تأتى إلى الإنسان حتى دون أن يطلب . ونذكر من بين هذه الدوافع :

زيارات النعمة :

إن الله « يريد أن الجميع يخلصون ، وإلى معرفة الحق يقبلون » (١تى ٢ : ٤) . ولذلك فهو يسعى إلى خلاص الكل . ونعمته تعمل فى الخطاة لكى يتوبوا ، لكى يريدوا ولكى يعملوا (فى ٢ : ١٣) .

كل إنسان لا بد أن تأتيه زيارات النعمة ...

شاول الطرسوسى كمثال :

لقد شهد عن نفسه أنه كان من قبل مجدفاً ومفترياً ومضطهداً للكنيسة (١تى ١ : ١٣) . وكانت مناخس تنخس ضميره لكى يترك هذه القسوة وهذا العنف . ولكنه كان يرفس هذه المناخس ولا يستجيب ... وأخيراً ظهر له الرب فى طريق دمشق وعاتبه بقوله « شاول شاول ، لماذا تضطهدنى ؟ صعب عليك أن ترفس مناخس (أع ٢٦ : ٤ ، ٩ : ٥) .

وواضح أن قيادة شاول إلى التوبة وإلى ترك اضطهاده للكنيسة ، لم تبدأ من داخل نفسه ، إنما أتاه الدافع من الخارج من زيارة النعمة بلقاء الرب له ، الذى صالحه وأصلحه ودعاه لخدمته ...

نفس الوضع حدث مع يونان النبى ...

كان هارباً من الرب ، وكان غير موافق على المناداة لنينوى ، لئلا تدركها رحمة

الله ، فتسقط كلمته...(1) وفعلاً لما قبل الرب توبة نينوى وخلصت هذه المدينة ، جلس يونان شرقى المدينة مغتاظاً...! بل إنه «إغتاظ حتى الموت» وقال «موتى خير من حياتى» (يون ٤: ١-٣).

وفيما هو هكذا ، زارته نعمة الرب لتخلصه من غمه الخاطىء... كلمه الرب بنفسه لكى يصالحه ، لكى يشرح له ، و يغير قلبه ، و يقوده إلى التوبة...

وهكذا كانت النعمة بصوت الله وصلت إلى النبى ، كما حدث مع شاول... ولكن لا يشترط فى النعمة أن يكلم الله الإنسان...

إنما قد يرسل الله شخصاً ، يبكت هذا الخاطىء لكى يتوب ...

كما حدث حينما أرسل الرب ناثان لكى يبكت داود ليتوب...

لم يكن داود يحس ما هو فيه ، بل كان يتدرج من خطية إلى أخرى : من الشهوة إلى الزنى إلى القتل... إلى أن زارته النعمة بمجىء ناثان إليه ، وتعريفه بخطورة ما حدث منه... حينئذ فقط بدأت تستيقظ نفسه الغافلة ، وقال «أخطأت إلى الرب» (٢صم ١٢: ١٣). ثم بدأ قصة توبة عميقة ، بلل فيها فراشه بدموعه (مز٦).

وهكذا لم تبدأ توبة داود من دوافعه الداخلية ، إذ كانت نفسه فى غفوة مستمرة فى الخطية ، إنما بدأت التوبة بدافع خارجى ، بتبكيت من الخارج . وهنا دخلت مشاعر التوبة إليه ، وبدأ العمل الداخلى فيه...

وأنت أيها القارىء العزيز ، هل تدرى ... ربما الإنسان الذى يبكتك على خطية ، هو مرسل من نعمة الله إليك ، ليقودك إلى التوبة...

فإن رفضته ورفضت توبيخه ـ حتى لو كان قاسياً ـ تكون رافضاً لنعمة الله العاملة فيك . وتكون زيارة النعمة قد افتقدتك ولم تستفد منها .

لا تظن أن زيارة النعمة ، لا تأتى إلا عن طريق صوت الله أو صوت نبى ، أو عن طريق حلم أو رؤيا ، أو أمثال هذه الأمور الفائقة ، إنما قد يكون الأمر أبسط من هذا بكثير...

---

(١) أنظر كتابنا «تأملات فى سفر يونان النبى» .

فقد تفتقدك النعمة بمرض مثلاً ، يكون هو صوت الله إليك ...

كالمرض الذى افتقد به الرب مار أوغريس ، وقاده ليس فقط إلى التوبة ، وإنما إلى الرهبنة أيضاً . وكالمرض الذى افتقد به الرب الأنبا تيموثاوس السائح . وكقصص أمراض عديدة وردت فى الكتاب وفى التاريخ ...

وقد يكون المرض الذى يفتقدك الرب به ، مرضاً لا يصيبك أنت ، إنما يصيب أحد أحبائك المقربين إليك جداً . ويستطيع هذا المرض أن يشد ركبتيك إلى أسفله ويرفع يديك إلى فوق ، فتصرخ من أعماقك إلى الرب . وقد استطاع المرض أن يعصر قلبك عصراً ، فيتجه إلى الله ويصطلح معه من أجل هذا الذى تحبه ...

وقد تكون زيارة النعمة على شكل ضيقة أو مشكلة ...

تكون هى أيضاً صوت الله إليك ، يناديك أن تتوب ، لكى يتراءف الرب عليك ويخرجك من هذه الضيقة (١) .

وقد يدفعك الرب الى أيدى أعدائك ، فيقوون عليك ، فترجع إلى الرب ، لكى ينقذك ، وأمثلة هذا الأمر كثيرة فى سفر القضاة ...

المهم أن تكون حواسك الروحية مدربة ، تستطيع أن تميز بها صوت الله الذى يناديك لكى ترجع إليه ...

لذلك فى كل ما يمر بك من أمراض ومن ضيقات ومن مشاكل ، لا تفصل شيئاً من هذا عن علاقتك بالله . إجعلها كلها تقوى علاقتك به ، وتعمق صلواتك ، وتزيد محبتك للرب ...

وقد تأتيك زيارة النعمة ، أثناء قراءتك لكتاب روحى ، أو أثناء سماعك عظة روحية أو لحن مؤثر ...

فتجد شعوراً فى داخلك ، يحثك أن تعمل شيئاً من جهة علاقتك بالله ... تجد قلبك فى حالة غير طبيعية ، يتحرك داخلك ، أو يتحرك عمل الروح داخله . وتجد الروح القدس يبكتك على خطية ، أو يشوقك إلى الحياة مع الله ، وإلى التصالح معه ... إنها زيارة من النعمة . إحرص ألا تفلت منك ...

إن زيارة النعمة افتقدت فيلكس الوالى حينما كان القديس بولس الرسول يتكلم

---

(١) أنظر كتابنا « اليقظة الروحية » فهو فى الواقع جزء من سلسلة موضوع « حياة التوبة والنقاوة » وفيه بباب عن (دوافع اليقظة الروحية) من ٢٨ صفحة ، يصلح أن ينضم إلى موضوعنا هذا الذى نطرقه الآن ...

عن البر والتعفف والدينونة العتيدة أن تكون، فارتعب فيلكس (أع ٢٤: ٢٥). ولكنه للأسف لم يستغل زيارة النعمة لمنفعته. بل قال لبولس «إذهب الآن، ومتى حصلت على وقت إستدعيتك».

أما أنت فإن زارتك النعمة ، لا تنس قلبك ، ولا تؤجل التوبة ...

إستفد من كل شعور روحى تحدثه النعمة فى داخلك ، وبخاصة حينما تشعر بثورة فى داخلك على حياة الخطية ، وبمحبة طارئة نحو الله ، ربما لم تكن موجودة فى داخلك من قبل ...

لقد زارت النعمة أغريباس الملك فيما كان القديس بولس يتكلم ، فقال أغريباس لبولس «بقليل تقنعنى أن أصير مسيحياً» (أع ٢٦: ٢٨).

واكتفى أغريباس بمجرد الإقتناع ، دون أن يخطو خطوة أخرى ...

أما أنت فإن زارتك النعمة ، لا تكتفِ بمجرد الإقتناع ...

لأنه ماذا يفيدك إن اقتنعت أن طريقك خاطىء ... دون أن تقوم عملياً بتغيير هذا الطريق ...

لا تجعل زيارة النعمة تعمل فى عقلك فقط ، أو حتى فى قلبك فقط ، إنما يجب أن تعمل أيضاً فى إرادتك ، فتقوم وتعمل عملاً.

على أن زيارات النعمة تقدم لنا حقيقة جميلة ومعزية وهى :

حتى إن كنت أنت لا تسعى إلى خلاص نفسك ، فإن الله المحب يسعى بنعمته لكى يخلصك ، وهو الذى يبدأ ...

كل ما يريده الرب منك هو الإستجابة لصوته فى داخلك ،
يريدك أن تعمل معه ، حينما يبدأ هو أن يعمل فيك ،
يريديك حينما تسمع صوته أن لا تقسى قلبك ،
وحينئذ تقودك زيارة النعمة إلى التوبة ، كما قادت كثيرين ...

إن زيارات النعمة تعطى لكل خاطىء دفعة من رجاء ...

يثق بها أن الله يحبه ، وأنه لا ينساه أبداً فى رعايته ، ويبحث عنه كما بحث عن خروفه الضال. وإن لم تكن فى قلب هذا الخاطىء مشاعر تقوده إلى التوبة ، فإن الرب يغرس فى قلبه هذه المشاعر بعمل نعمته ، ويمهد كل الوسائط التى تجعل قلبه يتحرك نحو التوبة ...

الباب الثالث

وسائل التوبة

(كيف تتوب)

مقدمــة :

قد يكون لكل إنسان الأسلوب الذى يصل به إلى التوبة ، أو الأسلوب الذى تراه النعمة مناسباً له ، أو مناسباً لظروفه...

على أن هناك قواعد عامة - فى الطريق إلى التوبة - تناسب الكل .

ولعل من أهم هذه القواعد النصائح التالية :

١ - إجلس مع نفسك . حاسبها . واخرج معها بقرار ...
٢ - لا تلتمس لنفسك الأعذار والتبريرات .
٣ - لا تؤجل التوبة . إبدأ من الآن ، وانتهز الفرص .
٤ - إهتم بخلاص نفسك . واعرف ما يطلبه الله منك .
٥ - إبعد عن الخطوة الأولى إلى الخطية .
٦ - إبعد عن قساوة القلب ، حينما تعمل النعمة فيك .
٧ - أعد تقييم سلوكك . وابعد عن الخطايا التى تلبس ثياب الحملان .
٨ - إبعد عن الثعالب الصغار المفسدة للكروم . واسلك بتدقيق .
٩ - إهتم بالإعتراف والتناول .
١٠ - إهتم بعلاج نقط الضعف التى فيك ، وبالذات الخطايا المحبوبة منك .
١١ - إهتم بمحبة الله ، لتطرد منك محبة الخطية .
١٢ - صارع مع الله وخذ منه قوة ، لكى بهذه القوة تتوب .

* * *

وسنحاول أن نتناول كل هذه النقاط واحدة فواحدة ... لكى نتأمل نفعها فى حياة التوبة...



(٩)

إجلسْ مع نفسِك

أنت تريد أن تتوب . هذا حسن جداً . الله أيضاً يريدك أن تتوب لأنه «يريد أن الجميع يخلصون وإلى معرفة الحق يقبلون» (١تى ٢ :٤). ولكن يبقى السؤال أمامنا هو:

تتوب عن ماذا ؟ وكيف تتوب ؟
لذلك فأنت محتاج أن تجلس إلى نفسك ، لأنك واحد من إثنين :

١ ـ إما أنك لا تحس ما أنت فيه من خطأ . لا تعرف حالتك بالضبط ، ولا تدرك أخطاءك ، ولا عمقها وبشاعتها ، لأن دوامة المشغوليات والإهتمامات تجذبك إليها باستمرار ، وأنت غارق فيها تماماً ... ليس لديك وقت أن تفكر فى نفسك وفى روحياتك ، وربما لم يخطر هذا الموضوع على فكرك !

فأنت إذن محتاج أن تجلس إلى نفسك ، لتدرك حالتك وتعرف أخطاءك .

٢ ـ أو أنت تعرف أخطاءك ، أو تعرف البارز منها . ولكن ليس لديك وقت ولا فرصة ، لكى تفكر كيف تترك هذه الأخطاء ، وكيف تعالجها ... فقبل أن يدور بذهنك أن تعالج خطأ معيناً ، تكون قد وقعت فيه مرة أخرى ، أو وقعت فى غيره أو فى ما هو أبشع منه ... والأخطاء والخطايا تحيط بك من كل ناحية . وليست هناك فرصة للتخلص منها .

فأنت محتاج إذن أن تجلس أيضاً إلى نفسك لكى تعالجها .
إنك تشبه مريضاً : إما أنه لا يحس ما فيه من مرض ، أو يدرك أنه مريض ، ولكنه يحتاج إلى كشف وتشخيص دقيق ، وعلاج ...

يحتاج أن يجلس إلى أجهزة التحليل ، وإلى كشف الأشعة ، ومعرفة ما يدور فى داخله بالضبط ، ونوعية ومدى خطورة أمراضه . وهو يحتاج أيضاً أن يعرف العلاج ، ويمارسه لكى يشفى ، وأن يتابع هذا العلاج مع طبيب حكيم خبير بالأمراض وعلاجها ... وهذا كله لا يتأتى للمريض إلا إذا انتزع نفسه من جميع مشغولياته مهما

كانت أهميتها ، وجلس إلى أجهزة التحليل والأشعة لمعرفة نفسه ، بعيداً عن الناس.
وهنا تبدو أهمية الجلوس مع النفس روحياً ...

ولكن ما هو برنامج هذه الجلسة الروحية وعمل الإنسان فيها ؟

إنها جلسة هدفها التوبة وتنقية النفس . وذلك بأن تكتشف خطاياك وضعفاتك ، وتلوم نفسك عليها . ثم تعرف أيضاً أسباب سقوطك ، سواء أكانت أسباباً خارجية تضغط عليك ، أو أسباباً داخلية تسعى فيها أنت إلى الخطية ، أو هى طباع وعادات أو تأثر بآخرين ... وتحاول أن تتحاشى كل هذا وتبعد عنه أو تعالجه .

وفى هذه الجلسة تعرض ضعفاتك وخطاياك على الله ...

تعرض عليه كل ضعفاتك ، لكى تنال منه القوة ،
وتعرض عليه فى ندم كل خطاياك ، ليهبك الحل والمغفرة ...

تعرضها وأنت تقول للرب فى صلاة منسحقة ، ما سبق أن قاله داود : «إنضح علىّ بزوفاك فأطهر، واغسلنى فأبيض أكثر من الثلج» (مز ٥٠) . ثم تخرج من هذه الجلسة ، لكى تعترف بهذه الخطايا أمام الأب الكاهن ، لكى يقرأ لك صلاة التحليل ، و يرشدك بما يلزم ، و يسمح لك بالتناول ...

وفى جلستك الروحية مع نفسك ، تعزم فى قلبك عزماً أكيداً على ترك الخطية ، بكل رضى واقتناع داخلى ...

فأنت لا تقصر جلستك فقط على بحث الماضى والندم عليه ، ولوم النفس وتبكيتها على سقوطها ... إنما أنت أيضاً فى جلستك مع نفسك :

تضع خطة حكيمة للمستقبل من واقع حالتك واختباراتك ...

وتصمم فى أعماقك أن تسلك فيها بتدقيق شديد ، وبجدية والتزام .

وفى هذا العزم على حياة نقية فى المستقبل ، لا تته وسط تفاصيل عديدة ، إنما إهتم أولاً بنقط الضعف الواضحة التى فيك ، وبالفضائل الأمهات التى تحوى داخلها باقى الفضائل ... فإنك إن أدركت واحدة منها فى عمقها ـ كمحبة الله مثلاً ـ أدركت الحياة الروحية كلها ...

وهذا العزم المقدس ، لا بد أن تعرضه على الله ليباركه ويقويك .

وأنا أنصح أن هذا لا يكون نذراً تنذره كما يفعل البعض . ولا يكون استنزالاً

للويلات على نفسك، كما يقول البعض «يفعل بى الله ويزيد، إن فعلت هذا مرة أخرى فى المستقبل...».

فهذه النذور والويلات، قد تحوى فى داخلها إعتماداً على ذراعك البشرى.

كأن لك القوة الذاتية التى تستطيع أن تنفذ بها ما تعد الله به، مهما كانت العقبات والحروب التى تصادفك. وما أكثر من وعد الله وعوداً، ولم ينفذ. ثم عاد ليقول فى حزن:

كم وعدت الله وعداً حانثاً   ليتنى من خوف ضعفى لم أعد

إنما الأمر لا يعدو أنها رغبات مقدسة، تعرض فيها إرادتك وعزمك أمام الله، ليعطيك قوة على التنفيذ، لأنك بدونه لا تستطيع أن تفعل شيئاً (يو ١٥: ٥). وهكذا تتحول جلستك مع نفسك إلى صلاة تطلب فيها القوة للسير فى حياة التوبة ونقاوة القلب...

ولا شك أن الشيطان يقاوم بكل قوته جلوسك مع نفسك. لأنه يخشى أن تفلت من سيطرته، عن طريق أمرين:

أ - إنه يخشى أن تجلس مع نفسك، فتدرك سوء حالتك الروحية، فتفكر جدياً فى التوبة، وبهذا تفلت من يده.

ب - يخشى إن جلست مع نفسك، أن تجلس مع الله أيضاً، وتنال منه قوة روحية لا يقوى الشيطان على مقاومتها، فتغلبه بهذه القوة الإلهية.

والشيطان جرب أن كثيرين، جلسوا مع أنفسهم فتابوا...
وكمثال لهؤلاء قصة الإبن الضال (لو ١٥: ١١ - ٢٤).

لما كان هذا الإبن الضال مشغولاً مع أصحابه، إستمر فى ضلاله، إذ لم يكن لديه وقت ولا رغبة للجلوس مع نفسه...

ولكن كيف إذن بدأت قصة توبته؟ تلك القصة التى استحقت أن تسجل فى الإنجيل من فم الرب نفسه...

بدأت لما جلس إلى نفسه فى يوم ما، وفحص حالته، وفكر فى حياته وفى لوضع الذى وصل إليه. وأدرك الحقيقة المرة.

أدرك - فى جلسته مع نفسه - مقدار سوء حالته التى انحدر إليها ... فقال « كم من أجير عند أبى يفضل عنه الخبز، وأنا هنا أهلك جوعاً » ... ولكن هل مجرد إدراك سوء الحالة يكفى ؟ كلا . إنما لا بد من الوصول إلى حل . وما هو الحل ؟ قال « أقوم وأذهب إلى أبى ، وأقول له « أخطأت إلى السماء وقدامك ، ولست مستحقاً أن أدعى لك إبناً . إجعلنى كأحد أجرائك » (لو١٥ : ١٧-١٩) .

لقد أدرك سوء حالته ، وعرف الحل ، ووصل إلى قرار ، ونفذ ...

نفذ فى الحال ، إذ يقول الكتاب بعدها مباشرة « فقام وجاء إلى أبيه ... » (لو ١٥ : ٢٠) . وبدأ حياة جديدة إصطلح فيها مع الآب ...

ويقيناً لو لم يجلس الإبن الضال هذه الجلسة المصيرية مع نفسه ، ما كان قد وصل إلى القرار وإلى التوبة والإنسحاق والرجوع والتصالح ، والخروج من قبضة الشيطان ، إلى حيث لبس الحلة الأولى ...

مثال آخر هو القديس أوغسطينوس ...

إنه لم يستطع أن يتوب وهو فى دوامة المشغوليات ، دوامة الأصحاب والخطية واللذة ، ثم دوامة الفلسفة والفكر... ولكنه لما جلس إلى نفسه ، تلك الجلسة العميقة ، استطاع أن يصل إلى الإيمان وإلى التوبة ، ويرجع إلى الله ، ويفلت إلى الأبد من قبضة الشيطان ، ويصير بركة لكثيرين .

إنها ليست مجرد جلسة عادية ، إنما هى جلسة مصيرية ...

صدقونى إن أهم عمل للآباء والمرشدين والوعاظ ، هو دعوة كل إنسان خاطىء إلى الجلوس مع نفسه فى حضرة الله ، وفى ضوء وصاياه ، مثلما فعل أوغسطينوس أو الإبن الضال الذى حسناً قيل عنه إنه « رجع إلى نفسه » (لو١٥ : ١٧) .

لذلك فالشيطان يقاوم جلوس الإنسان مع نفسه . وذلك بأمرين :

أ - إما أنه يمنع جلوسك مع نفسك بأن يقدم لك عشرات المشغوليات ، ومئات الأفكار . ويذكرك بأمور ترى أنها هامة جداً ويجب أن تتفرغ لها . وكل ذلك لكى تعود إلى دوامتك مرة أخرى ...

مثال ذلك إن انتهزت فرصة بداية عام جديد من حياتك لتجلس مع نفسك ، يمكن للشيطان أن يعمل على شغل هذه المناسبة بالحفلات والمجاملات ، حتى تنشغل بها ولا تخلو للتفكير فى نفسك .

وإن كانت بداية عام ميلادى ، أو عام قبطى ، تريد أن تجلس فيها مع نفسك ، يحاول أن يمنعك عن ذلك بأنشطة روحية واجتماعات وكلمات ، حتى لا تتفرغ لنفسك . فما أسهل فى عيد النيروز مثلاً ، أن ننشغل بالحديث عن الشهداء وعذاباتهم واحتمالهم وشجاعتهم وأمجادهم ، وننسى أنفسنا ... نتحدث عن التاريخ ، وننسى الواقع الذى نعيشه ... نتحدث عن جدودنا العظام ، ولا نفكر فى كيف نشابهم ... حسنة بلا شك هى أخبار الشهداء ، ولكن إلى جوارها فلنفكر فى أنفسنا ، لأنهم تركوا لنا مثالاً لنقتدى به ...

ولكنها محاولة - ولو بأسلوب روحى - لمنع الإنسان من الجلوس مع نفسه . فإن أصررت على الجلوس مع نفسك . وقلت «إفعلوا هذه ، ولا تتركوا تلك» ... حينئذ يلجأ الشيطان إلى حيلته الثانية وهى :

ب - يحاول الشيطان أن يدخل فى جلستك مع نفسك ، ليفقدها فوائدها ...

إنه لا ييأس أبداً . مادام لم يستطع أن يمنعك عن الجلوس مع نفسك ، فليمنع عنك روحياتها . وذلك بأن يقدم لك أفكاراً وأحاسيس ، ويمنعك من تبكيت نفسك ، ويخفف من مشاعر ندمك ... ! فكيف ذلك ؟

إن تذكرت أية خطية ، فبدلاً من أن ينسحق قلبك بسببها ، وتوبخ ذاتك عليها بدموع التوبة ، يقدم لك الشيطان عنها أعذاراً وتبريرات !

أما أنت فاعلم أن هدفك من هذه الجلسة الروحية هو تنقية نفسك وليس تبريرها . وتنقية النفس تأتى بمعرفة خطاياها وتبكيتها عليها ، وليس بتدليل النفس أو مجاملتها أو تخفيف المسئولية عنها بإلقائها على الوسط الخارجى أو على الآخرين .

لذلك فى جلستك مع نفسك ، كن صريحاً معها إلى أبعد حد ...

لا تجاملها ولا تدللها ، فهذا لا ينفعك روحياً ، ولا يقودك إلى التوبة . بل إكشف لها كل أخطائها وكل ضعفاتها ، بكل ما فيها من دنس ومن بشاعة . ولا تحاول أن تقدم عنها أعذاراً أوتبريرات . إنما قدم عنها توبة وندماً وانسحاق قلب . واعرف أن العشار قد خرج مبرراً دون الفريسى ، لأنه انسحق أمام الله وطلب الرحمة لأنه خاطىء (لو١٨: ١٣) . والكتاب يقول «أنت بلا عذر أيها الإنسان» (رو٢: ١) . ويقول أيضاً «ليس لهم عذر فى خطيتهم» (يو١٥: ٢٢) .

إنك لا تنال المغفرة بالتبريرات ، إنما بالتوبة تؤهل للغفران ...

فكما تميز العشار على الفريسى بإدانته لنفسه ، كذلك تميز اللص اليمين على زميله اللص الآخر فى قوله «نحن بعدل جوزينا ، لأننا ننال استحقاق ما فعلناه» (لو٢٣ : ٤١) ...

مغبوط هو الإنسان الذى يتكشف خطاياه فى جلسته مع نفسه . ومغبوط أكثر من يقدم هذه الخطايا للرب محفوفة بالندم ، مبللة بالدموع .

إهتم إذن بإدانة نفسك ، فإن ذلك يساعدك على التوبة ويجلب لك الإتضاع وانسحاق القلب ، ويمكنك من الإعتراف ، ويجعلك قريباً من الرب الذى يقول عنه الكتاب «قريب هو الرب من المنسحقين بقلوبهم» . وحسناً قال القديس الأنبا أنطونيوس «إن دِنّا أنفسنا ، رضى الديان عنا» .

ولهذا فإن جلست مع نفسك ، وتذكرت خطاياك ، فلا تعذر ذاتك ، ولا تجلب اللوم على غيرك ناسياً ما فعلته أنت ، كما فعل آدم وحواء ...

إن لومك لغيرك لا يبررك ، حتى لو كان ذلك الغير ملوماً فعلاً ... لهذا يجب أن تركز على ما فعلته أنت ، لأنك مطالب به ...

إنها حيلة ولا شك من الشيطان أن يجعلك فى محاسبتك لنفسك ، تهتم بمسئولية الآخرين عن خطاياك ، وليس بمسئوليتك أنت ... !

ولعل من حيله أيضاً ، أنه يقلل لك من خطورة خطاياك ...

ولا يجعلها تبدو على حقيقتها فى بشاعتها ، كما لو كانت شيئاً بسيطاً ، لا تستحق أن تحزن بسببها وتندم . وما أسهل أن يسمى لك الخطايا بغير أسمائها ، أو يفلسف الخطية ، ويحاول أن يخفيها وراء سلامة القصد أو حسن النية ... !

وهكذا يوسّع ضميرك ، لكى يبتلع خطايا معينة ، لا تريد أن تتحمل مسئوليتها أو نتائجها ...

وكل هذا يقودك ولا شك إلى الإستهانة واللامبالاة ، ولا يساعدك على التوبة ، بل ربما يدفعك إلى الإستمرار فيما أنت فيه ، و يبعد عنك خشوع القلب وانسحاقه .

أما أنت فكن حازماً مع نفسك ووبخها . وإن كنت لا تحتمل أحياناً أن يكلمك الغير بصراحة من جهة أخطائك و يوبخوك ، فعلى الأقل يمكنك أن توبخ

نفسك بنفسك. قل لها ما يريد الناس أن يواجهوك به، ولكن يمنعهم الخجل، أو الأدب والإحتشام، أو عدم رغبتهم فى جرح شعورك... وكما قال القديس مقاريوس الكبير «أحكم يا أخى على نفسك، قبل أن يحكموا عليك».

وإن كان فى طبعك شيء من القسوة أو الشدة فاستخدمه ضد نفسك ولا تستخدمه مع الناس... إن نفسك هى التى تحتاج إلى الشدة لكى ترتدع ولا تعود تخطىء. أدبها إذن بقضيب من حديد، وربّها فى خوف الله وفى طاعته. وإن كان يلزمك باستمرار محاسبة النفس، فإنه يلزمك أيضاً معاقبة النفس، بدلاً من أن يعاقبها الله...

وفى إدانتك لنفسك، تذكر قول القديس العظيم الأنبا أنطونيوس:

«إن ذكرنا خطايانا، ينساها لنا الله، وإن نسينا خطايانا، يذكرها لنا الله».

إن داود الملك، لما كان لا يحس بخطيئته ولا يذكرها، أرسل له الله ناثان النبى، فشرح له بشاعة الخطية وقال له «أنت هو الرجل» (٢صم ١٢: ٧). ولما أدان داود نفسه وقال «أخطأت إلى الرب» سمع بعدها مباشرة عبارة «والرب نقل عنك خطيتك. لا تموت» (٢صم ١٢: ١٣). فلا تنتظر أنت أن يرسل لك الله ناثان آخر يكشفك...

إجلس إذن مع نفسك لكى تدينها، وتؤهلها بالتوبة لنوال المغفرة...

وإن كان البعض قد تعود أن يجلس جلسة جدية مع نفسه فى بداية العام الجديد، أو فى الأصوام، أو فى مناسبات هامة فى حياته...

فاجلس أنت مع نفسك كل يوم وحاسبها ...

إفحصها، واطمئن باستمرار على نقاوتها. واسهر على سلامة اتجاهاتها، وتابعها فى حياة التوبة، إن كانت قد بدأت هذه التوبة من قبل... خوفاً من أن تفتر الحرارة التى بدأت بها الطريق مع الله...



(٣)

لا تستخدم أسلوب التبريرات والأعذار

إن كنت تريد أن تحيا فى حياة التوبة ، فلا تحاول أن تقدم أعذاراً أو تبريرات عن كل خطية تقع فيها...

فالأعذار لا تتفق مع حياة التوبة ، ولا مع حياة التواضع ...

فالتبرايرات معناها أن الإنسان يخطىء ، ولا يريد أن يتحمل مسئولية أخطائه... يخطىء ويقدم الموضوع كأنه شىء طبيعى جداً ، هناك أسباب دعت إليه ! كأن لا خطأ فى الأمر...

مثل هذا الذى يجد لخطيته ما يبررها ، كيف يمكن أن يتوب عنها؟!

التبريرات هى محاولة لتغطية الخطية ، وليست توبة عن الخطية . وبإيجاد مبرر للخطية ، ما أسهل أن يستمر المخطىء فيها ، وعذره معه !!

إنسان يغطى الخطية بعذر ، كما يغطيها غيره بأكذوبة . ويريد بهذا التبرير أن يخرج من الخطية سليماً بلا عيب ، بلا لوم ، يلتف بثوب من المجد الباطل... بينما الخطية هى الخطية مهما كانت الأسباب المحيطة بها ، أو الظروف المصاحبة لها... ألسنا فى صلاة الثلاثة تقديسات نطلب حِلاً ومغفرة حتى عن الخطايا الخفية ، والتى فعلناها بغير معرفة ، أو بغير إرادتنا ، ولا نعتبر كل هذه مبررات...

صدق الذى قال إن طريق جهنم مفروش بالأعذار والتبريرات والحجج .

تاريخ الإعتذارات قديم :

خطية المبررات قديمة بقدم البشرية ، منذ أبوينا آدم وحواء ...

حاول آدم أن يبرر خطيته بأن المرأة أعطته . وحاولت حواء أن تبرر خطيتها بأن الحية أغرتها . ولكن الله ما قبل عذراً من آدم ولا من حواء . ولا حتى وجد هذه الأعذار تستحق الرد أو المناقشة . بل على العكس عاقب آدم على العذر الذى قدمه ،

وقال له فى مقدمة عقوبته «لأنك سمعت لقول إمرأتك وأكلت من الشجرة...» (تك٣:١٧) .

وللأسف . توارثنا نحن خطية التبرير هذه من آدم وحواء عبر الأجيال ...

بل أن قديساً عظيماً مثل إبراهيم أبى الآباء ، وقع فى هذه الخطية عينها ، لما قال عن سارة إنها أخته (تك ٢٠ : ٢ : ١١) .

وبسبب هذا أخذها أبيمالك ملك جرار إلى بيته . وكان من الممكن أن يقترب إليها ، لولا أن الرب منعه فى حلم وأنذره بالموت بسبب ذلك... فلما عاتب أبيمالك أبانا إبراهيم قائلاً له «بماذا أخطأت إليك ، حتى جلبت علىّ وعلى مملكتى خطية عظيمة ؟! أعمالاً لا تعمل عملت بى ! »... أجاب أبونا إبراهيم بمحاولة يبرر فيها مسلكه ، وقال «إنى قلت ليس فى هذا المكان خوف الله البتة ، فيقتلوننى لأجل إمرأتى» (تك١٠:١١) .

وما أسهل الرد على هذا التبرير ، الذى ألقى فيه المسئولية على غيره...

لأنه يمكننا أن نقول : ولماذا أتيت يا أبانا إلى هذا المكان الذى لا يوجد فيه خوف الله ؟ ولماذا أقمت فيه ولم تتركه مادام هو هكذا ؟ وهل دخلت هذا المكان بإرشاد من الله الذى قال لك من بدء دعوتك «إذهب... إلى الأرض التى أريك» (تك١٢:١) . وهل يجوز يا أبانا أن تضحى بإمرأتك من أجل سلامتك ، وتعرضها بهذا الخطر إقتراب رجل غريب إليها ، وتعرض هذا الغريب لغضب الله ؟! ولماذا تلجأ إلى هذه الطرق البشرية لحمايتك ، دون اللجوء إلى معونة الله ؟!

ويبدو أن أبانا إبراهيم لما وجد التبرير، إستمر وجعله سياسة ثابتة !

وهكذا قال لزوجته فى صراحة تامة « هذا هو معروفك الذى تصنعينه إلىّ : فى كل مكان نأتى إليه ، قولى عنى هو أخى» (تك٢٠:١٣) . وبهذا كان ممكناً فى كل مكان يحلان فيه أن تتكرر نفس المشكلة ، لأن إبراهيم وجد تبريراً لذلك (تك ٢٠ : ١٢) ، ولم يقل : هى زوجتى !

يندر أن يقول إنسان « أنا أخطأت » ، مادام أسلوب التبرير ممكناً .

وقد تكون الخطية واضحة جداً ، لا تقبل النقاش ، ومع ذلك لا مانع من أن تقدم عنها تبريرات وأعذاراً... !

مثال ذلك صاحب الوزنة الواحدة الذى أخذها ودفنها فى حفرة فى الأرض ، دون أن يتاجر بها و يربح كزميليه... هذا أيضاً لما حاسبه سيده لم يخجل من أن يقدم تبريراً وعذراً ، ولكنه حسبما يقول المثل «عذرا أقبح من ذنب» ... فقال «ياسيد ، عرفت أنك إنسان قاسٍ ، تحصد من حيث لم تزرع ، وتجمع من حيث لم تبذر ، فخفت ومضيت وأخفيت وزنتك فى الأرض» (مت ٢٥ : ٢٤ ، ٢٥) . وطبعاً لم يقبل الرب هذا العذر منه ، وأمر بطرحه فى الظلمة الخارجية .

مخالفة يونان النبي للرب ، كانت مخالفة واضحة ، وأيضاً كان لها تبرير!

هرب يونان من الرب ، ورفض أن يذهب إلى نينوى حسب أمر الرب ، بل ذهب بسفينة إلى ترشيش . ولما أرجعه الرب ، وكرز لأهل نينوى وتابوا «غم ذلك يونان غماً شديداً فاغتاظ» . ومع ذلك قدم تبريراً لموقفه ، ليثبت أنه على حق ، فقال «آه يارب ، أليس هذا كلامى إذ كنت بعد فى أرضى . لذلك بادرت بالهرب إلى ترشيش ، لأنى علمت أنك إله رؤوف ورحيم بطيء الغضب وكثير الرحمة ونادم على الشر . فالآن يارب خذ نفسى منى ، لأن موتى خير من حياتى» (يون ٤ : ١-٣) .

هذا هو العذر الذى قدمه النبي ليبرر به مخالفته للرب ، وحزنه على خلاص ١٢٠ ألف نسمة !! من يقبل هذا الكلام ؟!

خطية واضحة أخرى ، وهى أن شاول الملك أصعد محرقة للرب ، وهو ليس كاهناً ... ومع وضوح الخطية قدم لها تبريرات ...

فلما وبخه صموئيل النبي على ذلك ، لم يقل «أخطأت» ، ولم يقدم ندماً وتوبة ، إنما قدم أعذاراً وتبريرات ... ! فقال للنبي «لأنى قد رأيت أن الشعب قد تفرق عنى ، وأنت لم تأتِ ، والفلسطينيون متجمعون فى مخماس ... فتجلدت وأصعدت المحرقة» (١صم١٣ : ١١ ، ١٢) .

وطبعاً لم يقبل النبي منه هذه الأعذار . وأسمعه عقوبة الله له ، بأن مملكته لا تقوم ، وأن الرب اختار رئيساً آخر للشعب بدلاً منه ...

وإيليا النبي الجبار ، وجد له عذراً ، لما خاف من إيزابل وهرب !

وصله تهديدها (١ صم ١٩ : ٢) فخاف وهرب ! ولما سأله الله عن هروبه بقوله «مالك ههنا يا إيليا ؟» ، وجد تبريراً ... فقال مرتين «قتلوا أنبياءك

بالسيف، وبقيت أنا وحدى. وهم يطلبون نفسى ليأخذوها» (١مل ١٩: ١٠. ١٤). وفى هذا التبرير، نسى كل أعمال الله العجيبة معه، وكيف قواه على مقابلة آخاب الملك وتوبيخه (١مل ١٨: ١٨)، كما قواه على قتل ٤٥٠ نبياً من أنبياء البعل (١مل ١٨: ٢٢، ٤٠). فلم يكن هناك داع للخوف والهروب مادامت يد الله معه...

ولم يقبل الله طبعاً هذا العذر من إيليا. وأمره بعدة مهام، منها أن يذهب ويمسح إليشع بن شافاط نبياً عوضاً عنه» (١مل ١٩: ١٦). أما عبارة «بقيت أنا وحدى» فرد الرب عليها بأنه استبقى ٧٠٠٠ ركبة لم تجث للبعل (١مل١٩:١٨).

حقاً، ما أكثر التبريرات، وكلها غير مقبولة. فما الهدف منها ؟

يريد الإنسان بهذه التبريرات، أن يكون بلا لوم أمام الناس، وربما أمام نفسه أيضاً، لكى يريح ضميره إذا إحتج عليه ...

ولكن حتى لو قبل الناس هذه الأعذار، وحتى لو استطاع الإنسان أن يخدع نفسه ويخدر ضميره ليقبل هذه التبريرات، أترى الله يقبلها ؟! الله العالم بكل شىء، والذى رفض كل هذه الأمثلة التى أوردناها، الله الذى أمامه «يستد كل فم» (رو٣:١٩)... إن التبريرات لا تصلح مع الله، إنما يصلح الخضوع والإعتراف بالخطية ...

وهناك تبريرات أخرى تبدو كلون من تدليل النفس ...

مثال ذلك عذراء النشيد التى قرع الرب على بابها ... وظل طول الليل هكذا، حتى امتلأ رأسه من الطل، وقصصه من ندى الليل، وهو يناديها بأرق الألفاظ... ومع ذلك اعتذرت عن أن تفتح له بقولها «قد خلعت ثوبى فكيف ألبسه؟ قد غسلت رجلىّ فكيف أوسخهما» (نش٥:٢،٣).

أترى قبل الرب منها هذا العذر ؟! كلا، بل تحول وعبر، وجعلها تقاسى مرارة التخلى بقولها «طلبته فما وجدته، دعوته فما أجابنى»...

ومن أمثلة التبريرات غير المقبولة، الإعتذارات عن الخدمة...

موسى، الذى اعتذر عن الخدمة بقوله للرب «لست أنا صاحب كلام، منذ أمس ولا أول من أمس ...بل أنا ثقيل الفم واللسان» (خر ٤: ١٠). ولم يقبل الرب هذا العذر من موسى. وعالج له موضوع ثقل اللسان.

وأرميا أيضاً اعتذر عن الخدمة بقوله «**لا أعرف أن أتكلم لأني ولد**» (أر ١: ٦). ولم يقبل الرب منه هذا الإعتذار، بل وبخه قائلاً «**لا تقل إني ولد، لأني** إلى كل من أرسلك إليه تذهب، وتتكلم بكل ما آمرك به. **لا تخف... لأني معك،** **أنقذك**» (أر١: ٧، ٨).

وهكذا لم يقبل الرب أيضاً إعتذار من قال له «**إئذن لي أن أمضي أولاً وأدفن أبي**» بل قال له «إتبعني ودع الموتى يدفنون موتاهم» (مت٨: ٢١، ٢٢).

ولكن ما أعجب الراعي الصغير، الذي يهجم الأسد على غنمه ... فلا يعتذر عن حمايتها بضعفه أمام عنف الأسد ...

يشبه شيئاً من هذا ما فعله داود الصغير (١ صم ١٧).



تبريرات وأعذار واهية، نرد عليها بأمثلة لقديسين رفضوا التبريرات

متى يتخلص المخطىء من تبريره لعمله، كما تخلص داود النبي، الذى لما عد الشعب، لم يحاول أن يقدم لذلك تبريراً، بل ضربه قلبه وقال للرب «لقد أخطأت جداً فيما فعلت. فالآن يارب أزل إثم عبدك، لأنى انحمقت جداً» (٢صم٢٤: ١٠).

هكذا يتكلم الإنسان المتواضع التائب المعترف بخطيئته أمام الله...

أما غير المتواضع وغير التائب، فإنه يحاول أن يجد تبريراً عند ارتكاب الخطية، وبعد ارتكابها أيضاً، وفى الحديث عنها بصفة عامة...

و يؤسفنى أن أقول أن توالى الأعذار والتبريرات عند مثل هذا الشخص تجعل المبادىء والقيم عنده تهتز... ومادام كل خطأ له ما يغطيه، إذن فلا توجد مُثل يسير على مناهجها، أو روحيات يتمسك بها...

وسنحاول هنا أن نذكر بعض الأعذار العامة التى يعتذر بها البعض، إذا لم يسلكوا حسناً فى حياتهم.

١ - يقولون كل الناس هكذا (الكل كده). هل نشذ عن المجتمع ؟!

وكأنهم بهذا يعتبرون أن الخطأ إذا صار عاماً، لم يعد خطأ يلام عليه الفرد! كأن نقائص المجتمع كله لم تعد نقائص، أو صار الخطأ العام مبرراً لخطأ الفرد!؟ كلا، فالخطأ هو خطأ، عاماً كان أو خاصاً. ومن أجل ذلك يقوم المصلحون الإجتماعيون بإصلاح أخطاء المجتمع. وكذلك يهاجمها الرعاة والكهنة والكتاب وأصحاب المبادىء.

ثم لننظر إلى الكتاب المقدس. ونرى مدى الحكم على هذا العذر...

نوح أبو الآباء، كان يعيش ببره فى عصر كله فاسد ...

وبلغ من فساد الناس فى تلك الأيام، أن الله أغرق العالم كله بالطوفان، إذ رأى «أن شر الإنسان قد كثر فى الأرض، وأن كل تصور أفكار قلبه إنما هو شرير

كل يوم...» (تك ٦ : ٥). «فمحا الله كل قائم كان على وجه الأرض...» (تك٧ : ٢٣).

أكان هذا الفساد العام عذراً لنوح أن يسلك مثلهم هو وأسرته، و يقول «كل الناس هكذا، هل نشذ عن المجتمع؟»... أم هو سلك بكماله أمام الله والناس. وكان لابد أن يشذ عن هذا المجتمع الفاسد... وإن كانت عبارة «نشذ عن المجتمع» تتعبكم، فلنقل بتعبير أفضل «نتميز عن المجتمع». وهذا التمايز قال عنه الكتاب:

« لا تشاكلوا هذا الدهر» (رو ١٢ : ٢) . أى لا تصيروا شكله ...

ونفس هذا الكلام نقوله أيضاً عن لوط فى سدوم ...

كانت المدينة كلها فاسدة، مما أدى إلى أن يحرقها الرب بالنار (تك١٩). ولم يوجد فيها عشرة فقط من الأبرار، حتى لا يهلك الله هذه المدينة من أجل العشرة (تك ١٨ : ٣٢) . فهل كان هذا عذراً يسمح للوط أن يسلك مثلهم، حتى لا (يشذ) عن المجتمع...! وهل فى ذلك يتبع المثل القائل «إن كنت فى بلد بعيد فيه العجل، حِش وارمى له»...!

كلا، بل يحتفظ الأبرار بمبادئهم السامية، مهما كان الخطأ عاماً. وعلى العكس يمكن أن يقال: إن كان الخطأ منتشراً، فهذا يحتاج إلى حرص أكثر...

سدوم خلص منها ثلاثة فقط: لوط وإبنتاه. وهلك الجميع...

مثال آخر، هو يوسف الصديق فى أرض مصر...

لعله كان الوحيد فى أرض مصر، الذى يعبد الله، بينما كان الكل يعبدون الديانات المصرية القديمة: رع وآمون وإيزيس وأوزوريس وبتاح وحتحور... إلخ. ولم يسمح يوسف لنفسه أن يجارى المجتمع.

وهكذا كان دانيال أيضاً والثلاثة فتية فى أرض السبى...

حتى فى طعامهم كانوا مميزين، مع أنهم كانوا أسرى حرب، مستعبدين وتحت قوانين ملزمة. وما أجمل قول الكتاب فى ذلك: «وأما دانيال فجعل فى قلبه ألا يتنجس بأطايب الملك ولا بخمر مشروبه» (دا١ : ٨).

هكذا أنت، عش بروحياتك السليمة، حتى لو عشت بها وحدك.

إن لم تستطع أن تؤثر على المجتمع بروحياتك، فعلى الأقل لا تندمج فيه وتخضع له. ولا تجعل الأخطاء العامة تؤثر عليك.

المفروض فى أولاد الله أنهم يطيعون ضمائرهم ، ولا ينجرفون مع التيار، معتذرين بأن الجو العام هكذا . إن القلب الضعيف هو الذى يسقط ويحتمى وراء الأعذار. وكذلك محبو الخطية ، والذين يعرجون بين الفرقتين (١مل ١٨: ٢١) . أما القلب الذى يحب الله فهو قوى . مهما وجد من صعوبات فى طريق التوبة ، يحاول أن ينتصر عليها ...

لماذا إذن تأخذ موقفاً ضعيفاً أمام الذين يعيرونك بتدينك ؟

أولئك الذين يسخرون بالأسلوب الروحى ، محاولين بسخريتهم أن يضعفوا معنوياتك ، ويجذبوك إلى طرقهم ، ويفقدوك ثمار توبتك !! فإن كنت تائباً حقاً ، لا تجعلهم سبب نكسة لك . فإما أن تكون قوياً فى إقناعك ، وتثبت لهم سمو حياة الروح . وإما أن تصمت وتظل ثابتاً فى طريقك الروحى ، دون أن ترتد .

هنا ونتحدث عن سبب آخر يعتذر به البعض ، وهو العوائق :

٢ ـ البعض يعتذر بالعوائق . بينما يليق بالأقوياء أن ينتصروا على العوائق .

وسنقدم اللص اليمين كمثال رائع ، رفض العوائق كمبرر ...

ما أكثر العوائق التى كانت تقف أمام إيمان هذا اللص ... حتى أنه لو كان لم يؤمن ـ كزميله ـ لكان له عذره بل أعذاره ...

بمن يؤمن ؟ إنه لم ير المسيح فى قوته وتجليه ومعجزاته . والذين رأوا الكثير من معجزات المسيح الباهرة ضعفوا فى ذلك الحين ، وواحد من أبرز تلاميذه أنكر... وفى أذنى اللص كانت تدوى أصوات الجماهير «أصلبه . أصلبه» . فهل يؤمن اللص بشخص يراه مصلوباً أمامه ، فى ضعف ، والدم ينزف منه ، وألفاظ الإستهزاء والتعيير والتحدى تحيط به من كل جانب ، وهو صامت ... والكهنة ورؤساء الكهنة ضده ، وشيوخ الشعب ضده ، والقادة ومعلمو الشريعة ضده ، والحكام ضده ، وحتى اللص الآخر المصلوب إلى جواره يسخر به أيضاً ...

الذين حملوا المفلوج هم مثال آخر على تخطى العوائق (مر ٢ : ١ ـ ١١)

ما كان أسهل على هؤلاء أن يعتذروا للمفلوج بأنهم لا يستطيعون مساعدته وتوصيله إلى المسيح . فالبيت الذى يوجد فيه مملوء بالشعب ، والزحام شديد جداً ،

والطرق كلها مسدودة، ولا يوجد أى منفذ أو أى مدخل، ولا توجد أية طريقة للوصول إلى المسيح.

أما هم، فلم يعترفوا بكل تلك العوائق، لأن محبة الخير التى فيهم كانت أقوى من العوائق. فحملوا المفلوج على محفة، وثقبوا سقف البيت، وأنزلوا مريضهم إلى الرب ليشفيه. ما أعظم هذه النية الخيرة، وهذه الإرادة القوية، وعلى رأى المثل «حيثما توجد إرادة، توجد وسيلة» وأيضاً:

القلب القوى يجد مائة وسيلة للشيء الذى يريد أن يفعله ...

وأيضاً قال الآباء «إن الفضيلة تريدك أن تريدها لا غير» ...

يكفى أن تريد، وحينئذ تجد النعمة تفتح أمامك أبواباً كانت مغلقة، وروح الله القدوس يقويك، وأرواح الملائكة والقديسين تحيط بك.

لا تعتذر إذن بالعوائق، إنما فكر جيداً كيف تنتصر عليها ...

زكا العشار أيضاً، كانت أمامه عوائق فى الوصول إلى المسيح ...

بل حتى مجرد رؤية المسيح كانت غير ممكنة بالنسبة إليه: الزحام شديد جداً، وكان هو قصير القامة. وأيضاً كان رئيساً للعشارين أى إنساناً مكروهاً من الكل، بعيداً عن الروحيات، يسخرون به إن طلب اللقاء بالمسيح. ففكر أن يصعد على جميزة ليراه. وكان أمام هذا عائق آخر هو مركزه الكبير. ولكنه انتصر على هذا كله. لذلك استحق أن يكلمه الرب ويقول له: «ينبغى أن أمكث اليوم فى بيتك» (لو١٩: ٥).

حقاً إنه لو كان الدافع الداخلى ضعيفاً فى قلب زكا، لوجد تبريراً من العوائق التى أمامه، وما وصل إلى المسيح.

فهل أنت دوافعك الداخلية ضعيفة لذلك تعتذر بالعوائق ؟!

هوذا أمامنا مثل حدث فى عصر الإستشهاد: شاب لم تنفع معه كل طرق التعذيب. فأرادوا إسقاطه بإغرائه من جهة عفته، ففشل الإغراء. فربطوه إلى فراش لتأتى إمرأة وتخطىء معه. فلما رأى هذا الشاب أنه لا حيلة للتخلص، جز على لسانه، حتى سال دمه وبصقه فى وجهها، فاشمأزت وتركته، وأنقذ الشاب عفته...

لو كان ضعيفاً من الداخل، لوجد تبريراً للسقوط. ولكن قوته الداخلية جعلته ينتصر، ولا يعترف بالعوائق ولا التبريرات.

وهذا يجعلنا ننتقل إلى الحديث عن عذر آخر يقدمونه :

٣ - يعتذر البعض بشدة الضغوط الخارجية ، أو شدة الإغراء الخارجى ...

إن القلب الثابت فى الداخل ، لا يمكن أن يخضع للضغوط الخارجية ، ولا يسقط بسببها ، ولا يتخذها تبريراً لسقوطه ...

إنما يبرر موقفه بالضغوط الخارجية ، الشخص الذى ليست محبته ثابتة من نحو الله ومن نحو الوصية ، أو فى قلبه خيانة فى الداخل ، وليس هو مخلصاً لله بالحقيقة ، ولا مخلصاً لوصاياه ... !

خذوا يوسف الصديق كمثال رائع فى الإنتصار على الضغوط الخارجية ...

لا شك أن الضغط الخارجى كان شديداً عليه جداً ... كان عبداً مستعبداً لإمرأة . والمرأة هى التى تطلب منه الخطية ، وتلح فى ذلك ، وهو يرفض . وتلح أيضاً . وهو تحت سلطانها ، تستطيع أن تسىء إلى سمعته ، وأن ترميه فى السجن ، كما فعلت أخيراً . ولو كان ضعيفاً من الداخل ، لوجد ما يبرر سقوطه ! ولكنه قال : كيف أفعل هذا الشر العظيم وأخطىء إلى الله » (تك ٣٩ : ٩) ، واحتمل من أجل بره ...

إن القلب النقى الثابت فى بره ، لا يعترف بالمبررات ، ولا يخضع للإغراء الخارجى . ومثال ذلك قصة داود مع شاول الملك ...

حاول شاول مراراً عديدة أن يقتل داود بلا ذنب ، وطارده من برية إلى أخرى . وأخيراً وقع فى يد داود ... رآه نائماً فى كهف . وقال رجال داود له « هوذا اليوم الذى قال لك عنه الرب هأنذا أدفع عدوك ليدك ، فتفعل به ما يحسن فى عينيك » (١صم ٢٤ : ٤) .

وكان الإغراء شديداً ، يتخلص به من عدوه ، ومن الموت الذى يتهدده ، ويتولى الملك بدلاً منه . ولكن داود رفض هذا الإغراء وقال «حاشا لى من قبل الرب أن أعمل هذا الأمر بسيدى مسيح الرب ، فأمد يدى إليه ، لأنه مسيح الرب هو» . ووبخ داود رجاله (١صم ٢٤ : ٦، ٧) .

وكانت هناك تبريرات كثيرة : ... من قال إنه مسيح للرب ؟ لقد أعلن الرب رفضه له (١صم ١٦ : ١) . كذلك كان روح الرب قد فارقه ، وبغته روح ردىء

من قبل الرب» (١صم ١٦ : ١٤). وكان داود يعرف هذا، لأنه هو الذى كان يضرب له على العود، فيرتاح و يذهب عنه الروح الردىء (١صم١٦: ٢٣).

هذا إذن إنسان خاطىء ومرفوض . فإن تخلصت منه تكون قد خلصت الشعب من شره... كلا، إنه مسيح الرب هو...

وأنت ياداود ، أنت هو مسيح الرب الحقيق . مسحك صموئيل النبي ملكاً، وحل عليك روح الرب (اصم ١٦ : ١٢، ١٣). فأصبحت أنت البديل الرسمى لذلك الشرير. ولو أخذت الملك ، لا تكون قد اغتصبته فهو حقك . والشعب كله سيفرح بك . كما أن الله هو الذى دفعه إلى يدك ... وتذكر أن هناك حرباً بينك وبينه، وهو يريد قتلك . فإن قتلته تكون طبيعة الحرب ...

ولكن داود لم يقبل شيئاً من هذه التبريرات جميعها . وقال «كيف أمد يدى إلى مسيح الرب ؟!» . ليكن خاطئاً وشريراً، وليكن مرفوضاً، وليكن عدواً لى، ليكن ما يكون ولكنه مسيح الرب هو، لا أمد يدى إليه ...

إنها صورة مثالية للقلب النقى الذى يرفض التبريرات ، والإغراءات ...

ننتقل إلى نقطة أخرى فى مشكلة الأعذار :

٤ - يعتذر البعض فيقول أنا ضعيف ، والوصية صعبة ...

قد تقول إنك ضعيف ، إن لم تضع معونة الله فى اعتبارك . فأنت لست وحدك . قد تكون ضعيفاً، ومع ذلك تقول «أستطيع كل شىء فى المسيح الذى يقوينى» (فى ٤ :٣) . طالما صلاتك موجودة ، فأنت لست ضعيفاً لأن قوة الله ستعمل فيك . تنصرك ضد كل خطية ، وتقيمك من كل سقطة ...

لو كان داود نظر إلى نفسه كضعيف ، ما حارب جليات ...

هذاالشعور بالضعف ، كان مبرراً لكل رجال الجيش أن يبقوا فى أماكنهم ولا يقوموا لمحاربة جليات . أما داود ، فلم يكن يسمح للمبررات أن تحميه من وصية الله وعمل الروح .

كانت هناك مبررات أمام داود تعفيه من منازلة جليات ، لكنه لم يستخدمها :

أولاً : هو ليس من رجال الجيش ، إنما جاء يحمل طعاماً لأخوته ، وكان يمكن أن يقتصر على هذه المهمة ويمضى ، طالباً لهم صالح الدعوات ...

ثانياً : كان جليات رجلاً مخيفاً فى جسمه الهائل وأسلحته الجبارة. ولا يلوم أحد صبياً صغيراً مثل داود إن امتنع عن محاربته.

ثالثاً : إن أحداً لم يطلب منه هذا الأمر أو حتى يفكر فيه!

رابعاً : كان كل قادة الجيش خائفين من الرجل ، حتى الملك شاول نفسه لم يتقدم لمحاربته...

فما كان أسهل على داود أن يعتمد على هذه المبررات ، و يقول «ما شأنى بهذا الأمر. ولماذا أحشر نفسى فى مسئوليات غيرى؟! ويمضى. ولكن غيرة داود دفعته أن يتقدم لمقاتلة جليات ويخلص الشعب منه.

الأعذار موجودة ، ولكنه رفض استخدامها والإحتماء بها ...

وصعوبة العمل يشهد بها الكل ، ولكنه انتصر عليها بالإيمان .

لقد عاقب الرب الذين أضعفوا معنويات الشعب بالحديث عن المصاعب.

أولئك الذين رأوا الأرض التى تفيض لبناً وعسلاً ، ولكنهم قالوا «غير أن الشعب معتز، والمدن حصينة... لا نقدر أن نصعد إلى الشعب لأنهم أشد منا... وقد رأينا هناك الجبابرة بنى عناق... فكنا فى أعيننا كالجراد، وهكذا كنا فى أعينهم» (عد١٣: ٢٧-٣٣).

وبهذا الحديث الذى يحطم الروح المعنوية « رفعت كل الجماعة صوتها وصرخت. و بكى الشعب تلك الليلة وتذمر» (عد ١٤ : ١). ورفض الرب أولئك الذين صعبوا الأمر وشرحوا استحالة تنفيذه.

لذلك لا تقل عن وصية الرب إنها صعبة. لأنها لو كانت صعبة ما أمر الرب بها. كيف يأمر بما لا يمكن تنفيذه ؟!

إن الله لا يمكن أن يأمرنا بالمستحيل . إنه يعطى الوصية -مهما كانت تبدو صعبة- وفى نفس الوقت يعطى القدرة على تنفيذها . يعطى الوصية ، و يعطى معها النعمة. والروح القدس يعمل داخل القلب لكى يؤهله للعمل ، بل و يشترك فى العمل معه... وإلا ما كان أحد يقدر أن ينتصر على إبليس الذى هو مثل أسد يزأر يجول ملتمساً من يبتلعه هو (١ بط ٥ : ٨) .

إن إبراهيم أبا الآباء لم يمتنع عن تنفيذ وصية تبدو صعبة جداً ...

قال له الرب « خذ إبنك ، وحيدك ، الذى تحبه ، إسحق ... وأصعده محرقة ... » (تك ٢٢ : ٢) . ولم يعتذر أبونا ابراهيم بصعوبة الوصية ، وبأنها فوق مستوى الطبيعة ، وبأن هذا إبن المواعيد ، وإبن شيخوخته ، وماذا يقول لأمه ... بل بكر صباحاً ، وذهب لينفذ وصية الله ...

الله الذى أعطى إبراهيم القوة على التنفيذ ، هو أيضاً قادر أن يعطيك قوة ... الذى جعل أرميا الصغير مدينة حصينة وأسوار نحاس على كل الأرض (أر ١ : ٨) . هو قادر أن يقويك مثله ...

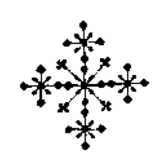
فى طريق التوبة ، لا تخف من خطية ، ولا من عادة أو طبع ، ولا من شيطان ، بل قل « أستطيع كل شىء فى المسيح الذى يقوينى » ... ولا تجعل هذا الخوف مبرراً لك فى ترك العمل الروحى ...

أبونا إبراهيم طلب الله منه إبنه الوحيد ليذبحه ، فلم يبخل به عليه ، ولم يقل الوصية صعبة . ولم يحاول أن يوجد مبررات ليمتنع .

وأنت ، ما هو الشىء الصعب الذى يطلبه الرب منك ولا تستطيعه ؟! هل هو يطلب منك أن تذبح إبنك الوحيد ، أم المطلوب منك بسيط جداً ؟!

طوباهم أولئك الجبابرة الذين انتصروا على قلوبهم من الداخل ، ولم يعتذروا بصعوبة الوصية كما نفعل نحن فى تبرير أنفسنا ...

حقاً إن ملكوت السموات يحتاج إلى قلوب كالصخر ، لا تلين أمام العوائق ، ولا تضعف أمام الصعاب . وتنفذ وصية الكتاب فى قوله « تشدد ، وكن رجلاً » (١مل ٢ : ٢) . هنا تظهر الرجولة الحقة ، فى حياة النقاوة .



عند البعض ، مادام العذر موجوداً ويمكنهم تقديمه ، حينئذ تصير الخطية سهلة والتقصير سهلاً . دون مراعاة لمشاعر الرب الذى يتحولون عن محبته ، ودون أمانة للوصية أو التزام بها . وأثناء الإعتذار، يخادع الإنسان نفسه ، و يكون ضمير مخلخلاً غير ثابت .

وباب الإعتذار واسع ، قد يدخل فيه الصدق والكذب ...

أى قد تكون الأعذار غير حقيقية ، أو من السهل الأنتصار عليها ، وليست عائقاً حقيقاً له قوة المنع التى تغلب الإرادة . وقد تكون الأعذار فرصة للتهاون أو لمحبة الخطية . أو قد تكون ستاراً للكبر ياء التى ترفض الإعتراف بالخطأ . وقد تكون سبباً ثانو ياً وليست هى السبب الحقيقى .

وعلى العموم فالتبر يرات والأعذار دليل على عدم التوبة ...

العجيب أن الإنسان غير التائب ، على الرغم من أخطائه ، نفسه جميلة فى عينيه ، يناقش من أجلها ويجادل ... !

كل شىء يعمله ، له فى نظره أسبابه وحكمته . وكل خطية لها تبر يرها . وكل تقصير فى أعمال الفضيلة ، له أيضاً تبر ير. ولا يوجد خطأ فى أى تصرف يتصرفه ! ... يتكلم كما لو كان معصوماً لا يخطىء ... يدافع و يبرر. من الصعب أن تخرج من فمه كلمة « أخطأت » ... ! وإن شددت عليه الخناق ، فأقصى ما يقوله هو « آه ... هذا العمل ، من الجائز أن البعض يفهمونه على غير المقصود منه ... ! ولكنى أقصد ... » وتتوالى سلسلة أخرى من التبر يرات ...

كأنه إله ... لا يخطىء !! « ألم أقل إنك آلهة » (مز ٨٢ : ٧) .

هؤلاء (الآلهة) الذين لا يخطئون ، لا يمكن أن يتوبوا ! عن أى شىء يتوبون ؟ حقاً لا يحتاج الأصحاء إلى طبيب ... هؤلاء لا يحتاجون إلى المسيح الغافر والمخلص ! فأى شىء تراه سيغفر لهم أو يخلصهم منه ؟! ...

حتى الذين يقصرون فى كل الواجبات الروحية من صلاة وصوم وحضور الكنيسة

والتناول... يجدون أيضاً مبررات لتقصيرهم، وكأنهم لم يخطئوا.

تسأل أحدهم لماذا لا تصلى ؟ ولماذا لا تذهب إلى الكنيسة ؟

فلا يقول لك مطلقاً « أنا مقصر » أو « أنا مخطىء » . إنما يبرر تقصيره بأنه ليس لديه وقت . وإن ناقشته فى ذلك يضع أمامك قائمة طويلة من المشغوليات... فإن سألته « ولماذا لا يكون الرب ضمن مشغولياتك ؟ ولماذا لا تحسب الصلاة أمراً هاماً تحجز له مكاناً فى تنظيمك لوقتك ؟... حينئذ يدخلك فى تبرير آخر، فى محاولة لفلسفة الخطأ، فيقول :

المهم فى القلب . ومادام قلبى نقياً ، لا حاجة إذن إلى الصلاة ! فإن الله هو إله القلوب...

وطبعاً الرد واضح . فالقلب النقى لا يغنى عن الصلاة ، بل يساعد عليها . القلب النقى فيه محبة الله . والذى يحب الله يتكلم معه، ويصلى... والإنسان الروحى يجمع بين الأمرين : نقاوة القلب ، والصلاة . وكما قال الكتاب «إفعلوا هذه، ولا تتركوا تلك» . نقاوة القلب لازمة للصلاة، فالصلاة التى تخرج من قلب نقى هى المقبولة أمام الله...

كذلك يبدو أن الذى يرد بهذه العبارة لا يفهم معنى عبارة (نقاوة القلب) . فإن كان القلب نقياً، لا يمكن أن يقول إنه لا حاجة به إلى الصلاة . فالذى لا يحتاج إلى صلاة، ليست له نقاوة القلب .

وقد تسأل إنساناً آخر: لماذا لا تصوم ؟

فيقول لك : وهل الذين يصومون كلهم قديسون : فلان يصوم ويفعل كذا... وفلان يصوم ويفعل كذا... ! فإن قلت له : وما شأنك بهؤلاء ؟ إن الله سوف لا يسألك عنهم، وإنما سيسألك عن نفسك... حينئذ يرجع إلى نفس التبرير، بفلسفة الموضوع ويقول : الحياة مع الله ليست بالأكل والشرب . المهم فى نقاوة القلب !! كما لو كان الصوم لا يساعد على نقاوة القلب !!

وعبثاً تحدث مثل هذا عن روحانية الصوم وفائدته ، وأن من يسلك فيه بطريقة روحية ينمو فى حياة الروح ، وأن الله أمر بالصوم لفائدته، والأنبياء كانوا يصومون مع نقاوة قلوبهم . والسيد المسيح نفسه صام...

وهنا لا تجد منطقاً ، إنما هى تبريرات لمجرد التخلص من المسئولية .

وقد يعتذر آخر بعدم وجود مرشدين روحيين ولا قدوات صالحة ...

ويبدو أن هذا الإعتذار أيضاً مبالغ فيه . فالذى يحتاج إلى إرشاد لا بد سيجده . وإن لم يجد مرشدين ، أمامه الكتب تملأ الدنيا وفيها كل شىء ... وأمامه الصلاة ، يطلب من الرب فيرشده . ومعه الضمير ، ومعه الكتاب المقدس ...

إن القديس الأنبا أنطونيوس ، الذى عاش وحده فى البرية ، ولم يكن هناك راهب قبله ليرشده ، لم يعتذر بعدم وجود مرشدين ، بل شق الطريق وحده ، وبنعمة الله وصل ، وأرشد غيره ...

أما القدوات الصالحة فهى كثيرة . على الأقل لا تطلب كل الصفات المثالية من شخص واحد ، إنما خذ من كل إنسان فاضل قدوة فى نقطة معينة . وهناك أيضاً سير القديسين والأبرار الذين انتقلوا .

وخلاصة القول إن الذى يريد أن يصل إلى الله ، لن يعدم الوسيلة . ويبقى السؤال الوحيد هو: هل تريد ... ؟

جميل من السيد المسيح أنه كان يسأل بعض المرضى الذين يأتون إليه طالبين الشفاء ، بعبارته الخالدة العميقة :

« **أتريد أن تبرأ ؟** » (يو ٥ : ٢٦) (*) .

نعم ، إن كنت تريد ، فإن الله مستعد أن يعمل معك ويقويك ، وهو الذى يغسلك فتبيض أكثر من الثلج ، وهو الذى يطهرك من كل خطية ، ويطهرك من كل دنس الجسد والروح . ولكن المهم أن تريد .

أما إن كنت لا تريد ، فلا داعى للتبريرات . كن صريحاً مع نفسك .

(*) اقرأ كتاب (الرجوع إلى الله) ، فهو من « سلسلة حياة التوبة والنقاوة » . يكمل لك مفهوم التوبة ، والوسيلة إليها ...



لا تؤجل التوبة ولا تضيع الفرصة

فرص للتوبة ضيعها البعض :

من مراحم الله على الخطاة ، أنه يقدم لكل خاطىء فرصاً كثيرة لكى يتوب ، تزوره فيها النعمة وتعمل فى قلبه ...

ونتيجة لعمل الله داخله ، يجد قلبه قد التهب برغبة مقدسة فى التوبة والرجوع إلى الله ... ربما يكون قد تأثر بعظة ، أو بكتاب أو باجتماع روحى ، أو بقدوة صالحة ... أو أن حادثة موت أو مرض هزته من الداخل ، أو مناسبة معينة رأى أنه يجب عليه استغلالها .

والحكيم هو الذى يستغل تلك التأثرات ، ولا يدع الفرصة تفلت منه ...

مثلما حدث مع الإبن الضال ، الذى حينما زارته النعمة ، وأثرت فى قلبه وفكره ، قال « أقوم الآن ... » وقام وذهب إلى أبيه ، وقدم توبة .

أما الجاهل فيجعل الفرصة تعبر دون أن يستفيد منها ... ثم يبحث عنها فلا يجدها ... وفى ذلك ، ما أخطر العبارة التى قيلت عن عيسو إنه :

« لم يجد للتوبة مكاناً ، مع أنه طلبها بدموع » (عب ١٢ : ١٧)

كان قد جاء إلى أبيه متأخراً ، بعد أن تحولت البركة إلى يعقوب ، وأصبح هو المختار الذى بنسله تتبارك جميع قبائل الأرض ...

وبكى عيسو ، « وصرخ صرخة عظيمة ومرة » (تك ٢٧ : ٣٤ ، ٣٨) . ولكن بعد فوات الوقت ، بعد أن صار البكاء لا يفيد شيئاً ...

أنظر إلى عذراء النشيد ، ماذا حدث لها . وخذ درساً ...

كانت نائمة ، كأى خاطىء ... ولكن قلبها كان مستيقظاً لنداء الرب . وسمعت صوته يناديها « إفتحى لى ... » ولكنها تباطأت ، والتمست الأعذار . ثم قامت أخيراً

لتفتح ، ولكن بعد فوات الفرصة ، بعد أن كان حبيبها قد تحول وعبر... وإذا بها تصرخ وتقول « خرجت نفسى عندما أدبر . طلبته فما وجدته ، دعوته فما أجابنى » (نش ٥ : ٦) . وتعرضت المسكينة لآلام كثيرة... غير أن الرب من أجل محبتها منحها فرصة أخرى . أما بالنسبة إليك :

ربما تضيع منك هذه الفرصة ، ولا تجد فرصة أخرى ...
فهكذا حدث لفيلكس الوالى ، وللملك أغريباس ...

كل منهما جاءته الفرصة ، حينما وقف بولس الرسول يترافع أمامه .

ومن جهة فيلكس ، يقول الكتاب إنه « بينما كان (بولس) يتكلم عن البر والتعفف والدينونة العتيدة أن تكون ، إرتعب فيلكس » (أع ٢٤ : ٢٥) . عملت النعمة فى قلبه ، وحركته إلى الإيمان والتوبة . ولكنه لم يستغل الفرصة ، ورأى أن يؤجلها إلى مناسبة أخرى ، فقال للقديس بولس « إذهب الآن ، ومتى حصل لى وقت أستدعيك » (أع ٢٤ : ٢٦) .

وللأسف الشديد ، لم يقل سفر أعمال الرسل أن فيلكس حصل على وقت واستدعى بولس ... وهكذا ضاعت منه فرصة العمر كله ...

وهكذا أغريباس الملك أيضاً ، تحدث أمامه القديس بولس العظيم ، بكل ما فيه من عمق وإقناع ، وبكل ما فيه من عمل الروح . فتأثر أغريباس جداً ، وعملت النعمة فى قلبه ، وقال لبولس « بقليل تقنعنى أن أصير مسيحياً » (أع ٢٦ : ٢٨) .

ولكن المسكين لم ينتهز الفرصة ، وقام من منصة القضاء ومضى . ومضت معه التوبة والإيمان ، وضاعت الفرصة . ولم يقل الكتاب شيئاً بعد ذلك عن أغريباس ... وبينما كان بينه وبين الله هذا القليل ...

ليته فعل ، مثل الخصى الحبشى ، الذى انتهز الفرصة ونال الخلاص ...

هذا الخصى دبرت نعمة الله أن يقابله فيلبس فى الطريق ، ويشرح له ما كان يقرأه من سفر أشعياء . وتأثر الرجل ، وعمل الله فى قلبه ، فآمن ، ولم يترك الفرصة تفلت فقال لفيلبس « هوذا ماء . ماذا يمنع أن أعتمد » (أع ٨ : ٣٦) . وفى الحال نزلا إلى الماء ، وتعمد ... « وذهب فى طريقه فرحاً » ... إنه من الأمثلة الرائعة لانتهاز الفرصة ...

وأنت يا أخي كم فيلبس أرسله الله فى طريقك ، وتأثرت به ، ولكنك جعلت الفرصة تفلت من يدك ، ولم تستفد منها ...

لذلك لا تؤجل التوبة. فكثيرون من الذين أجلوا التوبة، لم يتوبوا على الإطلاق، وضاعت حياتهم ...

أنظر إلى اليهود ، كم من مرة رفضوا الرب ، وساروا وراء آلهة أخرى . وكم كان الرب يرسل إليهم الأنبياء والرسل لكى يجذبهم إليهم وكانوا يضيعون هذه الفرص كلها ، حتى ألقاهم الرب إلى أيدى أعدائهم ، ورفض صلواتهم وذبائحهم . وقال لهم «حين تبسطون أيديكم ، أستر وجهى عنكم . وإن أكثرتم الصلاة لا أسمع» (أش ١ : ١٥) . وأيضاً قال لأرميا النبى «وأنت فلا تصلِ لأجل هذا الشعب ، ولا ترفع لأجلهم دعاء ولا صلاة ، ولا تلح علىّ ، لأنى لا أسمعك» (أر٧: ١٦) .

فهل تريد بتوالى التأجيل أن تصل إلى هذا الوضع ؟! ...

إن توالى تأجيل التوبة ، قد يعنى رفض التوبة ...
وهذا هو الذى حدث لفرعون ... حتى هلك ...

كم مرة قال فرعون لموسى وهرون « أخطأت . صليا لأجلى » ... ومع ذلك لم يتب... أنظروا إلى قوله بعد ضربة البرد والرعود «أخطأت هذه المرة . الرب هو البار، وأنا وشعبي الأشرار. صليا وكفى حدوث رعود الله والبرد فأطلقكم» (خر٩: ٢٧ ، ٢٨)... ومع ذلك لم يتب فرعون ، ولم يفِ بوعوده ، ولجأ إلى التأجيل . وها هو بعد ضربة الجراد يقول لموسى وهرون «أخطأت إلى الرب إلهكما وإليكما . والآن إصفحا عن خطيتى هذه المرة فقط . وصليا إلى الرب إلهكما ، ليرفع عنى هذا الموت» (خر١٠: ١٦ ، ١٧) . ورفع الرب عنه هذه الضربة ، كما رفع غيرها ، ولم يتب ...

كانت ألفاظ التوبة على فمه . ولم تكن التوبة فى قلبه ...

كان يصرخ خوفاً ، وليس إقتناعاً . وكان يعد بالتوبة ولا يوفى . وظل يؤجل وعوده للرب يوماً بعد يوم ، وضربة بعد ضربة ، إلى أن أدركه الغضب الإلهى ، وغرق فى البحر الأحمر وهلك .

وكان تأجيل التوبة بالنسبة إليه ، هو رفض عملى للتوبة ...

إنها فرص عرضها الرب عليه ، بالضربات العشر . وكان يتأثر بها ، و يوقن أنه لا بد أن يتوب . ولكنه لم يستغل هذه الفرص لخلاص نفسه . وكانت محبة العالم فى قلبه ، أكثر من محبة التوبة ، فهلك ...

ومن أمثلة الذين ضيعوا فرص التوبة ، الكرامون الأردياء (مت ٢١) ...

أولئك الذين كم من مرة يرسل لهم صاحب الكرم عبيده ، فلا يستجيبون ، ولا يرجعون عن شرهم . وأخيراً أرسل إليهم إبنه ، وكانت فرصة للتوبة ، فلم يتوبوا ... فماذا حدث ؟ لقد قال لهم أخيراً « ملكوت الله ينزع منكم ، و يعطى لأمة تعمل أثماره » (مت ٢١ : ٤٣) .

لنأخذ شمشون الجبار مثالاً لتأجيل التوبة ...

كان قد بدأ بداية طيبة ، إذ حلّ عليه روح الرب . ثم بدأت خطيئته حينما تعرف بدليلة وأسلمها قياده وخضع لمشورتها . وقد خدعته هذه المرأة أكثر من مرة ، وسلمته لأعدائه ، وكان يعرف هذا ، ومع ذلك لم يتب (قض ١٦) ، واستمر فيما هو فيه .

وأخيراً كسر نذره ، وأخذه أعداؤه وقلعوا عينيه ، وأوثقوه بسلاسل ، وكان يطحن فى بيت السجن (قض ١٦ : ٢١) .

هكذا فعلت به الخطية وتأجيل التوبة . وإن كان الله قد أعطاه فرصة أخرى يوم وفاته ، كرجل من رجال الإيمان (عب ١١ : ٢٢ ، ٢٣) .

إن التباطؤ فى التوبة قد يهلك الإنسان ، كما حدث لعاخان بن كرمى ...

هذاأخذ من المال الحرام وخبأه . وانهزم الشعب بسبب خطيئته أمام قرية صغيرة هى عاى ، فلم يتحرك ضميره و يعترف بالخطأ . وقال الرب « فى وسطك حرام يا إسرائيل » . وأعلن يشوع هذه الحقيقة ، ولم يتحرك عاخان . ثم بدأ يشوع يلق القرعة ليعرف من هو المتسبب فى غضب الله . ولم يتقدم عاخان ليعترف . ووقعت القرعة على سبطه يهوذا ، وعلى عشيرته (الزارحيين) . وكل ذلك وعاخان لا يتقدم ليعترف ... إلى أن أشار الله إليه بالإسم ...

فاعترف بما فعله ، بعد فوات فرصة التوبة . إعترف كمن كشفه الرب ، وليس كمن يكشف نفسه . وأخذوه فرجموه (يش ٧ : ٢٥) .

لذلك حسناً أن الملاكين لم يسمحا للوط بأن يتباطأ ...

حدث ذلك حينما أراد الله أن يحرق سدوم ... يقول الكتاب « وكان الملاكان يعجلان لوطاً ... » ولما توانى ، أمسكا بيده وبيد إمرأته وبيد إبنتيه ، وأخرجاه ووضعاه خارج المدينة . وقالا له «إهرب لحياتك» (تك١٩ : ١٥ - ١٧)... كان لابد أن يبتعد لوط بسرعة عن مكان الشر، حتى لا يهلك .

هناك أمور خطيرة تلزم معها السرعة ، ومنها التوبة ... لا يصلح لها التباطؤ، ولا يصلح التأجيل ...

إن العذارى الجاهلات ، جئن متأخرات ، بعد أن أغلق الباب ...

لذلك خسرن الملكوت . ووقفن أمام الباب المغلق يقلن فى أسى أو فى يأس « ياسيد إفتح لنا » . فلم يسمعن سوى تلك العبارة المخيفة « الحق أقول لكن إنى لا أعرفكن » (مت ٢٥ : ١٢) . لقد جئن ، ولكن بعد فوات الفرصة ، بعد أن أغلق الباب ...

حقاً ما أخطر وما أعمق تلك العبارة التى قالها الرب فى سفر الرؤيا عن الخاطئة إيزابل :

« وأعطيتها زماناً لكى تتوب عن زناها ، ولم تتب » (رؤ ٢ : ٢١) .

وعبارة « أعطيتها زماناً » هذه ، يقف القلب أمامها بخشوع ... ويصمت . وإذ لم تتب هذه الخاطئة فى الزمان الذى أعطاها الرب إياه ، فإن الرب شرح ما سوف يوقعه بها من ضربات ... وقال فى ذلك أيضاً ، إنه «سيعطى كل واحد بحسب أعماله» (رؤ٢:٢٣) .

إن الله بطول أناته ، أعطى زماناً لهذه الخاطئة لكى تتوب فيه .

فلا يجوز أن يؤجل الإنسان توبته، مستهيناً بطول أناة الله .

هوذا الرسول يوبخ على ذلك قائلاً « أم تستهين بغنى لطفه وإمهاله وطول أناته ، غير عالم أن لطف الله إنما يقتادك إلى التوبة» (رو ٢ : ٤) . ويرى الرسول أن مثل هذا الإنسان يدل على أن فى قلبه قسوة ، وعلى أنه غير تائب ، ويذخر لنفسه غضباً فى يوم الغضب (رو٢:٥) .

يعجبنى فى داود النبى ، أنه كان سريع التوبة ...

كان إنساناً مثلنا ، يمكن أن يخطىء . ولكن قلبه كان رقيقاً حساساً ، يستجيب لصوت الله بسرعة ، و يتوب توبة صادقة دون تأجيل أو إبطاء . ظهر هذا لما وبخته أبيجايل فى لطف ، حينما أراد الإنتقام لنفسه من نابال الكرملى ، فلم يجادلها ولم يبرر موقفه ، وإنما قال لها « مبارك عقلك . ومباركة أنتِ ، لأنك منعتنى اليوم عن إتيان الدماء وانتقام يدى لنفسى » (١صم٢٥ : ٣٣) .

وكانت توبته سريعة جداً ، لما عدّ الشعب . إذ ضربه قلبه ، وقال « أخطأت جداً فيما فعلت ... إنحمقت جداً ... » (٢صم٢٤ : ٢١ ، ١٧) .

ولما نبهه ناثان إلى خطيئته نحو إمرأة أوريا الحثى ، لم يجادل ، إنما قال « أخطأت إلى الرب » (٢صم ١٢ : ٧ ، ١٣) . وامتلأت مزاميره بعبارات التوبة الصادقة والإنسحاق ، و بلل فراشه بدموعه (مز٥٠ ، مز٦) .

كذلك كانت توبة أهل نينوى ، وتوبة القديسة بائيسة ...

فمع أن يونان النبى أعطى نينوى فرصة طويلة لتتوب ، ونادى قائلاً « بعد أربعين يوماً تنقلب نينوى » (يون ٣ : ٤) ... إلا أن هذه المدينة العظيمة لم تؤجل توبتها إلى قرب نهاية هذه المدة ، إنما تابت مباشرة فى المسوح والرماد ، توبة عميقة ، شملت الكل . فرفع الله غضبه عنها ...

والقديسة بائيسة ، التى أخذ الرب روحها فى نفس يوم توبتها ، فى نفس الأمسية التى افتقدها فيها القديس يوحنا القصير، لو أنها أجلت توبتها ، وموعد صعود روحها تلك الليلة ، ترى ماذا كان سيصبح مصيرها ؟

سعيد إذن من يستغل الفرصة التى يرسلها الله لتوبته ، ولا يقسى قلبه . من يدرى ، ربما هذه الفرصة لا تعود ...

حدث هذا مع سجان فيلبى ، الذى كان حافظاً للسجن ، حينما أحدث الرب زلزلة فى نصف الليل ، فانفتحت أبواب السجن ، وانفكت القيود ، لإنقاذ بولس وسيلا . هذا لم يتأخر، وإنما قال لبولس وسيلا « ياسيدى ، ماذا ينبغى أن أفعل

لكى أخلص ؟ » (أع ١٦ : ٣٠) . وآمن . وأخذ بولس وسيلا إلى بيته. « فى تلك الساعة من الليل » - أى بدون أى إبطاء - « واعتمد فى الحال هو والذين له أجمعون » (أع١٦ : ٣٣) .

أليس درساً لنا فى قصة سجان فيلبى ، أن نقرأ عبارة « فى الحال »... وأيضاً عبارة « فى تلك الساعة من الليل » . وكان ذلك « نحو نصف الليل » (أع١٦ : ٢٥) . لماذا إذن نؤجل توبتنا .

نفس الأسلوب نقرأه تقريباً فى توبة زكا ...

قول الرب له « إسرع وانزل » . وقد نفذ زكا فى الحال ، وأخذ المسيح إلى بيته . وفى ذلك يقول الإنجيلى « فأسرع ونزل وقبله فرحاً » (لو ١٩ : ٦) . وهكذا قال الرب : (اليوم) حدث خلاص لهذا البيت .

إن أمور التوبة ، لا يجوز فيها التأجيل مطلقاً ، إنما يناسبها عبارات :
الآن ، كما فى قصة الإبن الضال (لو١٥) .
(فى الحال) ، (فى تلك الساعة) كما فى قصة سجان فيلبى (أع١٦) .
(أسرع) ، (اليوم) كما فى قصة زكا (لو١٩) .

كل قصص التوبة فى سير القديسين ، تتميز أيضاً بعدم التأجيل :

مريم القبطية ، حالما أمكنها أن تدخل كنيسة القيامة وتتبارك من الأيقونة ، للحال نفذت ما عزمت عليه فى توبتها . وهكذا صارت سائحة قديسة ...

وبيلاجية ، لما تأثرت بعظة القديس نونيوس ، لم تتركه حتى منحها نعمة العماد ، ونترك لكم باقى التفاصيل فى أمثلة التاريخ ...

[illegible] الرب ولم يستغلوها :

ونقول إن أول إنسان فى العالم أضاع فرصة التوبة ، هلك ...

إنه قايين : كلمه الرب بنفسه ، وأنذره من جهة خطيته ، ولم يكن قد تورط فيها بعد . وقال له « عند الباب خطية رابضة... وأنت تسود عليها » (تك٤ : ٧) . ونصحه بالتوبة « إن أحسنت ، أفلا رفع » ... ولكن قايين أضاع الفرصة ، ولم يسمع

للنصيحة ، وترك الأفكار والمشاعر تسيطر عليه... فسقط ، وكان سقوطه عظيماً...

والعجيب أن هناك كثيرين تقابلوا مع الرب ، وأضاعوا هذه الفرصة !

الشاب الغنى ، كانت له فرصة لقاء مع الرب ، وسمع منه نصيحة لخلاصه. ولكنه للأسف سمعها ، ومضى حزيناً (مت١٩: ٢٢). وعبارة « وتعال إتبعنى » التى قالها له الرب ، لم يعمل بها... وهكذا أضاع الفرصة.

والفريسى الذى دعا المسيح إلى بيته (لو ٧ : ٣٦) لم يستفد أيضاً من هذه الفرصة . وكذلك كثيرون من الذين عاشوا فى جيل المسيح والتقوا به...

أما أنت فإن تكلم روح الله فى قلبك ، فلا تضيع الفرصة.

إن ملايين من الذين فى الجحيم ، يتمنون دقائق حياة كالتى لك...

مجرد دقائق ، أو حتى لحظات ، يقدمون فيها توبة... ولكنهم لا يجدون. لقد ضاعت الفرصة وأغلق الباب... وأنت يا أخى ، لك هذه الحياة كلها ، ألا تفكر فى التوبة ، وتنتهز الفرصة. وكما قال الرسول « مفتدين الوقت ، لأن الأيام شريرة » (أف ٥: ١٦).

واعلم أن تأجيل التوبة عمل من أعمال الشيطان الذى لا يريد التوبة.

هو يعلم أن منعك عن التوبة منعاً صريحاً ، أمر لا يقبله ضميرك. لذلك لا يقول لك مطلقاً « لا تتب » إنما كلما تحرك قلبك نحو الله. يقول لك لا مانع ، ولكن ليس الآن. الفرصة أمامنا طويلة...!

ويظل يقودك فى سلسلة لا تنتهى من التأجيلات ، حتى تنتهى الحياة !

عواقب التأجيل ليست فى صالحك !

إن تأثرت تأثراً روحياً ، وعزمت على التوبة فلا تؤجل :

١ ـ أنت لا تضمن نفسك . لا تضمن أن تستمر فيك هذه المشاعر الروحية.

بل ربما تبحث عن هذه الرغبة فى التوبة ، فلا تجدها...!

٢ ـ ولا تضمن الظروف المحيطة بك .

٣ ـ ولا تضمن الغد وما يأتى به . فاستغل حالتك الآن .

٤ ـ ولا تضمن أية عراقيل يضعها العدو فى طريقك ، وقد عرف بعزمك على التوبة ، وبزيارة النعمة لك .

٥ ـ وإذا بقيت فى الخطية ، منتهزاً فرصة أخرى ، ربما تتحول حالتك إلى أسوأ ، وتشتد الخطية عليك ، وتتحول من مجرد سقطة أو ممارسة ، إلى عادة أو إلى طبع ، وتسيطر عليك تماماً ، وتربطك بسلاسل لا يكون من السهل الفكاك منها . وتدخل فى سقطات متتابعة لا تعرف لها نهاية ... !

إن الشيطان يؤجل لك التوبة ، ريثما يسيطر عليك تماماً ... !

وتصبح فى حالة لا تعرف فيها كيف تتوب ، أو لا تريد فيها أن تتوب ، إذ يكون قد أدخل الخطية إلى عمق أعماق قلبك ، وفى نفس الوقت عمل على شل إرادتك . وحينئذ يوقعك فى اليأس ...

وهنا وتناقش نقطة أخرى وهى :

[redacted]

إنه يدل على عدم محبتك لله ، ببقائك فى مخالفته وكسر وصاياه ، ورفض الحياة معه ، والتصالح معه ...

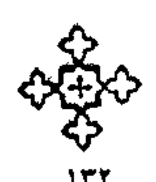
ويدل أيضاً على أن محبة الخطية مازالت فى القلب .

ويدل على عدم جدية الرغبة فى التوبة . فالرغبة الجادة تنفذ .

ويدل أيضاً على أن إهتمامك الخاطىء بذاتك أعمق عندك من إهتمامك بالله ومشاعره وعلاقته بك . وأقول إهتمامك الخاطىء بذاتك ، لأن الذى يهتم بذاته إهتماماً سليماً ، إنما يهتم بأبديتها وخلاصها ، وبالتالى بتوبتها ...

لذلك لا تؤجل توبتك أبداً ، إنما كما يقول الرسول :

« إن سمعتم صوته ، فلا تقسوا قلوبكم » (عب٣: ٧، ١٥) .





إن الله يدعو الجميع إلى التوبة ...

ولكن القلوب تختلف فى مدى إستجابتها .

الله من فرط محبته للبشر « يريد أن الجميع يخلصون » (١ تى ٢ : ٤) . وهو بنفسه يسعى إلى خلاصهم . ومن أجل خلاصهم أرسل الأنبياء والرسل ، وأرسل وحيه الإلهى ينادينا فى كتابه المقدس أن نرجع إليه ونتوب « متغاضياً عن أزمنة الجهل » (أع ١٧ : ٣٠) . ووضع فينا الضمير لكى يبكتنا ، وأرسل إلينا روحه القدوس يعمل فينا . وأقام لنا الرعاة والكهنة والوعاظ والمعلمين ، لكى نسمع صوت الله إلينا من أفواههم... ولكن المهم هو: من يسمع ؟ ومن يقبل ؟ وما مدى إستجابتنا لصوت الله ؟ وهنا تختلف نوعية القلوب :

مثال ذلك : الغصن اللين ، والغصن اليابس :

الغصن اللين يتجاوب معك : تعدله ينعدل ، تقيمه يستقيم تغير وضعه يتغير. إنه طيّع فى يديك . أما الغصن اليابس فلا يلين لك . وإن أردت أن تعدله يقاوم... وعلى رأى الشاعر الذى قال :

إن الغصون إذا قومتها اعتدلت ولا يلين إذا قومته الخشبُ

هناك قلوب قاسية من هذا النوع ، يعمل الرب معها فلا تستجيب .

تماماً مثل مريض لا يستجيب للعلاج .

يقدم له الطبيب الأدوية المألوفة لمرضه ، والتى يستجيب لها أمثاله من المرضى . أما جسده هو، فلا يستجيب لها . لا تأتى هذه العلاجات بنتيجة معه . وقد يستمر المرض كما هو، على الرغم من العلاج ، أو تتأخر الحالة عن ذى قبل...

أخذنا هذا الفصل عن ثلاث محاضرات عن (قساوة القلب) . أقدمها بتاريخ ١٩٦٩/١١/٢٨ . ثم محاضرتين متتابعتين بتاريخ ١٩٧٧/٧/٢٩ ، ١٩٧٧/٨/٥ .

هكذا القلب القاسى الذى لا تأتى وسائط النعمة بأية نتيجة معه . وتستمر طباعه كما هى ، وأخطاؤه كما هى .

يقيناً إن هذا القلب القاسى لا يريد أن يبرأ .

أو هو - لقساوة قلبه - لا يريد أن يعترف بأنه مريض يحتاج إلى شفاء . فيبقى فى مرضه كما هو. كالفريسيين القساة الذين عاصروا وعاشروا المسيح سنوات . ورأوا معجزاته ولم يستفيدوا ، بل قالوا بعدها إنه خاطىء ! وسمعوا تعليمه ولم يستفيدوا ، بل قالوا إنه مضل وناقض للشريعة . وينطبق على هؤلاء القساة القلوب ، قول سليمان الحكيم :

إن دققت الأحمق فى هاون .. لا تفارقه حماقته (أم ٢٧ : ٢٢) .

ذلك لأن قساوة القلب ، لا تسمح للخاطىء المتمسك بمسلكه ، أن يغير سلوكه أو يترك خطيئته . إنه رافض لله مهما سعى الله إليه ليخلصه ...

عجيب أن الله الحنون يسعى وراء الإنسان . والإنسان يرفض الله !

الله العظيم يسعى إلى التراب والرماد . والتراب الرماد يغلق قلبه أمام الله . الله يتكلم وينادى . وهذا المخلوق المسكين يسد أذنيه ، ويسد قلبه ، ويرفض أن يفتح للرب . الله يقرع على الباب ، حتى يمتلىء رأسه من الطل ، وقصصه من ندى الليل (نش ٥ : ٢) . والإنسان يغلق بابه ، ولا يأبه بهذا القلب الكبير الذى أتاه «طافراً على الجبال ، وقافزاً على التلال» (نش ٢ : ٨)... إنها قساوة قلب . وقد نرى أحياناً إنساناً يقسو على أخيه الإنسان ، فلا نستريح لقساوته...

أما أن يقسو الإنسان على الله نفسه ، فهذا كثير ...

ما أعجب أن يكون الإنسان قاسياً فى معاملته مع الله ، الله الحنون الطيب الذى روح هذا الإنسان فى يده ، والذى يعامل الكل برقة متناهية .

ولكن ليست كل القلوب هكذا ، فهنالك قلوب طيبة ، لا تحتمل طرقة الله على بابها ، فتقوم لتفتح له بلا إبطاء ، حالما تسمع صوته الإلهى .

أوغسطينوس ـ صاحب القلب الرقيق الطيب ـ قضى فترة طويلة بعيداً عن الله ، لأن الصوت الإلهى لم يكن قد وصل إليه واضحاً . فلما وصله صوت الرب ، استجاب للتو، بكل القلب وبكل العاطفة... وصار قديساً ...

ومريم القبطية ظلت بعيدة عن الله زمناً ، وبعيدة عن صوته . ولكن لما شعرت بصوت الله وهو يناديها عند الأيقونة المقدسة ، تغيرت تغيراً كاملاً ، واستجابت للرب ، وعاشت بقية عمرها فى محبته .

وهكذا بيلاجية ، مجرد منظر القديسين أثر فيها ، مجرد عظة سمعتها ، كان لها قلب رقيق سهل التأثر. وعلى الرغم من زناها وغناها ، تابت بسرعة . وكانت إستجابتها عجيبة .

عجيب فى قصص التوبة ، أن الزوانى يستجيبون للرب بسرعة .

وفى الواقع ليس هذا بعجيب ، لأن غالبية هؤلاء الزوانى لم تكن لهم قلوب قاسية . وإنما كانت لهم قلوب عاطفية ، تستجيب للحب بسرعة . ولكنها انحرفت فى حبها ، فاتجهت به نحو الجسد ، وغلبها الجسد . ولكنها حالما تجد حباً حقيقياً من الله أو من قديسيه ، ترجع بسرعة . فالعاطفة موجودة ، والحب موجود ، ولم يكن ينقصها سوى التوجيه السليم... بعكس أصحاب القلوب القاسية الذين لا يستجيبون بسرعة ، وربما لا يستجيبون على الإطلاق . ولذلك حسناً قال الرب لبعض هؤلاء القساة من رؤساء اليهود «الحق أقول لكم إن العشارين والزوانى يسبقونكم إلى ملكوت الله» (متى ٢١ : ٣١) .

وعجيب أن كثيراً من هؤلاء الزناة ، تحولوا من خطاة إلى قديسين .

العاطفة الملتهبة التى لهم ، لما تحولت إلى الله ، إشتعلت بمحبته ، واستطاعت أن تصل إلى حياة القداسة بسرعة . لسنا نذكر فقط أوغسطينوس ومريم القبطية وبيلاجيه ...

إنما يعوزنى الوقت إن تحدثت عن خاطئات أخريات استجبن للرب بسرعة ، وتحولن إلى قديسات : مثل القديسة بائيسة ، والقديسة تاييس ، والقديسة مرثا ،

والقديسة مريم بنت أخى القديس إبراهيم المتوحد ، والقديسة أفدوكيا... وغيرهن كثيرات (١)

ومن أمثلة هؤلاء من الرجال : القديس يعقوب المجاهد ، والقديس تيموثاوس السائح ، وبدء حياة مار أوغريس .

إنهم جميعاً لم يأخذوا من الله مجهوداً فى إرجاعهم إليه .

لم يتركوا الله يلح عليهم ، أو يناديهم بلجاجة .

المرأة السامرية ، بمجرد جلسة واحدة مع المسيح ، غيرت حياتها كلية . وتحولت من إمرأة خاطئة « لها خمسة أزواج ، والذى معها ليس لها » إلى القديسة السامرية... كان لها قلب رقيق يمكن أن يستجيب بسرعة للرب أكثر من الفريسيين العنفاء الذين يتكلمون عن المبادىء العالية ولا ينفذونها .

وداود النبى - بعد خطيئته وزناه - لم يحتمل من ناثان عبارة واحدة هى « أنت هو الرجل » . فصرخ للتو قائلاً « أخطأت إلى الرب » . وتاب توبة عجيبة ، كان فيها : فى كل ليلة يعوم سريره ، وبدموعه يبل فراشه » (مز ٦) .

نعم إن القلب الرقيق ، قد تكفيه كلمة لتغيير حياته .

عبارة واحدة سمعتها تاييس من القديس بيصاريون ، جعلتها تسقط على الأرض ، وتنفجر باكية ، ثم تخرج معه من مكان الإثم لتحيا كقديسة .

وعبارة واحدة سمعتها بائيسة من القديس يوحنا القصير، جعلتها تتأثر، كما تأثرت ببكائه عليها... وخرجت معه تائبة . وصعدت الملائكة بروحها فى تلك الليلة طاهرة كشعاع من نور.

القصص كثيرة ، وكلها تدور فى فلك واحد ، وهو القلب الرقيق الذى يستجيب بسرعة...

وليس هذا فقط فى دائرة الزوانى الذين تابوا . وإنما فى نطاقات أخرى كثيرة نجد قلوباً رقيقة ، سهلة الإستجابة ، لا تعاند الرب ، بل تسمع له بسرعة ، وترجع إليه .

شاول الطرسوسى غيرته عبارة واحدة من الرب .

كان شاول شديداً جداً فى تنفيذ الشريعة . وكان مضطهداً للكنيسة . ولكن لم

---

(١) أنظر كتاب [اليقظة الروحية] ، لتأخذ فكرة عن حياة هؤلاء .

تكن فى قلبه قسوة ، إنما كانت فى قلبه غيرة حسبها مقدسة ، وفعل ما فعله بجهل (١تى ١ : ١٣) . فلما ظهر له السيد المسيح الذى كان شاول يضطهده ، وسمع منه عبارة واحدة... قبل الكلمة بفرح ، وتحول إلى العكس... وآمن وتألم لأجل المسيح .

وبطرس الرسول ، مجرد أن سمع صياح الديك بكى بكاءً مراً .

لم يكن محتاجاً إلى كثير من التوبيخ . يكفى أنه سمع الديك ، حتى قامت ثورة فى داخله ضده ، عصرت قلبه وعصرت عينيه . هكذا القلب الطيب ، يكفيه القليل ليتوب .

زكا العشار تطلع إليه المسيح ، وكلّمه . فلم يحتمل . وأعلن توبته أمام الجميع (لو ١٩ : ٥) . وكم كلم المسيح كتبة وفريسيين وكهنة ، ولم يستفيدوا . أما زكا ، فلم يكن قلبه فى التوبة قاسياً مثلهم ، على الرغم مما هو معروف عن العشارين من ظلم .

ومتى العشار ، لم يعوزه أيضاً لتغيير حياته ، سوى كلمة واحدة من المسيح ، هى «إتبعنى» (متى ٩ : ٩) . فترك كل شىء ، وقام وتبعه . وبنفس الوضع فعل بطرس وأندراوس الصيادان حينما قال لهما المسيح «هلما ورائى فأجعلكما صيادى الناس» (مر ١ : ١٧) .

القلب الحساس ليس فقط يطيع صوت الله ، بل يستجيب لأية إشارة منه ولو من بعيد ، يهتز قلبه لها ، لأن قلبه متفتح لله باستمرار.

المسألة إذن تتركز فى القلب : هل هو قاس أم سهل .
والنوعان يظهران معاً فى قصة داود ونابال الكرملى ...

نابال الكرملى سمع رجاء من داود أن يعطيه من جزاز غنمه ، لأنه كان هو وجنده محتاجين إلى الطعام . فلم يستجب نابال لأجل قساوة قلبه . فأنذره داود فلم يرتدع ، بسبب قساوة قلبه أيضاً . ما نفع معه الرجاء ولا التهديد .

أما أبيجايل زوجة نابال ، فما أن سمعت بقصة داود مع زوجها ، حتى تحرك قلبها بسرعة واستجابت . وقابلت داود وقدمت له ما يحتاجه جنده من طعام ، واستعطفته . وفى نفس الوقت وبخته فى أدب على أنه حاول أن ينتقم لنفسه...

وداود فى هذه القصة ـ مع شدته ـ يقدم مثالاً للقلب الطيب الذى يقبل التوبيخ

بسرعة، ويرجع عن أخطائه. إذ قال لها «مبارك عقلك، ومباركة أنت، لأنك منعتنى اليوم من إتيان الدماء وانتقام يدى لنفسى» (١صم ٢٥ : ٣٣).

القلب الطيب يقبل التوبيخ. أما القلب القاسى فيثور.

داود قبل التوبيخ من أبيجايل، وهى إمرأة ... وكذلك القديس الأنبا أنطونيوس قبل التوبيخ من تلك المرأة التى قالت له «لو كنت راهباً، لكنت تسكن فى الجبل».

ولم يقبل الكلمة فقط وينفذ، بل قال فى قلبه بالأكثر إن ذلك صوت الله إليه.

بعكس ذلك، شاول الملك - وهو معروف بقساوة القلب - لما كلمه إبنه يوناثان من أجل داود قائلاً «لماذا يُقتل؟ ماذا عمل؟» (١صم ٢٠، ٣٢)، حتى غضب شاول على يوناثان إبنه، ووجه رمحه إليه ليقتله، وشتمه بشتائم صعبة، وأخزاه (١صم ٢٠ : ٣٠، ٣٤).

إن القلب القاسى، لا يقبل التوجيه ولا النصح، ولا يتحول عن فكره. إنما تقنعه كبرياؤه بأن يثبت حيث هو. لذلك حسناً قال الكتاب:

الرب يقاوم المستكبرين (يع ٤ : ٦).

لم يقف الرب يوماً ضد العشار المسكين، لكن وقف ضد الفريسى القاسى المتكبر، وضد الكتبة والفريسيين القساة، الذين فى قساوتهم يحملون الناس أحمالاً عسرة الحمل... (متى ٢٣).

هؤلاء القساة يخسرون أنفسهم، ويخسرون الناس، ويخسرون الله.

قسوة القلب تعطل التوبة:

ولعل من أبرز الأمثلة لهذه القسوة فرعون.

لم تستطع جميع الضربات أن تلين قلبه. وإن كان أحياناً قد قال «أخطأت إلى الرب» (خر ١٠ : ١٦)، إنما كان يرجع بعدها ويشتد قلبه كما كان... وكلما كان يعد وعداً، كان يرجع فى وعده بعد ارتفاع غضب الرب. وكما قال الكتاب «فلما رأى فرعون أنه قد حصل الفرج، إغلظ قلبه ولم يسمع لهما (لموسى وهارون)» (خر٨ : ١٥).

وظل فرعون فى قساوة قلبه حتى هلك ... كان الله يريد أن يجذبه إليه بتلك الضربات ، ولكنه رفض أن يستمع للرب ، على الرغم من كل عجائب الله التى لمسها بنفسه ...

مثال آخر : هو الشعب المتمرد فى البرية .

كل عجائب الله معهم فى أرض مصر ، وكل عجائبه معهم فى البرية ، وكل إحساناته الكثيرة إليهم ... كل ذلك لم يلين قلوبهم ! ... لا الضربات العشر، ولا شق البحر الأحمر، ولا المن والسلوى ، ولا الماء الذى فجره الله لهم من الصخرة ، ولا عمود النار الذى كان يضىء لهم ليلاً ، ولا السحابة التى كانت تظللهم وتهديهم نهاراً ... لا شىء من هذا كله جعلهم يتوبون ...

فوصفهم الرب مراراً عديدة بأنهم شعب صلب الرقبة

(خر ٣٢ : ٩ ، ٣٣ : ٣ ، ٥ ، ٣٤ : ٩ ، تث ٩ : ٦) . وقال إنهم « قساة الوجوه ، صلاب القلوب » (حز ٢ : ٤) . وقال عنهم « صلاب الجباه ، قساة القلوب » (حز ٣ : ٧) ...

وبسبب قساوتهم هذه ، لم يستجيبوا للرب ولم يطيعوه ، بل كانوا دائمى التذمر عليه . لا يتوبون مطلقاً مهما أحسن إليهم ، حتى قال عنهم :

مددت يدى طول النهار لشعب معاند مقاوم (رو ١٠ : ٢١) .

تصوروا الله يمد يده ليصالح شعباً . فيرفض الشعب يد الله الممدودة باستمرار، طول النهار. ولا يمد يده إليها ليصافح أو ليصالح ... فماذا انتفعوا من قساوة قلوبهم ؟

لقد خسروا الرب ، وخسروا أرض الموعد ، ولم يدخلوها ، بل هلك جيلهم المتذمر كله فى البرية . وغضب الله عليهم وكاد يفنيهم ، لولا شفاعة موسى فيهم (عد ٣٢) .

وابتلعت قساوة القلب كل شىء . ولم تذكر شيئاً من إحسانات الله ، ولم تلن ، ولم ترجع إليه . وكل أقوال الأنبياء وإنذاراتهم لم تأت بأية نتيجة .

وكأن بذار الله بالنسبة إليهم ، قد وقعت على صخر !

بذار على صخر ، لا يصلح معها ماء ، ولا سماد ، ولا أيدى عاملة ، ولا خبرة زراعية . إنها على صخر، لا تدخل إلى داخل .

هكذا القلب القاسى لا يتأثر بشيء : يوبخه ضميره ، فلا يشعر بوخز الضمير. يفتقده الروح القدس ، ليبكته على خطية ، فلا يستجيب لصوت الروح فيه . يسمع كثيراً ، و يقرأ كثيراً ، ولا فائدة... يدخل الكنيسة ويخرج ، وهو كما هو بنفس القلب . و يعترف و يتناول مراراً ، ولا يغير فيه الإعتراف شيئاً ولا التناول... لا تنفع معه إحسانات الله إن تذكرها ، ولا تخيفه إنذارات الله ولا تردعه . إنه صخر. قلب قاس لا يتأثر. ينطبق عليه قول أبينا إبراهيم أبى الآباء « ولا إن قام واحد من الموتى يصدقون» (لو١٦ : ٣١) .

لأجل هذا ينبهنا الكتاب قائلاً :

إن سمعتم صوته ، فلا تقسوا قلوبكم (عب ٣ : ٧) .

وصوت الله يأتينا من مصادر متعددة ...

قد يكلمنا الله من خلال كتابه المقدس ، أو عن طريق العظات والإرشاد الروحى . أو من خلال الأحداث التى تظهر فيها يد الله ، أو فى الجلسة الهادئة مع النفس... والمهم فى كل ذلك أن نقابل صوت الله بأذن صاغية وقلب مفتوح... قلب لين ، غير معاند .

حتى إن وقعنا فى قساوة القلب مرة ، لا نستمر .

فعذراء النشيد ، وإن كانت لم تفتح للرب فى أول مرة ، وقسى قلبها عليه ، إلا أن القلب عاد فرق مرة أخرى . وقالت : حبيبى مدّ يده من الكوة ، فأنت عليه أحشائى (نش ٥ : ٤) . وقامت تبحث عن هذا الحبيب فى كل مكان ، وتقول « أحلفكن يا بنات أورشليم ، إن وجدتن حبيبى ، أن تخبرنه بأنى مريضة حباً » (نش ٥ : ٨) .

ليتنا نحارب قسوة القلب فينا ، لأنه إن رق قلبنا ، ستؤثر فينا كل الوسائط الروحية ، وتقودنا إلى التوبة ومحبة الله .

الإنسان الحساس الرقيق ، كل شيء روحى يؤثر فيه .

إن سمع قداساً أو لحناً يتأثر . إن سمع عظة أو قرأ كتاباً روحياً يتأثر. وقد يتأثر أيضاً بتذكر أحبائه الذين رقدوا... فإن أخطأ يقول « لعل روح فلان ترانى الآن »... وبذلك يرجع عن الخطأ لتوه . مجرد صورة يراها للمسيح مصلوباً ، قد

تعصر مشاعره فيبكى ، كما فعلت القديسة العذراء التى قالت فى داخلها « وأما أحشائى فتلتهب بالنار عند نظرى إلى صلبوتك الذى أنت صابر عليه يا إبنى وإلهى » .

عينا الإنسان الحساس ، أشبهها بأسفنجة مملوءة ماءاً .

بأقل لمسة أو ضغطة ، يفيض ما بها . وهكذا الإنسان ذو القلب الرقيق ، دموعه قريبة باستمرار. إن أخطأ يرجع بسرعة ، ولا يستمر فى الخطأ . كما فعل داود النبى ، وكما حدث لبطرس الرسول فى إنكاره... يدرك خطأه بسرعة ، ويندم بشدة ، ويتوب لوقته ...

إبعد يا أخى إذن عن قساوة القلب . وليكن قلبك رقيقاً حساساً ، يستجيب لكل تأثير روحى بلا إبطاء .

واعلم أن قساوة القلب لها أضرارها الخطيرة :

فهى تؤدى إلى الفتور الروحى ، وإلى السقوط ، وتجعل الإنسان لا يأتى بثمر على الإطلاق . وإن استمرت القساوة فى القلب على الدوام كمنهج حياة ، فإنها تجعل الحياة تيبس تماماً ، وتكون نهايتها الحريق (عب ٦) .

لا تقل : « وماذا أفعل ؟ هذه طبيعتى » ...

كلا . إن طبيعتك هى فى الأصل صورة الله ومثاله (تك ١ : ٢٦) . وكل خطأ أتى بعد ذلك هو عرض زائل ، يمكن التخلص منه بالتوبة ، وقبول عمل الروح القدس فيك . وكم من قساة تحولوا إلى ودعاء... كالقديس موسى الأسود الذى تحول من قاتل ، إلى راهب وديع طيب القلب جداً ، وصار مرشداً لكثيرين ، وتخلص قلبه تماماً من كل قساوة تجاه الله والناس .

لنبحث إذن عن أسباب قساوة القلب ، ونرى كيف يكون علاجها .



أسباب قساوة القلب وعلاجها

هناك أسباب لقساوة القلب . نستعرض المألوف منها :

١- ممارسة الخطية :

الخطية تقسي القلب . والإستمرار فى ممارسة الخطية يقسى القلب بالأكثر. لأنه طالما الإنسان يحيا فى الخطية ، فإنه ينسى الله ، و ينسى الوصية ، و ينسى الصليب ، و ينسى الموت والفداء . والنسيان يقسي قلبه . فيشرب الخطية كالماء ، و يتعود عليها . وتصبح سهلة أمامه . لا يسمع فيها صوت ضميره ، ولا صوت الروح ...

والتوبة عن الخطية تزيل هذه القسوة . بل إن مجرد التأمل فى بشاعة الخطية ، يطرد هذه القسوة من القلب . وقد تحدثنا عن هذا بالتفصيل فى الباب الأول من هذا الكتاب .

٢- الشعور بحلاوة الخطية :

إن ذاق الإنسان الخطية ، ووجدها حلوة ، ما أسهل أن ينسى محبة الله ، و ينسى وصاياه ، و يتقسى قلبه . وتغطى حلاوة الخطية على كل شيء ، وتبسط غشاوة على العقل والقلب .

حواء لما رأت الشجرة شهية للأكل ، تقسى قلبها .

ونسيت وصية الله ، ونسيت حكم الموت . ولم تعد أمامها حياة النقاوة ولا محبة الله . وشهوة الشجرة غطت على كل شيء .

كذلك شمشون نسى نذره ، وخدرته حلاوة الخطية .

حينما كان مع دليلة ، لم يكن مع الله . أنسته الشهوة الخاطئة كل شيء .

ونداء روح الله الذى فيه ، لم يعد يعطى تأثيره . بل نسى أن دليلة لم تكن مخلصة له ، وسلمته لأعدائه أكثر من مرة . ولكن القلب بالشهوة كان قد تقسى حتى

من سماع صوت العقل. أصبح صلباً، لا يؤثر فيه شيء... وفقد شمشون كرامته ونذره (قض ١٦).

لهذا السبب أيضاً رفض الشاب الغنى وصية المسيح .

كان يبحث عن الحياة الأبدية ويسأل عنها . وكان يحفظ الوصايا منذ صباه . ولكن كانت هناك محبة المال فى قلبه . وحلاوة هذا المال، قست قلب هذا الشاب . فسمع الوصية من المسيح، ومضى حزيناً، لأنه كان ذا أموال كثيرة (مت ١٩ : ٢٢).

وحلاوة الخطية قست قلب فرعون ...

أمامه مئات الآلاف يمكنه أن يسخرهم فى أعماله. كيف يمكن أن يترك كل هؤلاء يمضون، ويخسر هذا الجيش من المسخرين؟! حلاوة هذه الخطية، خطية السخرة، وخطية السيادة، قست قلبه، فلم يستفد من كل الضربات التى حلّت عليه وعلى مصر كلها. وكلما كان القلب يستجيب، كانت حلاوة الخطية تثنيه فيرجع .

كذلك فعل آخاب ، حين اشتهى حقل نابوت اليزرعيلى .

من أجل حلاوة هذا الحقل فى عينيه ، كسر وصية الله ، واستسلم لنصيحة إيزابل ، وقتل نابوت ظلماً بعد أن لفق حوله تهماً ، واستحضر شهود زور. كانت حلاوة هذا الحقل تغشى على ضميره تماماً، وتقسى قلبه الذى قبل الظلم والقتل .

حلاوة الخطية تجعل صوت الضمير يفقد تأثيره ، ويتقسى القلب .

فإما أن الإنسان ينسى وصية الله ، وإما أن يؤجل تنفيذها لكى يستمر بقاؤه مع الخطية التى يحبها فترة أطول . وخلال هذا يصمّ أذنيه عن كل صوت داخلى يبكته ، وعن كل صوت خارجى ينصحه . ويصبح قلبه صلباً غير قابل للتحول . يناديه العقل أن يبعد عن هذه الخطية التى يحبها ، ويناديه ضميره ، وتناديه كل المؤثرات الروحية . ولكن القلب الذى تقسى بالخطية ، يقول : «نعم سأبعد ، ولكن ليس الآن» ويؤجل التوبة .

والتأجيل يقسى القلب ، فلا يلين للهاتف الروحى .

قساوة القلب تجعل الإنسان يؤجل التوبة . وتأجيل التوبة يقسى القلب بالأكثر. فكلما يؤجل الإنسان توبته ، و يستمر شاعراً أنه يتمتع بالخطية ، تزداد حالته سوءاً. ممارسته للخطية تشعره بحلاوتها ونفعها . وحلاوة الخطية تدعوه إلى مزيد من الممارسة . وفى كل ذلك يكون القلب قاسياً لا يتأثر بالروحيات .

لا حلّ إلا أن يفقد الشعور بحلاوة الخطية .

فإما أن يصل إلى الإقتناع بأنه فى حالة ضياع ، وبأن الخطية تضره هنا وتفقده أبديته . وإما أن بعض نتائج الخطية تهزه هزاً. وإما أن الله يضربه ضربه فيستيقظ . وإما أن يمل من الخطية و يتعب . وحينئذ يفكر تفكيراً آخر وهناك علاج آخر هام وهو :

الإكثار من أغذية الروح ، حتى تفقد الخطية حلاوتها .

لا بد أن تتغير نظرة الإنسان إلى الخطية . ولعل هذا ما يقصده الرسول بقوله « تغيروا عن شكلكم بتجديد أذهانكم » (رو ١٢ : ٢) . وبتجديد الذهن لا يشعر بحلاوة فى الخطية .

نتناول سبباً آخر لقساوة القلب وهو :

٣- التأثير الخارجى الضار :

إن العشرة والصداقة والبيئة ، لها بلا شك تأثير على حالة القلب ...

فإن عاشرت أشخاصاً ، لهم قلوب حساسة لوصايا الله ، فإنك تتعلم منهم هذه الحساسية ، وتتعلم الدقة فى السلوك الروحى .

وإن عاشرت أشخاصاً لا يبالون ، يعلمونك قساوة القلب .

ربما لولا عشرة إيزابل ، ما كان آخاب الملك قد تقسى قلبه ليقتل نابوت اليزرعيلى (١مل ٢١) . إيزابل هى التى قدمت له الفكرة الخاطئة ، وساعدته على تنفيذها ، ودبرت له كل شىء ، وسهلت له العقبات ، وقست قلبه فتقسى...

وهكذا فعلت نصيحة الشباب مع رحبعام ، فتقسى قلبه .

نصحوه أن يقول للناس « إن خنصرى أغلظ من متنى أبى ... أبى أدبكم

بالسياط ، وأنا أؤدبكم بالعقارب» (١مل ١٢ : ٨- ١١) . وهكذا أفهموه الكرامة بأسلوب ضيعه . فتقسى قلبه ، ونفذ نصيحتهم...

وهكذا من يسهلون الخطية للآخرين ، ويساعدونهم عليها .

هناك أشياء قد ينفر منها القلب بطبيعته . ولكنه إن شجعه أحد عليها ، أو قاده ، فإنه يستسلم ويسقط . كمن يتعلم التدخين لأول مرة ، أو كجماعات الهيبز الذين كانوا يقترفون أموراً بشعة كالعرى أمام الناس ، أو ممارسة الجنس أمام الأصدقاء ، أو أنواع أخرى من الإباحية ، ومن القتل وشرب الدماء . وكان أتباعهم يشمئزون منها فى أول الأمر ، ولكنهم ينقادون أخيراً ويمارسونها ، كما ورد فى مذكراتهم... ويتقسى قلبهم .

وقد صدق أحد الأدباء ، حينما قال :

قل لى من هم أصدقاؤك ، أقول لك من أنت .

أصعب شىء هو الضمير الواسع ، الذى يبرر كل خطأ ، ويجد لكل خطيئة تعليلاً ، ويجعل العقل فى خدمة رغبات النفس . فإن وجدت هذا النوع من الناس ، فابعد عنه ، لئلا يغرس فى قلبك أفكاراً وشهوات لم تكن فيه ، ويقسى قلبك بتبرير الخطية ، أو باعتبارها شيئاً طبيعياً ، أو على الأقل يهزأ من تدقيقك فى الحياة الروحية ، معتبراً ذلك تطرفاً أو عقداً... فيقسى قلبك .

وقد تكون الصحبة الشريرة كتباً أو وسائل إعلام .

أو مطبوعات ، أو تسجيلات صوتية ، أو أفلام ، أو شرائح ...

وكل ذلك يترك فى نفسك تأثيراً فى اتجاه معين ، ويقودك حيث لا يريد الله لك ، ويعلمك أشياء جديدة قد تضرك ، ويغرس فيك أفكاراً قد تغير نظرتك الروحية ، فيتقسى قلبك... أو يقدم لك مفاهيم جديدة عن الحرية ، وعن القوة ، وعن الشخصية ، وعن السعادة ، ربما تشوش على مبادئك وقيمك...

إحترس إذن . وكن مدققاً فى اختيار ما تقرأ وما ترى . وافحص ما تسمع ، حتى داخل بيتك .

وافحص كل فكر جديد . وتدرب على تمييز الأرواح .

لا تقبل كل مشورة وكل فكر وكل رأى . إنما كن قوياً من الداخل . ولتكن

لك فضيلة الإفراز، وتمييز الأرواح (١يو ٤ : ١). ولا تفقد مبادئك الروحية. وكن دقيقاً فى اختيار أصدقائك. وكن كثير الإستشارة فى كل جديد تقابله. وافحص كل شيء فى ضوء تعليم الكتاب وسير القديسين والمبادىء الروحية الثابتة...

وأيضاً من الأشياء التى تساعد على تقسية القلب :

٤- الإستسلام للعوائق :

المفروض أن ننتصر على العوائق لا أن نستسلم لها.

ما أسهل أن يضع الشيطان أمامك عوائق فى كل تفاصيل حياتك الروحية : فالخوف على الصحة قد يقف عائقاً أمام الصوم. وقلة الوقت قد تقف عائقاً أمام الصلاة والقراءة الروحية والإجتماعات والخدمة. والإحتياج المالى ربما يقف عائقاً أمام دفع العشور لله. والمشغولية قد تقف عائقاً أمام تقديس يوم الرب. وما يسمى بالحكمة قد يغطى كل تصرف خاطىء. فتكون الحكمة العالمية عائقاً أمام تقدمك الروحى. (وبالحكمة) قد تتعلم الكذب، وتتعلم التملق والمحاباة والخوف...

واستسلامك للعوائق، يعلمك التهاون، ويقسى قلبك.

إن القلب القوى لا يعترف بأن هناك عائقاً يقف أمامه. ولا يسمح لهذه العوائق أن تقسى قلبه، بل يحيا فى حياة الإنتصار المستمر. ويجد فى الإنتصار على كل عائق لذة روحية... وإن وضع الشيطان عوائق أمامه، يتذكر قول الرسول «فقاوموه راسخين فى الإيمان» (١بط ٥ : ٩).

من الأسباب الأخرى التى تقود إلى قساوة القلب :

٥- الإستهانة بلطف الله :

أحياناً يخطىء الإنسان. وإذ لا يجد أمامه عقوبة إلهية رادعة، يستهين بوصايا الله، ويفقد مخافته، ويتقسى قلبه... بينما نرى الإنسان يدقق فى تصرفاته الرسمية، حيث توجد مؤاخذة ومساءلة وعقوبة...

ويذكرنا هذا بقول الرسول «أم تستهين بغنى لطفه وإمهاله وطول أناته، غير عالم

أن لطف الله إنما يقتادك إلى التوبة . ولكنك من أجل قساوتك وقلبك غير التائب تذخر لنفسك غضباً فى وقت الغضب» (رو ٢ : ٤ ، ١٥) .

القلب القاسى ينفعه أحياناً الحديث عن مخافة الله .

الذى تذيبه المحبة ، يمكن الحديث معه عن محبة الله . أما الذى يستهين و يستهتر ولا يبالى ، فإن مخافة الله قد تنفعه . والرسول يقول «لا تستكبر بل خف» (رو ١١ : ٢٠) . و يقول أيضاً «مكملين القداسة فى خوف الله» (٢كو ٧ : ١) .

لعل هذا يذكرنا بأن الكبر ياء هى أحد أسباب قساوة القلب :

٦- الكبرياء :

الكبر ياء تقسى القلب . والمتكبر لا يفكر إلا فى ذاته وفى كرامته . لا يضع الله أمامه ، ولا الناس . وفى سبيل تنفيذ مشيئته ، يمكن أن يفعل أى شىء ، ولا يبالى . وهكذا يصل إلى قساوة القلب .

أما المتواضع ، فينسحق قلبه أمام الله ، و يطيع ، ولا يقسو.

وإذا وصل الإنسان إلى انسحاق النفس ، يمكن أن يقوده الإنسحاق إلى التوبة ، إذ تفارقه قساوة القلب ، وتلازمه النعمة .

من الأسباب التى تؤدى أيضاً إلى قساوة القلب :

٧- فقدان هيبة الوسائط الروحية :

فالذى يمارسها بلا روح ، تفقد هيبتها عنده .

و بالتالى تفقد تأثيرها عليه . وهكذا لا يستفيد منها ، فيتقسى قلبه .

قديماً كان يدخل إلى الكنيسة ، فيتخشع قلبه ويخاف ، إذ يشعر أنه أمام الله فى بيته . أما الآن ، فهو يدخل إلى الكنيسة -مع استمراره فى خطيته- و يتجول فيها ، و يتحدث و يناقش ، ولا تترك فى نفسه أثراً . وكذلك الهيكل...

كذلك اعتاد التناول ، والإعتراف بغير خشية ، واعتاد الصلاة والقراءة بغير روح . واعتاد الصوم كعمل جسدانى ... ولأن قلبه تقسى بالخطية والإستمرار فيها ، لم

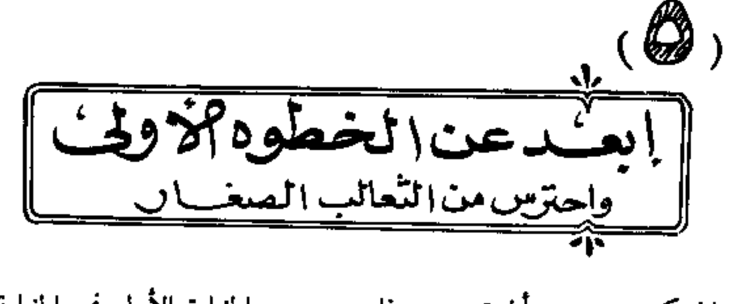
تعد هذه الوسائط الروحية تغير من أمره شيئاً .

كمريض تعود أدوية معينة ، ففقدت تأثيرها عليه .

أو كإنسان يأخذ مسكنات بكثرة ، إلى أن تفقد هذه المسكنات مفعولها بالنسبة إلى آلامه . أو كموظف يقابل رئيساً له باستمرار ويختلط به ، فلم يعد يخشاه أو يهابه كباقي الموظفين... أو كإنسان عاش فى أماكن مقدسة واعتادها ، فلم يعد يتأثر بها كمن يزورها لأول مرة...

لذلك يحتاج من يمارس الوسائط الروحية ، أن يمارسها بروح ، بعمق ، بفهم وخشوع ، حتى تعود هيبتها إليه ، ويستفيد منها لترد قلبه إلى الله ...





إن كنت تريد أن تتوب ، فاحترس من الخطوة الأولى نحو الخطية . وفى غالبية الحالات لا تهجم عليك الخطية دفعة واحدة بكل قوتها ، إنما تزحف إليك زحفاً فى مدة طويلة حتى تصل إليك بتدريج كثير... فانظر من أين تأتيك الخطية ، وارقب مراحلها .

ومراحل الخطية تبدأ غالباً باتصال ، ثم إنفعال ، ثم إشتعال .

تتصل بك الخطية أولاً عن طريق العثرات ، أو التهاون ، أو المعاشرات الردية . فإن أعطيتها مجالاً ، قد تؤثر عليك فتنفعل بها سواء أكان إنفعالاً فكرياً أو عاطفياً فإن تهاونت مع هذا الإنفعال الداخلى ، يشتد فيتحول إلى اشتعال . وفى هاتين المرحلتين تكون مؤثرات الخطية قد انتقلت من الخارج إلى الداخل . وهذا أخطر . وقد يتطور الأمر إلى ما هو أشد .

يتطور الأمر إلى صراع داخلى ، ربما ينتهى إلى تسليم فسقوط .

إنه صراع بين الضمير والخطية ، أو بين الروح والمادة . والصراع يدل على أن الإنسان رافض للخطية ، وأنه يقاوم . وهى مرحلة متعبة ، ولكنها أفضل من التسليم والسقوط . ويكون الإنسان قد أوقع فيها نفسه بتهاونه فى المراحل السابقة .

أنت لا تضمن هذا الصراع بينك وبين الخطية .

قد تنجح فيه بعد تعب . وقد تفشل فتلقى سلاحك ، وتستسلم للعدو وتسقط .

ألقى موضوع [الخطوة الأولى] فى القاعة المرقسية بالأنبا رويس يوم الجمعة ١٩٦٦/٦/١٠ ، وألقى فى كنيسة الملاك بدمنهور ضمن سلسلة محاضرات عن حياة التوبة . أما موضوع [الثعالب الصغار] ، فألقى فى الكاتدرائية الكبرى يوم الإثنين ١٩٧٠/٧/٦ ضمن مجموعة محاضرات عن سفر نشيد الأناشيد .

فالخطية من طبعها، إنها لا تستريح حتى تكمل...

وإن سقطت فى الخطية ، لا يتركك العدو ، بل يستمر فى حربه ، حتى تتكرر الخطية ، وحتى تتحول إلى عادة عندك أو طبع فيك . وتصل إلى الوضع الذى لا تستطيع فيه أن تقاوم... بل تخضع لكل ما يقترحه الشيطان عليك كعبد له وللخطية التى سيطرت عليك .

سبى العدو لك ، وعبودية الخطية ، يمثلها سبى بابل ، حيث يقول المرتل «على أنهار بابل هناك جلسنا ، فبكينا حين تذكرنا صهيون» (مز ١٣٦) ، ويقول «كيف نسبح تسبحة الرب فى أرض غريبة ؟!» ولا يكتفى عدو الخير بأن يجعل فريسته عبداً للخطية ، وإنما قد يتطور إلى وضع أبشع ...

قد تتطور العبودية إلى مذلة العبودية ... !

أى الوضع الذى يشتهى فيه الإنسان الخطية ولا يجدها ... ! ويطلبها متوسلاً بكل قواه . كمن يطلب شهوة المال أو شهوة المقتنيات ، أو شهوة الجسد ، فلا يجدها . أو كمن يطلب العظمة أو الكبرياء أو الإنتقام أو التشفى ، ويسعى بكل رغبته لعله يجد...

وكأنه يتوسل إلى الشيطان ، أو يتسول من الشيطان ، أن يمنحه الخطية !... وهذه مذلة ، وقد يتمادى الشيطان حتى يحتقر هذا الإنسان!

ففى أية مرحلة من هذه المراحل أنت كائن ؟

ليتك تختصر الجهاد ، وتبعد عن الخطوة الأولى .

فهذا أسهل لك وأريح ، وأكثر ضماناً . كما أنه يدل على نقاوتك ، وعدم قبولك للخطية . ويدل على عدم تفاوضك مع العدو، وعدم تعاملك معه . وعن هذا شرح القديس دورثيئوس :

مثال الشتلة الصغيرة ، والشجرة الضخمة .

فقال إنه من السهل جداً أن تقتلع شجيرة صغيرة من الأرض . تمد يدك فتنزعها بسهولة . ولكن إن صبرت عليها حتى تصير شجرة ضخمة ، يكون من الصعب عليك اقتلاعها ...

وحتى إن نجحت ، فهناك خطورة أخرى .

قد تنتصر على فكر شرير داخلك ، بعد صراع مرير .
ولكنه أثناء الصراع يكون قد نجس ذهنك وربما قلبك .

وحتى إن طردته من عقلك الواعى ، قد يبقى فى ذاكرتك ، وفى عقلك الباطن. وربما يعود اليك بعد حين ، أو يظهر فى أحلامك أو فى ظنونك... فلماذا كل هذا التعب؟ الوضع السليم هو أن تتخلص منه من بادىء الأمر، قبل أن يستقر، وقبل أن يتسع نطاقه فى محاولة تدمير روحياتك. حاول أن تنتصر من البدء ، من مرحلة الإتصال .

بقدر إمكانك ، حاول أن تبعد عن الإتصال بالخطية .

وفى ذلك يقول المزمور « طوبى للرجل الذى لم يسلك فى مشورة الأشرار. وفى طريق الخطاة لم يقف. وفى مجلس المستهزئين لم يجلس » (مز ١) . وقد لاحظ أحد القديسين لوناً من التطور فيما ذكره المزمور. سلوك ، ثم وقوف ، ثم جلوس . المرحلة الأولى هى السلوك أى المشى . أخطر منها الوقوف معهم . وأخطر منها الجلوس أى الإستقرار. كما أن مرحلة المستهزئين الأخيرة هى أبشع من مرحلة الخطاة ، إذ تعنى خطاة مستهترين .

لذلك لا تسمح للخطية أن تتطور معك ، أو أن تجعلك تتطور معها . ومن أول خطوة إبعد عنها . هذا إن كنت تريد أن تتوب ، وإن كنت تريد أن تحفظ قلبك نقياً . وعلى أية الحالات :

فى أية مرحلة وُجدت ، لا تتطور إلى أسوأ ...

لأن إرادتك قد تكون قوية فى أول هذا القتال ، فى مرحلة الإتصال . فإذا انفعلت تكون إرداتك قد بدأت تستجيب للخطأ . وفى الإشتعال تكون قد ضعفت . وفى الصراع تدخل فى مرحلة حياة أو موت . فإن سقطت ، تكون إرادتك قد وقعت صريعة فى هذه الحرب . وإن صرت عبداً للخطية ، تكون إرادتك قد انتهت . وتصبح إنساناً مسلوب الإرادة . فالتفت إلى نفسك ، واحترس منذ الخطوة الأولى . واعلم هذا جيداً ، أنه :

كلما يخطو الإنسان خطوة فى طريق الخطية ، تضعف إرادته .

ويميل إلى الخطية ، ويكون قد أعطى الشيطان مكاناً ، ووسّع له داخل نفسه .

وكلما يخطو خطوة أخرى نحو الخطية ، تقل محبة الله فى قلبه ، و يكون سقوطه أمراً متوقعاً جداً... لذلك يقول المزمور «يا بنت بابل الشقية...

طوبى لمن يمسك أطفالك ، ويدفنهم عند الصخرة » (مز ١٣٦) .

بنت بابل (أرض السبى) هى الخطية .وأطفالها هم شهوات الخطية أو أفكارها منذ الخطوة الأولى ، قبل أن تكبر الخطية . طوبى لمن يمسكهم و يدفنهم (أى يتخلص منهم) عند الصخرة . وكما يقول الكتاب « والصخرة كانت المسيح (١كو ١٠: ٤) . أى طوبى لمن يقاوم الخطية ، من أول ولادتها فى الفكر، و يستعين فى القضاء عليها بقوة من المسيح نفسه .

وسنحاول أن نضرب أمثلة من الكتاب عن تطور مراحل الخطية :

كيف تطور الأمر فى سقوط أمنا حواء ؟

لنأخذ درساً فى حياتنا من هذه الخطية الأولى . هل سقطت حواء حينما قطفت من الشجرة فأكلت ، وأعطت رجلها فأكل معها ؟ كلا ، فقد كانت هذه هى المرحلة الأخيرة من المأساة . وكانت تطوراً طبيعياً جداً لكل ما سبقها . وكان الأمر متوقعاً ... ! فكيف ذلك ؟

كيف تطور الأمر مع حواء ، حتى قطفت من الشجرة ؟

بدأت المشكلة حينما جلست مع الحية ، فأسمعتها الحية كلاماً عجيباً « لن تموتا ... يوم تأكلان تنفتح أعينكما ، وتصيران مثل الله ، عارفين الخير والشر» (تك ٣ : ٤ ، ٥) .

وهنا دخل الشك فى قلب حواء ، ثم بدأت تفقد الإيمان فى صدق كلام الله الذى قال « يوم تأكلان موتاً تموتا » ، أو على الأقل بدأ إيمانها يتزعزع ، ودخلها الشك... وأسلمها الشك إلى الشهوة ، شهوة الألوهية ، وشهوة المعرفة ، وليس مجرد شهوة الثمرة . وهنا كان انفعالها الداخلى قد بلغ أقصاه . وفقدت حواء بساطتها ، وفقدت نقاوتها الداخلية . ونظرت إلى الشجرة ، فإذا هى : جيدة للأكل ، وبهجة للعيون ، وشهية للنظر (تك ٤ : ٦) .

كل يوم كانت حواء تمر على الشجرة ، لأنها فى وسط الجنة ، ولم تكن تنظر إليها هكذا . فن أين أتت هذه النظرة ؟

فكر غريب دخل إلى القلب ، تحول إلى شهوة .

وسيطرت الشهوة على القلب ، واستسلمت لها الإرادة .

وما كانت حواء قادرة فى ذلك الحين ، وما كان آدم قادراً ، على الإمتناع عن الأكل . فحالة قلبيها كانت قد تغيرت تماماً عن وضع النقاوة والبساطة الأولى . وحل الشك محل الإيمان . واشتد الإغراء جداً . وضعفت الإرادة جداً . وسقطت حواء وآدم معها .

كان يجب على حواء أن تبعد عن الخطوة الأولى .

فلا تجلس مع الحية وهى «أحيل حيوانات البرية » . وإن جلست ، فما كان يجب أن تسمع كلاماً ضد وصية الله . وإن سمعت ، كان يجب أن ترفضه ولا تصدقه . ولا تجعل الفكر الخاطىء يدخل إلى القلب ، ويتحول إلى شهوة . وإن جاءتها مثل هذه الشهوة ، كان يجب أن تقاومها ...

ولكنها تركت الأمور تتطور فى قلبها ، وتقودها من خطية إلى أخرى ، حتى وصلت إلى أقصى درجات السقوط ... وما كان أغناها عن كل هذا ، لو بعدت منذ الخطوة الأولى ...

أتريد أنت إذن ألا تسقط ؟ إبعد عن الحية .

إبعد عن « المعاشرات الردية التى تفسد الأخلاق الجيدة» (١كو ١٥ : ٣٣) . إحترس من التأثيرات الخارجية الشريرة . واحترس من أن تنفتح عيناك لكى تبصر الخطية . إبعد عن هذه الخطوة الأولى ، حتى لا تقودك إلى الضياع شيئاً فشيئاً .

فبهذه السقطة عينها سقط شمشون ، بسبب حية أخرى .

شمشون الجبار ، القاضى العظيم ، ذو الكرامة والهيبة ، الذى كان روح الرب يحركه (قض ١٣ : ٢٥) ، والذى حل عليه روح الرب (قض ١٤ : ٦) . شمشون هذا ، باح بسره ، وكسر نذره ، وأذله أعداؤه . فقأوا عينيه ، وجعلوه يجر الطاحون فى بيت السجن (قض ١٦ : ٢١) . وقد تأثرت جداً من هذا المنظر ، وأنا شاب صغير ، منذ حوالى أربعين سنة . وكتبت قصيدة على لسان شمشون أولها :

أنا الجبار أم شبحى ... أنا شمشون أم غيرى
إذا ما كنت شمشوناً ... فأين مهابة القدرِ ؟

وأيــن كــرامــة الــقــاضــى   وأيــن مــواكــب الــنصر ؟
وأيــن الــنــور مــن عــينى   وأيــن الــطــول من شــعرى ؟

•••

حــنــانــك يــارحــى الطــاحــون   هــل تــدريــن مــا سرّى ؟
أجــيــبى إنى مــصــغ   فــقــد حُــيّــرتُ فى أمــرى ؟
أنــا الجــبــار أم شــبــحــى   أنــا شــمــشــون أم غــيــرى ؟

شمشون هذا : هل حلت مأساته فجأة ، أم لها تطورات ؟

نعـم لهـا تـطـورات ، خـطـوة تـقود إلى خطوة . أولها أنه ذهب إلى غزة ، وأخطأ هـنـاك (قـض ١٦ : ١) . ثم تعرف على إمرأة إسمها دليلة . وتطورت علاقته بها إلى أنـه أحبهـا وتعـلق بها ، ثم أقام عندها . وفى كل هذا ما كان ضميره يتعبه ! وأحسّ أعـداؤه بهـذا فاستغلوها ضده . وحاولت أن تعرف سرّقوته لتسلمه إلى أيدى أعدائه . وسألـتـه أكثر مـن مـرة ، وكـانـت تخبر أعـداءه ، وهو يعلم هذا... ومع ذلك بقى على عـلاقـتـه بهـا . ولـكـن ضـاعـت شخصيته معها ... وتطور إلى أن أخبرها بسرّه ، فباعته لأعدائه بالفضة . ورضى أن يسلمها رأسه لحلق شعره . وضاعت قوته ، فأسروه ...

مـا كان أغناه عن كل هذا ، لو أنه بعد عن الخطوة الأولى ... أو لو أنه استيقظ إلى نفسه فى أية مرحلة من المراحل التى مرت عليه ، قبل أن يصل إلى المأساة...

مأساة لوط ، مرت أيضاً بمراحل وتطورات .

لـقـد هـلـكـت سـادوم ، وهـلـك مـعـهـا كل غنى لوط . وفقد كل شىء وجميع أقاربه ، وفقد إمرأته أيضاً . وكان يمكن أن يهلك مع المدينة لولا أن أخرجه مع إبنتيه ملاكان (تك ١٩) .

وأنـا عـندما أحلل مشكلة لوط ، إنما أرجع بعقارب الساعة إلى الخلف سنوات... حـينما كـان يعـيـش فى صـحـبـة رجـل الله ابرآم ، إلى جـوار البر والمذبح . ثم بدأت المشكلة...

أحب لوط الغنى والإتساع ، فاشتهى الأرض المعشبة .

وأدى بـه هـذا الأمر إلى أن يـنـفـصـل عن رجل الله إبرآم . وكانت أول خسارة

له... ثم تطلع يبحث عن الأرض المعشبة، فرأى سدوم. وكانت أرض سقى «كجنة الله، كأرض مصر» (تك ١٣ : ١٠). «فاختار لوط لنفسه». وكان هذا خطأ روحياً. «وكان أهل سادوم أشراراً وخطاة لدى الرب جداً» (تك ١٣ : ١٣). ومع ذلك:

لم ينظر لوط إلى روحيات المكان، بل إلى خضرته!

فترك إبرآم والمذبح، ليذهب إلى الأرض المعشبة، فى عشرة الأشرار. ذهب إلى المكان الذى فيه خير مادى، وليس إلى المكان الذى يعبد فيه الله! وبدا أن روحياته فى الدرجة الثانية من اهتمامه «وكان البار ـ بالنظر والسمع، وهو ساكن بينهم ـ يعذب يوماً فيوماً نفسه البارة بالأفعال الأثيمة» (٢ بط : ٢ : ٨).

ومع ذلك كله، تطور الحال به إلى أسوأ.

فاختلط بشعب الأرض، وزوجهم من بناته. وفقد هيبته الروحية بينهم، حتى أنه عندما أنذرهم بحكم الله فيما بعد «كان كمازح فى أعين أصهاره» (تك ١٩ : ٤). وهجموا على بيته حين دخل عنده الملاكان... وانتهى الأمر بهلاك المدينة وفقد كل ما كان له.

وكان الأجدر أن ينتبه من البداية، ولا يترك ابرآم.

كان عليه أن يحارب فى قلبه الخطوة الأولى، وهى محبة الأرض المعشبة، محبة الغنى والإتساع. إذن ما كان يحدث له شىء من كل هذا الذى حدث.

لنتأمل إذن خطية داود. ونرى خطوتها الأولى.

لقد زنى داود، وقاده الزنى إلى القتل، ليغطى خطيئته. كما قاده الأمر إلى أسلوب من الكذب والإلتواء لخداع أوريا الحثى (٢صم ١١ : ٨- ١٣). فهل كان الزنى هو الخطوة الأولى؟ كلا. سبقها إنه رأى المرأة تستحم فاشتهاها. ومع ذلك لم تكن هذه هى الخطوة الأولى، إذ سبقها أن داود قام عن سريره، وتمشى على سطح بيت الملك، وتطلع إلى بيوت الناس وأسرار حياتهم الشخصية. ولكن سبقت هذه خطوة أخرى أساسية:

كانت الخطوة الأولى فى سقطة داود، حياة الترف.

هذا الترف الذى يجعله يبيت فى قصره، بينما الشعب منشغلاً فى الحرب فى

الصحراء ، وهو لا يشاركهم حتى بشعوره . لقد كان أوريا أكثر نبلاً منه فى هذه النقطة ، إذ لما دعاه داود أن يذهب إلى بيته ويستريح ، أجاب أوريا «... عبيد سيدى نازلون على وجه الصحراء ، وأنا آتى إلى بيتى ، لآكل وأشرب وأضطجع مع إمرأتى ؟! وحياتك وحياة نفسك لا أفعل هذا الأمر» (٢صم ١١ : ١١) .

قديماً لم يكن داود هكذا . لقد تغيرت حياته .

كان مطارداً من شاول ، هارباً من برية إلى أخرى . يسكن فى المغارات ، يحارب بنفسه ، ويبيت على الأرض . ولم يخطىء وقتذاك . أما الآن فإنه فى ترف ، يسكن القصور ، وله خدم وحشم وعبيد . ويرسل الجيش ليحارب ، بينما هو فى بيته على سريره ، يقوم منه ليتمشى على السطوح ، وينظر الناس . وليست له مشاعر المشاركة مع جيشه المحارب...

وقاده الترف إلى الشهوة ، ثم إلى الخطية ومحاولة تغطيتها .

وسقط فى خطايا كثيرة ، جعلته فيما بعد يبلل فراشه فى كل ليلة بدموعه (مز ٦) . ولما أراد الله أن يعالجه من هذه الخطوة الأولى ، سمح أن يقوم ضده أبشالوم . ويخرج داود من قصره حافياً ، (٢صم ١٥ : ٣) ، ويشتمه شمعى بن جيرا فى الطريق ، ويرده الرب إلى طقسه الأول...

فلنتأمل إذن كيف أمكن أن يبخر سليمان للأوثان .

سليمان أحكم أهل الأرض فى جيله ، الذى ظهر له الله مرتين وكلمه (١مل ١١ : ٩) . ومنحه الحكمة والجلالة وسعة الصدر ، كيف أمكن أن يسقط فى هذه الجهالة العجيبة ؟ إنها لم تأت فجأة ولا شك ، إنما سلكت فى تطورات .

وكانت الخطوة الأولى أنه تزوج نساء غريبات (١ مل ٩ : ١٦ ، ٢٤)

وتطور الأمر إلى أن قال الكتاب « وأحب الملك سليمان نساء غريبة كثيرة مع بنت فرعون : موآبيات وعمونيات وأدوميات وصيدونيات وحيثيات» (١مل ١١ : ١) . وكان هذا ضد وصية الله التى تمنع الزواج بالأجنبيات...

وتطور الأمر إلى أنه بنى مرتفعات على الجبال لآلهة هؤلاء النسوة الغريبات ، كى يوقدون ويذبحن لآلهتهن» (١مل ١١ : ٧ ، ٨) . وانتهى أمر سليمان فى تطور

الخطية معه بمأساة، إذ يقول الكتاب «وكان فى زمان شيخوخته أن نساءه أملن **قلبه وراء آلهة أخرى...** فذهب وراء عشتاروت إلهة الصيدونيين، وملكوم رجس العمونيين. وعمل سليمان الشر فى عينى الرب» (١مل ١١: ٤-٧).

كل ذلك تطور من الخطوة الأولى، الزواج بأجنبيات.

يعوزنى الوقت إن تحدثت عن تطور الخطية مع أمثال هؤلاء الجبابرة. وكيف أن الخطوة الأولى فى الخطية قادتهم إلى خطوات أبشع. ولكنى أقول:

لست أقوى من الأنبياء والحكماء والجبابرة الذين سقطوا.

فاحترس من الخطوة الأولى للخطية. واهرب لحياتك.

إنك لست أقوى من آدم الذى كان فى الفردوس فى حالة فائقة للطبيعة، ولا أقوى من داود الذى حلّ عليه روح الرب وكان مسيحاً للرب، ولا أقوى من شمشون نذير الرب الذى كان روح الرب يحركه، ولا أقوى من سليمان الذى كلمه الرب مرتين وكان أحكم أهل جيله، ولا أقوى من ابراهيم أب الآباء وخليل الله، الذى لكى ينقذ نفسه كذب وقال إن سارة أخته وعرضها للضياع (تك ٢٠: ١١، ١٣).

وصدق الكتاب حينما قال عن الخطية إنها:

« طرحت كثيرين جرحى. وكل قتلاها أقوياء » (أم ٧: ٢٦).

إذن فلنحترس من الخطية بكل قوتها. ليس فقط حينما تشتد علينا، وتهجم مثل أسد يزأر ملتمساً من يبتلعه (١بط ٥: ٨). كلا، وإنما من أول خطوة، نمسك أطفالها، وندفنهم عند الصخرة... ليس فقط الخطايا الواضحة البشعة، إنما كل خطية مهما بدت بسيطة أو صغيرة أو تافهة، نعمل بقول الوحى الإلهى فى سفر النشيد:

خذوا لنا الثعالب، الثعالب الصغار، المفسدة للكروم » (نش ٢: ١٥).

الكرم بصفة عامة هو الكنيسة، وبصفة خاصة: قلب كل مؤمن.

والثعالب هى الخطايا الماكرة التى تبدو صغيرة، وليست مثل الوحوش الكاسرة التى يستعد الجميع لها.

خطورتها، أنها لصغرها، ربما لا يهتم أحد بها...

فيتركونها تنمو وتكبر ، حتى تتطور إلى وضع مخرب يصعب مقاومته .

وهذه الوصية تدعونا إلى التدقيق والإهتمام ، وأن نبحث فى حياتنا ما هى هذه الثعالب الصغار لكى نقاومها . كما أننا نتعلم درساً هاماً وهو:

لا يجوز إهمال أية خطية ، مهما بدت صغيرة .

فإن أى ثقب بسيط فى مركب ، قد يتسع إذا ما أهمل ، حتى يتحول الى كارثة غرق . ونهر النيل بمجراه العظيم بدأ بقطرات أمطار سقطت على جبال الحبشة وسارت حتى وصلت إلينا نهراً. وتل القمامة الضخم الذى ألقوه على الصليب ، بدأ بمقطف واحد من القمامة . وأطول مشوار فى الخطية ، بدأ بخطوة واحدة .

فلنحترس مدققين من كل خطوة للخطية . ونطرد الثعالب الصغار.

التى ربما تكون أحياناً قليلاً من الكسل أو التهاون والتراخى ، أو قليلاً من التبسط فى الكلام أو التصرف . عارفين أن الذى يهتم بالنسبة إلى القليل ، سيهتم ولا شك بالكثير أيضاً . وكما يقول المثل الإنجليزى . إهتم بالبنس ، وستجد أن الجنيه يهتم بنفسه . إذن لا تغفل الأشياء الصغيرة ، بل اهتم بمقاومتها .

هناك ثعالب صغيرة دخلت حياة القديسين . ولنأخذ ابراهيم مثلاً .

فى مرتين ، ضحى أبونا إبراهيم بزوجته سارة ، وقال إنها أخته ، فأخذوها إلى ملك البلاد ، إذ حسنت فى عينيه ، لأنها كانت جميلة جداً . مرة فى مصر (تك ١٢ : ١٠- ٢٠) . والأخرى فى أرض جرار (تك ٢٠ : ١- ١٤) . ولولا تدخل الرب نفسه ، لضاعت سارة ، وصارت زوجة لغير ابراهيم فى حياته . فكيف وقع أبونا إبراهيم فى هذا الأمر؟

لعل الخطوة الأولى هى الخوف على حياته .

خاف وقال لسارة « إذا رآكِ المصريون ، يقولون هذه إمرأته ، فيقتلوننى ويستبقونك » (تك ١٢ : ١٢) . وهل من أجل خوفك ، تضحى بامرأتك ؟ هذا كثير.

على أن خوف ابرآم من الموت ، سبقه خوف آخر من المجاعة . يقول الكتاب « وحدث جوع فى الأرض ، فانحدر ابرآم إلى مصر ، ليتغرب هناك » (تك ١٢ : ١٠) . وكانت مصر لغناها ترمز إلى الإعتماد على الذراع البشرى .

ولكن ثعلباً صغيراً كان قد دخل إلى ابرآم. فا هو؟

هذا الثعلب الصغير غير المرئى ، كان ضعف إيمان فى قلب ابرآم ، من جهة إعالة الله له فى وقت المجاعة . ضعف الإيمان هذا ، قاده إلى الإعتماد على الذراع البشرى فنزل إلى مصر . وعرف الشيطان نقط الضعف هذه ، فقاده إلى الخوف على حياته من الموت ، كما خاف على حياته من الجوع . والخوف قاده إلى التضحية بامرأته ، وقاده هذا إلى الكذب والإدعاء بأنها أخته... واستطاع الثعلب الصغير الذى دخل إليه أن يفسد الكرم من كل هذه النواحى...

ثعلب صغير آخر دخل إلى أيوب ، هو البر الذاتى .

كانت مشكلة أيوب أنه رجل كامل ومستقيم ، و يعرف عن نفسه أنه كامل ومستقيم . ومن أجل هذا ، وقع فى البر الذاتى . وكان كما قال الكتاب « باراً فى عينى نفسه » (أى ٣٢ : ١) . وظل الله ينقيه بالتجربة ، حتى قال « نطقت بما لم أفهم ، بعجائب فوق لم أعرفها » (أى ٤٢ : ٣) .

ما أسهل أن نقطة صغيرة تجر إلى مشاكل عديدة جداً .

ثعلب صغير حارب يوسف الصديق ، هو الحديث عن النفس .

فتحدث أمام أخوته عن أحلامه ، وعن الذين يسجدون له فى الحلم ، فأثار ذلك حسدهم ، وتحول الحسد إلى بغضة « وازدادوا أيضاً بغضاً له من أجل أحلامه ومن أجل كلامه » (تك ٣٧ : ٨) . وتطور الأمر حتى باعوه أخيراً كعبد... لذلك حسناً أن السيدة العذراء لم تكن تتحدث عن كل العجائب التى تحدث معها ، إنما تحتفظ بذلك فى قلبها (لو٢ : ٥١) .

وكان القميص الملون ثعلباً صغيراً آخر سبّب مشاكل .

القميص الملون الذى صنعه يعقوب لابن شيخوخته ، يوسف . فأثار حسد أخوته « فلما رأى أخوته أن أباهم أحبه أكثر من جميع أخوته ، أبغضوه ، ولم يستطيعوا أن يكلموه بسلام » (تك ٣٧ : ٤)... أتراك أنت أيضاً تفعل هذا ، حينما تفرق فى معاملاتك للناس ، وتظهر حباً لشخص منهم أكثر من غيره؟!

حقاً ، من كان يظن ... ؟!

من كان يظن أن الخطوة الأولى فى خطايا عديدة ، تصل إلى بيع الأخ ، وخديعة

الأبناء لأبيهم، والوصول إلى عبودية فرعون، كل هذه تكون بسبب قميص ملون أو رواية صبي صغير لأحلامه؟ ولكنها الثعالب الصغار المفسدة للكروم

لذلك يقول الكتاب: «أسلكوا بتدقيق، لا كجهلاء، بل كحكماء» (أف ٥: ١٥). كن دقيقاً جداً إذن، فربما خطأ تظنه بسيطاً يجر إلى مشاكل كثيرة. بينما التدقيق لا بد ينفعك، و يعلمك الحرص. ونضرب لذلك مثلاً:

الذى يهتم بالحشمة داخل غرفته، لا بد سيحتشم فى الخارج.

الذى فى حجرته الخاصة المغلقة عليه، يستحى من أرواح الملائكة والقديسين، هذا لا بد أن يسلك باحتشام فى الخارج أمام الناس. وتصير الحشمة من طباعه.

ومن ناحية أخرى، من لا يبالى بأن يجلس فى وضع غير لائق، فى حجرته الخاصة، قد يتعود ذلك، ويجلس أحياناً بنفس الطريقة أمام الناس!

الشيطان ذكى. لا يهاجمك بخطية بشعة دفعة واحدة.

لا يطلب منك باباً واسعاً يدخل منه إلى حياتك. وكل ما فى الأمر أنه يستأذنك فى ثقب إبرة. وقد لا تبالى، فتسمح له. وهذا يكفيه. يظل يوسعه حتى يتلف حياتك كلها. ولذلك فالتدقيق أفضل.

ما أكثر الخطايا التى تدخل من ثقب إبرة.

الشيطان مثلاً لا يدعوك إلى عدم الصلاة، إنما إلى تأجيلها...

إن رآك متعوداً الصلاة حالما تستيقظ، يقول لك: إنتظر حتى تغسل وجهك وتفيق ثم تصلى. وقب أن تفيق يكون قد ألقى فى ذهنك أفكاراً عديدة تشغلك وتنسيك، وأشياء أخرى تعطلك... أما أنت فلا تعطه، بل استمر فى صلاتك، حتى وأنت ذاهب لتغسل وجهك...

كن محترساً إذن. وابعد عن الخطوة الأولى التى تقودك إلى الإهمال والفتور، أو التى تقودك إلى الخطية.

والخطوة الأولى للخطية، قد لا تكون خطية فى ذاتها.

فربما علاقة خاطئة، تكون بدايتها صداقة بريئة لا خطأ فيها. وربما يكون ضياع وقت البيت كله، حول التلفزيون والأفلام، بدأ بفرجة بريئة على فيلم علمى أو مبارة للكرة، ثم تطور الوقت، حتى ضيع مذاكرة التلاميذ وحضور إجتماعات

الكنيسة. فعلى الإنسان إذن أن يكون مدققاً ومحترساً...

والخطوة الأولى إلى الخطية، تختلف من شخص لآخر.

الترف كان الخطوة الأولى لخطية داود، والحسد كان الخطوة الأولى لخطية قايين وإخوة يوسف. والتزوج بالأجنبيات كان الخطوة الأولى فى خطية سليمان. والتأثير الخارجى الخاطىء كان الخطوة الأولى فى خطية آدم وحواء وخطايا عصر القضاة (قض ٣: ٥، ٦). ومحبة النساء كانت الخطوة الأولى فى سقطة شمشون. والخوف كان الخطوة الأولى لخطية بطرس وخطية إبراهيم...

فابحث أنت ما هى الخطوة الأولى فى خطاياك ؟

واحترس منها جداً. وإن وقعت فى الخطوة الأولى، لا تكمل الثانية.

ربما تكون خطوتك الأولى أنك ذهبت إلى غزة، أو إلى سدوم، أو إلى جرار، ربما ضعف فى شخصيتك يجعلك تستسلم لمشورة الأشرار. ربما لا تكون محبة الله فى قلبك. ربما خطوتك الأولى هى الغرور أو الثقة الزائدة بالنفس التى لا تقودك إلى الإحتراس. وربما تكون الخطوة الأولى لسقوطك هى العثرات...

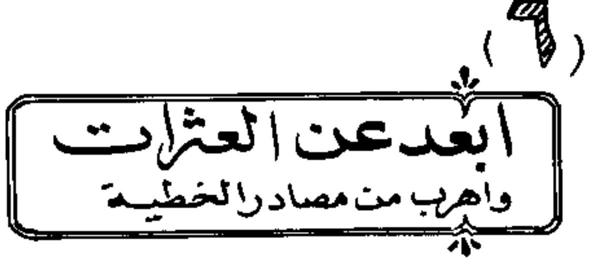
أياً كانت فسنحاول أن نبحثها معاً، لكى نخلص منها ...

واستفد من دراسة الخطوة الأولى التى أسقطت غيرك.

وبخاصة أولئك الذين كانوا جبابرة فى حياة الروح. أنظر إذن «كيف سقط الجبابرة، وبادت آلات الحرب» (٢صم ١: ٢٧).

وبالإحتراس من الخطوة الأولى، تعلم حياة التدقيق.

واحرص أن تتخلص من الثعالب الصغار المفسدة للكروم. وكما قالت القديسة سارة: «إن فماً تمنع عنه الماء، لا يطلب خمراً. وبطناً تمنع عنها الخبز، لن تطلب لحماً» ...



إبعد عن العثرات بنوعيها :
سواء الواردة إليك من آخرين أو التى أنت تعثر بها غيرك

◉ أبعد لخطورة العثرة :

العثرة فى اللغة هى السقطة .

والذى يعثر غيره ، هو الذى يتسبب فى إسقاط غيره .

وبهذا يحمل ذنب ذلك الساقط ، أو يشترك فى ذنبه . وفى ذلك قال السيد المسيح له المجد « ويل لذلك الإنسان الذى به تأتى العثرة » (متى ١٨ : ٧) ، «خير له أن يعلق فى عنقه حجر الرحى ، ويُغرّق فى لجة البحر» (متى ١٨ : ٦ ، لو ١٧ : ٢) .

عبارة « ويل لذلك الإنسان » تدل على خطورة خطيته .

ولشعور القديس بولس الرسول بخطورة إعثار الآخرين ، ولحرصه ألا يهلك أحد بسببه ، قال عبارته المشهورة «إن كان طعام [أكل اللحم] يعثر أخى ، فلن آكل لحماً إلى الأبد ، لئلا أعثر أخى» (١ كو ٨ : ١٣) . ولخطورة العثرة أيضاً ، نرى أن السيد المسيح :

وضع الذين يعثرون قبل الخطاة فى استحقاق الدينونة .

فقال « هكذا يكون فى انقضاء العالم : يرسل إبن الإنسان ملائكته ، فيجمعون من ملكوته جميع المعاثر وفاعلى الإثم ، ويطرحونهم فى أتون النار» (متى ١٣ : ٤١-٤٢) ، جاعلاً المعاثر قبل فاعلى الإثم ، لأنهم السبب ...

(١) من محاضرة عن العثرات بتاريخ الجمعة ١٩٧٠/١/٢٣ فى الكاتدرائية الكبرى . ومحاضرة أخرى بنفس العنوان فى اجتماعات الأسرات الجامعية ، ومحاضرة ثالثة بعنوان (إهرب لحياتك) ألقيت يوم الجمعة ١٩٧٢/٨/٢٥ فى الكاتدرائية الكبرى .

وإن كان إعثار الآخرين أمراً خطيراً، فإن إعثار الصغار والبسطاء أمراً أخطر

وهكذا قال الرب فى الويل الذى صبه على الذين تأتى منهم العثرات «من أعثر أحد هؤلاء الصغار المؤمنين بى ...» (متى ١٨ : ٦) «خير له لو طوّق عنقه بحجر رحى، وطرح فى البحر، من أن يعثر أحد هؤلاء الصغار» (لو١٧ : ٢).

ذلك لأن الصغار والبسطاء، يقبلون العثرة بسهولة.

إنهم يصدقون كل شيء، بسرعة وبلا نقاش، ولا يشكون فيمن يكلمهم، وليست لديهم القوة على فحص الأمور، والتميز العميق بين ما هو حق وما هو باطل فى كثير من الأمور... وهكذا لا يوجد تكافؤ فى كفتى الميزان، بين من تصدر منه العثرة ومن يتقبلها ...

وعدم التكافؤ هذا، وجد فى عثرة حواء من الخطية.

حواء كانت بسيطة جداً، نقية للغاية، لا تعرف ما هى الخطية من قبل، لا تعرف الشر، لا تشك فى كلام غيرها إذ لا تعرف أن هناك كائنات تكذب. لم تختبر الكذب ولا الحيلة من قبل ولم تعرفها. والحية كانت «أحيل حيوانات البرية» تعرف كيف تكذب، وكيف تسبك العثرة فى مكر. وهكذا لعدم تكافؤ الكفتين أمكنها أن تعثر حواء... وكانت حواء بالنسبة إلى الحية، هى «أحد هؤلاء الصغار».

هكذا إعثار الأطفال أيضاً ...

إنهم فى سن يصدقون فيه كل شيء، ويقلدون كل شيء، حتى الحركات والملامح، ويرددون الألفاظ التى يسمعونها، بلا فهم. هم عجينة سهلة، يمكن تشكيلها بسهولة. لذلك حرام جداً أن يفسدهم أحد. ما أخطر العثرة التى يتلقونها من آبائهم، ومن إخوتهم، ومن الجيران والمدرسين والأهل، ومن وسائل الإعلام المتنوعة... إن التعامل معهم ينبغى أن يكون بحرص شديد، كأجهزة حساسة...

لذلك إبعد عن كل عثرة، وبخاصة للبسطاء وللصغار.

إحذر كل الحذر أن تتعب أفكار البسطاء. تصور إنساناً بسيطاً بساطة الأطفال، لم يتفتح قلبه للشر. يأتى إنسان أكبر منه عقلاً وأكثر منه خبرة، فيفتح عينيه على

عشرات ، ويدخل فى ذهنه أفكاراً من الصعب خروجها منه . فيلوث فكره ، ويفقده بساطته ، ويشككه ، ويعثره ويسقطه ... ألا يحمل دينونته ؟

الذى يعثر صغيراً ، يكون كالذى يحارب من لا سلاح له .

وقد تؤخذ كلمة (صغار) بمعناها النسبى وليس المطلق .

أى من هو أصغر منك فى المعرفة وفى الإرادة وفى المركز ، ويمكنك إسقاطه . حقاً ما أخطر هذا الأمر ، فما هى خطورته إذن ؟ إننا نوضحها فى سببين :

١ - شعور الإنسان بأن هذا الشخص كان بريئاً . ولولا الذى أسقطه ، وأفسد فكره وشعوره ، ما كان قد سقط ...

٢ - ماذا يحدث لو أن هذا الذى أسقط غيره قد تاب ، بينما الذى سقط بسببه لم يتب ؟ هل يستريح ضميره فى توبته ؟ وهو يرى من قد هلك بسببه ؟

لذلك إحترس جداً من أن تعثر غيرك ...

إن توبتك فى يديك ، تستطيع أن تتوب إن رجع قلبك إلى الله . ولكن توبة هذا الذى أعثرته ، ليست فى يديك . فإن استمر فى خطيئته التى سقط فيها بسببك ، وهلكت نفسه ... هل تؤخذ نفسك عوضاً عن نفسه ؟

وحتى إن غفر الله لك بالتوبة ، ألا يبقى فى قلبك ألم مرير ، وأنت ترى من قد هلك بواسطتك ، مهما خلصت أنت ؟!

هذا إذا كنت أنت سبب العثرة ، أما إن كانت العثرات تأتيك من آخرين ، فنصيحتى لك :

إبعد عن العثراتّ . واهرب من كل أسباب الخطية .

تذكّر قول الملاك للوط « إهرب لحياتك ... ولا تقف فى كل الدائرة ... لئلا تهلك » (تك ١٩ : ١٧) . واذكر أيضاً أن هروب يوسف الصديق من العثرة التى ألحت عليه ، كان هو السبب فى عدم سقوطه فى الخطية . كذلك الرب لما اختار أبانا ابرآم ، وأراد أن يكوّن به شعباً مقدساً ، أبعده عن العثرات ، بأن أخرجه من أرضه وعشيرته (تك ١٢ : ١) .

بهربك من الخطية وعثراتها ، تدل على رفضك لها .

فالهروب من العثرات فضيلة ، لأنه يدل على أن القلب من الداخل لا يريد الخطية . لذلك إحترس من أن تظن الهروب ضعفاً . فليس من الحكمة أن يفتر الإنسان بقوته ، ويعرض نفسه للتجارب ، ويدخل نفسه فى حروب ربما تتعبه . إذن لا تصف الإبتعاد عن العثرات بأنه ضعف ، بل قل إنه صيانة . وقد نصح الآباء بالبعد عن « مادة الخطية » . وقالوا فى ذلك :

إن القريب من مادة الخطية ، تصادفه حربان ، من الداخل ومن الخارج . أما المبتعد عنها فله حرب واحدة.

وليس الآباء فقط هم الذين ينصحون بالهروب من العثرات ، بل الكتاب المقدس نفسه يقول « وأما الشهوات الشبابية فاهرب منها » (٢تى ٢ : ٢٢). ويعلل ذلك بأن « المعاشرات الردية تفسد الأخلاق الجيدة » (١كو ١٥ : ٣٣). والمزمور الأول واضح فى قوله « طوبى للرجل الذى لم يسلك فى مشورة الأشرار، وفى طريق الخطاة لم يقف، وفى مجلس المستهزئين لم يجلس » (مز ١ : ١). لأن صحبتهم كلها عثرات...

بل حتى السيد المسيح نفسه يقول :

إن كانت عينك اليمنى تعثرك ، فاقلعها والقها عنك .

... وإن كانت يدك اليمنى تعثرك ، فاقطعها والقها عنك (متى ٥ : ٢٩، ٣٠).

قال ذلك فى العظة على الجبل . وكرر نفس الكلام فى مناسبة أخرى (متى ١٨ : ٨، ٩).

وهذا التكرار يدل على اهتمام الرب بهذه النقطة بالذات ، أى البعد عن العثرات . وليس شرطاً أن يؤخذ كلام الرب هذا بطريقة حرفية ، إنما يمكن :

تفسير هذه الآيات بمعنى روحى ، غير حرفى .

أى أنه : إن أتتك العثرة من أعز إنسان لديك ، الذى هو كعينك . أو إن أتت العثرة من أكثر إنسان يساعدك ، كيدك اليمنى ، فابتعد عنه... أو يمكن تفسير الآية بمعنى أنه إن أتتك العثرة من داخل نفسك وليس من الخارج ، فابعد عنها بكل حزم ، حسب وصية المسيح ، ولو أدى الأمر إلى استشهادك...

◉ من أين تأتي العثرة :

قد تكون العثرة داخلية ، من داخل الإنسان .

« من كنز قلبه الشرير تخرج الشرور » (لو ١٦ : ٤٥) . فمنه تصعد شهوات وأفكار تزعجه . قد تكون العثرة من حواسه التي تجمع له مناظر وأحاديث تتعبه . قد تكون من رغباته ومسلياته وهواياته ، ومن أفكاره وأحاسيسه ، ومما خزنه لنفسه في عقله الباطن من صور وأخبار وأفكار... لذلك فهو يعثر نفسه . وإن لم تأته شهوة من الخارج ، يجلبها لنفسه من الداخل ، بتصرفه الخاص . حقاً « إن أعداء الإنسان أهل بيته » (متى ١٠ : ٣٦) . وبيته هو قلبه وفكره...

إن كنت هكذا ، فحاول أن تضبط نفسك ، كما قال الرسول « مستأسرين كل فكر لطاعة المسيح » (٢ كو ١٠ : ٥) .

وهناك عثرات من الخارج : من البشر ومن الشياطين :

وفي الخطية الأولى للبشرية ، يوجد النوعان معاً : وهما عثرة الشيطان لحواء ، وعثرة حواء لآدم . والشيطان قد يعثر الناس بطريقة مباشرة ، وقد يعثرهم عن طريق البشر ، عن طريق خدامه الذين « يغيرون شكلهم كخدام للبر» (٢ كو ١١ : ١٥) .

وهناك عثرات من الشياطين ، كالرؤى والأحلام الكاذبة :

فالشيطان كما يقول الكتاب قد «يغير شكله إلى شبه ملاك نور» (٢ كو ١١ : ١٤) . ومعروفة القصة التي وردت في البستان ، التي ظهر فيها الشيطان بهيئة ملاك لراهب قديس ، وقال له « أنا جبرائيل الملاك أرسلني الله إليك » . فأجابه الراهب في اتضاع « لعلك أرسلت إلى غيري وأخطأت الطريق . أما أنا فإنسان خاطىء لا أستحق أن يظهر لي ملاك » . فتركه الشيطان ومضى...

وقد يظهر شيطان كروح من أرواح البشر المنتقلين :

يقول أنا روح فلان (أحد أقربائك أو معارفك) ، ويخبر بأشياء تتعلق بهذا الإنسان أو بيته أو أهله ، حتى يصدقه من رآه . وقد يظهر في صورة أحد القديسين أو السواح ، حتى يخدع الناس .

وقد يظهر الشيطان فى حلم .

وهناك أحلام كثيرة من الشيطان ، كما قال القديس الأنبا أنطونيوس عن خبر معين «جاء الشياطين فى حلم وأخبرونى» . لذلك نصيحتى لك : لا تصدق الأحلام ، ولا تجعلها تقودك فى حياتك . فليست كل الأحلام من الله ، كأحلام دانيال و يوسف الصديق و يوسف النجار، إنما هناك أحلام من الشيطان ليعثر بها الناس ، وهناك رؤى من الشيطان .

وأيضاً لا تتبع الأرواح ، فقد أضلت كثيرين ...

والكتاب يقول « لا تصدقوا كل روح بل إمتحنوا الأرواح هل هى من الله ، لأن أنبياء كذبة كثيرين قد خرجوا إلى العالم» (١يو ٤ : ١) . هؤلاء مرسلون من الشيطان ، وكذلك المسحاء الكذبة ، والمسيح الدجال فى آخر الزمان ، ضد المسيح الذى قال عنه الرسول « ...مجيئه بعمل الشيطان ، بكل قوة وبآيات وعجائب كاذبة ، وبكل خديعة الإثم فى الهالكين» (٢تس ٢ : ٩) .

كذلك ميّز أفكار الشيطان وحيله ...

فقد يحارب بالفكر ، وليس فقط بالرؤى والأحلام والأرواح . أما أنت فلا تصدقه ، كما يقول الرسول « لئلا يطمع فينا الشيطان ، لأننا لا نجهل أفكاره» (٢كو ٢ : ١١) . لذلك لا تتبع كل فكر يأتى إليك ، ظاناً أنه من روح الله ! ولا تقل فى جرأة « الروح قال لى» . واصبر على الأفكار، لتعرف هل هى من الله أم لا . واستشر.

إن القديس مقاريوس الكبير جاءه فكر أن يزور الآباء السواح فى البرية الجوانية ، وهو فكر مقدس كما يبدو. ولكن القديس مقاريوس قال فى ذلك «فبقيت مقاتلاً هذا الفكر ثلاث سنوات لأرى هل هذا الفكر من الله أم لا » ... إذن لا تسرع وراء الأفكار لتنفذها ...

إن الشيطان قدم للمسيح ثلاثة أفكار ...

ولكنه رفضها جميعاً ، ولم يقبل شيئاً منها ، وردّ عليها .

فارفض أنت أيضاً كل فكر يأتيك من الشيطان . وتذكر ما قيل على لسانك فى المعمودية «أجحدك أيها الشيطان ، وكل أفكارك الردية ... وكل جنودك ... وكل بقية نفاقك» .

أرفض كل فكر لا ينميك روحياً ولا يبنيك، سواء جاءك من الشيطان أو من الناس.

وكما تهرب من عثرات الشيطان، إهرب من عثرات الناس.

وعثرات الناس منها نوع عام قد يشمل المجتمع كله. ومنها نوع خاص بك أنت بالذات من جهة الأشخاص الذين تختلط بهم، سواء كانت عثرتهم لك ولغيرك، أو لك وحدك. سواء كانوا أعداء أو أصدقاء.

فالعثرة قد تأتى من أعز الأقرباء والأحباء.

وغالبية الشبان الذين يفسدون، إنما يأتيهم الفساد من أصدقائهم الأعزاء جداً الذين لهم تأثير عليهم. وشمشون أتته العثرة من دليلة، وكانت أحب إنسان إلى قلبه. كما أن آخاب الملك أتته العثرة من زوجته إيزابل. ولا ننسى أن أبانا آدم أتته العثرة من حواء. وما أكثر الأطفال فى البيوت الذين تأتيهم العثرة من والديهم إن كان البيت غير متدين. فيسمعون فى البيت الشتائم وكلام الشجار. و يأخذون عن الوالدين كل الطبائع والعادات الخاطئة.

و يعقوب أبو الآباء أتته العثرة من أمه رفقة.

هى التى أوعزت إليه أن يتنكر فى زىّ أخيه عيسو، ويخدع أباه إسحق، و يأخذ البركة منه. وهى التى وضعت الخطة كلها ودبرت كل شيء. ولما خاف يعقوب من هذه الخديعة وإمكانية إنكشافها قائلاً «فأجلب على نفسى لعنة لا بركة». قالت له أمه «لعنتك علىّ يا إبنى. إسمع لقولى فقط...» (تك ٢٧: ٨-١٣).

وما أسهل أن تأتى العثرة لأبنة من أمها. الأم التى تتلف حياة إبنتها بعد زواجها، وتعمل على خراب بيتها، بالتدخل وفرض رأيها عليها وعلى زوجها.

السيد المسيح جاءته عثرة من تلميذه بطرس، فوبخه.

والمقصود بهذه العثرة نصيحة خاطئة. إذ فيما كان السيد يشرح لتلاميذه إنه ينبغى له أن يذهب إلى أورشليم «و يتألم كثيراً من الشيوخ ورؤساء الكهنة والكتبة، و يقتل وفى اليوم الثالث يقوم»... لم يعجبه بطرس أن معلمه العظيم يسلم نفسه... «فأخذه بطرس إليه... وقال له فى محبة خاطئة «حاشاك يارب. لا يكون لك هذا». فالتفت الرب إليه وقال «إذهب عنى يا شيطان. أنت معثرة لى...»

(متى ١٦ : ٢١- ٢٣). وهكذا رفض المسيح هذه العثرة من تلميذه وصديقه...

ينبغى أن ترفض العثرات التى تأتيك من أحبائك .

حتى لو كانت تلك العثرة من أقرب أقربائك . فقد قال السيد المسيح «...أعداء الإنسان أهل بيته . من أحب أباً أو أماً أكثر منى فلا يستحقنى . ومن أحب إبناً أو إبنة أكثر منى ، فلا يستحقنى» (متى ١٠ : ٣٦ ، ٣٧) . إن الحب هو أولاً لله ، ومن محبته تنبع كل محبة . والطاعة هى أولاً لله ، ومن طاعته تنبع كل طاعة . حتى طاعة الآباء قال عنها الكتاب «أيها الأولاد أطيعوا والديكم فى الرب فإن هذا حق» (أف ٦ : ١) . هى إذن طاعة لازمة ، ولكن «فى الرب» .

ولذلك يوناثان لم يطع والده شاول فى اضطهاده لداود .

بل وبخه على ذلك بقوله «لماذا تخطىء إلى دم برىء بقتل داود بلا سبب» (١صم ١٩ : ٥) . كان شاول الملك عثرة لإبنه يوناثان . ولكن يوناثان انتصر على هذه العثرة . وكذلك سليمان الملك مع احترامه الشديد لوالدته بثشبع ، لم يطعها فى وساطتها لأدونيا أخيه» (١مل ٢ : ١٩-٢٣) .

من حدود الطاعة ، أنه لا تكون فيها عثرة .

من عشرتك مع الناس ، ومن خبراتك فى الحياة ، أصبحت تدرك تماماً من أين تأتيك العثرة وبسبب من ، فاستفد من هذه الخبرة فى أن تحيط نفسك بجو نقى على قدر إمكانك . والذين لا تستطيع أن تبعد عنهم جسدياً ، إبعد عنهم من جهة الفكر ومنهج الحياة . وكما قال الكتاب «لا تشتركوا فى أعمال الظلمة غير المثمرة ، بل بالحرى بكتوها» (أف ٥ : ١١) . فإن لم تستطع أن تبكتها ، فعلى الأقل لا تسر فى تيارها ، ولا تخضع للعثرة .

واحرص أنت نفسك ألا تكون عثرة لغيرك .

حتى لا تقع فى مسئولية أمام ضميرك وأمام الله ، وربما أمام الناس ، إنك تسببت فى سقوط أحد...

◉ مسئولية العثرة :

شاب أعثر من فتاة ، ووقع فى الشهوة . فا مسئوليتها .

الإجابة هى : إن كانت هذه الفتاة فى كامل أدبها ، وهى جميلة بطبيعتها ، وجمالها كان السبب فى عثرة هذا الشاب ، فلا لوم عليها إطلاقاً ، ولا مسئولية عليها فى العثرة .

فهناك قديسات ، بسبب جمالهن ، أعثر البعض .

ولعله من أبرز الأمثلة على ذلك ، القديسة يوستينة التى كانت جميلة جداً . وقد وقع إنسان فى محبتها ، ولم يستطع أن يستحوذ عليها ، فاستخدم السحر فى الوصول إلى ذلك . وكان مجرد ذكر إسمها يطرد الشياطين المستخدمة فى السحر ، حتى آمن الساحر كبريانوس بسبب ذلك ، وصار من قديسى الكنيسة ... أنستطيع أن نقول إن القديسة يوستينة عليها مسئولية فى العثرة ؟!

كلا بلا شك ، وإنما هنا :

المسئولية كاملة على من اشتهاها . والعثرة بسبب شهوته .

وبنفس الوضع يمكننا أن نتكلم عن القديسة سارة زوجة أبينا إبراهيم . كانت جميلة جداً . وكان جمالها يجذب الملوك ، حتى أخذها فرعون إلى قصره مرة (تك ١٢ : ١٤ ، ١٥) . وأخذها أبيمالك ملك جرار مرة أخرى (تك ٢٠ : ٢) . ولم يكن لها ذنب فى المرتين كلتيهما . لا ذنب لها طبعاً فى إنها جميلة . إنما الذنب كله على من يشتهى ...

إذن متى تكون المرأة مسئولة فى العثرة ؟

تكون كذلك إن قصدت أن تغرى الرجل وتجتذبه إليها بطريقة فيها لون من الإثارة . أو إن سقط الرجل بسبب سلوكها ، أو بسبب حديثها أو بسبب إغرائها . أو إن كانت فى زينتها أو فى ملابسها سبب عثرة فعلاً بالنسبة إلى الإنسان العادى .

وكذلك تكون الفتاة مسئولة إن عملت على إغراء الشاب ، إما بملء قلبه بشهوات تجعله يرتكب الخطية بالحواس أو بالعمل . أو أن تعثره بطريقة تشغل فكره ، فيهمل مسئولياته و يضيع روحياته .

أما إن كان كل السبب فى عثرة الفتاة هو جمالها الطبيعى ، فلا ذنب عليها . نقول هذا حتى لا تتشكك بعض الفتيات الطاهرات ، و يقعن فى الوسوسة وفى عقدة الذنب بسبب جمالهن .

وما يقال على المرأة فى ذلك ، يمكن أن يقال على الرجل .

وإلا فما ذنب كل هؤلاء ؟

ما ذنب يوسف الصديق فى أن إمرأة فوطيفار وقعت فى الشهوة بسببه ، لأنه كان جميلاً ؟ هل نستطيع أن نقول إنه أعثرها ؟! أو أن ضميره يتعبه إذ وقعت فى الشهوة بسببه ؟ كلا ، بلا شك .

وبنفس المنطق ، ما ذنب الملاكين اللذين وقع أهل سدوم فى شهوة الجسد بسببهما ، وهما كملاكين ما كان لهما جسد ، بالإضافة إلى أن لهما طهر الملائكة ... ! إنما العثرة هنا ، فى القلب الفاسد الذى اشتهى .

ونفس الكلام يمكن أن يقال عن زكريا الراهب الشاب الصغير الذى حدثت عثرة بسبب جمال صورته . وقد رويت قصته فى بستان الرهبان . واضطر أن ينزل إلى بحيرة الملح و يشوه جسمه وشكله ، ليبعد العثرة التى تسببت من أخطاء غيره ...

أما الذين يريدون أن يهربوا من مسئولية أخطائهم .

وذلك بأن يلصقوها ظلماً بغيرهم ، قائلين إنه قد أعثرهم على الرغم من براءته ، فهؤلاء ينطبق عليهم قول الشاعر:

نعيب زماننا والعيب فينا وما لزماننا عيب سوانا

ما أجمل كلام السيّد الرب عن العين البسيطة ...

لقد قال « إن كانت عينك بسيطة ، فجسدك كله يكون نيراً . وإن كانت عينك شريرة ، فجسدك كله يكون مظلماً » (متى ٥ : ٢٢ ، ٢٣) . وكثيرون يعثرون ، لأن عيونهم ليست بسيطة ... عيونهم فيها الخطية ، لذلك كل شىء يمكن أن يثير الخطية فيهم .

فليت كل أحد يدرب نفسه على هذه العين البسيطة .

وكما تكلمنا عن مدى مسئولية الفتاة فى إعثار الشاب ، نقول :

هناك مسئولية أيضاً على الشاب فى إعثار الفتاة .

فقد يعثرها الشاب بكثرة المديح والكلام المعسول ، و بالود الذى يظهره لها فى تلطف زائد غير عادى . أو يعثرها بكثرة إلحاحه عليها ، ومطاردتها بشدة حتى تضعف وتُحرج وتستجيب له . كما يعثرها بالوعود التى يعطيها لها ، والتى يؤكدها مراراً ، فتصدقه... وهكذا يعلقها و يتعبها... ولكنها إن أعثرت من مجرد شخصيته ، فلا ذنب له فى ذلك .

أما أنت فابعد عن المعثرات من كلا النوعين :

أ - إبعد عن العثرة المثيرة فعلاً ، التى يوجد فيها نوع من الإغواء أو الإغراء ، والتى على صاحبها مسئولية فى إسقاط الآخرين . وحاول على قدر إمكانك أن تكون عينك بسيطة .

ب - وابعد أيضاً حتى عن المجالات البريئة بطبيعتها ، ولكنها تسبب لك عثرة بسبب ضعفك أنت . وقل لنفسك فى اتضاع : أنا لا أريد هنا أن أبحث عن المسئولية أين أضعها ، هل هى بسبب غيرى أم بسببى ... وإنما :

سأبعد حتى لا أسقط ، ولو بسبب ضعفى ...

حتى لو كان غيرى بريئاً تمام البراءة ، كبراءة الذئب من دم إبن يعقوب ! أو كبراءة إبن يعقوب من خطية إمرأة فوطيفار...

ونفس الكلام نقوله عن باقى أنواع العثرات .

ونقصد العثرات الأخرى ، خارج نطاق الأمور الجنسية .

كأن يفهمك إنسان بطريقة خاطئة ، بينما يكون كلامك واضحاً جداً ، ولا يعنى إطلاقاً ما قد فهمه... ! أو أن يقول لك أحدهم «أنت تقصدنى بهذا الكلام» ، بينما تكون بريئاً جداً ، ولا تقصده ، إنما هو ظنونه وشكوكه وشعوره الداخلى بالخطأ... ونقول إنه فى كل ذلك :

ليست العثرة من المتكلم ، إنما هى مسئولية الفهم الخاطىء .

ومع ذلك عليك من أجل المحبة ، أن توضح قصدك السليم ، وتشرح ما التبس على غيرك فهمه . وأن تحترس فى كلامك حتى لا يُفهم خطأ . ومع ذلك إبعد عن العثرات . وكن حريصاً جداً فى الكلام وفى التصرف ، وخصوصاً حيثما يوجد بعض

الموسوسين الذين يفهمون الكلام بطريقتهم الخاصة ...

هناك نوع من الناس ، يقول الواحد منهم باستمرار :

أنا تعقدت من تصرفات الناس ! أنا تعقدت من كلامهم !

ويقصد أنه قد أعثر منهم ومن كلامهم ... وسواء كان هذا الكلام صحيحاً أو مبالغاً فيه . سواء كانت هناك عقد داخلية ، أو التعقيد فى تصرفات الناس . فالسيد المسيح قد قال لنا «لا بد أن تأتى العثرات» (متى ١٨ : ٧) . ذلك لأننا لا نعيش فى عالم مثالى ، وإنما فى عالم مملوء بالعثرات . فيه الحنطة ، وفيه أيضاً الزوان . وسيبقى الزوان مع الحنطة إلى يوم الحصاد (متى ١٣ : ٣٠) . فما هو موقفنا إذن ؟ الموقف السليم هو أن :

لا نبحث على من تقع مسئولية العثرة ، إنما نبحث عن الخلاص منها .

والخلاص منها ، هو فى الهروب من العثرات ، وليس فى فحص المسئولية فيها . فما أسهل أن يوقعنا هذا الفحص فى أخطاء أخرى .

ولكن لا يجوز أن نقول إننا تعقدنا من عثرات الناس .

فلا يصح أن تفقدنا العثرات نقاوتنا الداخلية .

ولا يصح أن تفقدنا العثرات سلامنا القلبى . نحن لسنا فى السماء ، ولكننا على الأرض . والأرض لا بد توجد فيها أخطاء . والمهم هو أننا ننجو من هذه الأخطاء . ولا ننجو منها بالتذمر والشكوى . ولا ننجو منها إن كنا نتعقد منها . إنما ننجو من العثرات ، بنقاوة القلب ، وبعدم الإستجابة لها . وفى نفس الوقت لا نعثر أحداً .

وإن كنا أقوياء من الداخل ، لا تضرنا العثرات بشىء .

بل نكون كالبيت المبنى على الصخر ، الذى صادمته الأمطار والعواصف ، فلم تؤذه بشىء (متى ٧ : ٢٥) .

إن المسئولية ليست كاملة فى كل الحالات على الذى تأتى منه العثرة .

فهناك التجاوب من الطرف الآخر ، ولولاه ما تمت السقطة .

قد يقول الكحول (السبرتو) إن عود الكبريت أعثرنى فاحترقت . ولكنى أقول :

لولا أن السبرتو مادة قابلة للإشتعال ، ما كان يعثره عود الكبريت .

هوذا عود الكبريت قائم كما هو، وكوب الماء لا يعثر منه، بل إنه إذا اقترب من كوب الماء ينطفىء .

وعلى كلٍ ، سواء كنت ماءاً أو كحولاً ، فالهروب بالنسبة إليك أضمن . الهروب على الأقل فيه اتضاع ، والإتضاع يخلص كثيرين . فقد أبصر القديس الأنبا أنطونيوس فخاخ الشيطان منصوبة ، فصرخ « يارب ، من يفلت منها ؟ » فأتاه الصوت « المتضعون يفلتون منها » .

العثرة خطوة أولى . إن وقعت فيها ، فلا تكمل باقى الخطوات .

ووجود العثرة ليس عذراً لك ، ولا تبريراً لأخطائك .

لأن الله وضع فيك روحه القدوس ، ومنحك قوة للمقاومة . فإن استجبت للعثرة، تكون قد خسرت هذه القوة الإلهية ولم تستخدمها . إن الإنتصار ممكن أمامك . تذكر يوسف الصديق الذى كان أقوى من العثرة وانتصر، على الرغم من شدة الحرب التى تعرض لها .

العثرة مجرد عرض . فإن لم يصادف قبولاً ، إنتهى أمره .

◎ أنواع العثرات :

يركز كثيرون الكلام فى العثرة على الأمور الجنسية .

وهى حقاً هامة وخطيرة ، ولكنها ليست كل شىء .

والعثرات فى هذا المجال تأتى بطرق كثيرة من وسائل الإثارة الجنسية ، سواء عن طريق الإغراء الذى يقوم به الأفراد ، أو عن طريق وسائل اللهو المختلفة ووسائل الترفيه ، بالصور المعثرة ، والأغانى العابثة ، والفكاهات الجنسية ، أو عن طريق القصص البطالة التى تسمع وتقرأ ، وكذلك الروايات والأفلام . وقد تأتى العثرة عن طريق الخلطة ، والمعاشرات الردية . وقد تأتى من داخل النفس...

أما أنت فابعد عن كل العثرات ، واضبط حواسك .

واعلم أن « الحواس هى أبواب للفكر » كما قال مار اسحق . وما تراه وما تسمعه قد يجلب لك أفكاراً خاطئة ، ويكون معثراً لك . والفكر قد يلد شهوة . والشهوة تقود إلى خطية فعلية .

ولكن لعلك تسأل : ماذا أفعل ؟ هل أغمض عيني ، والعثرة في كل مكان؟! ولا بد أنني سأرى وسأسمع... فأقول لك إنك لست مسئولاً عن النظرة الأولى ، مادامت قد أتت عرضاً .

ولكنك مسئول عن النظرة الثانية ودوافعها .

إن كان المنظر المعثر رأيته قد أثارك أو أعجبك ، فأعدت النظر إليه بإرادتك ، سواء في صورة حية ، أو صورة مطبوعة ، فأنت هنا تكون قد أخطأت لأنك بإرادتك الحرة قد نظرت . فإن كانت النظرة الأولى كذلك ، برغبتك وإرادتك ، فأنت مسئول عنها أيضاً...

ونفس الوضع نقوله عن السماعات الخاطئة . إهرب منها . فماذا إن لم تستطع ؟
إن اضطررت لسماعها ، فلا تعطها عمقك ، ولا فكرك .
ليكن سماعاً عابراً ، لا تدخله إلى أعماقك ، ولا تفكر فيه ، ولا تعيده إلى ذهنك ، ولا تعلق عليه . وكما قال الشاعر:

إذا بليت بشخص لا خلاق له فكن كأنك لم تسمع ولم يقل

وبقدر إمكانك إهرب من اللقاءات المعثرة .

فإن اضطررت إلى هذا ، إجعلها قصيرة المدى على قدر استطاعتك . كذلك لا تنفرد مع شخص يقاتلك به العدو، وتضعف من الداخل في وجودك معه . وحاول في أمثال هذه اللقاءات ، أن ترفع قلبك إلى الله وتصلي . ولا تكن في اللقاء بكل قلبك وعواطفك...

هذه كلمة مختصرة عن العثرات الجنسية ، وهي موضوع طويل وُضعت فيه كتب ، وليس الآن مجاله . إنما نحب أن نقول هنا ، إن العثرات ليست جميعها جنسية .

فهناك عثرات الفكر مثلاً ، وهي على أنواع :

منها الفلسفات الخاطئة التي قد تقرأها فتشوش أفكارك ، وقد تجلب لك شكوكاً ، إذا كنت تقرأ وأنت غير مستعد لها مسبقاً بفكر أصيل سليم . ويلزمك الحرص فيما تقرأ .

وتوجد الكتابات الإلحادية ،والتي تهاجم الدين .

والملحدون كثيرون . وكل ما يكتبونه توجد ردود عليه ، ولكنهم يشكلون عثرة بالنسبة إلى غير الدارسين وغير العارفين ، تسبب لهم شكوكاً هي أخطر عليهم من خطايا الجسد التي يسهل التخلص منها .

والمضلون في الفكر الديني كثيرون ومعثرون .

كان يربعام بن نباط عثرة لإسرائيل إذ جعله يخطىء ، وينحرف عن عبادة الله (١مل ١٤ : ١٦) . وقد كان من مضللي الشعب قبيل مجيء المسيح : يهوذا الجليلي في أيام الإكتتاب الذي أزاغ وراءه جمعاً غفيراً ... وثوداس الذي التصق به حوالي أربعمائة (أع ٥ : ٣٦ ، ٣٧) . كذلك في أيام المسيح كان الكتبة والفريسيون والصدوقيون وأمثالهم مضللين للشعب . وكانوا عثرة كبيرة . أمسكوا مفاتيح المعرفة ، فما دخلوا وما جعلوا الداخلين يدخلون . لقد أعثروا الشعب كله بتعاليمهم .

ومن العثرات الفكرية ، الأفكار العقيدية المنحرفة .

الأفكار التي تشمل بدعة أو هرطقة ، أو فكراً لاهوتياً غير المسلم لنا من الآباء القديسين ، ولا يتفق مع العقيدة السائدة في الكنيسة والتي يؤمن بها الكل . وهذا الفكر قد يعثر الناس ، ويثير فيهم شكوكاً .

فلا تقبل هذه الأفكار كما قال الآباء الرسل (غل ١ : ٧ ، ٨ ، ٣يو ١٠ ، ١١) .

إهرب من هذه العثرات الفكرية ، فأنت في زمان التوبة .

أنت إنسان تبحث عن خلاص نفسك . فما شأنك بهذه الأفكار التي تشوش على ذهنك ، وتدخلك في مجالات من الجدل وربما في خصومات ، لا تتفق مع سعيك إلى نقاوة القلب بالتوبة . أتركها إلى المتخصصين يردون عليها . واعكف أنت على الكتب الروحية التي كلما تقرأها ، تزداد محبتك لله ، وتشعر باقتراب قلبك إليه ...

وكما تهرب من العثرات الفكرية العقيدية ، إهرب من كل عثرات فكرية أخرى مثل :

عثرات الفكر التي تجعلك تعثر في الناس وتدينهم .

فهناك أشخاص إذا أتعبتهم أفكار الإدانة أو أخبار الإدانة ، يصبونها جميعها في

آذان الآخرين ، ولا يبالون إن كانت تعثرهم هذه الأخبار أم لا ، ولا يبالون بما تدخله فى قلوبهم من جهة الشك فى الناس ، أو إدانتهم والإقلال من شأنهم ، أو عدم المحبة لهم... أما أنت فاهرب من كل هذه ، وحاول أن تحتفظ بمحبتك للكل... والذين يشوهون صور الناس فى نظرك ، إبعد عنهم ، لتحتفظ بنقاوة فكرك .

وهناك عثرات من الذين يحكون أسرارهم للناس .

هم لا يستطيعون أن يحفظوا سراً ، حتى أسرارهم الخاصة وخطاياهم يحكونها للناس . وقد يعثر السامع من سماع هذه الأسرار والأخبار. و يعثر من أسماء الناس الذين تتعلق بها تلك الحكايات ، وربما يقع فى خطايا بسببها... ومع أن الكنيسة حرصت أن تجعل الإعتراف سراً ، إلا أن الناس مازالوا يحكون لغيرهم... وتكون حكاياتهم عثرة...

ومن العثرات الفكرية أيضاً ، المشورات الخاطئة والمضرة .

وكمثال لذلك « مشورة أخيتوفل » . وكان أخيتوفل هو مشير داود ، تركه وانضم إلى فتنة أبشالوم ، ليقدم له مشورة يهلك بها داود مسيح الرب وكل من هم معه . وكان داود يصلى قائلاً « حمِّق يارب مشورة أخيتوفل » (٢صم ١٥ : ٣١) . ولا شك أن مشورة أخيتوفل كانت عثرة لأبشالوم ، وتشجيعاً له فى الثورة على أبيه داود .. ولكن الرب سمع لصلاة داود وأبطل مشورة أخيتوفل...

ومن أمثال مشورة أخيتوفل المعثرة مشورة بلعام لبالاق (عدد ٢٢) .

وقد أطلق عليها الكتاب إسم « ضلالة بلعام » (يه ١١) . وقال عنه سفر الرؤيا انه « كان يعلم بالاق أن يلقى معثرة أمام بنى إسرائيل أن يأكلوا ما ذبح للأصنام و يزنوا » (رؤ ٢ : ١٤) . وذلك لكى يحل عليهم غضب الله ، فينتصر عليهم عدوه... ولا شك أنها كانت مشورة معثرة وشريرة .

فتخير أنت مشيريك ، وابعد عن كل مشورة معثرة .

سواء صدرت ممن تستشيرهم ، أو ممن يتطوعون لنصحك فى حياتك . وقد يقدمون لك نصائح لا ترضى الله . وربما تأخذ صورة الإشفاق عليك ، بينما لا يكون إشفاقهم روحياً...

ومن العثرات التي يتعرض لها البعض ، القدوات السيئة .

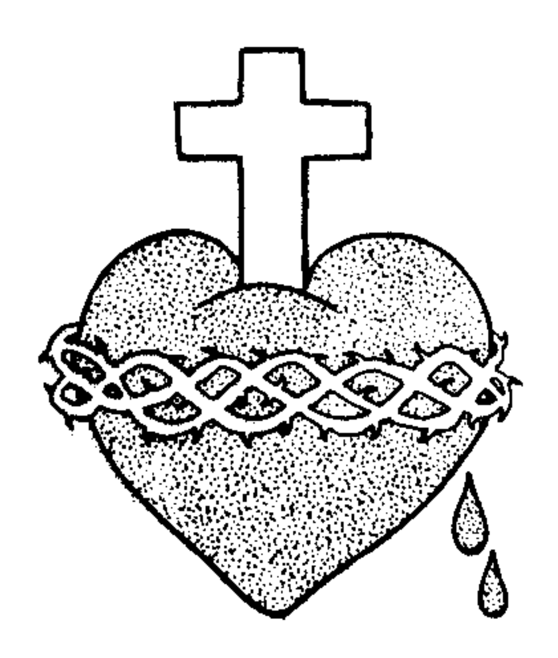
فلا تجعل هذا الأمر يعثرك ، مهما كان الشخص الذى أعثرت بتصرفاته كبيراً. ولا يغير هذا من مبادئك شيئاً ، ولا من حبك لله وكنيسته . وتذكر أنه قيل عن إيليا النبي العظيم «إيليا كان إنساناً تحت الآلام مثلنا» (يع ٥ : ١٧) .

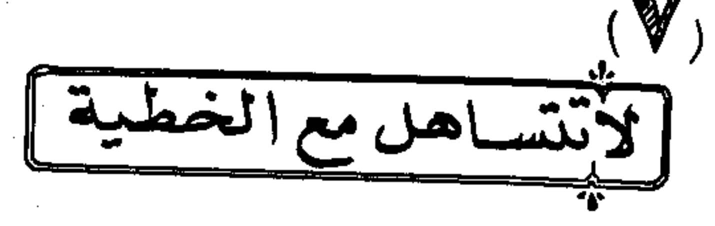
ولتكن قدوتك الثابتة في السيد المسيح وسير القديسين . أما أخطاء الناس مهما كبروا فلا تجعلها تعثرك . فالخير هو الخير مهما بعد البعض عنه... والكتاب المقدس ذكر لنا خطايا الأنبياء ، لنعلم أن الإنسان هو الإنسان بضعفاته أياً كان مركزه .

أما العثرات الخاصة فى حياتك ، فافحصها واعرف أسبابها وابعد عنها . لأن التوبة لا تتفق والعثرات .

إبحث عن الأسباب التي تعثرك وتقودك إلى الخطية ، ما هي ؟ وهل هي قريبة منك ؟ وكيف تبعد عنها ؟ وهل هي داخل نفسك أم تأتيك من آخرين .

وابعد عن هذه العثرات على قدر إمكانك حتى لا تؤثر عليك . واهرب من الأصدقاء الذين يجرونك إلى أسفل و يفقدونك روحياتك . وردد ما نقوله باستمرار فى الصلاة الربية «لا تدخلنا فى تجربة ، لكن نجنا من الشرير»...





كثيراً ما يسقط الإنسان فى الخطية ، بسبب التساهل . فكيف ذلك ؟
المعروف أن الخطية تبدأ بحرب من الخارج ، وتريد أن تدخل وتسيطر.

وبالتساهل تتحول الحرب من الخارج إلى داخل القلب .

فكيف يحدث هذا التطور ؟ وما دور التساهل فيه ؟

تكون الخطية فى الخارج : منظراً مثيراً ، أو صورة فى كتاب ، أو كلمة يقولها شخص ما ، أو أى شيء يمكن اشتهاؤه أو اقتناؤه . ثم يتساهل الإنسان مع حواسه ، مع سمعه أو بصره ، فيأتيه الفكر ضعيفاً فى البدء ، ويمكن طرده بسهولة . ولكن :

بالتساهل مع الفكر ، ينزل إلى القلب ، ويتحول إلى شعور .

فإن استيقظ الإنسان إلى نفسه ، يمكنه التخلص من هذا الشعور ، موقناً تماماً أن هذا الشعور الخاطىء يبعده عن محبة الله ، ويقوده إلى خطية . بل هذا الشعور الخاطىء هو خطية فى حد ذاته ، وعدم نقاوة فى الداخل ، وينجس القلب .

ولكن بالتساهل مع الشعور ، يتحول إلى إنفعال أو شهوة .

وهنا يكون الإنسان قد بدأ يخضع للفكر ، وبدأ يدخل فى صراع داخلى ، بين شهوته وضميره . ومن طبيعة الشهوة إنها تريد أن تسيطر. إن طُردت بحزم ، أمكن التخلص منها . ولكن بالتساهل تبدأ الشهوة أن تنتشر ، أو يبدأ الإنفعال أن ينتشر. حتى تشمل هذه الحرب الداخلية فكر الإنسان وقلبه وحواسه ، وربما جسده أيضاً .

وبالتساهل مع الشهوة ، تحاول أن تعبر عن ذاتها عملياً .

أى تحاول أن تشبع ذاتها بطريقة عملية . فإن تساهل فى ذلك ، يتم العمل . وتصبح الخطية خطية كاملة . ثم لا تستريح الخطية بهذا ، إنما تريد أن تتكرر. فإما أن يتوب الإنسان بعد سقطته ، وإما أن تتكرر خطيته . ولكنه أحياناً :

عن محاضرة ألقيت فى الكاتدرائية الكبرى يوم الجمعة ١٩٧٧/١٠/٢٨ .

يتساهل فى عمل الخطية ، فتتحول إلى عادة أو طبع .

وبهذا يخضع لسيطرتها ، و يصير عبداً لها ، يفعلها بغير إرادته أحياناً ، ولا يملك السيطرة على نفسه ... كمن يقع فى الغضب تلقائياً ، و يثور دون أن يتحكم فى نفسه . وكمن يخطىء فى الكلام دون أن يتحكم فى نفسه . وكمن يزنى ، أو يجمع المال ، أو يستهزىء بغيره... كل ذلك تلقائياً ، دون أن يراجع نفسه ، و يتحكم فيما تفعل...

أما الأبرار ، فهم فى منتهى الحزم ، لا يتساهلون مع أنفسهم .

لهم رقابة شديدة جداً على أنفسهم : رقابة على كل فكر ، على كل شعور. رقابة شديدة على حواسهم ، فى حزم . ورقابة على كل كلمة تخرج من أفواههم ، وعلى كل تصرف...

قلوبهم «جنة مغلقة ، عين مقفلة ، ينبوع مختوم» (نش ٤ : ١٢) . ولقلوبهم وأفكارهم وحواسهم أبواب حصينة ، عليها حراسة مشددة ، لا يستطيع أن يفلت منها أحد ، فرقابة الضمير ساهرة فى حرص ، والنعمة تحفظها .

هذا الإنسان البار المحصن ، الساهر على خلاص نفسه ، يغنى لها و يغنى لحفظ الرب له ، و يقول «سبحى الرب يا أورشليم...

لأنه قوى مغاليق أبوابك ، وبارك بنيكِ فيكِ ،

وجعل تخومك فى سلام» (مز ١٤٧) .

فهل أنت هكذا ؟ أم أنت متساهل فى حراستك لنفسك ؟ غير مدقق فى غلق أبوابها ، بل تفتحها بين الحين والحين ، ظاناً أن العدو لا يقدر على هدم حصونك... ؟

لا تتساهل إذن مع الخطية ، إعتماداً على قوتك .

ثقة منك أن الشيطان لا يقدر عليك ، على الأقل فى هذه النقطة بالذات . إنما خذ درساً من سقطات القديسين والأنبياء . واعلم أن الخطية «طرحت كثيرين جرحى ، وكل قتلاها أقوياء» (أم ٧ : ٢٦) . فالذى لا يحترس ، ولا يبعد عن العثرات ، ولا يهرب لحياته ، ولا يطلب معونة الله ليلاً ونهاراً ، يمكن أن يسقط كما سقط من قبله أقوياء...

واعلم أنك إن تساهلت مع الخطية ، يمكن أن تجرك -دون أن تشعر- خطوة خطوة فى السقوط ، وإلى الهلاك .

تأمل أية نتائج خطيرة تحدث لك، كلما تساهلت مع الخطية.

كلما تتساهل مع الخطية، يقل احتراسك، وتضعف إرادتك، وتقل محبتك لله. وتتغير فى الداخل وفى الخارج.

إنك تكون فى ملء قوتك -حينما تبدأ الحرب الروحية- وفى ملء عمل النعمة معك. ولكنك كلما تتساهل مع الخطية تضعف قوتك، وتقل مقاومتك، ويزداد تأثير الخطية عليك، وتزداد سيطرتها على تفكيرك وشعورك وإرادتك. إذ يكون فكر الخطية قد ثبت أقدامه داخلك. وحينما تحاول أن تخرج من نطاقه ومن مجاله، تجد عقبات، وتدخل فى صراع... وقد كنت تقوى عليه فى بادىء الأمر...

بتساهلك تجد عدواً فى داخلك يقاومك ويضغط عليك.

وباستمرار التساهل، تجد قوتك قد فرغت، واستسلمت. كقطعة من الحديد، وجدت نفسها فى مجال من المغناطيس وتريد أن تخرج منه ولا تعرف. وأحياناً لا تريد، بل تجد نفسها بكل ما فيها منجذبة إليه...

فى تساهلك مع الخطية، تحزن الروح الساكن فيك.

وتطفىء حرارة الروح فى داخلك (١تس ٥ : ١٩، أف ٤ : ٣٠). وتتنازل عن النعمة المعطاة لك. وتكون بهذا التساهل مع الخطية، قد رفضت سلاحك الروحى، وخنت الرب، وفتحت الباب لأعدائه ومقاوميه. خنت عشرة الله، ودخلت فى عشرة الخطية، ولو عن إهمال وتراخ.

صلابتك بدأت تهتز من الداخل. فالأقوياء لا يتساهلون...

تساهلك مع الخطية، معناه أن مثالياتك بدأت تهتز.

بدأت تتنازل عن المستوى اللائق بك كصورة الله ومثاله (تك ١ : ٢٦). ورضيت لنفسك أن تتفاهم مع الشيطان، وتسمح له بمكان داخلك. ورآك الشيطان أنك من النوع الذى يمكن أن يخضع له ويستجيب، وليس من النوع الصلب الذى يقاوم بشدة، ويرفض كل اقتراحاته أياً كانت.

لقد كان الشيطان يختبرك ويجس نبضك، ليعرف نوعيتك.

هل أنت سهل أم صعب؟ هل ترفض كل ما يعرضه بحزم وبدون نقاش؟ أم تقبل؟ أم تتفاوض؟ أم تتساهل معه وتقابله فى منتصف الطريق. لذلك هو يعرض

عليك أفكاره وحيله . فإن تساهلت ، يعرض أيضاً ... فإن تساهلت أمامه وتراخيت ، حينئذ يعرف معدنك ، و يعاملك على أساس هذه الخبرة .

وتسقط هيبتك أمام الشياطين ، بسبب تساهلك معهم .

هناك قديسون تخافهم الشياطين وتهابهم . مثل ذلك القديس الذى أتاه شيطان ليحاربه ، فربطه خارج القلاية ، وجاء ثان وثالث فربطهم أيضاً خارجها . وظلوا يصرخون ، فقال لهم «إمضوا واخزوا» ... ومثل القديس الأنبا إيسيذوروس قس القلالى ، الذى قال له الشياطين «أما يكفيك أننا لا نستطيع أن نمر على قلايتك ، ولا على القلاية التى إلى جوارها . وأخ واحد لنا فى البرية ، جعلته يعتدى علينا الليل والنهار بصلواته ... ؟!» .

والقديس مقاريوس الكبير ، الذى كانت تخافه الشياطين قائلة «و يلاه منك يا مقاره...» هذا لما نفى إلى جزيرة فيلا من الأريوسيين ، صاحت الشياطين صارخة لمادخل إلى الجزيرة...

الشيطان يخاف أولاد الله الحقيقيين ، الذين يهزمونه .

أما إن رآك أنت تقبل أفكاره ، وتتساهل معه ، وتفتح له أبوابك ، وتخون الرب بسببه ، حينئذ تسقط هيبتك فى عينيه ، ولا يرى أنك صورة الله التى يخافها ، ولا هيكل الروح القدس الذى يرتعب منه... حينئذ يلعب بك الشياطين ، و يسلمك كل واحد منهم للآخر لكى يلهو بك... ككرة قد نزلت إلى الملعب ، واللاعبون يمررونها بينهم... كل واحد منهم يقذفها إلى اتجاه... ! إحترس إذن لنفسك ، ولا تكن كرة تنزل إلى الملعب .

فالذى يتساهل مرة ، يتعود التساهل ويتمادى فيه .

قد تساهل سليمان مع نفسه فى كسر وصية الله التى تمنع الزواج بأجنبيات ، فتزوج إبنة فرعون (١مل ٩ : ١٦) . ثم سهل عليه الأمر فتمادى فيه «وأحب سليمان نساء غريبة كثيرة مع بنت فرعون ، موآبيات وعمونيات وأدوميات وصيدونيات وحيثيات ، من الأمم الذين قال عنهم الرب لبنى اسرائيل : لا تدخلون إليهم ، ولا يدخلون إليكم ، لأنهم يميلون قلوبهم وراء آلهتهم» (١مل ١١ : ١ ، ٢) .

ولما رأى الشيطان تساهل سليمان ، دفعه إلى أخطر .

فكما تساهل مع نفسه ، وكسر الوصية فى الزواج بهن ، ازداد تساهله ، فبنى مرتفعات لهؤلاء النسوة لعبادة إلهتهن . وقاده تساهله إلى أنه بنى مرتفعة لكموش إله الموآبيين ، وأخرى لمولك إله العمونيين . ومال قلبه وراء آلهة أخرى (١مل ١١ : ١-٩) .

ربما كان الشيطان يخاف سليمان أول الأمر ، لأنه كان أحكم أهل الأرض . فلما رآه يتساهل مع الخطية ، دفعه فى هذا التساهل إلى أبعد حد يمكن تصوره... !

وكذلك فعل معه من جهة التساهل فى محبة النساء .

سمح سليمان لنفسه بالتساهل فى تعدد الزوجات ، فلم يوقفه الشيطان عند حد معقول ، إنما جعل التساهل يتمادى معه ، إلى أن صارت له « سبع مئة من النساء السيدات ، وثلاث مئة من السرارى (١ مل ١١ : ٣) .

إن كان التساهل يمكن أن يجر إنساناً حكيماً إلى هذا المستوى ، فماذا يمكن أن يقال إذن عن الناس العاديين ؟!

لذلك لا تتساهل مطلقاً ، مهما بدت الخطية بسيطة .

مجرد قولك إنها خطية بسيطة ، يقودك إلى التساهل .

لا تقل هذا شىء بسيط ، وهذا أمر تافه لا يزعج الضمير ، وهذه ليست بخطية . وهذاالتصرف لا يعثرنى ، ولن يترك أثراً فىّ . فكثيرون سقطوا لعدم التدقيق . والذى لا يحترس من الصغائر، يمكن أن يقع فى الكبائر. وكل خطية هى تمرد على الله وانفصال عنه ، ودنس وسقوط وضعف .

ولا تظن أن الخطية التى تهلك الإنسان هى مجرد الوقوع فى كبائر، كالزنا والتجديف والقتل والسرقة... فقد قال الرب :

من قال ياأحمق يكون مستوجب نار جهنم (مت ٥ : ٢٢) .

« ومن قال لأخيه رقا يكون مستوجب المجمع » ... كثيرون يتساهلون فى الكلام بينما الكتاب يعتبر الكلام الخاطىء نجاسة . و يقول «ما يخرج من الفم ينجس الإنسان» (مت ١٥ : ١١) . وعن الحرص من جهة اللسان ، وعدم التساهل فى أخطاء الكلام ، يقول يعقوب الرسول «إن كان أحد فيكم يظن أنه ديّن ، وهو ليس يلجم لسانه بل يخدع قلبه ، فديانة هذا باطلة» (يع ١ : ٢٦) .

إذن لا تحترس فقط من الزنا والسرقة والقتل ، فربما كلمة واحدة تكون سبب دينونتك ، لأن الكتاب يقول « بكلامك تتبرر، وبكلامك تدان » (متى ١٢ : ٣٧).

« كل كلمة بطالة يتكلم بها الناس . سوف يعطون عنها حساباً يوم الدين » (متى ١٢ : ٣٦).

لم يفهم القديسون عبارة (الكلمة البطالة) على أنها الكلمة الشريرة مثل الكذب والشتيمة والتجديف والإدانة . إنما فهموا الكلمة البطالة ، على أنها كل كلمة ليست للمنفعة ، ليست للبنيان ، لا تبنى نفس السامع ، ولا تبنى الملكوت... وهكذا صمتوا ، وكانوا لا يتكلمون إلا بحساب ، حينما يرون أن الكلام سيكون للبنيان .

ولا شك أن الذى لا يتساهل مطلقاً مع نفسه ، فى اللفظ بكلمة ليست للبنيان ، لا يمكن طبعاً أن يتساهل مع نفسه فى أن يلفظ بكلمة شريرة...

والذى لا يتساهل فى كلمة ، لن يتساهل فى العمل .

والتدقيق الذى يتعوده ، يشمل كل حياته وكل تصرفاته ، عالماً أن كل فعل يأتى إلى الدينونة مهما كان بسيطاً . مجرد نظرة نظرتها إمرأة لوط إلى الوراء ، حولتها إلى عمود ملح (تك ١٩ : ٢٦) . وكذبة كذبها حنانيا وسفيرا جعلتهما يسقطان ميتين للتو بلا توبة (أع ٥ : ١ - ١٠) .

إذن لا تقسم الخطية إلى كبيرة وصغيرة ، لكى تسمح لنفسك بالتساهل مع الصغيرة . إنما كن دقيقاً فى كل شىء . واعلم أن التساهل مع الشىء الصغير يجعله يكبر. والسيد المسيح لم يمنع عن الزنا فقط ، إنما عن النظرة المشتهية أيضاً... ولم يطلب منا فقط أن نحتمل من يسخرنا ميلاً ، بل دعانا إلى احتمال الميل الثانى أيضاً (متى ٥ : ٢٨ ، ٤١) .

الذى يتساهل فى الخطوة الأولى ، يقع فى الثانية .

والذى يتساهل فى الثانية ، يقع فى الثالثة ... وهكذا إلى غير حد . والشيطان - كما قيل عنه - « فتال حبال » ، يفتل حبالاً لاصطيادنا وحباله طويلة ، لا مانع أن يدبر حيلة فى عشر سنوات ، ليسقطك فى خطية واحدة ! فاحترس منه ، ولا تتساهل معه أبداً .

والشيطان قد يلومك إذا كنت مدققاً فى تصرفك ولم تتساهل .

وقد يصفك الشيطان بالتطرف أو الوسوسة وتعقيد الأمور .

فلا تسمع له ، وكن ثابتاً فى روحياتك ، لا تثيرك هذه الإتهامات . وكن مثل القديس ببنوده الأسقف ، الذى لما رأت إحدى النساء تدقيقه الشديد ، قال : إن هذا الشيخ موسوس ! فأجابها القديس قائلاً « هل تعلمين يا إمرأة كم سنة قضيتها فى البرية لكى أقتنى هذا الوسواس ؟ لقد قضيت خمسين سنة لأقتنيه ، فهل أفقده من أجلك فى لحظة واحدة ؟! » وترك الأسقفية ومضى ... إن خلاص نفسه أفضل ...

واعرف أن الخطية هى كسر لوصية الله ، وبعد عن محبته . لذلك فأنت فى تساهلك :

لست تتساهل مع نفسك ، إنما تتساهل فى حقوق الله .

لا تتساهل مع نفسك فى ارتكاب الخطية . وإن أخطأت :

لا تتساهل فى معاقبة نفسك على خطيتها .

إن التساهل فى تأديب النفس على سقطاتها ، قد يؤدى إلى اللامبالاه ، وعدم الخوف ، والإستهانة بوصايا الله ، والعودة إلى ارتكاب الخطية بسهولة ، إعتماداً على أن الله محب وغفور « لم يصنع معنا حسب خطايانا ، ولم يجازنا حسب آثامنا » (مز ١٠٣) .

لا تدلل نفسك إذن ، ولا تسامحها بسهولة .

واعلم أن الخطية التى لا تنال عقوبتها كما ينبغى ، والتى لا تنسحق بسببها النفس وتُذل ، ما أسهل أن يرجع إليها الإنسان مرة أخرى ... ولا تقل إن هذه الخطية قد عملتها فى الماضى ، ومرت وانتهت ، ونلت عليها حلاً ومغفرة ! كلا ، بل بكت نفسك باستمرار .

وتذكر أن داود النبى بلل فراشه بدموعه فترات طويلة ، بعد أن سمع حكم المغفرة من الله على فم ناثان ... لكنه على الرغم من هذه المغفرة ، صارت دموعه له شراباً نهاراً وليلاً . وصغرت نفسه فى عينيه ، وظل يبكتها زماناً هو العمر كله ، ويقول « خطيتى أمامى فى كل حين » (مز ٥٠) .

- فلتكن أنت كذلك . وافرض على خطاياك عقوبات شديدة ...

وكن حاراً فى الروح (رو ١٢ : ١١) . **واعمل عمل الرب بكل نشاط وكل** حرص ، ولا تتساهل فى ذلك فقد قيل :

ملعون من يعمل عمل الرب برخاوة (أر ٤٨ : ١٠) .

كن كالراعى الساهر على غنمه ، الذى يحرس حراسات الليل ، كل يقظة ، لا يتساهل مع نفسه فى أن يغفو لحظة ...

كن حاراً فى عبادتك . وإن وجدت نفسك متعباً ، أو لا رغبة لك فى الصلاة ، فلا تتساهل مع نفسك وتنام بغير صلاة . لئلا بهذا التساهل تتعود نفسك الإهمال والتراخى . بل كما قال مار اسحق : إذا حوربت بأن تهمل صلاتك وتنام ، لا تطاوع نفسك وإنما :

إغصب نفسك على صلاة الليل ، وزدها مزامير .

كذلك كن حازماً فى صومك . لأنك إن تساهلت فى موعد الأكل ، ستتساهل أيضاً فى نوع الطعام وكميته ، ثم تتساهل فى ضبط نفسك ، و يصحبك عدم الضبط هذا فى كل تفاصيل حياتك الروحية .

كن متيقظاً إذن لخلاص نفسك ، بكل حرص ، ساهراً باستمرار ، لئلا يأتى بغتة فيجدك نائماً (مر١٣ : ٣٦) .

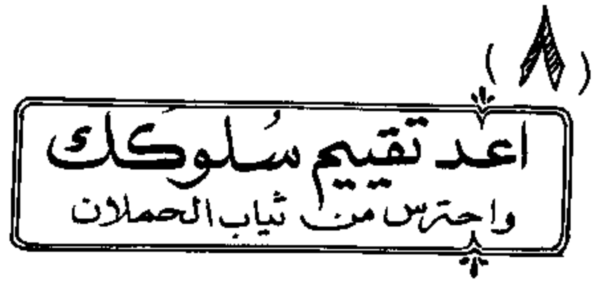
لا تنم . وإن نمت ، إحترس من الصحو المتأخر .

فشمشون ظل متساهلاً فى روحياته ، غافلاً عن خلاص نفسه زماناً . ومتى صحا ؟ كان ذلك صحواً متأخراً ، بعد أن فقد نذره ، وفقد قوته ، وسباه الأعداء ...

ولوط كذلك . متى صحا ؟ ... متأخراً جداً بعد أن فقد كل شىء فى حريق سدوم . وكثيرون سقطوا ، لأنهم تساهلوا مع الغفلة الروحية ، ولم يستيقظوا لأنفسهم إلا متأخرين ، بعد أن كانت الخطية قد تمكنت منهم . فلا تكن كهؤلاء .

وكإنسان أمين على حياتك الروحية ، لا تتساهل مع الخطية .





الخطية لا تحب أن تكشف ذاتها ، إنما أحياناً تتنكر .

هى لا تكشف ذاتها إلا للمستهترين الذين يحبونها . أما بالنسبة إلى أولاد الله ، فإنها دائماً تتنكر، حتى لا يتنبهوا لها و يبعدوا عنها . ولا مانع مطلقاً من أن تتنكر فى زى فضيلة ، أو وراء أى إسم لطيف غير مكشوف . ويمكن أن ينطبق على أمثال هذه الخطايا قول الرب :

يأتونكم بثياب الحملان . ولكنهم من داخل ذئاب خاطفة (مت ٧ : ١٥).

المضللون من المعلمين الكذبة يفعلون هكذا . والخطايا التى تضلل الإنسان وتستغل بساطته ، تفعل هكذا أيضاً . والشيطان نفسه يأتى بثياب الحملان . وكما يقول الرسول :

الشيطان نفسه يغير شكله إلى شبه ملاك نور .

وخدامه أيضاً يغيرون شكلهم إلى شبه خدام للبر (٢كو ١٠ : ١٤ ، ١٥)... يحدث هذا لكى تتم الخديعة ، فتتم السقطة . ولهذا يحتاج أولاد الله دائماً إلى حكمة وإفراز، لكى يميزوا بين طريق الرب وطريق الشيطان ، ويميزوا إرادة الله من الإرادات الخاطئة .

فكثيراً ما يسلك البعض فى طريق خاطىء نتيجة للجهل وعدم المعرفة ، ونتيجة لخديعة الشياطين لهم . لذلك فالأب الكاهن فى القداس الإلهى يطلب من الله المغفرة والصفح قائلاً «عن خطاياى وجهالات شعبك» .

ولماذا نسميها جهالات ؟ لأن الكتاب يقول :

توجد طريق تظهر للإنسان مستقيمة ، وعاقبتها طرق الموت .

عن محاضرة فى بداية الستينات ، ألقيت فى دمنهور .

ذكرت هذه الآية فى سفر الأمثال (أم ١٤ : ١٢) . وتكررت لأهميتها مرة أخرى فى نفس السفر بنفس النص (أم ١٦ : ٢٥)... مادام الأمر هكذا ، ويمكن للإنسان أن ينخدع ، وكما قال الرب « هلك شعبى من عدم المعرفة » (هو ٤ : ٦) . لذلك قال الحكيم أيضاً :

على فهمك لا تعتمد (أم ٣ : ٥) .

وهكذا نرى داود النبي يصرخ كثيراً فى مزاميره و يقول « علمنى يارب طرقك . فهمنى سبلك » (مز ١١٩) . فإن كان النبي العظيم ـ الذى حل عليه روح الرب ـ يقول هكذا ، فماذا نقول نحن ؟

ليس جميع الناس حكماء ، وليس الحكماء حكماء فى كل شيء « الحكيم عيناه فى رأسه ، أما الجاهل فيسلك فى الظلام » (جا ٢ : ١٤) . ونحن لا ندعى الحكمة . فماذا نفعل إذن ؟

علينا بالمشورة ، حتى لا تخدعنا ثياب الحملان .

والكتاب يقول فى ذلك « طريق الجاهل مستقيم فى عينيه . أما سامع المشورة فهو حكيم » (أم ١٢ : ١٥) . وليس كل شخص نسمع منه المشورة . فقد كانت مشورة بلعام ضلالة (يه ١١) . وكانت مشورة أخيتوفل ليست حسب مشيئة الله . لذلك نستطيع أن نقول إنه ليست كل مشورة هى من الله ، فقد قال الوحى الإلهى :

« يا شعبى ، مرشدوك مضلون » (أش ٣ : ١٢) .

فما أكثر الذين هلكوا نتيجة الإرشاد الخاطىء . ولبس هذا الإرشاد المضلل ثياب الحملان ، وهلك به أصحابه . كما يقول الكتاب «أعمى يقود أعمى ، كلاهما يسقطان فى حفرة» (متى ١٥ : ١٤) . وقد رأينا كيف ضاع رحبعام نتيجة سماعه للمشورة الخاطئة (١مل ١٢ : ١٠) . وقد وبخ الرب الكتبة والفريسيين على إرشادهم الخاطىء ، وقال إنهم «قادة عميان» (متى ٢٣ : ١٦ ، ١٣) .

هؤلاء طبعاً غير المرشدين القديسين (عب ١٣) .

الذين يقول عنهم الكتاب « أذكروا مرشديكم الذين كلموكم بكلمة الله . أنظروا إلى نهاية سيرتهم وتمثلوا بإيمانهم » (عب ١٣ : ٧) ، وأيضاً « لأنهم يسهرون لأجل نفوسكم ، كأنهم سوف يعطون حساباً » (عب ١٣ : ١٧) . لذلك نحتاج

لإفراز شديد لنميز بين الإرشاد السليم والإرشاد الخاطىء، بين روح الحكمة وروح الضلال. كما قال الرسول «إمتحنوا الأرواح هل هى من الله» (١يو ٤ : ١).

والذى يتمسك بروح الله فيه، سيرشده الروح. فأشعياء النبى يقول عن روح الرب إنه «روح الحكمة والفهم، روح المشورة» (أش ١١ : ٢).

فلنصلّ إذن أن ينقذنا الرب من كل خداع الشياطين،

ومن الخطايا التى تتنكر فى زى فضائل لتضلنا.

على أنه إن سقط أحد فى خداع الشياطين هذا، فإن الإتضاع يرفعه من سقطته. لأنه حالما ينكشف له الأمر، أو ينبهه صديق مخلص أو مرشد حكيم، يعترف حينئذ بخطئه، ولا يعود إلى ذلك الخطأ مرة أخرى. ويكتسب بذلك معرفة وتوبة. أما المتعجرف بمعرفته أو بسلوكه، فإن توبته صعبة...

وذلك لأن الإنسان البار فى عينىّ نفسه، يدافع عن خطيئته، ويسميها بغير إسمها حتى لا يخجل!

لأنه إن اعترف بأن هذه خطية، يعترف بالتالى أنه مذنب. وكبرياؤه تمنع هذا! إذن لا مانع من أن يلبسها ثياب الحملان، ويسميها باسم آخر مقبول، غير محرج له، حتى لا ينكشف أمام الناس، وحتى يخدع نفسه فلا ينكشف أيضاً أمام نفسه، إن أمكن...

والذين يغطون خطاياهم بثياب الحملان، لا يتوبون.

إذ كيف يتوبون عنها ويتركونها، وهم لا يحسبونها خطية، ولا يعترفون أنها خطية؟! بل قد يسمونها باسم فضيلة! وبهذه التسمية يدافعون عن سلوكهم، وبالتالى يستمرون فيه. وقد يصبح عادة لهم أو طبعاً لهم أو منهجاً ثابتاً فى حياتهم لا يغيرونه، لأنهم يسمون الخطية بغير إسمها الحقيق، ويغطون عليها فلا تظهر!

وبهذه التسمية وهذه التغطية، تهتز المبادىء والقيم عندهم.

إن الخطية المكشوفة والمعروفة، من السهل مقاومتها وتجنبها. وهى تتعب الضمير السليم، حتى أنه إن وقع فيها الإنسان، من السهل أن يتركها... لذلك فإن الشيطان -الحكيم فى الشر- يعمل على تغيير القيم من جذورها...

وبتسمية الخطية بغير اسمها، يدخل مع البشر فى حرب مسميات.

وتزداد خديعة الشيطان ، إن استطاع أن يجعل من هذه التسمية مفهوماً شائعاً بين الناس ، وهذا أخطر ، إذ ينتشر بين الكثيرين يرددونه بلا وعى . وهذه التسميات هى خديعة مقصودة من جهة الشيطان أو دعاة الشر . أما من جهة العامة ، فقد تكون الخطية هنا جهلاً منهم يحتاج إلى توعية روحية ، أو يكون انقياداً غير حكيم ، وانسياقاً بغير عمق ، يحتاج إلى قوة فى الشخصية ، سواء فى الفكر أو فى التصرف ، حتى لا تشدها الدوامة ، وحتى لا تسير مع التيار أينما اتجه .

وهكذا فإنه نتيجة لخداع الشياطين وأتباعهم من محاربى الفضيلة...

نجد أن قيماً كثيراً ، تحتاج إلى توضيح مفهومها .

أى أننا ندخل مع هؤلاء فى حرب تعريفات *definitions* ، بحيث لا بد أن نعرف : ما هو مفهوم هذه الفضائل أو القيم ؟ ما هو المقصود بها ؟ ما هومضمونها أو تحديد معناها بالضبط ؟ حتى لا يكون هناك خطأ واضح فى التطبيق ، ربما يتنازعه تفسيران متضادان بالنسبة إلى فضيلة واحدة .

ومن أمثلة هذه الفضائل التى تحتاج إلى تحديد معناها :

ما هو مفهوم الحرية مثلاً ؟ وما هو مفهوم القوة ؟ وما مفهوم العظمة والكرامة ؟ كذلك ما معنى الإنتصار؟ وما معنى الرجولة والبطولة والشجاعة ؟ وما معنى النجاح ؟ وما معنى الطموح ؟

كلها قيم عظيمة . ولكن الناس يختلفون فى مضمونها ومعناها ، هذا بافتراض حسن النية . وبناء على ذلك يقع البعض فى الخطية ، بفهم خاطىء ، بينما يتحاشاها البعض الآخر بمفهوم سليم .

تحت إسم الحكمة مثلاً ، كم خطايا تختبىء ؟

يقع الإنسان فى التملق وفى الجبن وفى الرياء ، ويسمى هذه حكمة . ويقع فى مجاراة الشر ، والسير فى التيار العام الخاطىء ، ويسمى هذه أيضاً حكمة . وقد يستخدم الكذب والخديعة واللف والدوران ، ويعتبر أن هذه حكمة منه ، يكفى أنها أوصلته إلى غرضه أو حفظته فى أمان . وكأن الوصولية أيضاً حكمة !

وهنا يكون قد أخطأ فى مفهوم الحكمة ! لأن الشر ليس حكمة . ولأنه ليس من الحكمة أن يخسر الإنسان الملكوت ، من أجل أى غرض زائل على الأرض . وصدق الرسول حينما قال :

لأن حكمة هذا العالم هى جهالة عند الله (١ كو ٣ : ١٩) .

وهى ليست جهالة فقط ، بل هى أيضاً سبب عقوبة « لأنه مكتوب الآخذ الحكماء بمكرهم » (١كو ٣: ١٩) . إن (الحكمة) التى تصبح لوناً من المكر والدهاء والحيلة ، ليست هى حكمة روحية ، فابتعد عنها . لأن الحية كانت «أحيل حيوانات البرية» (تك ١٣) . وكانت شيطاناً...

إستخدم يعقوب الحكمة البشرية ، فأوقعته فى خطايا كثيرة .

بتلك (الحكمة) أقصد بالحيلة والدهاء ، تحايل حتى سرق البكورية من أخيه ، بأسلوب خالٍ من الحب الأخوى (تك ٢٥: ٣٠- ٣٤) . وبنفس (الحكمة) خدع أباه حتى سرقَ منه البركة بدلاً من أن يأخذها أخوه (تك ٢٧) . واشتركت معه فى ذلك أمه رفقة . وبنفس الحكمة أيضاً ، أخذ من خاله لابان كل ما ولدته الغنم (تك ٣٠: ٣١- ٤٣) . ولم يكن فى هذه النقطة بالذات أميناً مع خاله لابان... إنها نفس طريقة الحيلة البعيدة عن براءة البساطة...

كم يحتاج مثل هذا (الحكيم) أن يتوب عن حكمته .

لو أنه سمى الأمور بأسمائها الحقيقية ، وقال إن هذا احتيال أو دهاء أو مكر، أو اعتماد على ذراع بشرى ، لأمكن أن يتوب . أما أن يسميها حكمة ، فهذه تسمية تغطى على الخطية ، ولا تساعده على التوبة...

صدقونى إن الحكيم فى عينى نفسه ، من الصعب أن يتوب .

لأنه لا يرى فيا يفعله خطية . بل يرى أن تصرفاته تدل على ذكاء وحسن تصرف ! وهل من المعقول أن يتوب الإنسان عن الذكاء وحسن التصرف؟ كلا ، بل إن الناس يقصدونه ليعلمهم كيف يصل ، ويصبح مرشداً إلى طرق خاطئة . وأكثر من هذا ، أنه قد يفتخر بحكمته هذه ، وكيف استطاع أن يستخدم عقله للحصول على ما يريد . وينطبق عليه قول الكتاب :

مجدهم فى خزيهم (فى ٣ : ١٩) .

الذى تنسحق نفسه بسبب الخزى من أخطائه ، هذا يمكنه أن يتوب . أما الذى يرى فى هذا الخزى مجداً له وفخراً ، فسوف يستمر فيا هو فيه ، راضياً عن نفسه .

ومثال ذلك التاجر الذى يفتخر بأنه استطاع أن يلعب بالسوق ويكذب .

والموظف الذى يفتخر بأنه طوى رئيسه بأسباب ملفقة عرضها عليه، فانطلت عليه الحيلة وصدقه. وكذلك الذى يفتخر بأنه يستطيع أن يمثل أى دور على أى أحد، و يكسب الموقف بتمثيله المتقن. أو كالشاب الذى يفتخر بأنه يستطيع أن يسقط أية فتاة مهما كانت متدينة ؟!

كيف يمكن لهذا الإنسان أن يتوب ، إن كان يفتخر بأخطائه ؟!

يذكرنى هذا بالشياطين التى تفتخر بإسقاطها للقديسين !

لقد كان الفريسيون فى حرفيتهم ، يفتخرون بأنهم يسيرون فى أصعب طريق ، و يضيقون على أنفسهم. حتى أن بولس الرسول حينما كان يتكلم عن ماضيه قال «حسب مذهب عبادتنا الأضيق عشت فريسياً» (أع ٢٦ : ٥). بينما السيد المسيح وبخ الفريسيين على تحميلهم الناس أحمالاً ثقيلة ، فما دخلوا ، ولا جعلوا الداخلين يدخلون (متى ٢٣).

إن الفريسيين كانوا يفتخرون بحرفيتهم ، لذلك لم يتركوا الحرفية ، بل اعتبروها تدقيقاً فى أمور الدين ، وتشدداً فى التدين. كان لها إسم آخر يغطيها ويحامى عنها... !

وكذلك كل خطية ، يمكن أن يكون لها إسم آخر ، يحتمى به الخاطىء ، فلا يتوب ...

فالتدخين لا يظهر على أنه قتل للصحة ، وعبودية للإرادة ، وإضاعة للأموال ، وإنما يأخذ إسم المتعة وإراحة النفس ، وهو إسم لا يتعب الضمير كثيراً.

والرقص يأخذ إسم الفن ، ومحترفوه يسمون أهل الفن والفنانين. وكذلك الرسوم العارية التى تعثر كثيرين ، هى أيضاً فن لا غير..! وما يشبه هذا كثير جداً.

وخطية الزنى هى أيضاً تلبس ثياب الحملان ، وتحمل إسم الحب. ويخلط مقترفوها بين الحب والشهوة...

وإعلان عمل الخير أمام الناس لكسب مديحهم ، لا يؤخذ على أنه رياء ، إنما يلبس ثياب الحملان ، و يأخذ إسم القدوة الحسنة ، والتعليم العملى ، وتقديم صورة الله للناس... وعدم إعثارهم.

وتحت إسم الدعابة والمزاح ، تستتر أيضاً خطايا كثيرة .

يتهكم إنسان على آخر ، ويجرح شعوره ، و يتخذه مجالاً لضحكه ، و يضحك عليه

الآخرين غير مبالٍ بوقع كل هذا عليه... وإن لمته، يقول إن هذا مجرد مزاح ودالة وعشم! وهكذا يسمى عدم إحترام الناس مزاحاً ودالة... وتحت إسم المزاح أيضاً قد يكذب ويسميه كذباً أبيض أو دعابة أو مزاحاً. وقد يسرق ويخفى أو يأخذ أشياء يملكها غيره، ويقول: كنت أمزح معه. وقد يتصرف شاب مع فتاة ببعض تصرفات جنسية غير لائقة، ويقول كنت أمزح معها. وكل أنواع الهزل غير اللائق، تدخل تحت إسم المزاح والدعابة، وقد تشمل أى أحد مهما علا مركزه. حتى الله نفسه بالتجديف على إسمه، قد يعتذر عن هذا بأنه دعابة. وتدخل كلها تحت إسم خفة الدم، واللطف، وخفة الروح؟!

وتسأل أليس لهذا المزاح حدود؟ فلا تجد جواباً...

ومن الناحية المضادة، تلبس القسوة أيضاً ثياب الحملان.

فقسوة الأب على إبنه، لا تظهر تحت إسم قسوة، إنما تحت إسم الحزم والتأديب، ويجد لها هذا الأب القاسى مفهوماً خاصاً فى قول الكتاب «فيرعاهم بقضيب من حديد» (رؤ ٢: ٢٧). وينسى قول المزمور «لا تؤدبنى بسخطك» (مز ٦: ١). وينسى الكلام عن عطف الأب (مز١٠٣).

وقد يقتل أب إبنته الخاطئة، ولا يسمى هذا الأمر جريمة قتل، وإنما يسميها غسلاً ومحواً للعار، ودفاعاً عن الشرف!... مجرد ثياب حملان لإراحة الضمير وتبرير العمل...

واضطهاد من يخالف فى الرأى أو العقيدة، يسمى غيرة مقدسة.

وهكذا يأخذ إسماً آخر يصير فيه فضيلة. وفى هذا قال السيد المسيح «تأتى ساعة فيها يظن كل من يقتلكم أنه يقدم خدمة لله» (يو ١٦: ٢). وبهذه التسمية الجديدة كان شاول الطرسوسى يريح ضميره فى كل أنواع القسوة التى قام بها (أع ٢٦: ٩- ١١). وقد قال فى ذلك عن نفسه فى افتخارات ماضية «من جهة الغيرة، مضطهد الكنيسة» (فى ٣: ٦).

وبالمثل فإن كثيراً من ألوان الغضب والنرفزة، قد تأخذ إسم الدفاع عن الحق، والدفاع عن النظام، والدفاع عن الكرامة. وكلها ثياب حملان لا تتعب الضمير!

والحياة العابثة قد تختفى وراء إسم [الحرية].

وربما الإبن الضال الذى ترك بيت أبيه ، قد ظن أنه يمارس حريته الخاصة ، ويجرب الحياة ، ويختبر... ! والوجوديون فى كل أخطائهم يتعللون بهذا أيضاً : ممارسة الحرية ، والشعور بالكيان الشخصى ، الشعور بوجودهم ! وتحت هذا الإسم يقترفون كل أنواع الإباحية ، والإعتداء على حريات الآخرين . وصدق الذى قال « كم من جرائم اقترفت باسمك أيتها الحرية ! » .

وبالمثل خطايا أخرى كثيرة تلبس ثياب الحملان .

فالأم قد تتدخل فى شئون إبنتها ـ المتزوجة حديثاً ـ تدخلاً يخرب هذا البيت ، وتسمى هذا محبة لإبنتها ، ودفاعاً عنها ، وحرصاً على كرامتها ... وقد يكذب محام أو محاسب ، وقد يضع هذا تحت عنوان مقتضيات المهنة ! بينما المهنة شريفة ليس هذا من مقتضياتها ...

إن الخطية ، لا تحب أن تظهر بإسمها الحقيق ، لأنه يتعب صاحبها .

فحق البدعة فى الدين ، لا تظهر مطلقاً باسم بدعة .

بل يقدمها صاحبها على اعتبار إنها الفهم السليم للدين الذى يجهله الكثيرون . وإن كانت هذه البدعة تحمل عقيدة لم يألفها الناس ، فإنه يسمى هذا تجديداً ! وإن قاومه المتمسكون بتقاليد الكنيسة ، يقول : هل تحجرون على تفكيرنا ؟ لنا الحرية أن نفكر كما نشاء ! قد يكون له الحرية أن يفكر، ولكن ليست له الحرية أن ينشر أفكاره الخاطئة بين الناس ، و يتعرض لحكم بولس الرسول (غل ١ : ٧ ، ٩) .

بل حتى الذى يعثر الآخرين فى التصرف ، لا يقول إنه يعثرهم ، بل إنه يعلمهم الحياة... !

أما أنت فاهرب من التسميات الخاطئة وثياب الحملان .

لتكن لك مبادؤك الثابتة الراسخة التى لا تتزعزع بمسميات جديدة ومفاهيم غير روحية ، بل تعتمد على كلمة الرب أولاً ، وعلى الإيمان المسلم لنا مرة من القديسين (يه ٣) . واحتفظ بنقاوتك . ولا تسمح أن تسمى خطيئتك باسم آخر يريح ضميرك إراحة وقتية زائفة ، بينما تشعر فى أعماقك إنه لون من الهروب من المسئولية ...

بل بالحرى إكشف خطيئتك أمام نفسك لتتوب عنها ، وأمام الله لتنال مغفرة .

طوبى لمن يكتشف خطاياه و يندم عليها ، ولا يغطيها بإسم آخر .

لأنك إن سميت خطيئتك باسم آخر ، لن تتوب .

فالإنسان يترك ما يرى أنه خطأ . فإن لم يكن خطأ ، لماذا إذن يتركه ؟! إنها معرقلات من العدو يمنع بها التوبة . بأسلوب من الشفقة الزائفة ، قد يحاول بها أن يريح النفس ، ولكنه لا يريح الروح ولا يساعدها على الإهتمام بأبديتها .

أما أصحاب ثياب الحملان ، فيجب أن ينزعوها ، لكى تظهر الخطية على حقيقتها ، خاطئة جداً تفقد النفس نقاوتها ، وتحتاج إلى توبة .

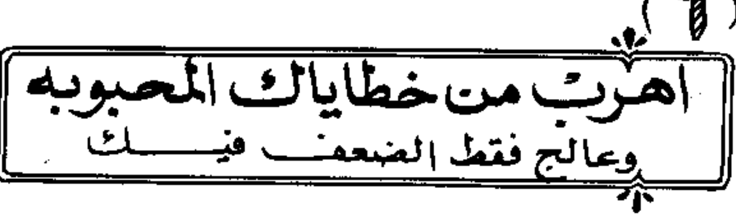
أما أصحاب المسميات الجديدة ، فيحتاجون إلى تجديد أذهانهم .

كما قال الرسول « لا تشاكلوا هذا الدهر » أى لا تصيروا بشكله أو شبهه « بل تغيروا عن شكلكم بتجديد أذهانكم » (رو ١٢ : ٢) . فأذهانكم هذه التى أفسدتها المسميات العالمية وثياب الحملان ، إعملوا على تجديدها بالفهم الروحى السليم « لتختبروا ما هى إرادة الله الصالحة » (رو١٢ : ٢) .

بتجديد الذهن هذا ، يمكن للإنسان أن يتوب ...

وماذا أيضاً ؟ ...





ليس الخاطىء هو الإنسان الذى يسقط فى جميع الخطايا ، وبهذا السقوط الكامل الشامل يهلك . إنما تكفى خطية واحدة يكون ساقطاً فيها ، هذه تلوث نفسه ، وتكون سبباً لهلاكه خطية يحبها ، تمثل نقطة الضعف فيه .

وتكون خطيته المحبوبة هذه ، هى العائق بينه وبين الله .

إن انتصر على هذه الخطية بالذات ، صار منتصراً فى حياته الروحية ، وإن انهزم فيها ، فلا تنفعه كل انتصاراته على باقى الخطايا الأخرى...

هذه الخطية تمثل مدخل الشيطان إلى قلبه وإرادته . و ينبغى أن ينتصر فى هذا الميدان بالذات الذى هزمه فيه العدو. وغالباً ما تكون نقطة الضعف هذه ، هى النقطة الثابتة المتكررة فى كل اعترافاته ، كلما ذهب ليعترف بخطاياه .

نقطة الضعف هذه ، تذكرنا بثقب واحد فى سفينة .

مهما كانت السفينة هائلة ورائعة ، فهذا الثقب الواحد يمكن أن يكون سبباً فى غرقها . كذلك بقعة واحدة فى ثوب ، تكون كافية لتوسيخه ، مهما كان جميلاً ونظيفاً فى باقى أجزائه . ونقطة حبر واحدة فى كوب ماء ، تجعله كله غير صالح للشرب .

ولا بد لنا أن نجاهد لإصلاح الثقب الذى فى السفينة ، مهما كانت التحسينات الأخرى الموجودة فيها . وكذلك نعمل على إزالة البقعة الواحدة من الثوب ، ولا نفتخر بأن الباقى منه نظيف .

مثال تلميذ رسب فى مادة واحدة فى الإمتحان ...

ومع أنها مادة واحدة ، فإنه يعتبر راسباً ، مهما كان ناجحاً فى باقى المواد الأخرى . حتى لو حصل فى باقى المواد على درجات نهائية ، فمن أجل هذه الواحدة التى رسب فيها ، قد يعيد العام كله . عليه إذن أن يعرف نقطة الضعف التى عنده ، و يركز عليها و يعالجها .

عن محاضرة ألقيت فى الكاتدرائية الكبرى يوم الجمعة ١٩٧٨/١٢/٢٩ ، إستعداداً لبداية سنة جديدة .

أو مثال مريض يشكو من مرض معين يؤلمه .

مهما كانت باقى أجهزة جسمه سليمة ، سيبقى متألماً مادام هذا المرض باقياً. وعلى طبيبه أن يركز على موطن الألم بالذات لكى يعالجه . كذلك فى الحال مع الخطية ، لأنها مرض .

خذ مثالاً آخر بإنسان يصوم ...

وفى صومه يمتنع عن أطعمة كثيرة . ولكنه لا يستطيع أن يمنع نفسه عن طعام معين بالذات ، يشتهيه ... فما الذى يستفيده مثل هذا الإنسان من صومه ، مادام ضعيفاً ، لا يقوى على ضبط نفسه ، فى النقطة التى يحارب فيها بشهوة الطعام . ألسنا نقول حقاً ، أنه لو امتنع عن هذا الطعام بالذات ، لصار ناجحاً فى صومه وفى روحياته ... أما إن سقط فى هذه ، فقد سقط فى الكل . ويذكرنا هذا بقول الكتاب :

من حفظ كل الناموس ، وإنما عثر فى واحدة ، فقد صار مجرماً فى الكل (يع ٢ : ١٠) .

فما معنى هذه العبارة من قول الرسول ؟ وكيف نفهمها ؟

تفهمها بسؤال واحد تحتاج أن تجيب عليه وهو: هل أنت تحب الله ، بحيث لا يوجد شىء يمكن أن يبعدك عنه ؟ فإن وجد شىء ، أى شىء ، يكون هو المشكلة فى حياتك ، وهو نقطة الضعف فيك . أو هو خطيتك المحبوبة التى تنافس الله فى قلبك .

إن الله يقول « يا إبنى أعطنى قلبك » ... فلو كان قلبك فى جهة أخرى بعيداً عنه ، تكون هذه الجهة هى العائق الوحيدة الذى يعوقك عن الصلة بالله .

لم تكن هناك أشياء كثيرة تبعد آدم وحواء عن الله .

إنما كانت هناك تلك الشجرة الواحدة لا غير . لو إنهما استطاعا أن ينتصرا بالنسبة إليها لصارت حياتهما كاملة أمام الله . ولكن بانهزامهما خسرا كل شىء .

إنتصر إذن على نقطة الضعف التى فيك ، والتى يعرفها الشيطان عنك . ويدرك تماماً أنه كلما يريد أن يهزمك ، يدخل إليك من هذا الباب بالذات ...

كثيرون يعزون أنفسهم بأعمال بر لهم ، يتذكرونها لتغطى على هذه الخطية . ولكن الله لا يقبل هذه التغطيات ...

مثال ذلك الرجل الفريسى ، الذى كان الضعف فيه ، أنه يظن نفسه باراً ، ويحتقر غيره من الخطايا... هذا كانت له نقط بيضاء كثيرة ، إذ أنه كان يعشر جميع أمواله ، وكان يصوم يومين فى الأسبوع . وكان واقفاً فى الهيكل يصلى . ولم يكن من الناس الظالمين الخاطفين الزناة . ومع ذلك لم يخرج من الهيكل مبرراً (لو ١٨ : ٩-١٤) . فلماذا ؟ لأن كل هذه الأعمال لم تستطع أن تغطى على العجرفة الداخلية ، التى هى نقطة الضعف فيه بالذات . والتى يجب أن يتخلص منها ، ليتبرر أمام الله .

بنو اسرائيل أرادوا أن يغطوا على خطاياهم بالذبائح والبخور...

وبالتقدمات وحفظ المواسم من سبوت وشهور وأهلة وباقى الطقوس والصلوات... ولكن الله لم يقبل هذا منهم . بل قال لهم « لماذا لى كثرة ذبائحكم يقول الرب... لا تعودوا تأتون بتقدمة باطلة . البخور هو مكرهة لى... رؤوس شهوركم وأعيادكم أبغضتها نفسى . صارت علىّ ثقلاً . مللت حملها . فحين تبسطون أيديكم ، أستر عينىّ عنكم . وإن أكثرتم الصلاة لا أسمع . أيديكم ملآنة دماً . إغتسلوا ، تنقوا ، إعزلوا شر أعمالكم » (أش ١ : ١١-١٦) .

هنا النقطة المطلوبة ، حيث موطن الداء ، لا تغطية الطقوس والممارسات .

الخطية لا تمحى بأعمال بر أخرى ، إنما بالتوبة .

لذلك لا تضل الطريق ، فحيثما توجد خطيئتك حاربها وقاومها... ولا تقل : سأصوم يومين . أو سأعطى أموالى للفقراء... كل هذا لا يُقبل منك ، إن كنت ماتزال مستبقياً الخطية فى قلبك... إنما واجه حقيقة نفسك فى صراحة . واستفد دروساً لحياتك من قصص الكتاب .

وخذ كمثال : قصة الشاب الغنى (مت ١٩ : ١٦ - ٢٢) .

كان إنساناً يهتم بأبديته ، ويسأل « أى صلاح أعمل لتكون لى الحياة الأبدية » . وكان يحفظ وصايا الرب منذ حداثته . ولكن كانت هناك نقطة ضعف واحدة فيه ، وهى محبة المال .

وقد ركز المسيح على نقطة الضعف هذه بالذات .

فقال له إن أردت أن تكون كاملاً ، إذهب بع كل مالك واعطه للفقراء ، فيكون لك كنز فى السماء . وهنا وضع الرب يده على الجرح الذى كان يؤلم هذا الشاب ، فمضى حزيناً لأنه كان ذا أموال كثيرة .

ووضع الرب يده أيضاً على الجرح الذى كان يتعب أيوب .

كان أيوب الصديق « كاملاً ومستقيماً » بشهادة الرب عنه (أى ١ : ٨)، « وليس مثله فى الأرض » . وكان يشفق كثيراً على الفقراء ، وينقذ الضعفاء من ظالميهم . وكان « عيوناً للعمى ، وأرجلاً للعرج » (أى ٢٩) . وباختصار كان رجلاً باراً . فماذا كانت نقطة الضعف إذن ؟

كان باراً ، ويعرف عن نفسه أنه بار . فأتعبه البر الذاتى (أى ٣٢ : ١) .

وهكذا جرده الرب من كل شىء : من أولاده وغناه ، ومن صحته وكرامته ، ومن احترام الناس له . ولم يبق له شيئاً . ودخل مع الله فى عتاب . وأخيراً قال « قد نطقت بما لم أفهم . بعجائب فوق لم أعرفها ... أسألك فتعلمنى ... لذلك أرفض وأندم فى التراب والرماد » (أى ٤٢ : ٣- ٦) . ولما وصل أيوب إلى التراب والرماد ، تخلص من بره الذاتى . ورفع الله عنه تجربته . وصار أكمل مما كان . إنتصر فى نقطة الضعف أيضاً .

وكان بلعام نبياً . وكانت له نقطة ضعف أهلكته .

ظهر له الرب وكلمه (عدد ٢٢ : ١٢) . ولما طلب منه بلعام أن يلعن الشعب ، قال « الكلام الذى يضعه الله فى فمى ، به أتكلم » (عدد ٢٢ : ٣٨) . وأقام سبعة مذابح ، وقدم سبع ذبائح . « ووضع الرب كلاماً فى فمه » (عدد ٢٣ : ٥) ... وتكلم كلاماً طيباً ، وتنبأ نبوءات عن السيد المسيح « وحى بلعام بن بعور... وحى الذى يسمع أقوال الله . الذى يرى رؤيا القدير مطروحاً وهو مكشوف العينين... أراه وليس الآن . أبصره وليس قريباً . يبرز كوكب من يعقوب . ويقوم قضيب من اسرائيل ... » (عدد ٢٤ : ٣ ، ٤ ، ١٥-١٧) .

ثم سقط بلعام بنقطة الضعف التى فيه ، حبه للمال . وتحدث الكتاب عن ضلالة بلعام إنها مأساة...

وسقط سليمان بنقطة ضعف هى محبة النساء ومجاملتهن .

كان أحكم هذه الأرض ، بحكمة من الله نفسه . وقد ظهر له الله مرتين وكلمه . وهو الذى بنى الهيكل ، وبارك الشعب . وكتب أسفاراً عديدة من الكتاب المقدس . ومع ذلك كانت فيه نقطة ضعف واحدة هى محبة النساء ، فتزوج أجنبيات ، وجرته هذه الخطية الواحدة إلى السقوط ، فمال قلبه إلى آلهة زوجاته (١مل ١١) .

وبنفس نقطة الضعف الواحدة هذه ، سقط شمشون الجبار ، نذير الرب ، الذى حلّ روح الرب عليه وكان يحركه !

ويعوزنا الوقت إن تحدثنا عن نقط ضعف أتعبت الأنبياء .

كان إبراهيم أبو الآباء كاملاً فى كل شيء وباراً . ولكن وجدت نقطة ضعف فيه هى الخوف ، وبالخوف وقع فى خطايا (تك ١٢ ، ٢٠) . وكان بطرس تلميذ الرب قديساً عظيماً . وكانت فيه نقطة ضعف هى الإندفاع . كما كانت نقطة الضعف عند توما الرسول هى الشك . وكانت نقطة الضعف التى أتعبت أبانا يعقوب أبا الآباء ، هى الإعتماد على الحيل البشرية .

وبعض الخطاة كانت نقطة ضعف واحدة تضيعهم :

خطية الحسد هى التى ضيعت قايين ، وقادته إلى قتل أخيه .

وخطية الكبرياء وحدها أسقطت كثيرين . وكذلك خطية الزنا .

وربما إنسان تكون فيه فضائل كثيرة . ولكن يسقط لعدم ضبطه لسانه ، حسب قول الكتاب بكلامك تتبرر وبكلامك تدان .

وإنسان آخر يسقطه العناد .

والشيطان أسقطته خطية الكبرياء وحدها .

هى الخطية الوحيدة التى تحدث عنها الكتاب فى قصة سقوط الشياطين ، كما رواها أشعياء النبى (أش ١٤ : ١٣ ، ١٤) . ثم دخلته خطية الحسد ، ثم الكذب ثم تعددت خطاياه . ولكن هذا كله جاء بعد خطية الكبرياء التى سقط بها من طهره الملائكى .

والهراطقة كذلك : لكل منهم سقطته الخاصة .

فلا تظنوا أن الهراطقة كان كل تعليمهم هرطوقياً ، أو كان كل كلامهم بدعاً فى الدين . هناك منهم من له عظات عميقة مثل ترتليانوس الذى وقع فى هرطقة المونتانيين *Montntists* وصار قائدهم . ومثل أوطاخى الذى كان من أكثر الرهبان روحانية فى القسطنطينية ، ثم وقع فى بدعته .

إنها نقطة واحدة أهلكت كلاً من هؤلاء . والأمثلة كثيرة .

وكل إنسان له نقطة ضعف خاصة هى سبب سقوطه .

فتأمل ما هى نقطة الضعف التى فيك . وما هى خطيتك المحبوبة التى بها تسقط ، والتى تضعف مقاومتك أمامها .

وفى توبتك ، ركز على هذه النقطة كل جهادك ، وكل صلواتك ، وكل ما تأخذه من معونة النعمة . فإن انتصرت عليها ، سيخاف الشيطان من محاربتك فيما بعد . وبتركك هذه الخطية المحبوبة منك ، تعبر على أن محبتك لله هى التى تقود حياتك ، وليس حبك لشهواتك...

إحذر من أن تحتفظ بهذه الخطية المحبوبة وتقول للرب :

أحبك يارب من كل قلبى . لكن أترك لى هذه النقطة وحدها .

فقولك هذا يدل على أنك لا تحب الله من كل قلبك ، إذ يوجد له منافس فى قلبك هو هذه الخطية بالذات . وأنت تحبها أكثر مما تحب الله .

وكأن الله يقول لك : قد وضح لك الآن الميدان الحقيقى الذى ينبغى لك أن تحارب فيه ، وهو هذه النقطة بالذات .

إن الشيطان لا يحاربك فى كل الخطايا ، إنما يختبرك أولاً .

يمر فى أرضك ، ويجسها ، ويعرف ما هى نواحى الضعف فيها . وبكل ذكاء يعرف فى أى الخطايا يحاربك ، وفى أيها تكون أسهل سقوطاً ، وأكثر إستجابة له...

وعليك أن تكون صريحاً مع نفسك ، وتفحصها وتعرف من أين تسقط . وإن لم تستطع أن تهرب وتبعد عن العثرات ، إحترس فى هذه النقطة بالذات ، بكل حيطة . واطلب من الرب معونة ليقف معك فى حروبك .

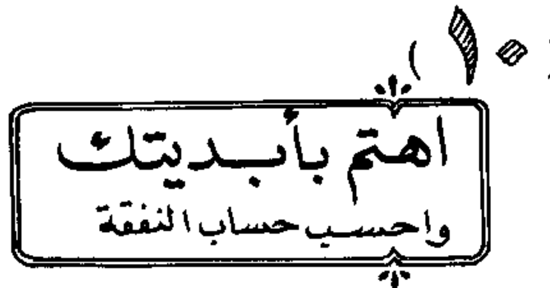
ولا تضع لنفسك برنامجاً روحياً طويلاً لتسير فيه .

إنما ركز فى الميدان الأساسى ، سواء بالهروب أو بالحروب...

فى النقط التى تعكر نقاء قلبك وصفاء روحك ، والتى هى ميدان هزيمة لك فى الماضى . وخذ فى جهادك درساً من داود النبى .

لا تقل أنا انتصرت على جليات الجبار وهزمته ، وانتصرت على الدب والأسد وانتزعت منها الفريسة . وانتصرت كذلك فى مطاردة شاول لى . إحتملته وانتصرت على نفسى... لا تقل هذا ، إنما قل : ميدان حربى هى بتشبع . وهناك يجب أن أنتصر .

وليكن الرب معك ...



يا إخوتى ، طريقنا الروحى طريق طويل . العمر كله لا يكفيه .

ينبغى أن نعرف تماماً : ما هو المطلوب منا ؟ وهل نحن نسير فى الطريق ، ونتقدم فيه خطوة خطوة ، كل يوم ، نحو الهدف ... أم نحن لم نبدأ بعد ؟ أم سرنا خطوات ووقفنا ؟ وهكذا فلنحسب من الآن حساب النفقة ، ساهرين على خلاص نفوسنا ...

المطلوب منا ليس مجرد الإيمان العادى ، إنما حياة القداسة ، فيقول الرسول :

نظير القدوس الذى دعاكم ، كونوا أنتم أيضاً قديسين (١بط ١ : ١٥) . « مكملين القداسة فى خوف الله » (٢كو ٧ : ١) . نعم نحن مطالبون بهذه « القداسة التى بدونها لا يعاين أحد الرب » (عب ١٢ : ١٤) .

على أن هذه القداسة ليست هى آخر المطاف ، إنما ينبغى إن وصلنا إليها أن ننمو فيها ... وإلى أى حد ننمو؟ ... ننمو حتى نصل إلى الكمال ، حسب وصية الرب القائل :

كونوا كاملين ، كما أن أباكم الذى فى السموات هو كامل (مت ٥ : ٤٨) . فهل نحن قد وصلنا إلى هذه القداسة وإلى هذا الكمال ؟ والمعروف أن الكمال النسبى هو درجات ... يسعى فيها نحو الغرض جميع الكاملين منا (فى ٣ : ١٤ ، ١٥) . وإلى أى حد يسعون ؟ ... إلى الحد الذى يقول فيه الرسول :

« ... لكى تمتلئوا إلى كل ملء الله » (أف ٣ : ١٩) .

صدقونى ، لقد وقفت أمام هذه العبارة منذهلاً ، حينما قرأتها أول مرة ... ! ثم أعدت القراءة ، فإذا الرسول يقول « وأنتم متأصلون ومتأسسون فى المحبة ، حتى تستطيعوا أن تدركوا مع جميع القديسين ما هو العرض والطول والعمق والعلو . وتعرفوا محبة المسيح الفائقة المعرفة ، لكى تمتلئوا إلى كل ملء الله » (أف ٣ : ١٨ ، ١٩) .

عن محاضرتين : الأولى (الطريق الطويل) ألقيت فى مؤتمر الأصدقاء بكنيسة مارمرقس بشبرا يوم ١٩٦٣/٢/٢٤ . والثانية (حساب النفقة) ألقيت فى الكاتدرائية يوم ١٩٦٩/١٠/٣١ .

هنا وأصمت ... لأنه ماذا يمكن أن أقول ؟! ولكنى أتذكر أن الرسول لم يطالبنا فقط بأن نسلك حسب الروح (رو ٨: ١). وإنما قال:

إمتلئوا بالروح (أف ٥ : ٨) .

ما هو كنه هذا الإمتلاء بالروح ؟ أنا يارب لست أعلم ... هل معناه فى بساطة أنه لا يوجد شيء فى كياننا يكون خالياً من الروح بل هذا الملء يشمل كياننا كله...؟ إن حدث هذا لنا، أترانا حينذاك كيف نسلك؟ يقول الرسول إن المطلوب منا هو أن نسلك كما كان المسيح يسلك على الأرض فى تجسده.

« من قال إنه ثابت فيه ، ينبغى أنه كما سلك ذاك ، يسلك هو أيضاً » (١يو ٢ : ٦).

من يستطيع هذا ، مهما حاول ؟!

حقاً ما أعلى هذه المرتفعات التى يريد الروح أن يقتادنا إليها ، لنكون «صورة الله ومثاله» (تك ١: ٢٦، ٢٧).

إنه وضع من النمو الدائم ، لا يقف عند حد ...

قلت يوماً إنه يشبه من يطارد الأفق .

ينظر إنسان إلى الأفق ، فيراه هناك فى آخر الطريق . فيذهب إلى آخر الطريق ، فيرى الأفق عند الجبل ، حيث تبدو السماء منطبقة على الأرض... فيذهب إلى الجبل ، فيرى الأفق بعيداً عند البحر. فيذهب إلى البحر، فيراه ممتداً بعيداً... إلى غير حدود... هكذا حياة الكمال .

ولأجل هذا قال القديسون عن أنفسهم إنهم خطاة .

نقرأ عن آباء البرارى ، الذين ارتفعوا جداً فى حياة الروح ، فنرى أنهم كانوا يجلسون فى قلاليهم ويبكون على خطاياهم... وحتى الرسل القديسون كانوا أيضاً يتحدثون عن خطاياهم. ولعل من أبرز الأمثلة على ذلك قول بولس الرسول «الخطاة الذين أولهم أنا» (١تى ١: ١٥). فإن كان بولس الرسول أول الخطاة. فماذا نقول نحن عن أنفسنا ؟!

إن مثال بولس الرسول يجعلنا ننسحق جداً .

بولس الرسول الذى تعب أكثر من جميع الرسل (١كو ١٥: ١٠)، الذى كرز

فى بلاد عديدة، وكتب ١٤ رسالة لأجلنا، الذى صنع آيات عجيبة ومعجزات... ومن كثرة الإستعلانات، أعطى شوكة فى الجسد، لكى لا يرتفع (٢كو ١٢: ٧). بولس هذا الذى صعد إلى السماء الثالثة، وسمع كلمات لا ينطق بها (٢كو ١٢: ٤). بولس هذا يقول عن نفسه: «ليس أنى قد نلت... ولكنى أسعى لعلى أدرك... أنا لست أحسب نفسى أنى قد أدركت. ولكنى أفعل شيئاً واحداً...» (فى ٣: ١٢، ١٣). وما هذا الذى تفعله؟ يجيب:

أنسى ما هو وراء، وأمتد إلى ما هو قدام.

يمتد إلى قدام!! إلى أين؟ هل هناك ما هو أكثر من السماء الثالثة؟ وهذه الحياة المملوءة بالكرازة والقداسة والمعجزات؟!... وإن كان بولس على الرغم من كل ما وصل إليه، يقول «أسعى نحو الغرض» (فى ٣: ١٤). فماذا نقول نحن الذين لم ندرك شيئاً مما قد أدركه هذا القديس العظيم؟!

إننا لم نسلك بعد فى محبة الله، ولا حتى فى طاعته. لم نتصرف كأبناء محبين، ولا حتى كعبيد أمناء مخلصين...

بل إننا لم نصل إلى درجة (عبيد بطالين).

هوذا الرب يقول «متى فعلتم كل ما أمرتم به، فقولوا إننا عبيد بطالون» (لو ١٧: ١٠). لأننا مانزال فى حدود الأوامر، لم نرتفع بعد فوق الناموس، إلى درجة الحب... الحب الذى يبذل كل شيء... الذى يخسر كل الأشياء ـ وهو يحسبها نفاية ـ لكى يربح المسيح (فى ٣: ٨).

إن كان هكذا حال الذى يقف عند حدود تنفيذ الوصية... فماذا يقال عن الذى يخطىء ويكسر الوصية؟! إنه ليس عبداً لله على الإطلاق، لا عبداً صالحاً ولا بطالاً، بل هو مقاوم لله، وعبد لإبليس...

أقول لك هذا، لكى تعرف نفسك، ولكى تعرف ما هى المرحلة التى قطعتها فى الطريق إلى الله... لئلا تظن، إذا صليت مزمورين، أنك قد وصلت!!

إذن إعرف يا أخى أين أنت. واهتم بخلاص نفسك.

إن لك نفساً واحدة لا تملك غيرها. إن ربحتها ربحت كل شىء. وإن خسرتها خسرت كل شىء. لأنه ماذا يمكن أن تأخذ من العالم عوضاً عن نفسك؟ وهوذا الرب يقول عبارته الخالدة:

ماذا ينتفع الإنسان ، لو ربح العالم كله وخسر نفسه . (مق ١٦ : ٢٦)...

إجلس إذن إلى نفسك . وافحص حياتك جيداً : هل أنت سائر فى الطريق أم لا ؟ وهل تحرص على أبديتك ، أم قد ضيعت نفسك... وضاعت أيامك التى كان ينبغى أن تستخدمها فى معرفة الله ، وفى محبته ، وفى النمو الروحى ، حتى تدرك الغاية التى من أجلها أدركك المسيح...

يا أخى إن الطريق طويل قدامك ، وأنت لم تبدأ بعد .

الطريق يبدأ بالمخافة ، لأن « بدء الحكمة مخافة الله » (أم ٩ : ١٠) . والمخافة بالتدريج تقود إلى المحبة... ولكنك إلى الآن لم تصل إلى مخافة الله ، لأنك مازلت تكسر وصاياه... فمتى تصل إلى المحبة إذن ؟!

وأنت لا تستطيع أن تصل إلى الله ، إلا إذا كنت تسلك حسب الروح . وإن سلكت حسب الروح ، ستظهر ثمار الروح فى حياتك .

وثمار الروح منهج طويل ، شرحه بولس الرسول .

فقال « وأما ثمر الروح فهو محبة ، فرح ، سلام ، طول أناة ، لطف ، صلاح ، إيمان ، وداعة ، تعفف » (غل ٥ : ٢٢) .

والمحبة التى هى أولى هذه الثمار ، شرحها الرسول بالتفصيل فى (١كو ١٣) ، ووضع لها حوالى أربع عشرة علامة . فهل وصلت إلى شيء منها... ؟

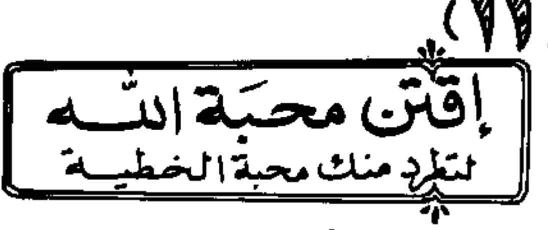
ثم ماذا عن الصلاة وتفاصيلها ؟ وماذا عن المذيذ والتأمل وكل الوسائط الروحية... ؟ وماذا عن حروب الشياطين وكيفية الإنتصار عليها...

أنا لا أريد أن أثقل عليك بتفاصيل الحياة الروحية ، لأنى سأحدثك عنها جميعها إن شاء الله فى كتاب كبير إسمه [معالم الطريق الروحى]... أما الآن فكل ما أنصحك به ، هو أن تبدأ بالخطوة الأولى فى العلاقة مع الله ، لأنه إن لم تبدأ بأول خطوة ، فكيف تصل ؟!

ونقطة البدء فى علاقتك مع الله ، هى التوبة .

بها تصطلح مع الله وترجع إليه . أى تنتقل من خارج الدائرة إلى داخلها . ثم تحملك النعمة وتعبر بك درجات الطريق . وهكذا تنتقل من خطوة التوبة ، إلى النقاوة ، إلى القداسة ، إلى الكمال النسبى ، إلى النمو فى هذا الكمال...

أتريد أن تبدأ الطريق وتخطو إلى التوبة . ضع أمامك هذه القاعدة :



الإنسان لا يستطيع أن يعيش فى فراغ عاطفى .

فهو إما أن يملأ قلبه بمحبة الله ، أو أن يمتلىء هذا القلب بمحبة العالم والجسد . « ومحبة العالم عداوة لله » (يع ٤ : ٤) .

نقطة أخرى ، وهى أن محبة الله أقوى وأعمق من أية محبة أخرى ، لذلك إن أدخلتها فى قلبك ، فإنها حتماً ستطرد كل الشهوات الأخرى منه . وصدق ذلك القديس الذى قال :

التوبة هى استبدال شهوة بشهوة .

أى بعد أن كنت تشتهى العالم والجسد والخطية ، أصبحت كل شهواتك روحية ، مركزة فى الله والحياة معه . فلا يكن قلبك إذن خالياً من حب الله وملكوته ، لئلا تسكنه محبة الخطية . واحفظ هذا الميزان سليماً داخل قلبك . لا تجعل كفة العالم ترجح بتأثيرات كثيرة من النظر والسمع والقراءة والخلطة المعثرة... إنما استخدم بكل قوة جميع الوسائط الروحية المتاحة لك ، التى تعمق محبة الله فى عقلك .

وثق أن الخطية لا تستطيع أن تدخل قلباً يحب الله .

ولا نقصد بالإنسان الذى يحب الله ، مجرد ممارسته للوسائط الروحية كالصلاة والصوم والقراءة الروحية وحضور الكنيسة والإعتراف والتناول . إنما يهمنا قبل كل شىء أن تكون هذه الوسائط الروحية نابعة من حب داخلى فى القلب .

فالدين هو الحب : حب لله ، وحب للخير ، وحب للغير .

وإن لم يوجد هذا الحب ، يفتر القلب ، و يفقد الشعلة الروحية التى تسلمها من روح الله يوم عرفه . وقد يتطور الفتور إلى خطية ، مهما كانت لهذا الإنسان خدمة فى الكنيسة ، ومهما كان طاقة من النشاط والحركة .

عن محاضرة بعنوان (الحب وليس الممارسات) ألقيت فى الكاتدرائية الكبرى يوم الجمعة ١٩٧٧/١١/١١ .

بدون محبة الله داخلك ، لا تستطيع أن تتوب .

وإن تركت الخطيئة ، لا يكون تركاً حقيقياً عن نقاوة قلب . وإنما قد تكون مجرد إجراءات خارجية لصلح شكلي مع الله ، أو خوفاً من غضبه وعقوبته...

كإنسان يخاف أن يعاقبه الله ، ويخاف أن تدخله الخطية إلى جهنم ، فلكي يتقى الله وعقوباته ، يدخل فى الدين . ويسمى هذه (تقوى) أى إتقاء لله وغضبه...

وبهذا الخوف ، قد يبعد عن الخطية بالعمل ، ولكن لا تبعد الخطية عن قلبه .

ويظل القلب مقلقلاً ، لليمين ولليسار ، ولا يستقر إلا بالحب .

التوبة إذن ، هى تحويل مشاعر القلب بالحب نحو الله . وكل الممارسات الروحية كالصلاة والصوم لا تكون قائمة بذاتها ، إنما ملتصقة بهذا الحب . فالصلاة بغير حب الله ، ليست هى صلاة بالحقيقة . وكذلك الصوم . وكذلك حضور الكنيسة والتناول .

فأنت تصلى وتقول « عطشت نفسى إليك » « باسمك أرفع يدى ، فتشبع نفسى كما من شحم ودسم » (مز ٦٢) ، «محبوب هو إسمك يارب ، فهو طول النهار تلاوتى » (مز١١٩) .

وأنت تقرأ فى الكتاب وتقول « وجدت كلامك كالشهد فأكلته » .

وأنت تذهب إلى الكنيسة وتقول « مساكنك محبوبة أيها الرب إله القوات . تشتاق وتذوب نفسى للدخول إلى ديار الرب» (مز٨٣ : ١) .

بهذه المشاعر تجد لذة فى التوبة . وتوبتك تستمر وتستقر .

أما إن لم يوجد فيك هذا الحب ، فحتى إن تركت الخطية ، ما أسهل أن تحاربك لترجع إليها... لماذا ، لأنك لم تجد فى الحياة مع الله شبعك . لم تجد فى حياة التوبة ما يملأ قلبك ، وما يملأ عواطفك ومشاعرك ، وما يحفظك من التماس الحب فى الخارج .

أنا أعرف أنك تريد التوبة ، ولولا ذلك ما كان هذا الكتاب بين يدك الآن... بل ربما تظن أنك بدأت التوبة فعلاً ، من أجل أنك تمارس وسائط روحية . ومع ذلك فأنت :

تصلى وتصوم ... ولا تشعر أن محبة الخطية قد فارقتك !

فلماذا ؟ ... كلنا نؤمن بفوائد الوسائط الروحية ، ولكن على شرط أن تمارسها بطريقة روحية... فإن كنت تصلى وتصوم وتقرأ الكتاب ، وتجد فى ذلك شبعاً روحياً ، ولذة وتعزية وفرحاً ، ويقودك كل هذا إلى تعميق محبتك لله... إذن فأنت سائر على الدرب . ومن سار على الدرب وصل .

إن لم تعش فى التوبة بهذا الحب ، تكون تائهاً ...

لا بد إذن أن تقتنى محبة الله ، التى تستطيع أن تطرد من قلبك محبة الخطية . لابد أن تعرف المسيح ، لكى تستطيع أن تترك الجرة عند البئر (يو٤) .

فإن لم يكن لك هذا الحب ، أطلبه فى صلاتك بكل لجاجة ... هى صلاة تقولها فى كل وقت ، من كل قلبك ، ومن كل فكرك ، ومن عمق أعماقك :

أعطنى يارب أن أحبك ...

إنزع محبة الخطية من قلبى ، واعطنى محبتك ...

وابحث عن كل الوسائط التى تساعدك على محبة الله ...

ليست كل قراءة تنفعك . ولكن هناك قراءات روحية تؤثر كثيراً فى قلبك ، وتمس مشاعرك ، وتدفعك إلى محبة الله... وكذلك هناك تراتيل معينة تشعل مشاعرك الروحية . وهناك أماكن مقدسة تؤثر فيك ، وأشخاص محبون لله ، تراهم فتحب الله مثلهم... بكل هذا وأمثاله ، التصق بكل قوتك .

وابعد عن كل شىء ، به تبعد محبة الله عن قلبك .

كن حريصاً على هذه المحبة كل الحرص . لأنها هى التى تطرد منك محبة الخطية . بل كلما زادت محبة الله فيك ، حينئذ ينفر قلبك من الخطية ، ويشمئز منها ، ويندم على أيامه الأولى التى عاشها فى الخطية . وبهذا يكون الله قد وهبه قلباً جديداً... قلباً يحب الله ، غير القلب القديم تماماً .

وفى هذا القلب المحب لله ، تعبد الله بفرح ، ولا تجد صعوبة فى حفظ وصاياه . بل تغنى مع يوحنا الحبيب قائلاً :

هذه هى محبة الله أن نحفظ وصاياه . ووصاياه ليست ثقيلة (١يو ٥ : ٣). ولماذا ليست ثقيلة ؟ لأنك تعيش فيها بفرح ، بحب ، من غير صراع داخلى يتعبك . إذ لا تجد ناموساً آخر فى أعضائك ، يحارب ناموس ذهنك ، ويسبيك إلى

ناموس الخطية» (رو٧: ٢٣).

الإنسان الذى يحب الله ، يجد لذة فى تنفيذ وصاياه .

ويجد لذة فى عمل ما يرضيه . ولا يسمح لنفسه أبداً أن يغضبه. كإنسان يحب أباه وأمه ، ويجد لذة فى إرضائهما ، وكسب بركتهما ورضائهما ، ولا يسمح لنفسه أن يغضبهما فى شىء .

إن وصلت إلى هذا الشعور ، يمكنك أن تتوب بسهولة .

ولكن بدون محبة الله ، تجد التوبة صعبة وثقيلة . ولا تشعر برغبة فى ترك الخطية ، إذ لا توجد محبة أعمق تحل محلها .

إبحث إذن عن هذه المحبة الأعمق . واسلك فى كل الوسائط التى توصلك إليها .

وحينئذ لا يمكن أن تجد التوبة صعبة ، ولن تجد الوصية ثقيلة .

ولكن متى تجد التوبة صعبة والوصية ثقيلة ؟

تجدها كذلك إن كانت محبة الله ليست كاملة فى قلبك ، أو لم تصل إلى شىء منها بعد... وأيضاً حينما تكون محبتك للخير غير كاملة ، أو لم تصل إليها بعد....

ولذلك فأنت حينما تحاول أن تتوب ، تصارع محبة مضادة فى داخلك . وتضغط على إرادتك ، وعلى قلبك وعواطفك... وتحاول أن تهرب من صور أثيمة راسخة فى عقلك الباطن وفى ذاكرتك ، تشدك إلى أسفل ، بعيداً عن الله .

ولكنك إذا أحببت الله ، حينئذ لا تستطيع أن تخطىء ، والشرير لا يمسك (١يو٣: ٩ ، ٥: ١٨) .

وحينئذ لا تكون الوصية ثقيلة ، بل تكون الخطية ثقيلة .

الخطية هى التى تصير صعبة ، مهما حاول العدو أن يضغط على إرادتك ، تقاوم وترفض أن تخطىء ، وتقول من كل قلبك «كيف أخطىء ، وأفعل هذا الشر العظيم أمام الله ؟!» (تك ٣٩: ٩) .

وتجد وصية الرب مفرحة ، ومضيئة تنير العينين (مز ١٩) .

وتصبح التوبة سهلة عليك ، وتصل منها إلى نقاوة القلب .

ولكن لعلك تسأل : كيف يمكننى أن أصل إلى محبة الله هذه ، التى تطرد منى محبة الخطية ؟...

هناك وسائل توصلك إلى محبة الله ، منها :

إقرأ كثيراً فى سير القديسين الذين أحبوا الله من كل قلوبهم ، وبذلوا كل شىء من أجله . وخسروا كل الأشياء من أجل فضل معرفته ، لكى يوجدوا فيه...

واقرأ كتباً كثيرة عميقة عن الفضيلة ، لكى تثير محبة الخير فى قلبك ، فتترك ما أنت فيه...

واقرأ قصص التوبة والرجوع إلى الله ، فهى مؤثرة جداً ونافعة لك...

وتذكر الموت والدينونة والملكوت الأبدى ، لكى تشعر بتفاهة الخطايا التى تحاربك ، بل وتفاهة العالم كله...

وتذكر كم أحبك الله طول حياتك وأحسن إليك . فإن هذه الذكريات الحلوة تثير فيك مشاعر الحب والعرفان بالجميل من نحو الله . فتحبه لأنه أحبك قبلاً...

وماذا أقول ؟ ليتك تقلب هذه الصفحات من الكتاب ، وتعيد قراءة ما كتب فيه عن دوافع التوبة...

ومع ذلك فلكى تصل إلى التوبة ، عليك أن تصارع مع الله ، ليعطيك محبته ، أو ليعطيك قلباً جديداً يحبه . وكيف ذلك ؟

(١٢)

صارع مع الله
وخذ منه معونه

أنت تريد أن تتوب ، وتنتصر على خطاياك . حسناً تفعل . ولكن ضع أمامك هذه القاعدة الهامة ، وهى :

النصرة على الخطية ليست مجرد عمل بشرى .

١ ـ أولاً ، لأن الخطية قوية ، لها هذه القوة التى بها «طرحت كثيرين جرحى ، وكل قتلاها أقوياء» (أم ٧ : ٢٦) . فهل هذه الخطية التى أسقطت آدم وشمشون وداود وسليمان ، تستطيع أنت أن تحاربها بمفردك ، بدون معونة إلهية ؟! محال...

٢ ـ هذه الخطية قد أخذت سلطاناً عليك ، حينما أسقطتك من قبل .

٣ ـ إنها لا تقتصر على الحرب الخارجية ، إذ تجد لها أيضاً إستجابة فى داخلك ، تجعل الحرب مزدوجة .

٤ ـ هذا هو تعليم الكتاب القائل « إن لم يحرس الرب المدينة ، فباطل هو سهر الحارس » (مز ١٢٧ : ١) . بل هذا قول المسيح نفسه :

بدونى لا تقدرون أن تعملوا شيئاً (يو ١٥ : ٥) .

٥ ـ كل عمل تعمله بمفردك ، دون أن يشترك الله معك ، غالباً ما تفشل فيه . وحتى إن نجحت ستنسبه إلى نفسك ، ويحاربك المجد الباطل ، معتقداً أنك بقوتك قد انتصرت .

والمعروف أن الإتضاع هو من أقوى الأسلحة التى ينهزم بها الشياطين . وقد استخدمه القديس الأنبا أنطونيوس ، حينما كان يقول لهم «أنا أضعف من أن أقاتل أصغركم» . ثم يصرخ إلى الرب قائلاً «إنقذنى يارب من هؤلاء الذين يظنون أنى شىء» ...

(١) عن محاضرتين هما الجزء الثانى من سلسلة (اليقظة الروحية) ، ألقيتا بتاريخ ١٩٧٠/١١/١٣ ، ١٩٧٠/١١/٢٠ ، ومحاضرة ثالثة موضوعها (الجهاد مع الله) بتاريخ ١٩٧٥/٣/٢٨ . ومحاضرة رابعة موضوعها (حياة الإنتصار ، والحرب للرب) بتاريخ ١٩٧٩/٤/٦ . وكلها محاضرات ألقيت فى الكاتدرائية الكبرى .

٦ - وقد أثبتت خبراتك الماضية، فشلك فى التوبة بمجهودك.

كم مرة حاولت أن تقوم وسقطت مرة أخرى. كم مرة عاهدت الله على التوبة، ووعدته وعوداً، وقلت فى تصميم لن أفعل هذه الخطية مرة أخرى. بل أحياناً كنت تستنزل الويلات على نفسك وتقول: إمرضنى يارب إن فعلت هذه مرة أخرى. كنت تقول هذا، كما لو كان الأمر فى يدك وفى إمكانك. ونصيحتى لك، بدلاً من أن تقول: أعدك يارب أن أتوب.

الأجدر بك أن تقول للرب: توبنى يارب فأتوب (أر ٣١ : ١٨).

أطلب منه التوبة كعطية صالحة من عنده، لأنه هو نفسه وعد بهذا، وقال «أعطيكم قلباً جديداً، وأجعل روحاً جديدة فى داخلكم... وأجعل روحى فى داخلكم، وأجعلكم تسلكون فى فرائضى» (حز ٣٦: ٢٦، ٢٧)[1]. فتمسك بوعده المقدس هذا، واطلب منه أن يمنحك هذه التوبة، و يعطيك القلب الجديد، ويجعلك تسلك فى وصاياه...

وهذا ما تعلمنا إياه الكنيسة فى صلوات الساعات.

ألسنا نقول فى المزمور الخمسين « إنضح علىّ بزوفاك فأطهر، واغسلنى فأبيض أكثر من الثلج». إذن الله هو الذى يغسلك فتبيض، ولست أنت القادر على غسل نفسك... وفى كثير من المزامير نقول: خلصنى يارب. إحفظنى. علمنى طرقك... وفى صلاة الساعة الثالثة نقول «طهرنا من كل دنس أيها الصالح وخلص نفوسنا» «طهرنا من دنس الجسد والروح. وانقلنا إلى سيرة روحانية، لكى نسعى بالروح ولا نكمل شهوة الجسد»... وهذا ما نقوله أيضاً فى القداس الإلهى:

طهّر نفوسنا وأجسادنا وأرواحنا ...

ونكرر هذه العبارة فى القداس أكثر من مرة... إذن فنحن نتعلم من الكنيسة أن التوبة والطهارة والنقاوة، ليست مجرد نتيجة مجهود منا، إنما نحن أيضاً نطلبها من الله فى صلواتنا...

وكأن الإنسان يقول لله: أنا عاجز يارب عن تطهير نفسى. فقم أنت بهذا العمل حسب سابق وعدك... «قم أيها الرب الإله...» «قم يارب خلصنى يا إلهى...».

---

(١) أنظر فصل (قلباً جديداً) فى كتاب (كيف نبدأ عاماً جديداً)... من صفحة ٢٧ إلى صفحة ٤٠.

وهنا تظهر أهمية الصلاة فى الوصول إلى التوبة (١) .

مار اسحق ركز عليها وحدها ، لدرجة أنه قال : من كان يظن أن له طريقاً آخر للتوبة غير الصلاة ، فهو مخدوع من الشياطين .

أما أنت ، فعلى الأقل فى كل جهادك ، لا تكن معتمداً على قوتك ، ولا على ذكائك ، ولا على إرادتك وتداريبك ، فأنت وحدك بدون معونة من الله ، لن تصل إلى التوبة بمجهودك الخاص .

قل له يارب أنا محتاج إليك ، وبدونك لا أستطيع شيئاً .

الإرادة حاضرة عندى . ولكن أن أفعل الحسنى لست أجد .

« الشر الذى لست أريده إياه أفعل » (رو ٧ : ١٨ ، ١٩) «ضللت مثل الخروف الضال ، فاطلب عبدك» (مز ١١٩) . ألست أنت القائل «أنا أرعى غنمى وأربضها -يقول السيد الرب- وأطلب الضال ، وأسترد المطرود ، وأجبر الكسير ، وأعصب الجريح» (حز ٣٤: ١٥ ، ١٦) . هوذا أنا هذا الضال الكسير والجريح ، فاطلبنى واستردنى واعصبنى ...

أنا يارب قد وصلت إلى حالة من الضعف والعجز ، لست أستطيع فيها أن أعدك بأن أتوب . وإن وعدتك قد أخلف وعدى .

لست أعدك ، إنما أطلب وعداً منك بأن تخلصنى من الخطية .

ألست أنت القائل « تعالوا إلىّ يا جميع المتعبين والثقيلى الأحمال ، وأنا أريحكم » (متى ١١ : ٨) . نعم ، أنا يارب محتاج أن تريحنى من هذا الحمل الثقيل .

ألم تقل إن «إبن الإنسان جاء يطلب ويخلص ما قد هلك» (لو ١٩: ١٠) . إننى أنا المحتاج إلى هذا الخلاص منك...

ليس فقط الخلاص من الدينونة ، إنما الخلاص من الخطية ذاتها .

لقد أسموك « يسوع » أى المخلص ، لأنك تخلص شعبك من خطاياهم (متى ١ : ٢١) . خلصنى إذن من خطاياى . ليتنى أسمع منك قولك المعزى «من أجل شقاء المساكين وتنهد البائسين ، الآن أقوم -يقول الرب- أصنع الخلاص علانية» (مز ١١) .

---

(١) أنظر كتاب (الرجوع إلى الله) من صفحة ٥٣ إلى صفحة ٥٦ - الفصل الذى عنوانه (الصلاة هى وسيلة للرجوع) ، وأيضاً صفحة ٨٥ ، ٨٦ .

هكذا تعلم يا أخى الصراع مع الله لأجل التوبة .

صارع مثل غريق وجد أمامه قارب نجاه . صارع مثل يعقوب الذى قال للرب «لا أطلقك إن لم تباركنى» (تك ٣٢ : ٢٦) . قل له : أنا يارب جربت نفسى، وعرفت ضعفها وعجزها أمام الخطية . بق أن تتدخل أنت .

لا تلمنى يارب من أجل ضعفى . إنما إنقذنى من هذا الضعف .

بدلاً من أن تدينني لأنى نجس ، طهرنى من هذه النجاسة ...

أنت قد أعطيتنى وصايا لكى أنفذها ، فاعطنى أيضاً القوة التى أنفذ بها هذه الوصايا . أعطنى المقاومة التى أقاوم بها الشيطان . واعطنى محبتك التى تطرد من قلبى محبة الخطية .

واثبت يا أخى فى صلاتك ، فهى طريقة مضمونة إلى التوبة .

فالإنسان الذى يعرف الصلاة القوية ، لا يعرف الهزيمة مطلقاً .

والإنسان الذى يُدخل الرب فى قتالاته وحروبه ، لا يمكن أن ينهزم أبداً .

صارع إذن مع الله . خذ منه القوة ، والسلاح الروحى الذى تحارب به . خذ منه الوعود الإلهية ، والقلب الجديد والروح النقية . خذ منه الإرادة والعزيمة . خذ الإيمان الذى تحارب به ، والثقة فى أنك ستغلب .

ثق أنك إن انتصرت فى صلاتك ، ستنجح فى ميادين القتال كلها . إن نجحت فى صراعك مع الله ، لن تقدر عليك أية قوة على الأرض ، بل تتمتع بالعبارة الجميلة التى قالها الرب لأرميا الصغير:

يحاربونك ولا يقدرون عليك ، لأنى أنا معك يقول الرب .

أنا معك - يقول الرب - لأنقذك (أر ١ : ١٩) . وحينئذ «يسقط عن يسارك ألوف ، وعن يمينك ربوات . وأما أنت فلا يقتربون إليك...» (مز ٩٠)... حقاً إن «الرب يقاتل عنكم ، وأنتم تصمتون» (خر ١٤ : ١٤)...

يقاتل عنكم فى حروبكم الخارجية . ويقاتل عنكم فى حروبكم الداخلية ، فى القلب والفكر. لذلك فى كل حروبك الروحية ، ضع أمامك هذه القاعدة.إن الحرب للرب .

الحرب للرب ... (١ صم ١٧ : ٤٧) .

وليس للرب مانع أن يخلص بالكثير وبالقليل » (١ صم ١٤ : ٦) .

لذلك لما حارب الشعب عماليق ، لم يكن هو الذى يحاربه بل الرب . وهكذا قيل « للرب حرب مع عماليق » (خر ١٧ : ١٦)... كذلك كل الخطايا التى تهزمك ، للرب حرب معها . هو الذى يغلبها فيك ولست أنت ، لأنه قال « أنا قد غلبت العالم » (يو ١٦ : ٣٣) .

إنتصارك الروحى إذن ، هو عن طريق الرب وحده . ولن تصل إلى التوبة ، ولن تنتصر على خطية واحدة ، إلا عن طريق الرب . فتقول مع داود « قوتى هو الرب وقد صار لى خلاصاً » (مز ١١٧) . وتقول مع بولس الرسول :

يعظم إنتصارنا بالذى أحبنا » (رو ٨ : ٣٧) .

إذن ليس انتصارنا بعزيمتنا أو باتكالنا على ذواتنا ، إنما بهذا الذى أحبنا ، ومن محبته لنا ، يقيمنا من سقطتنا بقوته ، و« يقودنا فى موكب نصرته » (٢ كو ٢ : ١٤) . إن الله دائماً ـ كما يقول الرسول « يعطينا الغلبة بربنا يسوع المسيح » (١ كو ١٥ : ٥٧) .

فلا تتحول عنه إذن ، مركزاً كل جهودك للتوبة فى ذاتك . إنما خذ القوة منه لكى تتوب . واهتف مع معلمنا بولس قائلاً :

أستطيع كل شىء فى المسيح الذى يقوينى (فى ٤ : ١٣) .

فى المسيح إذن ، فى قوته ومعونته ، تستطيع كل شىء . وخارج المسيح لا تستطيع شيئاً . إذن صارع معه أولاً ، قبل صراعك مع الخطية ، مثلما صارع يعقوب مع الله قبل أن يذهب لمقابلة عيسو. فلما غلب مع الله ، أصبح عيسو خفيفاً فى حمله... أتقول ليعقوب إذهب أولاً إلى عيسو. يجيبك : هذا الشخص لا يقدر عليه إلا الله . إذن أنا أذهب إلى الله أولاً ، وآخذه معى لمقابلة عيسو... هكذا تفعل مع الخطية...

بكل اتضاع قلب ، قل أنا أضعف من هذه الحرب .

« أنا أضعف من أن أقاتل أصغرهم » كما قال القديس الأنبا أنطونيوس . وإن قال باراق قائد الجيش : إنه لن يذهب إلى الحرب ما لم تذهب معه دبورة النبية

(قض ٤ : ٨)... فأنت أيضاً لن تقوى على الخطية بمفردك ما لم يحارب الله معك .

قل من أنا حتى أقف أمام الشياطين وحدى؟! أنا لست كفؤاً لهذا القتال. وأنت يارب نصرتى . تعال واغلب العالم فى قلبى كما غلبته من قبل...

أنت تعرف يارب كل شىء . تعرف ضعفى وهزيمتى .

تعرف أنى لا أملك إرادة ولا قوة ولا عزيمة . بل أحياناً لا أملك مجرد الرغبة فى التوبة. ولا أعرف أن أحارب ، ولا أصمد على تجارب العدو. وباختصار لست أعرف كيف أتوب. وإن عرفت لا أقوى. وإن قويت مرة أنهزم مرات .

إنتشلنى كشعلة من النار مثل يهوشع (زك ٣ : ٢) .

هذا الذى من أجل توبته ، وقف ملاك الرب ضد الشيطان الذى يقاومه ، وقال له : لينتهرك الرب يا شيطان ، لينتهرك الرب . أليس هذا شعلة منتشلة من النار؟... وانتشله الملاك من النار، وألبسه ثياباً مزخرفة (زك ٣: ١-٥) .

إن الله يحب هذا الصراع معه . والذين صارعوا معه ، فى الصلاة والطلبة ، أخذوا منه قوة... ولكن...

قد يقول إنسان : صليت كثيراً ولم أتب .

لا يا أخى ، فكل صلاة توافق مشيئة الله لا بد تستجاب . والصلاة من أجل التوبة توافق مشيئة الله ، ولكن...

١ - ربما تكون فعلاً قد صليت . ولكن ليست الصلاة الخارجة من عمق القلب ، التى تصارع مع الله برغبة صادقة فى هذه التوبة ، وبدالة الإبن عند أبيه ...

٢ - أو ربما تكون قد صليت ، ولم تثبت فى صلاتك . إنما قلت كلاماً ، ومللت بسرعة! ولم تكن لك طول الأناة فى الصلاة... الصلاة التى تطلب ، وتنتظر الرب فى إيمان . الصلاة التى تتميز بالجهاد والإصرار واللجاجة والإلحاح ... مثلما طلب إيليا من الرب . وكرر الصلاة مرات ، حتى نال الإستجابة فى سابع مرة (١مل ١٨ : ٤٤). وانظر إلى يعقوب إنه صارع الرب «حتى طلوع الفجر» (تك ٣٢: ٢٤). أى طول الليل ولم يمل...

٣ - أو ربما صلاتك فى غير إيمان ، وفى غير انسحاق قلب .

٤ - أو ربما الإستجابة السريعة ليست فى صالحك ، كما قال القديس باسيليوس .

أحياناً يتأخر الله علينا فى استجابة الطلبة ، لكى نعرف قيمتها . لأن الأشياء التى ننالها بسهولة ، قد نفقدها بسهولة .

فيشاء الله أن تذل بالخطية بعض الوقت ، حتى تعرف قيمة الخروج منها . وإذا أنعم عليك بالتوبة تشعر بفرح أعظم ، وتحرص عليها بكل قوتك ، لأنك لم تحصل عليها إلا بكل صعوبة وبعد وقت ... وحينئذ تكون فى توبتك أكثر تدقيقاً ، وأكثر حرصاً وخوفاً من السقوط ...

٥ - أو ربما تأخير التوبة ، سببه أن الله يريد أن يعرف مدى جديتك فى طلب التوبة ، ومدى ثباتك فى الطلبة .

٦ - وقد يكون تأخير الإستجابة بسببك ... فأنت الذى لا تريد ... حقاً تطلب بفمك ، أما قلبك فلا يريد . وأنت الذى تضع معطلات للتوبة . ويناسبك قول الكتاب «إن سمعتم صوته ، فلا تقسوا قلوبكم» (عب ٣ : ٧) .

لذلك لا تطلب المعونة ، بينما تنام وتتراخى .

فعمل الله من أجلك ، ليس تشجيعاً لك على التهاون والكسل ، إتكالاً على عمل الله ! الله يريدك أن تعمل معه . هو يعمل لتوبتك ، وأنت تشترك معه . هو يقدم لك المعونة ، وأنت لا تضع المعطلات بإرادتك ، ولا تترك أبوابك مفتوحة للخطية ... وباختصار أدخل بكل إمكانياتك -مهما كانت ضئيلة- فى شركة مع الروح القدس (٢ كو ١٣ : ١٤) .

قدم رغبتك أولاً ، وقدم استسلامك لعمل الله فيك . وقدم ما تستطيعه من عمل .

ومع ذلك لا تتضايق . لقد خلص الله كثيرين لا قدرة لهم على عمل شىء ...

هناك أشخاص لم يعملوا شيئاً : نازفة الدم مسّت هدب ثوبه فى إيمان . وصاحب اليد اليابسة ، قال له الرب مد يدك فمدها . والمولود أعمى طلب إليه أن يغتسل فى بركة سلوام فذهب واغتسل (يو ٩ : ٧) .

ولكن غير هؤلاء من لم يستطيعوا أن يعملوا شيئاً ، مثل المفلوج الذى دلوه من السقف (مر ٢ : ٤) . ومثل الجريح الذى حمله السامرى الصالح ، وكان ملقى على الطريق ما بين حى وميت (لو ١٠ : ٣٠) . ومثل مريض بيت حسدا ، الذى

استمر ثماني وثلاثين سنة عاجزاً عن الوصول إلى الشفاء (يو ٥: ٥). وكذلك كل أصحاب العاهات المستعصية...

ماذا فعل هؤلاء، من أمثال المفلوج وأشباهه ؟ لا شيء .
وبالمثل كل الموتى الذين أقامهم السيد المسيح ...
أكان باستطاعة الميت أن يفعل شيئاً، ليتخلص من الموت ؟! كلا. بلا شك. والخاطىء يعتبر ميتاً... ميتاً بالخطية (أف ٢: ٥). له إسم أنه حى، وهو ميت (رؤ ٣: ١). إن كان لا يستطيع شيئاً، فالمسيح قادر أن يقيمه.

لذلك لا تيأس ولا تقلق. إن كل هذه الأمثلة فى رموزها تعطينا فكرة عن أن:
الله يبحث عن خلاص الخطاة، الذين يقدرون والذين لا يقدرون .
الذى يقدر كالإبن الضال، الذى يستطيع أن يرجع إلى بيت أبيه. والذى لا يقدر مثل الخروف الضال والدرهم المفقود. وقد ورد ذكر الثلاثة فى أصحاح واحد (لو ١٥). وللرب فى غير القادرين شرط واحد، وهو أنهم لا يقاومون عمله لخلاصهم...

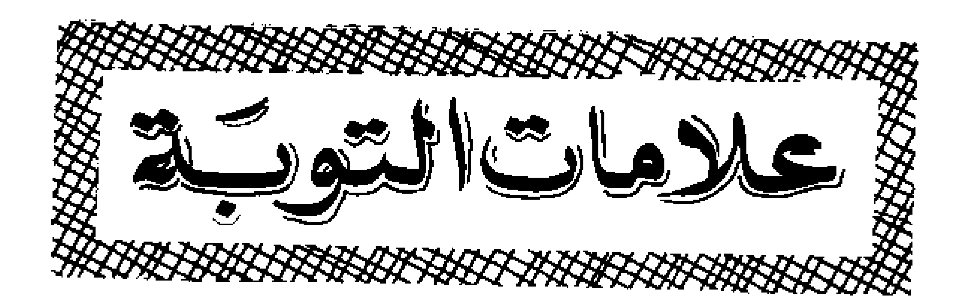
ومن أمثلة الذين لا يقدرون « العاقر التى لم تلد » (أش ٥: ١). وكانت رمزاً للنفس العقيمة التى لا تعطى ثمراً للروح. وقد جعلها الله مخصبة أكثر من ذات البنين...

بل هناك أشخاص خلصهم الله دون أن يطلبوا ...
مثال لوط الذى قبل الرب شفاعة إبراهيم فيه، فأخرجه من سدوم، بينما لوط نفسه لم يطلب... ولما أخبره الملاكان بأن سدوم ستحترق كان متباطئاً فى الخروج. ويقول الكتاب فى ذلك « كان الملاكان يعجلان لوطاً... ولما توانى، أمسك الرجلان بيده وبيد امرأته وبيد إبنتيه، لشفقة الرب عليه، وأخرجاه ووضعاه خارج المدينة » (تك ١٩: ١٥، ١٦).

إن عبارة « لشفقة الرب عليه » عبارة معزية ولا شك .
الله الذى أشفق على كل هؤلاء، هو أيضاً فليشفق عليك، وليمنحك التوبة من عنده، ويقودك إليها، وينزع منك قلب الحجر ويعطيك قلباً جديداً (حز ٣٦: ٢٦).

مبارك هو الرب فى كل أعمال محبته، وفى سعيه لخلاص الكل ...

الباب الرابع



علامات التوبة

ثمار تليق بالتوبة :

- الإعتراف بالخطأ .
- الخزى والخجل .
- الندم والألم والدموع .
- الإنسحاق والإتضاع .
- إصلاح نتائج الخطأ .
- الإشفاق على المخطئين .
- مشاعر أخرى .
- الحرارة الروحية .
- السير فى الحياة الفاضلة .
- النقـــاوة .

ثمار تليق بالتوبة

إن القديس يوحنا المعمدان الذى نادى قائلاً « توبوا لأنه قد اقترب ملكوت السموات » (متى ٣: ٢). نادى مع هذه العبارة قائلاً «إصنعوا أثماراً تليق بالتوبة» (متى ٣: ٨، لو٣: ٨).

وهذا ما فعله القديس بولس الرسول أيضاً الذى كان ينادى جميع الذين كانوا فى كورة اليهودية ثم الأمم «أن يتوبوا ويرجعوا إلى الله، عاملين أعمالاً تليق بالتوبة» (أع ٢٦: ٢٠).

التوبة إذن ليست مجرد عمل قلبى، إنما هناك أعمال وأثمار تليق بها وتدل عليها. وكما قال الكتاب «من ثمارهم تعرفونهم» (متى ٧: ١٦، ٢٠).

فما هى هذه الثمار التى تدل على أن الإنسان تائب ؟

نود أن نتناولها فى هذه الصفحات واحدة فواحدة، لكيما يختبر بها كل إنسان نفسه: هل هو تائب أم لا؟ ويعرف بها مدى صدق توبته...

١- الاعتراف بالخطأ [1]

والإعتراف بالخطأ، يشمل أربع نقاط هامة وهى :

أ - الإعتراف بالخطأ على الله فى الصلاة :

ذلك لأن الخطية موجهة أصلاً إلى الله، كما اعترف داود النبى فى المزمور الخمسين قائلاً للرب «لك وحدك أخطأت» (مز ٥٠). ومثل اعتراف دانيال النبى «أخطأنا وأثمنا، وعملنا الشر قدامك، وتمردنا وحدنا عن وصاياك» (دا ٩: ٥). ومثل اعتراف نحميا قائلاً «أنا وبيتى قد أخطأنا. لقد أفسدنا أمامك، ولم نحفظ الوصايا والفرائض والأحكام التى أمرت بها موسى عبدك» (نح ١: ٦، ٧). وهكذا أيضاً اعترف عزرا الكاتب (عز٩: ٦).

---

(١) من محاضرة بتاريخ ١٩٦٨/٢/٢٤ مع محاضرات أخرى .

أنت أخطأت إلى الله . إلى قلبه الحنون ، وإلى عظمته .

أخطأت إلى القلب المحب العطوف الذى تولاك بالعناية والرعاية والحب والستر، فبعدت عن محبته ، ودنست هيكله المقدس الذى هو أنت . وأحببت العالم أكثر منه... وتهاونت بعظمته وكسرت وصاياه . ولهذا قال ناثان لداود « لماذا احتقرت كلام الرب لتعمل الشر فى عينيه » (٢صم ١٢ : ٩) .

عجيب : يخجلون من أب الإعتراف ، ولا يخجلون من الله !

وبنفس الوضع يخجل الإنسان من أن يرتكب خطية أمام الناس ، ولا يخجل من ارتكابها أمام الله ! وقد خجل داود من عدم خجله فى ارتكابه الخطية أمام الله ، لذلك قال له « لك وحدك أخطأت . والشر قدامك صنعت » (مز ٥٠) . وهكذا قال دانيال « عملنا الشر قدامك »... ومع ذلك أحالنا الله إلى من نخجل منه .

ب ـ الإعتراف على الأب الكاهن .

باعتباره وكيلاً لله أو خادماً له ، وليس بصفته الشخصية . فالذى يعترف عليه إنما يعترف على الله فى سمع الكاهن . ويذكرنا هذا بقول يشوع بن نون لعخان بن كرمى « إعترف لله وأخبرنى ماذا فعلت . لا تخف عنى » (يش ٧ : ٩) .

والإعتراف على الكاهن معروف فى العهدين القديم والجديد .

كل الذين تقدموا إلى معمودية التوبة من يوحنا المعمدان الكاهن « إعتمدوا منه فى الأردن ، معترفين بخطاياهم » (متى ٣ : ٦) . والخاطىء فى العهد القديم ، كان حسب الشريعة « يقرّ بما قد أخطأ به ، ويأتى إلى الرب بذبيحة لإثمه » (لا ٥ : ٥ ، ٦) . وفى العهد الجديد « كان كثير من الذين آمنوا ، يأتون مقرين ومخبرين بأفعالهم » (أع ١٩ : ١٨) .

ويعترف المخطىء على الكاهن ، لينال الحل والسماح بالتناول .

والخجل أمام الأب الكاهن فى الإعتراف ، مفيد يساعد على عدم معاودة الخطية . لأن الخوف من خجل الإعتراف يجعله لا يرتكب الخطية مرة أخرى... إلى أن يرتقى روحياً فيتعود الخجل من الله الذى يراه ويسمعه أثناء خطيئته . كما أن التناول مع خجل الإعتراف ، يذكرنا بأكل خروف الفصح على أعشاب مرة (خر ١٢ : ٨) .

ويجب امتزاج الإعتراف بالتوبة ، وقد سمى سر التوبة .

إنه ليس تصفية لحساب قديم ، للبدء فى فتح حساب جديد ! إنما هو توبة ، والإعتراف إحدى علاماتها . والإعتراف هو أن يكشف الإنسان ذاته ، و يدين ذاته . لذلك يحتاج إلى اتضاع وانسحاق ، وخشوع أيضاً . ولهذا لا يجوز أن يكون مجرد حكايات يحكيها المعترف للأب الكاهن . كما لا يجوز فيه أن يبرر المعترف ذاته ، أو يدافع عن نفسه ، أو يلصق مسئولية أخطائه بالآخرين ، أو يحول الإعتراف إلى شكوى... ! فى كل هذا يكون الإعتراف قد خرج عن معناه كعلامة للتوبة ، وجزء من عناصرها ...

تحدثنا عن الإعتراف على الله والأب الكاهن . ننتقل إلى النوع الثالث .

ج ـ الإعتراف على من أذنبت إليه .

وذلك لكى ترضى قلبه من جهتك وتصالحه ، عملاً بقول الرب « أترك قربانك قدام المذبح ، واذهب أولاً إصطلح مع أخيك » (متى ٥ : ٢٤) . وهكذا تقول له « أخطأت إليك فى كذا وكذا ، فاغفر لى » . وهو يغفر لك عملاً بقول الكتاب « إن أخطأ إليك سبع مرات فى اليوم ، ورجع إليك سبع مرات فى اليوم قائلاً : أنا تائب ، فاغفر له » (لو ١٧ : ٤) .

يبقى النوع الرابع من الإعتراف ، وهو :

د ـ إعترافك بينك وبين نفسك أنك أخطأت .

وهذا هو المصدر لكل الإعترافات الثلاثة التى ذكرناها ، و يسبقها فى الزمن . لأنه إن لم تعترف داخل نفسك أنك أخطأت ، فعلى أى شىء إذن ستعترف على الله ، أو على الأب الكاهن ؟! وكيف تعترف على من أذنبت إليه ، إن كنت لا تشعر أنك أذنبت فى شىء... إذن لابد أن تحاسب نفسك ، وتشعر فى أعماقك باقتناع كامل أنك أخطأت . لأنه بدون هذا لا تكون توبة ولا يكون اعتراف . وقد قال القديس مقاريوس الكبير:

أحكم يا أخى على نفسك ، قبل أن يحكموا عليك .

وقال أب رهبان جبل نتريا للقديس البابا ثاوفيلس « صدقنى يا أبى لا يوجد أعظم من أن يرجع الإنسان بالملامة على نفسه فى كل شىء » ...

إذن لا بد أن تدين نفسك أولاً داخل قلبك . وهذا سيدفعك أن تدين نفسك

أمام الله ، وأن ندين نفسك أمام الأب الكاهن .

والذى لا يدين نفسه ، لا يمكنه أن يتوب .

العشار أدان نفسه . حكم على نفسه أنه خاطىء . لذلك أمكنه أن يقف فى الهيكل بخشوع يقدم توبة ، ويطلب مغفرة ، ويخرج مبرراً (لو ١٨ : ١٣) . أما الفريسى الذى لم يكن يدين نفسه فى شىء ، فلم يجد فى حياته خطأ يقدم عنه توبة ، أو يطلب عنه مغفرة !!

إن الذى يشعر أنه سليم تماماً ، هل من المعقول أن يسعى إلى الطبيب أو يطلب شفاء ؟ هكذا من الناحية الروحية : لا يطلب التوبة إلا من يعترف بأخطائه .

لما كان داود لا يحس بخطيئته ، لم يقدم توبة ...

لقد أخطأ داود ، ووسط دوامة الخطيئة ، ما كان يفكر مطلقاً فيما قد فعله . لذلك لم يقدم ندماً ولا توبة . واضطر الأمر أن يرسل الله له ناثان النبى ، الذى كشف له ثقل خطيئته وبشاعتها . فاعترف داود أنه أخطأ (٢صم ١٢ : ١٣) . ومن ذلك الوقت فقط بدأت قصة توبته .

وأيوب أيضاً ما كان يعرف أنه محارب بالبر الذاتى .

لذلك دخل فى جدل طويل مع أصحابه الثلاثة ، بل كثرت شكواه من الله نفسه ، وقال له «فى علمك أننى لست مذنباً ، ولا منقذ من يدك» (أى ١٠ : ٧) . «لأنه يعرف طريق . إذا جربنى أخرج كالذهب» (أى ٢٣ : ١٠) . وهكذا كان أيوب باراً فى عينى نفسه» (أى ٣٢ : ١) . واحتاج الأمر أن يرسل له الله اليهو بن برخئيل البوزى ليكشف له نفسه ، بل أن يكلمه الله ويشرح له ... إلى أن وصل أيوب أخيراً إلى انسحاق النفس ، وقال للرب «ها أنا حقير ، فماذا أجاوبك . وضعت يدى على فمى» (أى ٤٠ : ٤) . وقال أيضاً «قد نطقت بما لم أفهم . بعجائب فوق لم أعرفها» (أى ٤٢ : ٣) .

أكثر أمرين يمنعان الإعتراف والتوبة ، الأعذار والبر الذاتى .

كأن يعتذر الإنسان بضعفه ، أو بضعف الطبيعة البشرية عموماً ، أو بشدة الحروب الخارجية ، أو بأنه ارتكب الخطية عن جهل أو نسيان ، أو كان فيها ضحية لغيره . أو يلصق المسئولية بغيره : فيتهم الكنيسة بعدم رعايتها له ، أو يتهم أب اعترافه

بعدم الإهتمام به، أو يعاتب الله نفسه لأنه لم يرسل معونة...

أما التائب الحقيق، فلا يتهم إلا نفسه، حاملاً عار خطيئته بنفسه. ويقف أمام الله كمذنب لا يبرر ذاته، كما حدث للص اليمين الذى اعترف قائلاً «نحن بعدل جوزينا، لأننا ننال استحقاق ما فعلنا» (لو ٢٣ : ٤١).

إن الأعذار تحاول أن تغطى على الخطية، أو تخفف ثقلها.

أما البر الذاتى فهو أخطر، لأنه ينكر وجود الخطية.

إنه أخطر من الأعذار التى تعترف بوجود الخطية، وإنما تحاول أن تهرب من مسئولياتها، أو تقلل منها. أما البر الذاتى، فلا يرى أن شيئاً خاطئاً قد حدث منه. لذلك وبخ الرب الفريسيين «الواثقين بأنفسهم إنهم أبرار» (لو ١٨ : ٩). وقال إنه «لم يأت ليدعو أبراراً بل خطاة إلى التوبة» (متى ٩ : ١٣). حقاً هؤلاء الذين يرون ذواتهم أبراراً، ونفوسهم جميلة فى أعينهم... ربما ينطبق عليهم قول الكتاب «يوجد بار يبيد فى بره» (جا ٧ : ١٥). هؤلاء بعيدون تماماً عن التوبة.

وإن واجهتهم بأخطائهم، يجادلون كثيراً، ولا يعترفون.

إن السماء لا تفرح بتسعة وتسعين (باراً) من أمثلة هؤلاء، الذين يرون أنهم «لا يحتاجون إلى توبة» (لو ١٥ : ٧). بل تفرح بالخاطىء المنسحق فى توبته، معترفاً بأخطائه.

الأخطاء التى يعترف بها، هى التى يتوب عنها ويطلب مغفرة.

إننا نندم فقط على الخطايا التى نعرفها ونعترف بها. ونحتاج أيضاً أن نندم على الخطايا التى سوف نعرفها عن ماضينا، حينما يكشفها الله لنا فيما بعد، أو التى تتكشف لنا من خلال قراءاتنا الروحية وما نسمعه من العظات ومن أفواه المرشدين والآباء. فنبدأ أن نتوب عنها. وهكذا ننمو فى توبتنا، وننمو فى اعترافنا بأخطائنا.

مقاييسنا الروحية تصبح أكثر حساسية، وموازيننا تصبح أكثر دقة.

فلا نعرف فقط أخطاءنا، إنما بالأكثر نشعر بثقل هذه الخطايا وبشاعتها. إن داود النبى لما عرف عمق خطيئته، صار له عمق فى التوبة، وعمق فى انسحاق القلب وتذلله أمام الله... لذلك علينا أن نتعمق فى الفهم الروحى لنعرف حالتنا تماماً.

وجائز أن فضائلنا التى نفتخر بها الآن ، نبكى بسببها فيما بعد.

نبكي على ضآلتها وتفاهتها وضعف مستواها ، كلما تتسع أمامنا الآفاق الروحية والرؤية الروحية... ونبكي أيضاً على افتخارنا بهذه الفضائل...

المهم أن تكون لنا المعرفة الحقيقية ، سواء بأخطائنا أو نقائصنا .

وبالإعتراف يستحق الإنسان المغفرة ...

وذلك حسب قول القديس يوحنا الرسول « إن قلنا إنه ليس لنا خطية ، نضل أنفسنا وليس الحق فينا . إن اعترفنا بخطايانا ، فهو أمين وعادل حتى يغفر لنا خطايانا ، ويطهرنا من كل إثم » (١يو ١ : ٨ ، ٩) .

والإعتراف ليس هو مجرد كلمة : أخطأت .

لقد قال عخان بن كرمى هذه الكلمة بعد فوات الفرصة (يش ٧ : ٢٠) . إذ ظل بعيداً عن الإعتراف طول الوقت ، إلى أن أشار الرب إليه بالإسم . فاضطر أن يعترف . ولم ينـــل سماحاً ، بل رجمته كل الجماعة .

ويهوذا الإسخريوطى قال : أخطأت (متى ٢٧ : ٤) ، ومات هالكاً .

وفرعون - عن سياسة ، وليس عن توبة - قال : أخطأت (خر ٩ : ٢٧) . وكررها مرة أخرى فقال لموسى وهرون « أخطأت إلى الرب إلهكما وإليكما . والآن إصفحا عن خطيتى هذه المرة فقط » (خر ١٠ : ١٦) . ومع ذلك هلك فرعون ، لأن قلبه لم يكن تائباً...

الإعتراف الذى نقصده ، هو النابع من التوبة .

هو علامة من علامات التوبة ، وعنصر من عناصرها . أما الإعتراف بغير توبة ، فلا يفيد شيئاً .

مادمنا إذن فى الجسد ، ومادامت أمامنا فرصة للتوبة ، قبل أن يغلق الباب ، فلنفحص إذن ذواتنا ، ولندرك خطايانا ، ونعترف بها ، مقدمين بذلك توبة... وهكذا تتغطى الخطية بدم المسيح ، وننال عنها حِلاً . كما ننال أيضاً حَلاً عن طريق الإرشاد الروحى للسير فى الطريق السليم .

والإعتراف الممزوج بالتوبة فيه ترك للخطية وندم عليها .

ومن علامات التوبة أيضاً :

٢ - الخجل والخزى (١)

الخجل والخزى يصاحبان التوبة ، متى شعر التائب ببشاعة الخطية .

وكأنه يقول لنفسه : كيف أمكن أن أسقط إلى هذا المستوى ؟ أين كان عقلى ؟ وأين كان ضميرى ؟ حين فعلت هذا ... كيف ضعفت هكذا ؟ وكيف استسلمت ؟ وكيف نسيت صورتى الإلهية ، ووضعى الروحى ؟!

إنه يخجل من خطيته ، التى تقف أمامه كل حين (مز ٥٠) .

تطارده صور الخطية كأنها سياط من نار تلهب ضميره ، فيشعر بخجل من نفسه . وقد يخفى وجهه ويضع يديه على عينيه ، كأنه لا يريد أن يرى . هو أمام نفسه إنسان قد ضبط فى ذات الفعل .

ولا يستطيع أن يرفع وجهه إلى الله من شدة خجله .

مثل العشار الذى قيل عنه إنه « وقف من بعيد ، لا يشاء أن يرفع عينيه نحو السماء » (لو ١٨ : ١٣) . بل قرع صدره معترفاً بخطيته طالباً الرحمة .

ومثال الإبن الضال ، الذى من فرط خجله قال لأبيه « لست مستحقاً أن أدعى لك ابناً » (لو ١٥ : ١٩) .

وكلما يتذكر خطيته ، يقول مع المرتل فى المزمور :

اليوم كله خجلى أمامى ، وخزى وجهى قد غطانى (مز ٤٤ : ١٥) .

وكأنه يقول مع دانيال النبى « لك يا سيد البر. أما لنا فخزى الوجوه » (دا ٩ : ٧) . إنه يخجل من عار الخطية ومن فضيحتها . ويخجل من دنس الخطية ومن نجاستها . ويخجل من هزيمته أمام الخطية ، كما لو كان جندياً سلم سلاحه للعدو وأخذ أسيراً ...

ويخجل من محبة الله له ، ومن قدسية الله ...

يخجل كلما قارن معاملته لله ، بمعاملة الله له . وكيف أنه قابل محبة الله بالجحود

(١) أنظر كتابنا (اليقظة الروحية) فيه فصل عن الخجل والخزى كأحد المشاعر التى تصاحب اليقظة الروحية (من ص ٦٥ إلى ص ٧٤) .

والنكران، بل وبالخيانة أيضاً... وكيف أن الله كان يراه فى سقطاته، الله الكلى القداسة والكمال... ويخجل من طول أناة الله عليه، وكيف صبر عليه حتى تاب.

ويخجل من أرواح القديسين والملائكة.

الذين كانوا يرونه فى سقطته ويتعجبون، ويصلون من أجله لكى يقوم... بل يخجل أيضاً من أرواح أقربائه وأصدقائه الذين انتقلوا، وكيف إنهم لابد تعجبوا إذ رأوا أن حالته هكذا...! كيف يواجههم فيما بعد.

بل يخجل من أعدائه الذين يشمتون به إن عرفوا سقطاته.

هو يخجل من كل هؤلاء، بل يخجل أيضاً من الكنيسة وقدسيتها، ويخجل من الهيكل والمذبح ومن التقدم للتناول. ويخجل من صلواته التى فيها عبارات عن محبة الله والإلتصاق به، وهو الذى فصل نفسه عن هذه المحبة...

ويخجل من وعوده التى وعد بها الله قبلاً.

وكيف أنه حنث بكل عهوده، حتى تلك التى كلم الله فيها بجدية كبيرة، وربما كان ذلك أمام المذبح، أو وهو واضع يده على الإنجيل، أو فى مناسبات روحية...

ويخجل أيضاً فى اعترافاته، كلما يذكر بشاعة خطاياه.

نفسه تصغر فى عينيه. ويشعر باحتقار لهذه النفس فى حالة سقوطها وضعفها، وكأنه يريد أن يتبرأ من ماضيه كله. ويخزى من نسبة هذا الماضى إليه...

ومع هذا كله، فالخزى من الخطية علامة صحية.

إنها تدل على أن الإنسان رافض لها ومشمئز منها. وهذه علامة على نقاوة القلب، وتختلف عن حالة السقوط التى كان فيها قابلاً للخطية أو راضياً عنها أو ملتذاً بها. وإن بقى معه هذا الخزى من الخطية، فإنه يساعده على عدم السقوط فى المستقبل.

وهناك أنواع من الناس تحاول الهروب من الخزى والخجل.

وذلك بأعمال خاطئة تدفعهم إلى التمادى فى الخطية. إذ قد يستغل الشيطان خجلهم من خطاياهم السابقة، ويدفعهم إلى تغيير الوسط الدينى الذى يعيشون فيه، والذى يخجلون من مقارنة سقطاتهم بنقاوته، أو يدعوهم الى تغيير أب الإعتراف، إذ

يخجلون من سرد خطاياهم أمامه، أو إلى ترك الإعتراف كله، أو ترك الكنيسة وحياة التدين. أو إنهم يهربون من خجلهم، بالإستغراق فى حياة الترفيه واللهو والضحك...

وكل هذه تصرفات يائسة ضد حياة التوبة .

لذلك نحن نطوّب التائبين الذين يشعرون بالخزى من خطاياهم.

و يرافق هذا الخزى أيضاً الندم والدموع ووخز الضمير.

٣- الندم والألم والدموع

الألم بسبب الخطية ، علامة من علامات التوبة الحقيقية .

وعنه قال داود النبي فى المزمور السادس « لأن عظامى قد اضطربت ، ونفسى قد انزعجت جداً» (مز ٦). حقاً إن السيد المسيح قد تألم عن خطايانا ، ولكن يجب أن ندخل معه فى «شركة آلامه» (فى ٣ : ١٠).

وألم التائب بسبب الخطية ، يتوازن مع لذته السابقة بها .

هذه اللذة التى حصل عليها قبلاً ، يردها فى التوبة أربعة أضعاف ، بتحمل آلام وخز الضمير وتبكيته. بل إن عبارة «البكاء وصرير الأسنان» يقاسيها حرفياً فى توبته بمقياس ما ، فى جحيم يجوزه هنا على الأرض ، كالمحرقة التى تجتاز النار إرضاء لقلب الله (لا ١). وقد يبكت نفسه تبكيتاً شديداً، و يؤدبها و يعاقبها بعنف. بل قد يطلب من أب الإعتراف عقوبات روحية ، لعل ضميره يستريح ولو قليلاً. فبالعقوبات يعلن احتجاجه على خطاياه.

الذى يتوب حاملاً عاره ، يقبل نوعين من العقوبة .

النوع الأول هو العقوبات التى يفرضها على نفسه ، سواء بالتوبيخ المر، أو بحرمان من أشياء تحبها نفسه ، لتزهد هذا العالم الذى أحبته قبلاً .

---

(١) محاضرة الدموع قديمة ، ترجع إلى سنة ١٩٦٤ . أضيفت إليها محاضرة بعنوان (يحمل عاره) ألقيت فى الكاتدرائية الكبرى يوم ١٩٧٤/٤/٧.

والنوع الثانى هو كل عقوبات تأتيه من الخارج ، سواء من الله أو من الناس. فيقبل كل تلك العقوبات برضى ، وبغير تذمر ولا شكوى ، وهو مقتنع بها وشاعر أنها أقل مما يستحق .

حتى العقوبات التى تصيبه ظلماً ، يقبلها أيضاً برضى .

مثلما حدث للقديس مار افرام السريانى الذى سجن مرة ظلماً ، فقبل هذا وقال إنه يستحقه عن خطية قديمة لا علاقة لها بهذا الموضوع . ومثلما قبل داود النبي تعيير وشتائم شمعى بن جيرا (٢صم ١٦ : ٥- ١٠) . ومثلما قبل القديس موسى الأسود طرده يوم سيامته قساً وقال لنفسه «حسناً فعلوا بك يا أسود اللون يا رمادى الجلد...» .

الذين لا يحتملون الأدب ولا العقوبة ، هم بعيدون عن التوبة .

لأن التائب الحقيقى يشعر باستحقاقه لكل ما يأتى عليه . ولا يرفض مطلقاً ما تجلبه الخطية من مرارة ، بل يقبلها بشكر ، حاملاً عاره . والألم نتيجة واضحة للخطية ، كما حدث لآدم وحواء (تك ٣ : ١٦ ، ١٧) . لا يجوز الهروب منها .

وكلما استمرت العقوبة فترة أطول ، يتنقى القلب بالأكثر .

مثل الغسيل الذى يستمر فى الغلى فترة طويلة ، يصبح أكثر نظافة . ومثل الذهب الذى يبقى فى النار فترة مناسبة ، يتنقى من الشوائب . وعلى عكس هذا فإن الذى ينال المغفرة بسهولة ، هارباً مما تجلبه الخطية من ألم ... هذا ما أسهل أن يرجع إلى الخطية مرة أخرى ، إذ لا يشعر ببشاعة نتائج الخطية ... ! .

لا تقل الرب حل عنى كل الآلام ، وأنا أستريح !

لا تنظر إلى آلام المسيح بهذه اللامبالاه ، مفكراً فى ذاتك وحدك . وتذكر أن الذين تناولوا الفصح ، إنما أكلوه على أعشاب مرة (خر ١٢ : ٨) . فما مركز الأعشاب المرة فى حياتك؟ وما مدى دخولك فى شركة آلام المسيح؟

إن رأيت المسيح يحمل الصليب فداء لخطاياك ، إجرِ وراءه وقل له «أعطنى أن أحمله معك كالقيروانى (لو ٢٣ : ٢٦) . أو قل له فى ألم :

أنا يارب صليبك ، حملتنى هذا الزمان الطويل كله .

أنا يارب الأشواك التى وضعوها حول رأسك . أنا المسامير التى ثقبوا بها يديك

وقدميك. ليتنى أصلب معك مثل اللص اليمين. أو ليتنى أقول مع بولس الرسول «مع المسيح صُلبت...» (غل ٢: ٢٠). ولا تدع آلام المسيح عنك تدعوك إلى الاستهتار وأنت تنظر إلى خطاياك بغير ألم.

وإن كان يجب علينا أن نخرج مع الرب خارج المحلة حاملين عاره (عب ١٣: ١٣)، فعلى الأقل: لنحمل عار أنفسنا، فى مذلة وفى دموع.



الدموع

الدموع أنواع كثيرة. ولكننا هنا نتكلم عن نوع واحد منها، وهو دموع التوبة، التى يبكى بها الإنسان على خطاياه.

لا تظنوا أن البكاء على الخطايا، هى درجة للمبتدئين. فكثير من القديسين الكبار كانوا يبكون على خطاياهم. بل كان هذا هو منهج روحى معروف لآباء البرية...

ولعل أبرز الأمثلة للبكاء على الخطية، داود النبى.

هذا الذى قال «فى كل ليلة أعوم سريرى، وبدموعى أبل فراشى» (مز ٦: ٦). كم كانت كمية بكاء هذا النبى التائب، الذى كان يعوم سريره بدموعه؟ فهل كان يبكى على خطاياه، حينما يعود إلى بيته فقط فى نهاية كل يوم عند المساء؟ كلا، فهو يقول «صارت دموعى لى خبزاً نهاراً وليلاً» (مز ٤٢: ٣). حتى أثناء أكله وشربه، يقول «أكلت الرماد مثل الخبز، ومزجت شرابى بالدموع» (مز ١٠٢: ٩). أى أنه فيما هو يشرب، تتساقط دموعه فى كوب شرابه، فيمزج شرابه بالدموع.

وكانت دموعه غزيرة، على الرغم من العظمة المحيطة به.

إذ كان ملكاً، وقائداً للجيش، وقاضياً للشعب، ورب أسرة كبيرة. ومع ذلك، فهو لا يهتم بكل هذه العظمة وهذا الترف حتى يقول للرب «انصت إلى دموعى» (مز ٣٩: ١٢). ويقول له «إجعل دموعى فى زق عندك» (مز ٥٦: ٨).

ولعل إنساناً يسأل : لماذا أبكى وخطيتى قد غفرت ؟

فنقول له : إن داود بكى على خطيته بعد أن غفرت ، وليس قبل ذلك . فقبل المغفرة ما كان يحس بخطورة سقطته وبشاعتها ، إلى أن نبهه ناثان النبى إلى ذلك ، فاعترف بخطيته ، وغفر له الله على لسان ناثان النبي الذى قال له « الرب قد نقل عنك خطيئتك . لا تموت » (٢صم ١٢ : ١٣) . وبعد ذلك بكى داود كل ذلك البكاء... فلماذا بكى؟ هل كان ذلك خوفاً من عقوبة أو طلباً لمغفرة؟ كلا .

إن العبد يبكى خوفاً من العقوبة .

أما الإبن فيبكى من حساسية قلبه تجاه أبيه .

فمن منا بكى مثل بكاء داود ؟ من منا عوّم سريره بدموعه ليلة واحدة ، وليس فى كل ليلة مثله؟ لقد ظل داود يبكى على خطيته طول حياته . ولم يسترح من بكائه إلا عند موته . فحينما اقترب من الموت قال «إرجعى يا نفسى إلى موضع راحتك ، فإن الرب قد أحسن إلىّ . وأنقذ نفسى من الموت ، وعينىّ من الدموع » (مز ١١٤) . أنقذه من الموت الأبدى بقبول توبته . وأنقذ عينيه من الدموع ، لأنه نقله إلى « الموضع الذى هرب منه الحزن والكآبة والتنهد » . وأنقذه الرب من الدموع هناك ، لأنه بكى ههنا بما يكفى .

يذكرنا هذا بقصة القديس أرسانيوس الذى بكى كثيراً .

بكى وهو فى حالة القداسة ، وهو عمود فى البرية . بكى حتى تساقطت رموش عينيه من كثرة البكاء . وكان فى الصيف يبلل خوصه بالدموع . وكان يضع منشفة على حجره وهو جالس يستقبل فيها الدموع... وساعة موته بكى كثيراً . فقال له تلاميذه «حتى أنت يا أبانا تخاف من هذه الساعة ؟!» . فقال لهم «إن خوف هذه الساعة ملازم لى منذ دخلت إلى الرهبنة » ...

فإن كان هذا القديس يبكى ، على الرغم من فضائله الكثيرة ، وعلى الرغم من تواضعه ومن حكمته وصمته ، وسهره طول الليل فى الصلاة ، وعلى الرغم من أن البابا كان يطلب زيارته ملتمساً منه كلمة منفعة... فماذا نقول نحن عن أنفسنا ؟!

لذلك حينما سمع القديس الأنبا بيمن عن نياحة القديس أرسانيوس ، قال :

طوباك يا أبانا أرسانيوس لأنك بكيت على نفسك فى هذا العالم .

وتابع عبارته قائلاً « لأن الذى لا يبكى على نفسه فى هذا العالم، لا بد سيبكى إلى الأبد فى العالم الآخر. أما بكاؤه ههنا فباختياره. ولكن هناك بسبب العذابات التى سينالها. ومن المستحيل على إنسان أن يفلت من البكاء هنا وهناك...

وكان هذا البكاء هو نصيحة القديس مكاريوس قبل وفاته .

قال القديس بلاديوس : سمعت أن الشيوخ الذين فى نتريا ، أرسلوا إلى أبا مقاريوس الكبير الذى كان يسكن فى الإسقيط ، وتوسلوا إليه قائلين « نرجوك يا أبانا أن تأتى إلينا حتى نراك قبل أن ترحل إلى الرب ، لكيما لا ينتقل كل الناس إليك » . ولما ذهب إليهم تجمعوا كلهم معاً إليه . وطلب إليه الشيوخ متوسلين أن يقول للأخوة كلمة منفعة . فبكى الرجل القديس وقال لهم :

فلنبكِ يا إخوتى ، ولتفض عيوننا بالدموع ، قبل أن نذهب إلى المكان الذى تحرق فيه دموعنا أجسادنا .

فبكوا كلهم ، وسقطوا على وجوههم قائلين : صلِّ عنا أيها الأب .

ماذا فعل القديسون من خطايا ، حتى بكوا هكذا ؟! ... وحتى كانت النصيحة المألوفة التى يقولها كل شيخ لمن يأتى طالباً إرشاده « إجلس فى قلايتك ، وابكِ على خطاياك » ... إن كان هذا هو منهج القديسين ، فكم بالأولى نفعل نحن ، ولنا خطايا لا تحصى ...

أنظروا أيضاً إلى بكاء رجل شيخ مثل **بطرس الرسول** ، هذا الذى لما أحس بنكرانه للرب « خرج إلى خارج ، وبكى بكاء مراً » (متى ٢٦ : ٧٥) . إن بكاء الشيوخ أكثر تأثيراً فى النفس من بكاء الصغار والأحداث .

ومن الذين اشتهروا بالبكاء أيضاً ، القديس ايسيذوروس .

إنه قس القلالى العظيم ، الذى كان تحت إرشاده الروحى حوالى ثلاثة آلاف راهباً . وكان هو أب اعتراف القديس موسى الأسود . وكان رجل رؤى وعجائب ، وكان الشياطين يخافونه ويهابونه جداً ويهربون منه... ومع ذلك كان هذا القديس يبكى بدموع غزيرة ، ويجهش بالبكاء بصوت عالٍ . لدرجة أن تلميذه الذى يسكن إلى جواره سمعه مرة يبكى ، فدخل إليه وسأله « لماذا تبكى يا أبى ؟ » فأجابه « أنا يا إبنى أبكى على خطاياى » . فقال التلميذ « حتى أنت يا أبانا ، لك خطايا تبكى

عليها ؟! » فأجابه القديس : صدقني يا إبني ، لو أن الله كشف لى كل خطاياى ، ما كان يكفى ثلاثة أو أربعة يبكون معى عليها ... !

إنها حساسية فى القلب المرهف ، والضمير الدقيق .

يبكى لأنه أغضب الله المحب ، ولأنه نزل عن المستوى الروحى اللائق به كصورة الله ، ولأنه سقط وما كان ينبغى أن يسقط . ويبكى خجلاً من حاله . ومهما غفرت الخطية ، هذا لا يمنع أنها حدثت...

لقد غفر الله نكران بطرس ، ولكن التاريخ لا يزال يتحدث عن ذلك النكران . وغفر الله لراحاب ، ومع ذلك فالكتاب المقدس يتحدث عنها بلقب « راحاب الزانية » (عب ١١ : ٣١) .

والكنيسة تعملنا أن نبكى ، فى كل يوم ...

فكل منا يقف ليصلى فى الهجعة الثانية من صلاة نصف الليل فى كل يوم ليقول « أعطنى يارب ينابيع دموع كثيرة ، كما أعطيت منذ القديم للمرأة الخاطئة ... » . وتعطينا الكنيسة فصل الإنجيل الخاص بهذه المرأة التى بلت قدمى المسيح بدموعها ومسحتها بشعر رأسها (لو ٧ : ٣٦- ٥٠) ، لكى نقرأه ، ونتخذ هذه المرأة مثالاً لنا فى البكاء على الخطية « لكى نقتنى لنا عمراً نقياً بالتوبة » .

فإن صليت هذه الصلاة فى نصف الليل ، قل : « أعطنى يارب ينابيع دموع كثيرة ، لأبكى على كذا وكذا ... » ، واذكر أمام الله كل خطاياك وضعفاتك ونقائصك وسقوطك... وليتك تذكرها بدموع قدامه .

تقول : ولماذا أذكرها ، وقد غفرها المسيح ؟ ... هنا ، ويناسبنا جداً أن نتذكر قول القديس العظيم الأنبا أنطونيوس :

إن ذكرنا خطايانا ، ينساها لنا الله ،
وإن نسينا خطايانا ، يذكرها لنا الله .

نعم أذكر خطاياك لكى تعرف ضعفك فتحترس وتدقق فى حياتك . واذكرها لكى تعرف كم غفر الله لك ، وكم حمل عنك على الصليب ، فتحبه . وتكون دموعك علامة حب ، كما كانت دموع المرأة الخاطئة .

القلب الرقيق هو الذى يبكى . أما القلب القاسى فلا يبكى .

فليكن قلبك رقيقاً فى توبتك . وليكن بكاؤك نوعاً من الإعتذار تقدمه للرب الذى أخطأت إليه، وليكن بكاؤك دليلاً على خجلك مما فعلت. وثق أن الذى يبكى على خطاياه، لا يرجع إليها بسهولة مرة أخرى. لأنه ذاق مقدار الألم الذى تجلبه الخطية للقلب وللضمير...

والله يدعونا إلى بكاء التوبة هذا ...

فيقول فى سفر يوئيل النبى « إرجعوا إلىّ بكل قلوبكم ، وبالصوم والبكاء والنوح. ومزقوا قلوبكم لا ثيابكم، وارجعوا الى الرب إلهكم...» (يوء ٢ : ١٢، ١٣) . ويقول فى سفر ملاخى النبى « مغطين مذبح الرب بالدموع بالبكاء والصراخ» (ملا ٢ : ١٣) . كما يقول أيضاً «طوباكم أيها الباكون الآن» (لو ٦ : ٢١)، «طوبى للحزانى، لأنهم يتعزون» (متى ٥ : ٤).

إبكِ إذن على خطيتك . وحينئذ سيعزيك قول المزمور :

الرب سمع صوت بكائى ... الرب لصلاتى سمع (مز ٦) .

قال داود هذا بعد قوله « وبدموعى أبل فراشى » ...

إن الدموع علامة للتوبة ، ولها استجابة عند الرب . لها صوت يسمعه الرب، فيحن قلبه. وما أجمل قول المرتل:

الذين يزرعون بالدموع ، يحصدون بالإبتهاج (مز ١٢٦ : ٥) .

هذا الإبتهاج هو التعزية التى يحصدها الإنسان من دموعه .

ولكن إحذر من أن تكون دموعك مصطنعة ، أو أن تكون سبباً للبر الذاتى، بدلاً من أن تكون دموعك سبباً لانسحاق القلب، أو نتيجة له، أو علامة على التوبة. وعلى رأى أحد القديسين «إذا أتتك الدموع، فتذكر السبب الذى من أجله جاءت». أى تذكر خطيتك التى سببت لك الدموع. حينئذ لا ترتفع بدموعك بل تنسحق...

ولكن ربما يقول أحدهم : ومن أين لى الدموع ؟ وهل إذا لم أبكِ لا أكون تائباً، أو لا يقبل الله توبتى. كلا، يقبلك الله. ولكن إبحث لماذا هربت منك الدموع.

إن للدموع أسباباً تجلبها ، وأسباباً تمنعها .

ولعل السبب الأول هو نوعية القلب . فالقلب الرقيق بطبعه، يكون سهل التأثر وسهل البكاء، مثل قلب أرمياء النبي و ومثل قلب داود... وهناك قلوب أخرى ليس من السهل أن تبكي. وإن بكت، فلابد أن يكون هناك سبب دفعها إلى البكاء كان أقوى من مقاومة طبعها . ويكون تأثرها أكثر.

رقة القلب إذن تجلب الدموع . وتمنعها القسوة والعنف .

إذن إسعَ إلى هذه الرقة فى حياتك، وابعد عن العنف. واعرف أن القسوة لا تتفق مطلقاً مع حياة التوبة. فالتائب إنسان يترجى مراحم الله . والكتاب يقول «طوبى للرحماء فإنهم يرحمون» (متى ٥ : ٧). فعليه إذن أن يكون رحيماً، لكى يعامله الله بنفس الرحمة. لأنه يقول «بالكيل الذى به تكيلون، يكال لكم» (متى ٧ : ٢).

وإدانة الآخرين أيضاً تمنع الدموع .

لأن الذى يدين غيره ، لايكون منشغلاً بخطاياه ، وإنما بخطايا الآخرين. ويكون ناسياً ضعفاته وسقطاته، ومركزاً على ضعفات غيره، فكيف يبكى مثل هذا؟ وعلى من؟ ويزداد مثل هذا بعداً عن الدموع، إن كانت إدانته لغيره فيها قسوة أو عنف أو تجنٍ، أو كان شديداً فى توبيخ غيره على أخطائه.

ومن الأسباب التى تمنع الدموع : الغضب .

فالمفروض أن يغضب الإنسان التائب على نفسه وليس على غيره. فإن غضب على غيره، تتركز كل عواطفه وأفكاره فى اخطاء غيره. وحينئذ تفارقه الدموع حتى إن كانت له من قبل. وفى الغضب أيضاً قسوة وعنف...

ومن الأشياء التى تمنع الدموع أيضاً : المتعة واللذة .

فالذى يحيا فى رفاهية ومتعة ، فى ملاذ العالم المتنوعة ، من الصعب أن تأتيه الدموع . وعموماً أمثال هذه الأمور لا تتفق مع حياة التوبة، التى يضيق فيها الإنسان على نفسه، ويعاقب ذاته، ويحرمها من كثير من المتع، ويفرض عليها أصواماً.

ولهذا كانت التوبة عند كثيرين مصحوبة بالصوم والمسوح والتذلل وأشباهها، كما فى الصوم أيام يوئيل، وكما فى صوم نينوى. وهذه تتفق مع التوبة ومع الدموع.

وطبعاً مما يبعد عن الدموع : الضحك والفرح .

حقاً إن لكل شيء تحت السموات وقت « فللضحك وقت ، وللبكاء وقت » (جا ٣ : ٤) . ولكن الضحك والمزاح ليس هو زمان التوبة ولا وقتها . وحياة اللهو والتهكم والفرح ومباهج الدنيا المختلفة... كل هذه لا تتفق مع الدموع ، بل تعوقها ، لأن الذى يبكى على خطاياه ، هو إنسان يعصره الحزن على سقطاته...

ومن الأشياء التى تجلب الدموع ، الشعور بغربة العالم .

شعور الإنسان إنه غريب على الأرض ، لا يصح أن يضع آماله فيها . بل على العكس عليه أن يزهد العالم وكل ما فيه ، ويستعد لأبديته... كل ذلك يساعد على الدموع .

وهكذا تذكار الموت والدينونة والعالم الآخر.

كل ذلك يجلب الدموع . ولذلك وضعت لنا الكنيسة أن نتذكر الموت فى صلاة النوم ، ونتذكر مجىء المسيح الثانى فى صلاة نصف الليل ، ونتذكر فى كليهما وفى صلاة الستار أيضاً الدينونة العتيدة أن تكون... وهذا كل يوم... لأن كل هذه التذكارات نافعة لنا ، تساعدنا على التوبة والإستعداد ، كما أنها تجلب الدموع . وهكذا كانت زيارة القبور تجلب الدموع أيضاً ، إذ فيها يقول التائب مع داود النبى « عرفنى يارب نهايتى ، ومقدار أيامى كم هى ، لأعلم كيف أنا زائل » (مز ٣٩ : ٤) .

كذلك حياة الإتضاع والإنسحاق تساعد على الدموع .

بينما الكبرياء والعظمة ومحبة المديح ... كل هذه لا تتفق مع مشاعر التوبة ، ولا تتفق مع الدموع .

ولهذا يحسن أن ننتقل إلى هذه النقطة من علامات التوبة .

٤ - الانسحاق والاتضاع

التائب الحقيق يعيش بنفس منسحقة ، يعصره الخجل والندم ، ويشعر بمذلة الخطية . ويسلك بهذه المذلة داخل نفسه ، وأمام الله . ويظهر ذلك فى معاملاته للناس .

وهو فى انسحاقه يبكت ذاته باستمرار على ما اقترفته .

يبكتها على أيام حياته التى ضاعت بلا ثمر ، و يبكتها على ضعفها وسقوطها وخيانتها للرب . و يقول لها « كثيرون غيرى سبقونى من زمان ، ووصلوا إلى علاقات حب عميقة مع الله ... وأنا مازلت أجاهد لأتوب ... ! فإلى متى هذا التوانى والكسل ؟! » .

ينوح هذا التائب على ذاته التى سقطت ، متذكراً قول مار اسحق « التائب الذى لا ينوح فى كل يوم بسبب خطاياه ، فليعرف أنه أضاع ذلك اليوم ، ولو صنع فيه كل خير» ...

وتبكيته لذاته ، يجعلها تتضع ، مهما تغيرت حياتها فى التوبة .

ومهما فعلت فى توبتها من حسنات ، فإنها لا ترتفع ، لأن خطيتها أمامها فى كل حين . والإنسان يذكّر نفسه بسقطاتها حتى لا ترتفع ، وحتى لا تدفعها ثمار التوبة إلى أفكار المجد الباطل . وكما قال مار اسحق أيضاً « إذا حوربت بأفكار المجد الباطل فلا تقبلها . إنما ذكّر مريم بزناها ، واسرائيل بانغلابه » ...

و بلومك لنفسك ومعرفتك لضعفك ، تقتنى اتضاع الفكر .

والتائب المتضع يرى أنه مستحق لكل حزن يصيبه .

لذلك فإنه يقبل كل ما يأتى عليه فى هدوء ورضى ، و بغير تذمر ولا تعب ولا شكوى ، شاعراً فى أعماقه أنه يستحق أكثر من هذا بكثير . بل يرتل مع داود قائلاً « خير لى يارب أنك أذللتنى ، حتى أتعلم حقوقك » (مز ١١٩) .

وكلما طالت فترة إنسحاق التائب ، تزداد توبته عمقاً .

لأنه يدرك مذلة الخطية ، و بشاعتها ، ونتائجها داخل نفسه . كما يدرك أيضاً ضعفه ، فيتعود فى حياته الإحتراس والتدقيق . ومسكين هو الإنسان الذى فى التوبة ، يرى أن حياته قد تغيرت ، فيظن أنه لم يعد فى حاجة إلى جهاد وإلى احتراس ، ناسياً ضعفه السابق ... !

خطورة على التائب ، أن يترك الإنسحاق بسرعة إلى الفرح .

فالخطية التى لم تأخذ فى التوبة حظها من الإنسحاق والمذلة ، ما أسهل أن يعود الإنسان إليها ، لأن خطورتها و بشاعتها لم تنغرس طو يلاً فى أعماقه .

إن داود لم يسرع فى توبته إلى الفرح، بل بقى منسحقاً تشهد مزاميره على انسحاقه. ومريم القبطية استمرت سنوات طويلة فى انسحاق نفسها. و يعقوب المجاهد استمر حوالى ١٨ سنة يبكى على خطاياه...

وفى حياة التوبة، ما أخطر الذين ينتقلون بسرعة من الخطية إلى الخدمة، أو إلى اشتهاء المواهب.

وقد يقف إنسان حديث التوبة على منبر الكنيسة، ليحكى خبراته الروحية، فيقول فى بساطة «حينما كنت خاطئاً» أو «حينما كنت أعيش فى الخطية»... كما لو كان حالياً لا علاقة له بالخطية، التى هى من أخبار الماضى وحده...! وتسأل مثل هذا الإنسان «والآن، ألا تخطىء؟» فيقول لك «الآن نشكر المسيح» يقصد أنه يشكره على البر الذى يعيش فيه... بل قد يتحدث بكل جرأة عن النور الذى يضىء فى قلبه حالياً، والحب الذى يملأ قلبه من نحو الله...

ما أخطر عبارة «حينما كنت خاطئاً ...».

إنها خالية من الإتضاع. بل تدل على عدم معرفة حقيقية للنفس. وهى لا تتفق مع توبة العشار وصلاته فى الهيكل، ولا مع قول بولس الرسول «الخطاة الذين أولهم أنا». ولا تتفق مع كل قصص التوبة فى سير القديسين.

أنت يا أخى كنت خاطئاً، ومازلت خاطئاً.

والفرق بين حالتك السابقة، وحالتك الآن: أنك كنت خاطئاً ومستمراً فى الخطية، وربما ماكنت تدرى بنفسك. أما الآن فأنت خاطىء، وتشعر أنك خاطىء، وتجاهد بنعمة الرب معك أن تتوب. والتوبة قد تستمر معك طول الحياة، إلى أن تصل إلى النقاوة[1].

إن الذى لا يشعر أنه خاطىء، إنما يرتكب بهذا خطيه أكبر.

لأنه لا يوجد أحد بلا خطية، ولو كانت حياته يوماً واحداً.

كلنا نخطىء، فى كل يوم. وكلنا نقف فى كل ساعة أمام الله كخطاة. وفى الصلاة الربية التى نصليها باستمرار، نقول «إغفر لنا خطايانا...». ونردد هذا فى

(١) أنظر الباب الخامس الخاص بحياة النقاوة فى هذا الكتاب ...

باقى صلواتنا . حتى لو كنت صديقاً ، هوذا الكتاب يقول « الصديق يسقط سبع مرات و يقوم » (أم ٢٤ : ١٦) .

ربما أنت الآن تائب . ولكنك لست معصوماً . ولن تصل إلى نقاوة القلب إلا بانسحاق النفس .

والذى لا يقتنى الإنسحاق ، ليس هو تائباً بالحقيقة .

إنه - لا شك - لا يعرف نفسه . وهو إنما يبنى على أساس خاطىء يقوده إلى العجرفة . ما أجمل تلك المديحة التى نقول فيها للرب « الخطية ذى طبعى . وانت طبعك الغفران » .

إقرأ عن القديسين الذين تابوا ، واحتفظوا بمسكنة قلوبهم .

بل احتفظوا أيضاً بمذلة نفوسهم . وإن جاءهم فكر إنهم تابوا ، كانوا يرجعون الفضل إلى الله « المقيم المسكين من التراب ، والرافع البائس من المزبلة » (مز ١١٢) . و يصرون على اعتبار أنفسهم خطاة طول أيام حياتهم . مثل القديس العظيم الأنبا شيشوى الذى شاهدوه فى ساعة موته يطلب فرصة لكى يتوب .

لذلك مهما نموت فى النعمة ، الأفضل لك أن تقول :

أريد أن أبقى فى مشاعر التوبة طول عمرى .

عش فى انسحاق القلب ، لأنه « قريب هو الرب من منسحقى القلب » (مز ٣٣) . وإن حاربك الشيطان أن تصعد إلى الدرجات العليا ، وأن تجلس فى السماويات » ، وأن تحصل على المواهب... فقل : أنا لم أصل بعد إلى شىء من هذا . كل ما أعرفه عن نفسى أننى خاطىء يريد أن يتوب .

وإن دخلت فى الخدمة ، لا تجعلها تنسيك خطيتك .

ولا تجعل نجاحك فى أى عمل روحى ، ينسيك دموعك وانسحاقك . بل على العكس وبخ نفسك وقل : من أنا حتى أخدم . أنا لم أصل إلى روحيات الخادم ، مهما كانت لى من معلومات... والمعلومات ليست هى التى تخلص النفس...

إن بولس الرسول ظل منسحقاً حتى بعد الرسولية .

ظلت خطيته أمامه ، حتى بعد الرؤى والإستعلانات والعجائب ، وحتى بعد أن صعد إلى السماء الثالثة ، وبعد أن تعب أكثر من جميع الرسل (١كو ١٥ : ١٠) .

فى حديثه عن ظهور الرب لتلاميذه بعد القيامة ، يقول « وآخر الكل كأنه للسقط ظهر لى أنا ، لأنى أصغر الرسل ، أنا لست أهلاً أن أدعى رسولاً ، لأنى اضطهدت كنيسة الله » (١كو١٥ : ٨، ٩) . ثم يقول فى رسالته الأولى إلى تلميذه تيموثاوس « أنا الذى كنت قبلاً مجدفاً ومضطهداً ومفترياً . ولكننى رُحمت لأنى فعلت ذلك بجهل فى عدم إيمان » (١تى ١ : ٣) .

ولعلنا نقول له : لست أنت أيها القديس العظيم بولس الرسول ، إنه شاول الطرسوسى . أما أنت فشخص جديد فى المسيح يسوع ، كارزاً ومبشراً ورسولاً وبانياً للملكوت . ولكن هذا القديس يظل فى انسحاقه ويقول « أنا الذى لست مستحقاً أن أدعى رسولاً ... » .

خطيته القديمة إنتهت من جهة العقوبة ، وليس من الذاكرة .

مازالت فى ذاكرته ، تمنحه الإنسحاق ، والشعور بعدم الإستحقاق . وعلى الرغم من السنوات الطويلة فى الخدمة ، يحيا فيها كمبتدىء ، كأصغر الرسل ، كأول الخطاة ...

عِش أنت أيضاً كمبتدىء ، كل أيام حياتك .

وكأنك لا تزال طفلاً فى حياة الروح . ويكفيك أن « الرب يحفظ الأطفال » (مز ١١٤) . ولا تظن مطلقاً أنك وصلت إلى هدفك الروحى . فبولس الرسول العظيم يقول « لست أحسب نفسى قد أدركت أو نلت شيئاً ... لكننى أسعى لعلى أدرك » (فى ٣: ١٢، ١٣) . بل إن القديس العظيم الأنبا أرسانيوس كان يصلى قائلاً « هبنى يارب أن أبدأ » ... كأنه لم يبدأ بعد ... !

الإنسحاق علامة من علامات التوبة . ومن علاماتها أيضاً :

٥ - إصلاح نتائج الخطأ

لا يكفى مطلقاً أن تترك الخطية وتتوب عنها ، وتعترف بها وتنال الحل ... إنما يجب أن تصلح نتائج خطيتك على قدر ما تستطيع ... وسنضرب لذلك بعض أمثلة :

لنفرض أن إنساناً سرق ، هل يكفى أن يعترف بالسرقة ؟

هل اعترافه يكفى للمغفرة ، بينما لا يزال يوجد عنده مال حرام حصل عليه

بالسرقة؟ كلا. بل على قدر طاقته يعيد الشيء المسروق إلى أصحابه، إن كان بإمكانه أن يفعل هذا، ولو بطريقة غير مكشوفة...

وإن كان قد ظلم أحداً، يحاول معالجة هذا الظلم.

وهوذا أمامنا مثل واضح لتعليمنا هو زكا رئيس العشارين. هذا لما تاب، قال للرب علانية «ها أنا يارب أعطى نصف أموالى للمساكين. وإن كنت قد وشيت بأحد، أرد أربعة أضعاف» (لو ١٩: ٨). فإن كنت لا تستطيع أن تفعل مثل زكا وترد أربعة أضعاف، فعلى الأقل رد المسروق نفسه، أو ردّ الظلم وعالجه، بدون أضعاف....

إنك تشعر بجمال التوبة، إن كنت فيها ترد الحق لأصحابه.

ألعلك تشعر بخجل فى ذلك، إذ تعترف عملياً أنك ظلمت وسرقت. هذا خير لك، لأن مثل هذا الخجل يكون كحصن لك يمنعك من ارتكاب هذه الخطية مرة أخرى. كما أنك فى داخلك، ستشعر بأن توبتك مبنية على قيم لها احترامها، فيفرح قلبك و يتعزى...

كذلك إن كنت قد شهّرت بأحد، وأسأت إلى سمعته.

أليس من حقه - فى توبتك - أن ترد إليه اعتباره، مادمت قد ظلمته وأسأت إليه، وبخاصة من يشيع على أحد كلام كذب تكون له نتائج سيئة فى حياته...

فماذا إن كان إصلاح نتائج الخطية غير ممكن؟

إن كان بالحق غير ممكن، فعلى الأقل تنسحق نفسك لهذا السبب، أنك ارتكبت خطايا من الصعب علاجها...!

علامة أخرى من علامات التوبة وهى:

٦- الإشفاق على المخطئين

قال مار اسحق «الذى ينوح على نفسه، ليس يعرف سقطات غيره، ولا يلوم أحداً على إساءة».

إن تاب إنسان، فى شعوره بالإنسحاق وعدم الإستحقاق، **لا يفكر مطلقاً فى خطايا غيره**، ولا يدين أحداً، إذ هو نفسه **واقع تحت الدينونة بسبب خطاياه. وكما**

قال السيد للذين أرادوا رجم المرأة الخاطئة «من كان منكم بلا خطية، فليرمها أولاً بحجر» (يو ٨: ٧).

حقاً إن المشغول بإخراج الخشبة التى فى عينه، لا يستطيع أن يدين القذى الذى فى عين أخيه (متى ٧: ٥). وكلما يأتيه فكر إدانة لأحد، يقول لنفسه: أنا سقطت فى كذا وكذا. وهذا الإنسان أبر منى، لأن خطاياى أكثر منه بكثير...

إن الإنسحاق ينزع من قلب التائب كل قسوة، ويعطيه رحمة على كل أحد مهما أخطأ...

وتذكره لخطاياه يجعله يشفق على المخطئين ولا يدينهم، بل يبكى لأجلهم كما كان يفعل القديس يوحنا القصير فى اتضاع قلبه. إذ كان حينما يرى أحداً فى خطية يبكى ويقول: إن كان الشيطان قد أسقط أخى اليوم، فقد يسقطنى غداً. وقد يفسح الرب لأخى فيتوب. وربما أسقط أنا ولا أتوب... (ويبكى).

ما أروع الكلمات التى قالها فى ذلك بولس الرسول:

« أذكروا المقيدين كأنكم مقيدون معهم ... » (عب ١٣ : ٣) .

« واذكروا المذلين كأنكم أيضاً فى الجسد » .

إن الذى لم يخطىء، قد يدين الخطاة بنزعة من الكبرياء. أما الذى أخطأ، وجرب ضعف الطبيعة البشرية، فإنه يشفق عليهم.

ولنا مثال واضح فى سيرة القديس موسى الأسود .

هذا الذى لما دعى إلى مجمع رهبانى لإدانة أخ أخطأ، ذهب إلى هناك وهو يحمل خلفه زنبيلاً مثقوباً مملوءاً بالرمل. فلما سألوه عن هذا، أجاب: هذه خطاياى وراء ظهرى تجرى وأنا لا أبصرها. وقد جئت إلى ههنا لأدين أخى...

التائب لا يذكر خطايا غيره، حتى لو كانت ضده .

ذكر القديس الأب أموس أنه من علامات التوبة « الصفح عن خطايا القريب، وترك دينونة الآخرين، وتمسكن القلب ».

ويقول مار اسحق إن التائب يكون له صبر كامل على الإهانة والملامة. ويقول القديس العظيم الأنبا أنطونيوس «إذا لامك أحد من الخارج، عليك أن تلوم نفسك من الداخل. فيكون هناك توازن بين خارجك وداخلك»...

التائب يغفر لغيره ، كما غفر الرب له .

أو كى يغفر الرب له ، حسب قوله الإلهى « إغفروا يغفر لكم » (لو ٦ : ٣٧) . ولما علمنا الرب الصلاة الربية ، لم يعلق إلا على طلبة واحدة منها وهى الخاصة بطلب المغفرة ، فقال « فإنه إن غفرتم للناس زلاتهم ، يغفر لكم أبوكم السماوى . وإن لم تغفروا للناس زلاتهم ، لا يغفر لكم أبوكم أيضاً زلاتكم » (متى ٦ : ١٤ ، ١٥) . ولتكن هذه المغفرة فى حب ، تتفق مع وصية « أحبوا أعداءكم » (لو ٦ : ٢٧) . وتتفق مع حياة الإتضاع اللائقة التوبة .

٧ـ مشاعر أخرى

الإنسان التائب الباكى على خطاياه ، يكون دائماً وديعاً هادئاً ، لا يخاصم ولا يصيح ولا يسمع أحد فى الشوارع صوته (أش ٤٢ : ٢ ، ٣) .

والتائب يشعر برغبة فى الصمت ، إذ يرى أنه ليس أهلاً للكلام ، وإنه من الخير له أن يسمع . فالإستماع أفضل من التكلم .

وهكذا فإن التائب يبعد عن التعليم ، متذكراً قول يعقوب الرسول « لا تكونوا معلمين كثيرين يا إخوتى ، عالمين أننا نأخذ دينونة أعظم ، لأننا فى أشياء كثيرة نعثر جميعنا » (يع ٣ : ١ ، ٢) . ويقول لنفسه : من أنا حتى أعلم غيرى . التعليم درجة فوق مستواى... ما هى خبراتى الروحية ، حتى أعلم الآخرين أيضاً ؟!

التائب يشعر أن آفاقاً روحية ، قد فتحها الله أمامه ، وأنه بدأ يدخل فى مذاقة الملكوت ، لذلك غالباً ما نرى التائبين يتصفون بالحرارة الروحية .

٨ـ الحرارة الروحية

إن التوبة حرارة تسرى فى الإنسان ، تشعله بالرغبة فى تغيير حياته إلى أفضل . وصدق الشيخ الروحانى فى قوله عن التوبة « كل من وُلد منها ، أنبتت له أجنحة من نار ، ومع الروحانيين يطير إلى العلاء » ...

والتوبة تلد داخل القلب محبة جبارة نحو الله .

لأننا كلما تأملنا فى الحمل الثقيل الذى رفعه عنا ، وحمله عنا . وكلما نتأمل فى بشاعة الخطايا الكثيرة والمريرة التى غفرها لنا... حينئذ تزداد محبتنا له بالأكثر. مثل تلك المرأة الخاطئة التى بللت قدميه بدموعها ، وقال عنها إنها أحبت كثيراً ، لأنه غفر لها الكثير (لو ٧) . إن الخطاة الذين يشعرون بثقل خطاياهم ومغفرة الرب لها ، هم الذين يحبون الله بالأكثر، وهم الذين يفهمون عمق الصليب وعمق الفداء .

وفى هذا الحب يكون مستعداً لبذل نفسه من أجل الله .

تملكه حرارة عجيبة ، تدفعه إلى قدام بشدة... هذا الدفع الذى حوّل كثيرين من الخطاة إلى قديسين ، مثل بيلاجية ومريم القبطية وأوغسطينوس .

هؤلاء هم الذين تابوا ، وشعروا بلذة هذه الحياة ، ونموا فيها .

مشكلة كثيرين إنهم يفقدون حرارة التوبة التى بدأوا بها .

الحرارة التى كانت تشعل قلبهم بالحب ، والتى تدفعهم إلى تعويض كل ما سبق من ضياع فى حياتهم... هذه الحرارة ، إن لم يحتفظ بها التائب ، و يشعلها باستمرار، ما أسهل أن يفقدها ، و يتطور إلى الفتور، وربما تبرد مشاعره بعد أن ينسى خطاياه و يبعد عنها بعض الوقت... !

التائب يشعر أن عينه قد تفتحت على حياة جديدة .

كأن باب الفردوس قد فتح أمامه ، ورأى هناك ما لم يره من قبل... وهذه الحياة الجديدة تجذبه إليها بشدة ، حتى أن بعض آباء الإعتراف يخافون على أبنائهم المعترفين من تطرف الإندفاع فى تلك الفترة .

وما أكثر الذين ينذرون أنفسهم لله فى حرارة توبتهم .

مثل القديسة بيلاجية والقديسة مريم القبطية ، وآخرين .

لأن هؤلاء فى توبتهم وندمهم على خطيتهم شعروا بزهد فى العالم كله ، ولم يعد فيه شيء يغريهم بعد أن ذاقوا محبة الله .

وفى الحرارة الروحية التى تصاحب التوبة :

يشعر التائب بقوة فيه ، ما كانت عنده قبلاً .

كان فى خطيته ضعيفاً أمام الشيطان وحروبه ، أما فى توبته فإن روح الله يعطيه نعمة خاصة ، وقوة على حياة التوبة . يذكرنا بالمريض الذى من ضعفه نقلوا له دماً ، فتقوى بهذا الدم الجديد . أو أن الله أعطى هؤلاء التائبين قلوباً جديدة ، يجرى منها دم جديد قوى ، مشبع بمحبة الله . فتنطبق عليهم نبوءة أشعياء :

« يجددون قوة . يرفعون أجنحة كالنسور ... » (أش ٤٠ : ٣١) .

« يركضون ولا يتعبون . يمشون ولا يعيون » وقوله أيضاً « يعطى المعيى قدرة ، ولعديم القوة يكثر شدة » (أش ٤٠ : ٢٩) .

أتراك يا أخى لمست هذه القوة فى توبتك ، وشعرت كيف أن يمين الرب قد انتشلتك إلى حياة النور ، وأن الله « يجدد مثل النسر شبابك » (مز ١٠٣ : ٥) . فتغنى مع داود قائلاً « يمين الرب صنعت قوة ، يمين الرب رفعتنى . يمين الرب صنعت قوة ، فلن أموت بعد بل أحيا » (مز ١١٧) . وبهذه القوة تحيا حياة فاضلة .

٩- السير فى الحياة الفاضلة

لا توجد توبة بدون تغيير فى الحياة . فالتوبة ليست مجرد اعتراف وتناول ، إنما هى ترك للخطية للسير إيجابياً فى حياة البر . وبهذا ينال التائب المغفرة ، حسب قول القديس يوحنا الرسول :

« إن سلكنا فى النور ، كما هو فى النور ،

فلنا شركة بعضنا مع بعض ، ودم يسوع المسيح إبنه يطهرنا من كل خطية » (١يو ١ : ٧) . إذن سلوكنا فى النور شرط أساسى لتطهيرنا من الخطية . هو إذن من علامات التوبة .

و يعبر القديس بولس الرسول عن هذا السلوك ، الذى يطهر من الخطية ، و يرفع الدينونة ، فيقول إنه «لا شىء من الدينونة الآن على الذين هم فى المسيح يسوع ، **السالكين ليس حسب الجسد ، بل حسب الروح » (رو٨ : ١) .**

إذن من شروط هذه الحياة الجديدة ، أن تسلك فى النور ، وأن تسلك حسب الروح . أو كما قال القديس بولس « أن تسلكوا كما يليق بالدعوة التى دعيتم إليها » (أف ٤ : ١) . وقال « لتسلكوا كما يحق للرب ... مثمرين فى كل عمل صالح » (كو ١ : ١٠) . « اسلكوا فى المحبة ، اسلكوا كأولاد للنور» (أف ٥ : ٢ ، ٨) .

إذن التوبة ليست مجرد ارتماء عند قدمى المسيح ، كما يقول البعض ... إنما هى تتميز بسلوك روحى خاص ، وبحفظ وصايا الرب .

قال القديس يوحنا الرسول « من قال إنه ثابت فيه ، ينبغى أنه كما سلك ذاك يسلك

هو أيضاً » (١ يو ٢ : ٦) . وقال كذلك « من قال قد عرفته ، وهو لا يحفظ وصاياه ، فهو كاذب وليس الحق فيه » (١ يو ٢ : ٤) .

إننا نرتمى على قدمى المسيح ، لنأخذ منه معونة ونعمة . وليس معنى النعمة أن نكسل أو أن نستمر فى حياة الخطية ، إنما نحفظ وصاياه ، ونسلك كما سلك ذاك ، نسلك فى النور كما هو فى النور . وهذا يقودنا إلى العلامة الأخيرة للتوبة :

١٠ - النقاوة

إنها العنصر الإيجابى فى حياة التوبة ، ثمر تغيير الحياة .

فيها تختفى شهوة العالم والجسد والخطية ، وتصبح شهوة القلب مقدسة فى حياة البر ومحبة الله . ولا يعود التائب ينفعل مرة أخرى بمحبة الخطية .

ومن علامات النقاوة أن الإنسان يعمل الفضيلة بدون جهاد ، بدون تعب ، بدون صراع . لأنه لا يوجد داخله ما يقاومها .

إن كنت تجد صراعاً فى داخلك بين الخير والشر . فأنت لم تصل إلى النقاوة بعد ، ولكنك تجاهد لكى تصل . وإن كنت تتعب من أجل الوصول إلى حياة البر ، فأنت ماتزال فى فضيلة الجهاد ، ولم تصل إلى النقاوة بعد .

بالنقاوة يملك السلام على قلبك ، ويبطل الصراع بانتصار الخير.

بالنقاوة تصبح راحتك فى الله ، وشهوتك فى الله ، وسعادتك فيه . وتشمل النقاوة كل حياتك : ألفاظك ، حواسك ، جسدك ، قلبك ، أفكارك ... وتصير مسكناً للروح القدس ، تظهر منه ثمار الروح ...

إن موضوع النقاوة موضوع طويل ، نظلمه إن جعلناه مجرد فصل من هذا الباب ، كعلامة من علامات التوبة .

لذلك أستأذنك فى أن نفرد له باباً خاصاً .

نحدثك فيه عن النقاوة ، وكيف تكون ، وكيف تختبر ؟ وما هى عناصرها ؟ وإلى أى حد تصل النقاوة على الأرض ؟ وما هى النقاوة التى ننالها فى الأبدية ؟

الباب الخامس



* النقاوة من الخطية .
* إختبـــار النقـــاوة .
* النقاوة من الأفكار والأحلام .
* النقاوة من الأباطيل .
* إيجابية النقاوة .
* النقاوة من معرفة الخطية .

نقاوة القلب[1]

مادام كمال التوبة ، هو كراهية الخطية ، أى أن يكون القلب قد تنقى تماماً من كل محبة للخطية أو تجاوب معها...

إذن فنقاوة القلب علامة من علامات التوبة الكاملة .

ولكن ما هو المقياس الذى نستطيع أن نقيس به نقاوة القلب من الخطية؟ وكيف يعرف الإنسان أنه قد وصل إلى كمال التوبة ، أى إلى كراهية الخطية؟ ... فلنفحص هذه النقطة معاً...

النقاوة من الخطية

١ - ربما يظن إنسان أنه تائب ، لأنه ترك الخطية الرئيسية المتعبة التى كانت تقلق ضميره، ولم يعد يسقط فيها الآن.

أى لم يعد يزنى مثلاً ، أو يسرق ، أو يغش ، أو يسكر. ولم يعد يرتكب خطايا فى هذا المستوى. لذلك استراح ضميره، وظن أنه تائب ...! وذلك لأن الخطايا الكبيرة التى كان يركز عليها قد غطت رؤيتها على الخطايا الأخرى التى لم يكن يلتفت إليها.

وربما فى نفس الوقت يكون واقعاً فى خطايا كثيرة يعتبرها طفيفة ، ولا تدخل فى مقاييسه الخاصة بالتوبة. مثل الحديث عن النفس ، والفرح بالمديح ، وتبرير الذات باستمرار، وكثرة الجدل، والسلوك حسب الهوى الخاص ، والتشبث بالرأى الذى

---

(١) مصدر هذا الفصل هو :

١ - محاضرة ألقيت فى كنيسة الملاك ميخائيل بدمنهور سنة ١٩٦٦ ، ضمن سلسلة عن حياة التوبة والنقاوة.

٢ - محاضرة ألقيت فى القاعة المرقسية بالأنبا رويس (الجمعة ١٩٦٦/٥/٢٨).

٣ ، ٤ - محاضرتان ألقيتا فى الكاتدرائية الكبرى بالقاهرة الأولى مساء الجمعة ٧٣/٢/١٦، والثانية مساء الجمعة ١٩٧٣/٧/٦ عن حياة النقاوة.

٥ - محاضرة عن (معرفة الخطية) ألقيت بالكاتدرائية (الجمعة ١٩٧٧/٣/١١).

يقود إلى العناد. مع إهمال بعض الصلوات، وتقصير فى القراءات الروحية. وربما عدم احتمال الإساءة، وعدم تقديس يوم الرب...

ومع هذا كله، ضميره لا يوبخه، لأنه لم يصل إلى المستوى الذى يتبكت فيه على أمثال هذه الأمور. فهل نعتبر مثل هذا تائباً ؟!

إنه ولا شك محتاج أن ترتقى مقاييسه، لكى يتوب عن أمثال هذه الخطايا التى يعتبرها طفيفة، أو لا يلتفت إليها باهتمام.

فمتى إذن نعتبره تائباً ؟ أليس إن ترك كل الخطايا، حتى التى تبدو فى نظره صغيرة. يتركها بالفعل، وأيضاً يطردها من قلبه ومن فكره.

وهنا يصعد الإنسان سلماً فى التوبة، كلما نضج روحياً. ويصير ضميره حساساً جداً، لا يتغاضى عن شىء. وبهذا يدخل إلى التوبة الحقيقية.

فهل إذا وصل إلى هذا، نحكم عليه بأنه وصل إلى نقاوة القلب ؟

هنا نبدى ملاحظة هامة، لكى تكون لنا دقة الحكم، وهى :

٢ - ربما هو لا يخطىء، لأن الشيطان قد تركه إلى حين.

إن الشيطان حكيم فى عمل الشر. يعرف متى يحارب، وكيف يحارب، وفى أية خطية يركز قتاله... فإن وجد شخصاً متحمساً جداً ومستعداً، يتركه فترة حتى يثق هذا الإنسان بنفسه ثقة ربما تدفعه إلى التهاون والتراخى وعدم التدقيق. ثم يرجع إليه الشيطان فى وقت يكون فيه هذا الإنسان أقل استعداداً وحرصاً، فيسهل إسقاطه.

وهذه الفترة لا تكون فترة إنتصار على الخطية، **إنما فترة عدم قتال. إنها فترة** راحة من الحروب الروحية، وليست إنتصاراً ونقاوة.

وهناك فرق كبير بين الإنتصار وعدم القتال.

فإن وجدت نفسك لا تسقط فى خطية معينة، **فقد لا يعنى هذا أنك تنقيت منها** تماماً، إنما عدم سقوطك فيها قد يعنى **أن الشيطان لا يقاتلك** حالياً بها. أو ربما لا تسقط فيها الآن، لأن ظروفها غير مؤاتية. **فلا توجد حرب، ولا توجد عثرات، ولا** يوجد ما يثيرك للخطية.

والشيطان لا يقاتلك الآن ، ليس حباً فى راحتك ، وإنما لأنه يجهز لك فخاً من نوع آخر...

وبالإضافة إلى ذلك الفخ الآخر ، ربما يأتيك شيطان المجد الباطل ليقول لك « ويلاه منك . لقد أفلت منى . وقد تجددت وتقدست ، وصرت خليقة جديدة ، والأشياء العتيقة قد مضت » . فلا تسمع له ، ولا تردد فى ذهنك ما يقوله لك ، فأنت تحت الضعف طالما أنت فى الجسد . والشيطان لا يكف عن قتاله .

والأليق بك أن ترد على تلك الأفكار وتقول « أنا أعرف ضعفى . وكل ما فى الأمر، أن الرب من حنوه قد ستر هذا الضعف » ...

لا تقل إذن إنك قد وصلت إلى النقاوة ولم تعد تسقط . إنما قل « لولا أن الرب كان معنا... لابتلعونا ونحن أحياء » (مز ١٢٤ ، ٢ ، ٣)... أنا فى الواقع أضعف من أن أقاتل أصغرهم ، كما قال القديس الأنبا أنطونيوس . ولكن شكراً للرب أنه سترنا ...

ومن الملاحظ أن بعض الخطايا لها مواسم ، وليست دائمة .

إنها مثل دورات الألم أو الوجع ، تلف دورتها فى عنف وشدة ، ثم تهدأ ، ثم تلف دورة جديدة... وهكذا... أو كنبات ، له أحياناً موسم ركود ، وفى وقت آخر موسم إزهار وإثمار...

٣ ـ أو من الجائز أن الله أراد أن يريحك فترة من إرهاق الخطية ، حتى لا تبتلع نفسك من اليأس .

لأن توالى السقوط المتلاحق ، قد يجر الخاطىء إلى اليأس . لذلك تدركه مراحم الله وتريحه ولو قليلاً ، وترفع الحرب عنه . تحفظه النعمة وتسنده ، ولو إلى حين . فتمر عليه فترة هدوء لا تزعجه فيها الخطية . ليس لأنه قد تنقى ، وإنما لأنه غير مُقاتل .

٤ ـ أو جائز أنت مستريح الآن ، لأن صلوات رفعت لأجلك .

سواء من قديسين فى السماء ، أو من أحباء لك على الأرض . واستجاب الرب لهم ، وأمر برفع القتال عنك . فاسترحت من الخطية وضغطاتها ، لهذا السبب وليس لأنك وصلت إلى النقاوة . أنت إذن فى فترة هدوء وسلام ، وعدم قتال مع الشيطان . وليست هذه هى درجة النقاوة .

وبمناسبة الفرق بين النقاوة وعدم القتال ، نورد ملاحظة هامة وهى :

هناك فرق بين نقاوة الأطفال ، ونقاوة الناضجين سناً وروحاً .

حقاً إن الأطفال لهم قلب نقى بسيط لم يعرف الخطية بعد . ولكن هناك فرقاً كبيراً بين نقاوتهم ونقاوة الأشخاص الناضجين فى السن . هذا الفرق هو أن الأطفال لم يدخلوا حرباً روحية ، ولم تختبر إرادتهم بعد . أى أنهم لم يصلوا إلى السن التى تختبر فيها إرادتهم . وهم غير الكبار الناضجين الذين دخلوا فى حروب العدو وقاتلوا وانتصروا ، ورفضت ارادتهم الحرة كل إغراءات الخطية . هؤلاء لهم مكافأة « الغالبين » التى ليست للأطفال .

ما أعظم الذين يصلون إلى نقاوة الأطفال ، بعد حروب لم يعرفها الأطفال .

ونقاوتهم نتيجة صراعات وحروب ، خرجوا منها منتصرين ...

إن نقاوة القلب درجة عالية جداً . وحتى إن حورب إنسان بخطية معينة ، وتنقى منها ، فليست هذه هى النقاوة الكاملة .

النقاوة الكاملة هى النقاوة من جميع الخطايا .

بكل صورها وأنواعها ، سواء كانت بالعمل ، أو بالفكر ، أو بالحواس ، أو بمشاعر القلب ، أو بسقطات اللسان . سواء فى العلاقة مع الله ، أو مع الناس ، أو مع الذات .

إنها نقاوة شاملة ، وليست مجرد تخلص من خطية معينة كانت تحاربك .

فالفريسى الذى صلى فى الهيكل فى وقت صلاة العشار ، كان يظن أنه صار من الأنقياء ، لأنه « ليس من الظالمين الخاطفين الزناة » وليس من المقصرين فى الصوم أو فى دفع العشور (لو ١٨ : ١١ ، ١٢) . بينما أنه لم يكن قد تنقى من الكبرياء ، ولا من إدانة الآخرين ، ولا من الإفتخار والبر الذاتى ... لذلك لم يخرج مبرراً .

لا تظن إذن إنك قد وصلت إلى درجة النقاوة ، إن كنت قد تخلصت من بعض الخطايا التى كان لها سلطان عليك . إنما المقياس الحقيقى لوصولك إلى النقاوة هو أنه :

لا يكون لأية خطية من الخطايا سلطان عليك .

أنظر إلى قول السيد المسيح « من منكم يبكتنى على خطية ؟! » (يو ٨ : ٤٦) . أية خطية على الإطلاق... ولهذا استطاع أن يقول عن الشيطان « رئيس هذا العالم يأتى ، وليس له فىّ شىء » (يو ١٤ : ٣٠) .

فهل وصلت إلى هذه النقاوة من جميع الخطايا ، بحيث لا يوجد للشيطان شىء فيك ، كبيراً كان أم صغيراً ؟! حتى ولا من الثعالب الصغار المفسدة للكروم ، ولا من الخطايا التى تتنكر فى ثياب الحملان... ؟

النقاوة الحقيقية تبدأ بالكراهية الكاملة للخطية .

عن معرفة واستنارة حقيقية ، وفهم صحيح بالروح القدس لما هو الخير وما هو الشر « للبالغين الذين صارت لهم الحواس مدربة » (عب ٥ : ١٤) ، بحيث يكون الضمير سليماً تماماً فى أحكامه ، لا يخدعه الشيطان فى شىء ، وتكون جميع أعمال الإنسان نقية .

على أن هناك ما هو أهم من أعمال الإنسان الظاهرة ، وهو :

أن تكون النقاوة نابعة من القلب ، وليست مظهرية .

نقول هذا لأن كثيرين يهتمون بمظهر النقاوة لا بجوهرها . ومثال ذلك أن كثيراً من الوعاظ حينما يتكلمون عن حشمة المرأة ، يركزون على ملابسها وزينتها ، دون أن يهتموا بالباعث القلبى الذى بسببه تركت الفتاة حشمتها . بينما لو اهتموا بعلاج القلب من الداخل ليصل إلى النقاوة ، لكان من نتائج ذلك تلقائياً حشمة الملابس والزينة... ونفس الكلام يقال عن الشبان الذين يطيلون شعرهم...

إننا لا نريد بالنقاوة تنظيف خارج الكأس فقط (مت ٢٣) .

فى علاج خطايا اللسان ، لا يقتصر الأمر على تداريب الصمت . لأن الكلام الخاطىء له سبب داخل القلب . والكتاب يقول « من فضلة القلب يتكلم اللسان » (متى ١٢ : ٣٤) . إذن نهتم بنقاوة القلب ، فتكون الألفاظ نقية تلقائياً .

خذوا الكذب مثلاً . لا يكفى فقط أن نبعد عن تركه من الخارج ، إنما ينبغى أن نعالج أسبابه داخل القلب ، سواء كانت خوفاً ، أو كبرياء ، أو وصولاً إلى غرض معين . لأن الكذب كان نتيجة لهذه الأخطاء الداخلية التى تحتاج إلى تنقية...

إهتموا إذن بالداخل . وهنا يسأل البعض :

هل أؤجل النقاوة الخارجية ، إلى أن أصل إلى نقاوة الداخل ؟

كلا ، طبعاً . إنما المقصود أنك لا تكتفى بالنقاوة الخارجية ، فالله يريد القلب قبل كل شيء . إحترس من الخطأ الخارجي بكل قوتك ، لأن له نتائج غالباً ما تشمل غيرك أيضاً... وفى نفس الوقت عالج الداخل بكل قوة ، وبكل صبر ، وبكل معونة من النعمة .

وهكذا تكون أعمالك النقية صادرة من قلب نقى . ويشترط لنقاوتها :

أن يكون العمل النقى ، أهدافه ووسائله نقية أيضاً .

فيكون كل عمل تعمله : نقياً فى ذاته ، ونقياً فى الدوافع التى تدفع إليه ، ونقياً فى الوسيلة التى يتم بها...

فهل تكون هذه هى النقاوة الكاملة ؟

النقاوة الكاملة موضوع طويل . إنما هذه هى النقاوة من الخطية .

إختبار النقاوة

إن عدم السقوط فى الخطية ، ليس هو نقاوة القلب .

فقد تكون لعدم السقوط أسباب أخرى غير حالة القلب الداخلية ، شرحنا بعضها . كأن يكون الإنسان فى وقت ما غير محارب بالخطية ، أو تكون النعمة قد تدخلت -حتى بدون استدعاء لها منا- وانتصرت هى فينا . ولذلك نقول من جهة اختبار النقاوة :

يعتبر الإنسان نقياً تماماً ، لو دخل فى كل حرب مع الخطية فى عمق الحروب وشدتها ، ولم يهتز...

ليس فقط لم يسقط ، وإنما لم يهتز ...

كثيرون من الناس محاربون بالخطية من شهواتهم ومن أفكارهم ، وليس من الشيطان . لأن حروب الشياطين صعبة جداً . مثال ذلك قصة الشاب الذى شكا إلى القديس الأنبا بيشوى قائلاً له « إن حروب الشيطان اشتدت علىّ » . بينما قال الشيطان « أنا لم أحس بعد أن هذا الشاب قد ترهب » ... إن الشيطان قاس جداً

فى حربه. ولو أمكن أن يأخذ حريته كاملة، لجاهد أن يضل حتى المختارين أيضاً (مت ٢٤: ٢٤).

فإن انتصرت فى حرب روحية، قل: لعلها حرب بسيطة ...

لأن الله من حنوه، لا يسمح أن نحارب فوق طاقة احتمالنا. وربما نجوز حروباً خفيفة وننتصر فيها، ليس بسبب قوتنا أو نقاوة قلوبنا، إنما بسبب ضعف الحرب. ولو كانت الحرب قد ثقلت علينا أو اشتدت، لسقطنا... لذلك نشكر الله على عظم مراحمه، بدلاً من أن نفتخر باطلاً بادعاء النقاوة...

إذن تختبر نقاوتك بالحرب الشديدة القاسية.

هل تصمد فيها أم تسقط؟ خير لك أن تصرخ فى اتضاع وتقول: لست أنا أقوى من سليمان أحكم أهل الأرض. ولست أقوى من داود مسيح الرب ورجل المزمار والقيثار. ولست أقوى من بطرس الرسول فى غيرته. ومادامت الخطية قد «طرحت كثيرين جرحى، وكل قتلاها أقوياء» (أم ٧: ٢٦)... فأفضل وضع هو أن أعرف ضعفى، وأقول إننى لم أصل إلى النقاوة بعد. وأنا أصلى كل يوم قائلاً «لا تدخلنا فى تجربة، لكن نجنا من الشرير».

أدخلت فى الحروب الشديدة وانتصرت؟ ... إذن فاعرف هذه الحقيقة:

الحرب الشديدة تختبر الإنسان باستمرارها وإلحاحها ...

فقد ينتصر الإنسان فى إحدى المرات فى حرب شديدة. ولكنها لو استمرت معه مدة طويلة، ربما يضعف أمامها، ولا يقوى على المقاومة. مثل شمشون الذى لما كثر الإلحاح عليه، ضعف أخيراً واستسلم (قض ١٦: ١٦، ١٧).

والحرب الشديدة تختبر الإنسان أيضاً بتنوعها ومفاجأتها ...

فقد ينتصر الإنسان فى حرب معينة. ولكنه فى نوع آخر من الحروب تقل مقاومته ولا يصمد. والشيطان يختبر كل شخص، ويدرس نواحى الضعف فيه، ويضغط بشدة على نقطة الضعف. وتزداد حروبه قسوة، حينما يهجم فجأة بدون استعداد من الإنسان لمواجهته. وهنا تُختبر النقاوة...

إذن ما هو التعريف السليم للشخص الذى اقتنى نقاوة القلب؟

هو الشخص الذى تنقى من كل أنواع الخطايا ، فكراً ، وقلباً ، وحواساً ، ولساناً ، وجسداً ، وعملاً ... ودخل فى حروب العدو ، بكل تنوعها ، وكل شدتها ، وكل إلحاحها واستمرارها ، وجاهد ، وسندته النعمة ، وانتصر... واستمر منتصراً...

هى إذن درجة عالية جداً . ليست هى بدء الحياة الروحية ، إنما قد تكون فى نهاية المطاف ، حتى تستحق الطوبى التى قال فيها الرب « طوبى لأنقياء القلب ، لأنهم يعاينون الله » (متى ٥ : ٨) .

ومن مقاييس هذه النقاوة :

النقاوة من الأفكار والأحلام

بالإضافة إلى النقاوة من الخطية ، توجد النقاوة من الأفكار والظنون .

قال أحد القديسين « ليست فقط أعمالك الخارجية هى التى تظهر حقيقتك ، إنما بالأكثر أفكارك وظنونك » ... وضرب لذلك مثلاً فقال : ربما يكون إنسان واقفاً فى مكان فى الظلام ، يراه ثلاثة أشخاص . فيفكر أحدهم إنه سارق يختبىء إلى أن يتحين الفرصة للسرقة ، والثانى يظنه سىء الخلق ينتظر امرأة . بينما الثالث يفكر أن هذا الإنسان يقف فى الظلام ، فى مكان لا يراه أحد ، ليصلى ...

وهكذا حسب حالة القلب ، تكون الأفكار والظنون .

وفى ذلك يقول الكتاب « الإنسان الصالح من كنز قلبه الصالح يُخرج الصلاح . والإنسان الشرير من كنز قلبه الشرير يخرج الشر» (لو ٦ : ٤٥) . وكما يقول المثل « كل إناء بما فيه ينضح » ...

لذلك إن كانت ظنونك سيئة ، فقلبك لم يتنقّ بعد .

فالإنسان ذو القلب النقى ، دائماً تكون أفكاره نقية ، ولا يظن السوء . وعلى قدر إمكانه يأخذ الأمور ببراءة وطهارة . وهكذا لا يعثره شىء ، ولا يدين عملاً ما ، إلا الخطية الواضحة التى تحمل دينونتها فى ذاتها .

والأمور التى تحمل وجُهين ، يأخذ الوجه المنير منها .

من أجل هذا ، أمثال هؤلاء الأشخاص يكونون فى علاقة حسنة مع الناس ،

لأنهم لا ينسبون خطأ لأحد، ويعذرون كل إنسان فى تصرفاته.

لعلك تسأل : هل معنى هذا أن القلب النقى لا تحاربه ظنون وأفكار شريرة؟

نقول : نعم قد تحاربه من الخارج ، دون أن تنبع من داخله . بل على العكس يكون من الداخل رافضاً لها . لا يقبلها ، بل يطردها بسرعة . والخديعة التى يتعرض لها البعض هنا ، هى أن يستبقى الفكر الشرير، ولو بحجة فحصه أو محاربته ، أو بنوع من الفضول ليرى إلى أين ينتهى! فتكون النتيجة أن يدنسه الفكر، و يفقده نقاوته . والوضع السليم هو طرد الفكر بسرعة ، لأن القلب النقى يشمئز من الأفكار الخاطئة ، ولا يقبل حتى مجرد فحصها .

من ضمن مقاييس النقاوة إذن ، نقاوة الظنون والأفكار .

والمقياس الثانى للنقاوة ، هو نقاوة الأحلام .

فقد يوجد إنسان عقله الواعى محترس ، يراعى نقاوة أفكاره ، بينما تكون أحلامه فيها الكثير من الأخطاء ، لأن عقله الباطن يحوى رصيداً قديماً من الخطايا ، لم يتنقَ بعد من صورها وقصصها وذكرياتها . فإما أن تكون ذاكرته لا تزال مدنسة بخزينها الردىء ، أو أن هنالك بعض مشاعر فى القلب ، كامنة فى أعماقه لم تتنقَ بعد ، وهى مصدر أحلامه الخاطئة التى تعكر نقاء ذهنه .

يحتاج هذا أن يتنق من ماضيه ، كنحو نقاوته من حاضره .

وعلى أية الحالات ، قد تحتاج نقاوة الأحلام إلى فترة من الزمن ، إلى أن يصبح الإنسان فى وضع بعيد تماماً عن الأحلام الشريرة . فبالوقت وبعدم التكرار ، تختفى مصادر هذه الأحلام من الذاكرة . ويختزن العقل الباطن بدلاً منها أموراً نقية طاهرة ، تتناسب مع حياة التوبة والنقاوة التى يحياها ، وتكون مصدراً لأحلام نقية تماماً .

إذن من مقاييس نقاوة القلب ، نقاوة الأفكار والظنون والأحلام... تبقى درجة أخرى للكاملين أو للناضجين ، وهى :

النقاوة من الأباطيل

أى النقاوة من الأمور الزائلة أو الباطلة .

ونقصد بهذه الأمور الزائلة أو الباطلة ، من يقضى مثلاً وقتاً طويلاً يتحدث فى أمور تافهة ، لا هى خطية ، ولا هى بر... أو يقضى وقتاً يفكر فى أمثال هذه الأمور أو ينشغل بها... ويدل بذلك على أن فكره أو قلبه يمكن أن يتشغل بهذه التافهات ، ويمكن بسببها أن يضيع وقتاً كان يمكن أن يقضيه مع الله ، فى صلوات أوتأملات أو قراءات روحية أو تسابيح ، أو أى أمر ذى قيمة ، يناسب حالة القلب النقى...

هذه الأمور الزائلة لا هى خير فى ذاتها ، ولا هى شر فى ذاتها. ولكنها تفاهات تعطل العمل الروحى الإيجابى.

هذه الأباطيل هى التى منعنا عنها الرسول بقوله « غير ناظرين إلى الأشياء التى تُرى ، بل إلى التى لا تُرى . لأن الأشياء التى تُرى وقتية ، أما التى لا تُرى فأبدية » (٢كو ٤ : ١٨) . والإنسان الذى لا ينظر إلى المرئيات ، هو الذى يقول مع داود النبى « أما أنا فخير لى الإلتصاق بالرب » (مز ٧٣ : ٢٨) . والإلتصاق الكامل بالرب ، لا يأتى إلا بنقاوة القلب .

إن النقاوة من الخطية حالة مقدسة ، لا يسميها الآباء نقاوة القلب .
إنما يسمونها الطهارة . والطهارة أقل من النقاوة فى الدرجة .

الطهارة - فى كثير من مفهوماتها - سلبية فى قداستها ، تعنى البعد عن النجاسة والخطية. أما النقاوة فقداستها إيجابية ، وهى الإلتصاق الدائم بالله فكراً وقلباً وعملاً. وتأتى كمرحلة بعد الطهارة. ومن مميزاتها النقاوة من الأباطيل... فما هى هذه الأباطيل .

إننا نعيش فى عالم مملوء بهذه المرئيات الزائلة. فهل نغمض أعيننا حتى لا ترى ، عملاً بقول الرسول « غير ناظرين إلى ما يُرى » ؟

كلا ، لا نغمض أعيننا . وإنما لا نهتم بما نرى ونسمع .

أى أن تقع أعيننا على شىء تراه ، فتجوز مقابله ، وهكذا باقى حواسنا . والمعروف أن « الحواس هى أبواب الفكر» . وأن ما تجمعه حواسنا ، تفكر فيه

عقولنا ، أو على الأقل يدخل فكر عنه إلى أذهاننا . وهنا نكون أمام أحد تصرفين :

إما أن يمر فكر هذه الأمور بسرعة و يعبر كالدخان . وهذه حالة من حالات نقاء القلب. وإما أن يستقر الفكر قليلاً أو طو يلاً فينا ، و يشتغل فى داخلنا بدرجات تتفاوت فى الحدة وفى المدة ، حسب نقاوة كل منا .

الإنسان الذى لم يتنقّ بعد ، قد تجلب له هذه المرئيات أفكار خطية ، وتتحول فيه إلى رغباب وشهوات... ولست عن هذا أتكلم ، فالحديث عنه خاص بالنقطة الأولى وهى « النقاوة من الخطية » .

ولكنى أقول إن مثل هذه المرئيات قد تجلب لإنسان الله ، لا أفكار الخطية ، وإنما بعض الإنشغال أو الإهتمام ، تختلف حسب نقاوة القلب ، حسب موته عن العالميات ، أو موت العالميات فى القلب .

هذه الأفكار الزائلة ، هى على الأقل تضيع الوقت .

والوقت هو جزء من حياتك . لم يعطه لك الله لكى تضيعه ، إنما لكى تستفيد منه ، لأجل خلاص نفسك ، ولأجل تنقية قلبك وفكرك ، ولأجل ربط مشاعرك بالله... فلا تضيعه فى التافهات .

والعقل المنشغل بالتافهات يدل على قلة محبته لله .

إذ أن قلبه ليس متحداً بالله اتحاداً كاملاً مستمراً ، وتوجد أمور تافهة تشغل عقله عن الله ، ولو فى ثرثرة لا فائدة منها . فتى تتنق من كل هذا ، ولا يصبح فى قلبك إلا الله وحده ؟

القلب النقى نقاوة كاملة ، هو القلب الذى مات بالتمام عن أباطيل العالم كلها ، لكى يحيا بالتمام للرب .

وعقله أصبح غير متفرغ لهذه الأشياء التى تُرى ، من فرط انشغاله بما لا يُرى . إن العقل دائب العمل ودائم التفكير. إنما يختلف تفكيره بحسب المادة التى ينشغل بها ، وهى واحدة من إثنتين : إما مرئيات ، وإما أمور لا تُرى . والإنشغال بالأمور الإلهية التى لا تُرى هى حالة النقاوة المثالية .

وقد يكون التفكير فى الأمور الزائلة ، هو حالة متوسطة بين أفكار الخطية والأفكار الإلهية .

إنها ليست خطية بالنسبة إلى الشخص العادى ، ولكنها حالة نقص فيه. وقد تتطور فتتحول إلى خطية. والقديسون يهربون من هذا النقص، الذى يدل على أن القلب لم يتنق بالكمال من العالميات.

القديس بولس الرسول - فى حديثه عن المتزوج - قال إنه « يهتم فيما للعالم » (١كو ٧: ٣٢، ٣٣). وهناك أمور أخرى غير الزواج تسبب اهتماماً بالعالميات، ربما الوظيفة، أو الأسرة، أو الدراسة العالمية، أو بعض النشاط الإجتماعى، أو المال، أو شهوات الجسد عموماً... فيفحص كل منا ذاته، وليعرف الأبواب التى يدخل منها العالم إليه بأباطيله، ويجد له مكاناً فى الفكر أو فى القلب.

وهنا أحب أن أفرق بين كلمتين : العمل والإهتمام.

قد يعمل الإنسان فى المرئيات، دون أن تعمل المرئيات فيه

ويكون قلبه مع الله. كما كان الآباء القديسون يعملون فى الخوص فى البرية، وقلبهم يعمل عمله الإلهى فى التزمير والصلاة والتسبيح. كانوا يعملون فى هذه الأشياء، وهم «غير ناظرين إليها» أى غير منشغلين بها.

إن الرب لم يوجه اللوم إلى مرثا لأنها كانت تعمل، وإنما لأنها كانت بالعمل فى حالة اهتمام واضطراب (لو ١٠: ٤١). العمل لم يكن فى يديها فقط، وإنما وصل إلى الفكر والقلب فانشغلا به. وفى انشغالها عجزا عن أن يتفرغا للرب « فلازما الواحد، واحتقرا الآخر» لأنه لا يقدر أحد أن يخدم سيدين فى وقت واحد (متى ٦: ٢٤).

فهل يمكن إذن أن نعمل عملاً، دون أن ننشغل ونضطرب ونهتم ؟ إن هذا هو المطلوب من القلب النقى «أريد أن تكونوا بلا همّ» (١كو ٧: ٣٢). وكيف يكون هذا؟

بأن تكون علاقتنا بالمرئيات سطحية، لا تدخل إلى العمق.

وهذا يتوقف على مدى تقييمنا للأمور.

كلما ازدادت قيمة الأمر فى نظرنا، ازداد عمقه فينا واهتمامنا به. لذلك فإن آباءنا الذين مات العالم فى نظرهم، وحسبوه نفاية لكى يربحوا المسيح (فى ٣: ٨)، هؤلاء لم تعد لكل أمور العالم قيمة عندهم، مهما كانت قيمتها خطيرة فى أعين

الآخرين الناظرين إلى ما يُرى... وبالتالى لم تعد هذه الأمور تشغلهم، ولا يضطربون لها، بل يحيون فى سلام. وينطبق عليهم قول القديس بولس الرسول:

« والذين يستعملون هذا العالم، كأنهم لا يستعملونه » (١ كو ٧ : ٣١).

ولكننا كثيراً ما ننسى أنفسنا وروحياتنا. فنسمع مثلاً خبراً معيناً، أو نقرأ عن حادث ما، أو ندخل فى إحدى المناقشات... وهنا ننسى أن قلبنا وعقلنا كليهما للمسيح. ونظل نتكلم ونعلّق ونناقش، ونبدى الآراء، ونتحمس فى الرد على المعارضين. وقد يكون الأمر لا يستحق شيئاً من هذا. ولكنه مع ذلك يملك - لا على ألسنتنا فقط، ولا على فكرنا فحسب - وإنما أيضاً على أعصابنا وعواطفنا... وهنا تكون المياه قد دخلت إلى أنفسنا. وأصبحنا نهتم ونضطرب لأجل أمور كثيرة. أما الواحد الذى الحاجة إليه، فلا نكون متفرغين له، بل مفكرين أننا «عندما يحصل لنا وقت نستدعيه» (أع ٢٤ : ٢٥).

وقد نرجع إلى بيوتنا، ومايزال الموضوع فى أذهاننا، وقد نصبه أيضاً فى عقول غيرنا، فنشغل الآخرين به.

والأفكار ليست عواقر، إنما تلد أفكاراً أخرى ...

وقد يتعمق الفكر فى عقلنا الباطن، ويلد أحلاماً وظنوناً.

وقد نقف ونصلى، فتطيش عقولنا فى أفكار كثيرة، ذلك لأننا أعطينا تلك الأفكار عمقاً فينا، فأخذت سلطاناً علينا... فاحذر، لا تعط أمور العالم عمقاً فى فكرك ومشاعرك ووقتك. وإن سرقك الإعتياد القديم، إستيقظ بسرعة، وقل للرب مع المرتل «أردد عينىّ لئلا تعاينا الأباطيل» (مز ١١٨ هـ).

يقظة العقل والجهاد مع الأفكار، يسبقان نقاوة العقل والقلب.

القديس الأنبا أور كان يقول لتلميذه « أنظر يا إبنى، لا تدخل هذه القلاية كلمة غريبة» يقصد أية كلمة غريبة عن الله وملكوته. والقديس الأنبا يوحنا القصير كان ينفض أذنيه قبل الدخول إلى قلايته، حتى لا تدخلها مناقشات سمعها من آخرين...

هذا جهاد سلبى ... أما من الناحية الإيجابية فإنه :

تعوزنا الغربة عن العالم ، مع هذيذ الفكر بالإلهيات .

شعور الإنسان بغربته عن العالم ، يجعله لا يقحم ذاته فى أمور العالم وحوادثه وأخباره وأحاديثه وارتباكاته. وإن وصل إليه شىء منها ، لا يتفاعل معه ولا يتجاوب ، قائلاً لنفسه «غريب أنا. ما شأنى بهذا الأمر».

كذلك انشغال الفكر بالإلهيات ، يجعله غير متفرغ لأمور العالم بل نافراً منها ، لأنها تعطله عن هذيذه الإلهى الذى يقول فيه «محبوب هو إسمك يارب ، فهو طول النهار تلاوتى» (مز١١٨م).

متى يصل القلب والفكر إذن إلى النقاوة ؟

عندما يتخلص الإنسان من الخطية ، وعندما يتنقى من الأحلام والأفكار والظنون ، وعندما يتنقى من الأباطيل...

كل هذا من الناحية السلبية . فماذا إذن عن الناحية الإيجابية ؟

الناحية الإيجابية فى النقاوة

فى نقاوة القلب ، تملكه محبة الله بدلاً من محبة العالم .

فيفعل كل شىء من أجل محبته لله ، وليس لمجرد طاعة لأمره أو تنفيذاً لوصاياه. حتى ترك الخطية ، يتركها لأن محبة أعمق بكثير قد حلّت محلها ، وأشمرته عملياً بتفاهة محبة الخطية ونجاستها أيضاً. وبمحبة الله تدخل النقاوة فى دور إيجابى جديد...

فتظهر ثمار الروح القدس فى حياة هذا التائب .

التى قال عنها الرسول «وأما ثمر الروح فهو محبة ، فرح ، سلام ، طول أناة ، لطف ، صلاح ، إيمان ، وداعة ، تعفف. ضد أمثال هذه ليس ناموس» (غل ٥: ٢٢). أى انتقل من مرحلة الناموس والوصايا ، إلى مرحلة الحب ...

تتحول علاقتك بالله إلى حب ...

كعلاقة صديق بصديقه ، وإبن بأبيه ، وحبيب بحبيبه .

وتجد كل اللذة فى الوجود مع الله . وصلاتك تتحول إلى مناجاة حب ، لا تكون واجباً ، ولا عملاً كنسياً ، ولا صفة من صفات الروحيين ، إنما تكون مجرد

تعبير عن الحب الكبير الموجود فى قلبك نحو الله... وهكذا تكون باقى أعمالك الروحية...

والمحبة هى أول ثمرة من ثمار الروح . وهناك ثمار أخرى ، لا بد أن تظهر فى قلبك بحياة النقاوة . ولعلك تسأل :

هل كل ثمار الروح لازمة فى حياة النقاوة ؟

نعم ، لأنه قال « إصنعوا ثماراً تليق بالتوبة » (لو ٣ : ٨) . ولأنه أيضاً قال «كل غصن فىّ لا يأتى بثمر ينزعه . وكل ما يأتى بثمر ينقيه ، ليأتى بثمر أكثر» (يو١٥ : ٢) . إذن جاهد بكل قوتك لتحصل على هذه الثمار...

أتريدنى أن أحدثك عن نقاوة القلب ؟ إذن فسأحدثك عن كل عنصر من هذه الثمار على حدة ، وعنها كلها معاً كوحدة متجانسة . وهذا أمر يحتاج إلى كتاب خاص أو إلى مجموعة كتب . وليس الآن وقته .

أما الآن ، فأتابع معك نقاوة القلب ، وأتحدث عن قمتها :

هناك نقاوة ننالها فى الأبدية وهى :

نقاوة القلب من معرفة الخطية

وبهذا نقسم نقاوة القلب إلى نوعين : نوع يمكن أن نناله هنا على الأرض ، وهو ما قد ذكرناه . ونوع لا نناله إلا فى الأبدية فى العالم الآخر، نذكره هنا لكى نشتهيه ونطلبه ، ولكى نعرف مقدار عمق النقاوة التى ستكون لنا هناك...

إن الذى أفقدنا نقاوتنا الأولى ، هو أكلنا من شجرة المعرفة .

كنا لا نعرف إلا الخير فقط . فلما أكلنا من شجرة معرفة الخير والشر، صرنا نعرف الشر أيضاً . ودخلنا فى ثنائية الخير والشر، البر والإثم ، الحلال والحرام .

أقصى ما نصل إليه حالياً ، هو أنه مع معرفتنا للخير والشر، نختار الخير ونسير فيه . أما إننا لا نعرف الشر إطلاقاً ، فهذه درجة عالية لن نصل إليها على الأرض . إنما ستوهب لنا فى الأبدية ، حينما نلفظ الثمرة التى أكلناها . وحينئذ :

لا نعرف سوى الخير فقط . ونتخلص من ثنائية الخير والشر .

تصبح لها صفة البساطة والبراءة التى لا تعرف شراً .

مثل الطفل البرىء الذى لا يعرف شيئاً من المكر والتدابير والحيل والشرور التى يقدمها له المجتمع فيما بعد ، فتفقده براءته .

نقاوة مثل نقاوة آدم وحواء قبل الأكل من ثمرة الشجرة ، تلك التى أدخلت فى عقله أفكاراً لم تكن فيه من قبل ، وأفقدته بساطته ، وتفتحت عيناه على أمور ، لعله يقول « ليتنى ما كنت قد عرفتها » ... ثم تطور الإنسان من معرفة الشر إلى اختباره .

فإن كنت قد عرفت أشياء عن الخطية ، لا تكمل المسيرة .

مادامت معرفة الخطية تضرك ، فلا تضف إليها شيئاً جديداً . وحاول أن تنسى ما عرفته بعدم استعماله ، وعدم الحديث عنه . ولا تفكر فى تلك المعلومات . وإن تذكرتها ، حاول أن تستبدلها بغيرها .

ولا تجعل معرفة الخطية تتحول من معرفة سطحية إلى معرفة عميقة . ولا تجعلها تتحول من معلومات إلى اختبار ، إلى مذاقة ، إلى قبول أو صراع معها .

أوقف هذه المعرفة عند حد ، على قدر إمكانك .

واطلب من الله أن ينقى أفكارك ، و يطهر عقلك الباطن وذاكرتك ، من كل ما ترسب فيها وما تسجل فيها ...

واسرح فى إكليل الرب الذى سيهبه الرب لنا ،

فى ذلك اليوم (٢ تى ٤ : ٨) . حينما تنزع منا كل معرفة للخطية ، ولا توجد خطية فيما بعد . وتصبح كل خبراتنا مع الخطية فى هذا العالم ، كأنها حلم مزعج قد استيقظنا منه فى الأبدية ، وقد نسيناه تماماً ... حقاً ما أجمل هذا !

ولكن مادامت النقاوة من معرفة الخطية ، ليست فى هذا العالم ، فماذا نفعل ؟

دربوا أنفسكم على حياة البساطة الروحية .

لا تجعلوا عقلكم وحده هو الذى يعمل ، فى تعقيدات الفكر والجدل ، إنما أضيفوا إليه بساطة الروح . ولتكن لكم العين البسيطة النيرة . ولا تختلطوا بالخطية ولا بأفكارها وقصصها ، حتى لا تتدنس أذهانكم بتذكار الشر الملبس الموت .

واصبروا على النقاوة ، مهما تأخر وصولها . واطلبوها كهبة من الله لكم . واجعلوا الشر دائماً خارجكم ، مهما كثرت حروبه .

وليكن الرب معكم .

بللت فراشي بدموعي

تقال على نغمة ربى إجذبنى

بللت فراشي ، بدموعي المرة وعاهدت إلهى إلهى ، دى آخر مرة
ها اثبت فى حبك ، واثبت كالصخرة من كل قلبى قلبى ، مش راجع تانى
مش راجع تانى ، مش راجع تانى ، من كل قلبى قلبى ، مش راجع تانى

* * *

وجات علىّ ، الحرب قوية رجعت تانى تانى ، لعمق الخطية
فبكيت من قلبي ، بتوبة نقية لكن لمدة لمدة ، ورجعت تانى
ورجعت تانى ، ورجعت تانى ، لكن لمدة لمدة ، ورجعت تانى

* * *

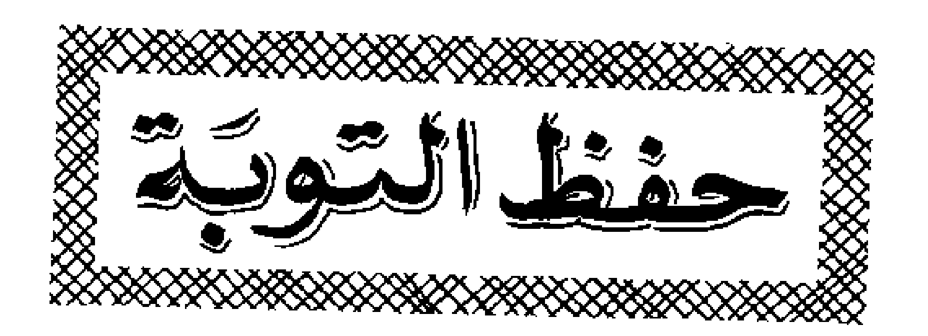
قويت إرادتى ، كترت عهودى من فرط غرورى غرورى زودت عهودى
واثق بعزيمتى ، واثق بجهادى خانتنى نفسى نفسى ، ورجعت تانى
ورجعت تانى ، ورجعت تانى ، خانتنى نفسى نفسى ، ورجعت تانى

* * *

فصرخت بشدة ، وقلت ارحمنى أنا عارف ضعفى ضعفى ، يارب أعنى
القوة منك ، من فوق مش منى طول ما أنت معايا معايا مش هارجع تانى
مش هارجع تانى ، مش هارجع تانى ، طول ما انت معايا معايا مش هارجع تانى

* * *

الباب السادس



- إمكانية الرجوع .
- بدأوا بالروح وكملوا بالجسد .
- الكنعانيون فى الأرض .
- لا تعرجوا بين الفرقتين .
- الفصل بين النور والظلمة .
- الإهتمام بالروح .
- وسائل أخرى .

امكانية الرجوع

سهل أن يتوب المرء يوماً ، إنما المهم أن يتوب باستمرار .

أى أن يعيش فى حياة التوبة ، أو يعيش فى التوبة حياته كلها ، فلا يرجع مرة أخرى إلى الخطية ...

سهل جداً أن يدرب الإنسان نفسه ، و ينجح فى تدريب روحى لمدة يوم أو يومين أو أسبوع . ولكن هل من الممكن أن يستمر فى هذا التدريب الروحى مدى الحياة؟ هكذا فى التوبة ، المهم فيها هو حفظها ، أى استمرارها .

لأنه ما أسهل الرجوع ...

إن الشيطان الذى يرقب حياة الإنسان ، لا يستريح مطلقاً أن يفلت هذا الإنسان من يده بالتوبة . لذلك يحاول بكل الوسائل والحيل أن يرجعه عنها ، ولو بعد فترة طويلة ...

وعصر القضاة مثال واضح جداً لهذا الرجوع ...

كانوا يسيرون فى عبادة الأوثان وفى نجاسات الأمم المختلطة بهم . وكان الرب يخلصهم بأحد القضاة يقيمه عليهم ، فيتوبون... ولكن «عند موت القاضى ، كانوا يرجعون و يفسدون أكثر من آبائهم بالذهاب وراء آلهة أخرى ...» (قض ٢ : ١٩) .

وكانت فترات التوبة تستمر أحياناً عشرات السنوات ، ثم يرجعون .

نقرأ فى سفر القضاة « واستراحت الأرض أربعين سنة ، ومات عثنئيل ... وعاد بنو اسرائيل يعملون الشر فى عينىّ الرب» (قض ٣ : ١١ ، ١٢) ... «واستراحت الأرض ثمانين سنة ... وعاد بنو اسرائيل يعملون الشر فى عينى الرب ، بعد موت أهود» (قض ٣ : ٣٠ ، ٤ : ١) ... «واستراحت الأرض أربعين سنة . وعمل بنو اسرائيل الشر فى عينى الرب» (قض ٥ : ٣١ ، ٦ : ١) ...

إنها قصة تكررت فى حياة هذا الشعب ، وفى حياة غيره .

سواء من الشعوب أو الأفراد ... من قلوب غير ثابتة فى محبة الرب ، وغير جادة فى حياة التوبة... لم تنته من حياة الخطية . تتركها ثم تعود إليها ، حتى شبهها الرسول بتشبيه صعب :

كلب قد عاد إلى قيئه . وخنزيرة مغتسلة إلى مراغة الحمأة .

وهكذا يقول بطرس الرسول « لأنه إذا كانوا بعدما هربوا من نجاسات العالم بمعرفة الرب والمخلص يسوع المسيح ، يرتبكون أيضاً فيها فينغلبون ، فقد صارت لهم الأواخر أشر من الأوائل . لأنه كان خيراً لهم لو لم يعرفوا طريق البر ، من أنهم بعد ما عرفوا يرتدون عن الوصية المقدسة المسلمة لهم . قد أصابهم ما فى المثل الصادق : كلب قد عاد إلى قيئه ... (٢بط ٢ : ٢٠-٢٢) .

نعم كثيرون ساروا مع الرب مرحلة ، ولم يكملوا الطريق .

إما أنهم شعروا بصعوبة الطريق ، فتركوه وتركوا الرب معه ... ولم يقدروا أن يحملوا صليبهم حتى النهاية . أو أنهم خانوا الرب ، إذ عادوا ففضلوا الخطية عليه . وهؤلاء انطبق عليهم ما قاله القديس بولس الرسول عن الغلاطيين الأغبياء (غل ٣ : ١ ، ٣) إنهم :

بدأوا بالروح وكملوا بالجسد

وقد قدم لنا بولس الرسول مثالاً آخر هو ديماس .

ديماس الذى كان أحد مساعدى القديس بولس فى الخدمة والكرازة ، أى كان أحد أعمدة الكنيسة . وقد قرنه الرسول مرة باسم لوقا الطبيب (كو ٤ : ١٤) ، وصرح بأنه من العاملين معه « مرقس وارسترخس وديماس ولوقا » (غل ٢٤) ... ديماس الكارز هذا ، إنتهت قصته بعبارة مؤلمة قال فيها القديس بولس الرسول :

ديماس قد تركنى ، إذ أحب العالم الحاضر (٢ تى ٤ : ١٠) .

إنه مؤلم حقاً أن تعود محبة العالم الحاضر ، فتغزوا قلب كارز عظيم من مساعدى بولس الرسول . إن كان الأمر هكذا ، فليحترس كل أحد من العالم ومحبته ، مهما تاب ...

والقديس بولس يذكر لنا أمثلة أخرى غير ديماس ، إنتهوا إلى نفس النهاية المؤلمة ، قال عنهم لأهل فيلبى :

لأن كثيرين ... ممن كنت أذكرهم لكم مراراً ، والآن أذكرهم أيضاً باكياً ،

(١) عن محاضرة ألقيت فى الكاتدرائية الكبرى مساء الجمعة ١٩٧٤/٨/٩ .

وهم أعداء صليب المسيح (ف ٣ : ١٨).

و يكمل كلامه عنهم فيقول « الذين نهايتهم الهلاك ، الذين إلههم بطنهم ، ومجدهم فى خزيهم ، الذين يفتكرون فى الأرضيات » (فى ٣ : ١٩).

هؤلاء لم يكونوا مؤمنين عاديين ... يكفى أن بولس الرسول كان يذكرهم فى رسائله. والمؤلم أن يقول « لأن كثيرين ... » فهم إذن ليسوا واحداً أو اثنين ... والمؤلم أكثر قوله « نهايتهم الهلاك » ... ومادام الرجوع إلى حياة الخطية ممكناً لمن لا يحترسون ، فيسمحون لدخول محبة العالم إلى قلوبهم :

إذن لا تفتخر إن تبت وبدأت حياة روحية ، المهم أن تكمل .

تكمل السير فى الطريق الروحى حتى نهاية الشوط ، حتى نهاية أيام غربتك على الأرض . فقد قال الرسول « أنظروا إلى نهاية سيرتهم فتمثلوا بإيمانهم » (عب ١٣ : ٧) . إذن المهم أن تستمر التوبة حتى نهاية السيرة . ولا يكون التائب كالذين بدأوا بالروح وكملوا بالجسد...

هل إن تبت ، وسرت مع المسيح فترة روحية جميلة ، ثم عدت إلى الخطية... أتستطيع الأيام الروحية أن تخلصك ؟! أم أن ما انتهيت إليه ، هو الذى ستحاسب عليه... ؟

إن شاول الملك من الأمثلة الواضحة .

مسحه صموئيل النبى ملكاً ، وحلّ عليه روح الرب ، وأعطاه الرب قلباً آخر ، وتنبأ حتى تعجب البعض قائلين « أشاول أيضاً بين الأنبياء ؟! » (١صم ١٠ : ٩- ١١) . ومع كل هذا ، عاد شاول فأخطأ ، وكثرت أخطاؤه ، ورفضه الرب . وقيل عنه « وذهب روح الرب من عند شاول ، و بغته روح ردىء من قبل الرب » (١صم ١٦ : ١٤) . لقد بدأ مع الله ، أو بدأ الله معه . ولكن شاول لم يكمل .

وكذلك شعب اسرائيل الذى جاز البحر وتبع الرب فى البرية .

تخلصوا من عبودية فرعون . وعاشوا تحت قيادة الله المباشرة ، تظللهم السحابة نهاراً ، ويهديهم عمود النور ليلاً ، وأكلوا المن والسلوى . وكانوا أول شعب أرسل له الله شريعة مكتوبة ، وتعهدوا قائلين « كل ما تكلم به الرب نفعل ، ونسمع له » (خر ٢٤ : ٧)... ومع ذلك عادوا وأخطأوا إلى الرب كثيراً ، وتذمروا ، وعبدوا العجل الذهبى (خر ٣٢) . وغضب الرب على ذلك الجيل المتذمر ، ورفض إدخاله أرض الموعد ، ومات كله فى البرية...

هل تظنون أن كل الهالكين بدأوا طريقهم بالهلاك ؟!

كلا طبعاً ، فالشيطان نفسه بدأ حياته كملاك طاهر منير ، ولكنه لم يكمل . فكم بالأولى البشر الذين عرفوا الخطية فترة ثم تابوا... إذن لا يهمنا نقطة البدء ، بل نهاية المطاف .

الهراطقة لم يبدأوا تاريخهم كهراطقة ...

بل إن بعضهم بدأ بداية طيبة جداً ... أوطاخى كان من أفضل رهبان القسطنطينية . كان إنساناً روحياً ، ورئيس رهبنة . ولكنه لم يكمل ، وانتهى إلى الهرطقة . وأريوس كان من أفضل وأقوى كهنة الإسكندرية... ونسطور كان من أقوى معلمى عصره ، ووصل به الأمر أن صار بطريركاً للقسطنطينية... وانتهى كل هؤلاء إلى الضياع .

وأوريجانوس كان أعظم عالم فى عصره . وكان رجلاً زاهداً . وقد تألم كثيراً من أجل المسيح ، ودافع عن الإيمان... وأخيراً انطبقت عليه تلك العبارة الأليمة « أيها البرج العالى ، كيف سقطت ؟! » ... إذن فليحترس كل أحد...

وإن كنت قد تبت ، فاسمع هذه النصيحة :

لا يكفى الخروج من سدوم ، بل أكمل إلى صوغر .

لقد خرجت إمرأة لوط من سدوم ، وكانت يدها فى يد الملاك . ولم تحترق مع المدينة المحترقة . ولكنها لم تكمل المسيرة مع الله ، وإنما نظرت إلى الوراء (تك ٢٩ : ١٦) . وهلكت بهذه النظرة الواحدة... ياللرعب !

إحترس إذن من النظر إلى الوراء ...

لا تعد تفكر فى العالم الذى تركته من أجل الرب . ولا تحاول أن تتذكر ملاذ الخطية التى تبت عنها... لا تنظر مطلقاً إلى الوراء ، إنما « امتد إلى قدام » . وحاول أن تنمو فى توبتك لا أن ترجع إلى الخطية .

فالذى يرجع ، يكون كمن يهدم كل ما بناه .

أنا لا أريد أن أخيفك بقول الرسول « لأن أرضاً قد شربت المطر الآتى عليها مراراً كثيرة ، وأنتجت عشباً صالحاً للذين فلحت من أجلهم ، تنال بركة من الله . ولكن إن أخرجت شوكاً وحسكاً ، فهى مرفوضة وقريبة من اللعنة التى نهايتها الحريق » (عب ٦ : ٧ ، ٨) .

ولا أريد أن أكرر ما قاله الرسول فى نفس الرسالة «إن أخطأنا باختيارنا ، بعدما أخذنا معرفة الحق ، لا تبقى بعد ذبيحة عن الخطايا ، بل قبول دينونة مخيف ...» (عب ١٠ : ٢٦ ، ٢٧)... فلعل الرسول لا يقصد مجرد الخطية ، فكل إنسان معرض لها ، إنما يقصد حالة الإستمرار فى الخطية...

إنما كل ما أريد أن أقوله ، هو أن تحترس فى توبتك .

إن تبت ، لا تغتر بنفسك . لا تستكبر بل خف (رو ١١ : ٢٠) .

لا تظن أن التوبة أعطتك حالة عصمة . فليس أحد بلا خطية سوى الله وحده (متى ١٩: ١٧) . وما أسهل أن يحاربك العدو ليسقطك . لذلك تمسك بالرب ، ولينسحق قلبك قدامه ليعطيك حياة النصرة الدائمة . واذكر قول القديس بولس الرسول :

« تمموا خلاصكم بخوف ورعدة » (فى ٢ : ١٢) .

و يطابق هذا أيضاً ما قاله القديس بطرس الرسول « ... سيروا زمان غربتكم بخوف» (١بط ١: ١٨) . وليس المقصود بهذا الخوف معنى الرعب . كلا ، بل المقصود به هو الحرص والحيطة ، والتدقيق فى الحياة الروحية ، والبعد عن الغرور الذى يظن فيه التائب إنه قد تخلص من الخطية إلى الأبد ، وقد ارتفع فوق مستواها !!

فى هذا الخوف أو الحرص ، لون من التواضع .

وكثيرون خلصوا بهذا التواضع ... الذى فيه يشعر الإنسان بضعفه ، وبأنه لا يزال تحت الزلل ، ويحتاج إلى حرص حتى من أبسط الخطايا... فالذى يشعر بضعفه ، تحيط به قوة الله لتعينه وتخلصه... وما أجمل تواضع القديس بولس الرسول فى قوله :

« ... أقمع جسدى وأستعبده ، حتى بعد ما كرزت للآخرين ، لا أصير أنا نفسى مرفوضاً» (١ كو ٩ : ٢٧) .

فإن كان بولس الرسول يقول هذا عن نفسه ، فماذا نقول نحن عن أنفسنا ، ونحن أدرى الناس بضعفنا...؟! وإن كان الرسول يقول «أقمع جسدى وأستعبده» . ألا يعطينا بهذا درساً فى استمرار الحرص مدى الحياة؟!

الحرص يدل على أن التائب جاد فى توبته .

و يدل على أنه صادق فى مواعيده التى وعد بها الله لما بدأ توبته . فكن حريصاً

باستمرار « أذكر من أين سقطت وتب » (رؤ ٢ : ٤) . **إبحث عن أسباب الخطية التى** **اسقطت فيها قبلاً ، وابعد عنها بكل قوتك .**

ومن الأفضل أن نفرد لهذه النقطة موضوعاً خاصاً وهو:

الكنعانيون فى الأرض

كثيرون بعد أن تابوا رجعوا إلى خطاياهم . وكان السبب هو أنهم :

تركوا أسباب الخطية قائمة كما هى ، وتركوا أبواب الخطية مفتوحة ...

لذلك عادت إليهم الخطية ، أو عادوا هم إليها ، لأن مصدر الخطية مازال موجوداً كما هو. وهذا يذكرنا بقصة الكنعانيين فى الأرض . فما هى هذه القصة وما مغزاها ؟

الكنعانيون هم بعض الأمم الذين كانوا يعبدون الأصنام ، وقد صدر الأمر بإخراجهم من الأرض حتى لا يصبحوا عثرة لجذب شعب الله إلى عباداتهم وعثراتهم . وكان الكنعانيون أقوياء جداً . والذى حدث أن يشوع لم يطردهم من بعض المناطق ، وبقوا عبيداً تحت الجزية (يش ١٦ : ١٠) . وازدادت شوكتهم . وكان شعب الله إذا اشتدوا « جعلوهم تحت الجزية ، ولم يطردوهم طرداً » (يش ١٧ : ١٣) . وتكررت نفس العبارة فى سفر القضاة أيضاً (قض ١ : ٢٨) .

فسكن الكنعانيون فى الأرض (قض ١ : ٢٧ ، ٣٠ ، ٣٢ ، ٣٣) .

وصار الكنعانيون شَرَكاً لشعب الله ومضايقين له (قض ٢ : ٣) .

فاختلطوا بهم ، وتزاوجوا معهم ، وعبدوا آلهتهم (قض ٣ : ٥ - ٧) .

وأصبح الكنعانيون هنا رمزاً لبقايا الشر الموجودة فى الأرض ، التى لم تنزع من جذورها ، فصارت سبباً لنسيان الله والبعد عنه والرجوع إلى الخطية مرة أخرى .

هنا ونسألك : حينما تبت ، وسمح لك الله أن تأكل فى حياتك الجديدة لبناً وعسلاً ، هل استبقيت بعضاً من الكنعانيين فى الأرض ، ولو كعبيد يخدمونك وهم تحت الجزية . تظنهم خاضعين لك ، بينما ينتهى الأمر أن تقع فى نجاساتهم وتعبد عباداتهم !!

هل استبقيت بعضاً من طباعك القديمة وأنت فى حياة التوبة ؟

أقول هذا ، لأننا فى بعض الأحيان ، نجد خداماً فى الكنيسة ، وربما مكرسين

---

(١) عن محاضرة ألقيت فى الكاتدرائية الكبرى مساء الجمعة ١٣/١٠/١٩٧٨ .

للخدمة ، وطبعاً هؤلاء يرون أنفسهم أنهم ليسوا فقط فى حياة التوبة ، بل ربما بالأكثر فى حياة البر، ومع ذلك لهم طباع تشبه أهل العالم تماماً ! أخلاقهم علمانية وليست روحية ! فكيف حدث ذلك ؟ وكيف جمعوا بين الخدمة وهذه الطباع معاً ؟ فلنضرب لذلك أمثلة :

١ ـ إنسان قبل أن يعرف المسيح كان غضوباً ... ثم تاب . ولكنه استبق معه الغضب !

قبل أن يتوب ، وقبل أن يدخل فى حياة الخدمة ، كان يغضب ، ويحتد ، و يعلو صوته ، و يشتم ، و يتشاجر... ثم تاب ، واستبق الكنعانيين فى الأرض . ترك معه هذه الطباع كما هى وتراه فى الخدمة ، وعلم الرغم من مسئولياته الكثيرة فيها ، يثور و يضج ويحتد ، و يأمر و ينهى بصوت عالٍ ، و يشعل الجو ناراً...

وتعاتبه على غضبه ، فيقول لك إنه الغضب المقدس ! ... أنا أغضب من أجل الله وحقوقه ! وأثور من أجل إصلاح الأوضاع الخاطئة... من أجل الوصية... من أجل أن أعلمهم ماذا ينبغى أن يكون !

وفى الحقيقة إنه يثور ، لأنه عاجز عن مقاومة الغضب داخله .

وفى الحقيقة ليس هذا غضباً مقدساً ، لأنه ضد الوصية التى تقول « المحبة تتأنى وتترفق ولا تحتد » (١كو ١٣ : ٤ ، ٥) . وضد الوصية التى تقول « غضب الإنسان لا يصنع بر الله » (يع ١ : ٢٠) . وأيضاً ضد الوصية التى تقول « ليرفع من بينكم كل مرارة وسخط وغضب وصياح... وكونوا لطفاء بعضكم نحو بعض » (أف ٤ : ٣١ ، ٣٢) .

والغضب المقدس يجب أن يكون مقدساً فى وسيلته أيضاً .

وليس فقط فى هدفه وغرضه . فالذى يثور بهذا الشكل يدل على أن أعصابه ليست سليمة ، و يعطى قدوة سيئة ومظهراً غير مشرف للخدمة ، و يدل على عدم نقاوة فى الأسلوب وفى طريقة التعامل...

وكل ما فى الأمر أن هذا الشخص استبق معه بعض طباع رديئة وأراد أن يسبغ عليها صورة مقدسة ، و يستخدمها بنفس أخطائها داخل الكنيسة . وأصبحت توبته وخدمته معثرة ، وهى كمن يضع رقعة جديدة على ثوبه العتيق (متى ٩ : ١٦) . وكان الأولى به أن يترك كل الغضب القديم بكل صوره . وهنا يسأل : وهل لا أدافع عن

الحق ؟ فنجيبه :

إذا أراد الله أن يعطيك غضباً مقدساً للدفاع عن الحق ، فسيكون غضباً آخر مختلفاً فى الجوهر والصورة والأداء والتعبير.

سيكون غضباً روحياً ، غير غضبك العلمانى هذا . تغضب فيه ولا تخطىء (مز ٤).

لقد دافعت أبيجايل عن الحق لما كلمت داود ، ولكن فى أسلوب رقيق ومؤدب وحكيم (١ صم ٢٥) . والسيد المسيح كشف للمرأة السامرية أخطاءها ، ولكن بأسلوب روحى غير جارح (يو ٤) . وأولاد الله دائماً يعبرون عن احتجاجهم على الخطأ بطريقة روحية ليس فيها صخب ولا ضوضاء ولا نرفزة ، كل هذه الأمور التى من بقايا الكنعانيين فى الأرض .

المشكلة هنا ، هى أن المقاييس الروحية غير سليمة .

إن المقاييس التى تجيز هذا الغضب الخاطىء ، وتعتبره مقدساً من أجل الله ، لا شك أنها مقاييس غير سليمة ، أو هى مجرد تبرير لوجود خطية قديمة لم يتطهر منها القلب بعد ، ولا تتفق مع حياة التوبة ، ولا مع ما يليق بالتوبة من تواضع وانسحاق... ويمكن أن تتطور حتى تتلف روحيات الإنسان كلها ، وكأنه لم يتب .

٢ ـ مثال آخر هو الخلط بين الشتيمة والتوبيخ الروحى .

نفس الوضع . إنسان كان شتاماً قبل التوبة . ثم تاب ، أو ظن أنه تاب ، بينما استبقى بعض أخطائه القديمة . ومن ضمنها الشتيمة وبعض الألفاظ الجارحة . واعتبر إنها نافعة له يمكن أن يستخدمها فى توبيخ الخطاة . ومع نسيانه أن التائب ليس له أن يوبخ إلا نفسه ، وليس له أن ينسى خطاياه ، لكى يهتم بخطايا غيره ويبكته عليها ... إلا أنه مازال يتمسك بقول بولس الرسول « وبخ إنتهر عظ » (٢تى ٤ : ٢) .

وينسى ما هى الطريقة الروحية للإنتهار...

إن القديس بولس الذى قال هذه النصيحة لتلميذه الأسقف تيموثاوس ، هو نفسه الذى قال لكهنة أفسس « ثلاث سنين ليلاً ونهاراً ، لم أفتر عن أن أنذر بدموع كل واحد » (أع ٢٠ : ٣١) . فهل أنت تنذر الناس فى حب ودموع ، أم فى كبرياء وتسلط وفى احتقار لهم ولمشاعرهم ؟!

إن التائب لا ينتهر أحداً . وإن انتهر ، لا ينسى روح الوداعة .

تلك التي قال عنها الرسول « أيها الأخوة ، إن انسيق إنسان فأُخذ فى زلة ما ، فاصلحوا أنتم الروحانيين مثل هذا بروح الوداعة ، ناظراً إلى نفسك لئلا تجرب أنت أيضاً » (غل ٦ : ١) . نعم ، فنحن كلنا تحت الزلل . والتائب المتذكر لخطاياه ، إن تعرض لإصلاح أحد ، لا ينسى مطلقاً أنه أخطأ مثل هذا الإنسان قبلاً . فإن نسى ، يعرض نفسه لفقدان توبته ، وتدخله روح الكبرياء ...

أما الذى فى انتهاره يتطاول و يشتم غيره ، فهذا لم يتب حتى الآن ، وعليه أن يتذكر قول الرسول :

« ... لا شتامون ... يرثون ملكوت الله » (١ كو ٦ : ١٠) .

الذى يستبق الشتيمة فى طباعه ، إنما يستبق الكنعانيين فى الأرض لإتلافها .

والشتيمة لا يليق إستعمالها فى الخدمة ، لأن وسائل الخدمة ينبغى أن تكون طاهرة .

لا يليق بالتائب أن يغطى خطاياه بآيات يسىء فهمها .

أو يسىء إستخدامها قصداً . الأفضل أن يعترف أن بعض ضعفاته مازالت موجودة لم يتخلص منها بعد ، مثل الغضب والنرفزة وحدة الطبع والشتيمة . وقد حملها معه فى حياته الجديدة ، تعكر هذه الحياة ، وتمنعه من حفظ التوبة .

لا تقل « الروح القدس يبكت الناس على لسانى » . فالروح القدس له أسلوبه الخاص وألفاظه النقية .

هناك إنسان آخر يظن أنه تاب ، بينما يكون قد استبق خطية أخرى :

٣ ـ يكون قد استبق فى توبته ما فى طبعه من عناد .

والعناد يرتبط دائماً بالكبرياء . فهو نتيجة للثقة الخاطئة بالنفس ، والتشبث بالرأى الخاص ، واحتقار آراء الآخرين ، وعدم المبالاه بنتائج صلابة رأيه ...

وقد يكون هذا العناد وهذه الصلابة فى محيط الكنيسة والخدمة ومدارس الأحد . و يقول الجميع « فلان من الصعب التفاهم معه » ... ومع ذلك فهو ليس مجرد تائب ، إنما هو خادم ، وربما مسئول كبير فى الخدمة ، ونشيط ، و يعظ ، و يتكلم فى الروحيات واللاهوتيات والعقيدة وقصص القديسين . له معلومات . ولكن الكنعانيين لا يزالون فى الأرض .

ويحاول أن يسمى عناده باسم (الدفاع عن الحق) .

بينما الحق يدعوه أن يكون متواضعاً ومتفاهماً ومحترماً لآراء غيره... ولكنها ثياب الحملان تلبسها بعض الخطايا . وحقيقة الأمر أن (الذات) ماتزال قائمة . وهذا الإنسان ربما يكون فى توبته قد تخلص من خطايا كثيرة ولكنه...

ولكنه لم يتخلص من [الذات] ، حملها معه فى توبته .

وما أكثر الذين يفشلون فى توبتهم بسبب (الذات) ، وربما تسقطهم فى عديد من الخطايا ، وترجعهم إلى حالة ما قبل التوبة . ولكن كثيرين من الذين تابوا ، لا يحسون بحرب الذات هذه ، وربما لا يرون إنها أكبر خطاياهم .

٤ ـ وهناك من يتوب ، ويستبقى خطية الإدانة والإنتقاد .

إنسان كان واقعاً فى هذه الخطية إلى حد بعيد . ثم دخل فى حياة التوبة . وشغلته إلى حين الخطايا الكبيرة التى تركها . ثم مالبثت خطية الإدانة التى كانت عنده أن ظهرت مرة أخرى... والعجيب أن هذا الإنسان كلما يحس أنه نما فى التوبة ، واقترب إلى الله ، وبعد عن الخطية ، على هذا القدر تزداد خطية الإدانة ظهوراً فى حياته...

وأصبح ينتقد كل شىء ، وكل أحد ، ولا يعجبه شىء !

البصيرة الروحية التى وهبت له فى التوبة ، صار يوجهها إلى أعمال غيره وليس إلى أعماله ! والمثالية التى أحبها فى التوبة ، أصبح يقيس بها تصرفات الناس وليس تصرفاته هو! وإذا به ينتقد الكل...

المسألة فى واقعها ليست حرصاً على المثالية ، إنما هى عدم قدرة على ترك خطية الإدانة والإنتقاد التى تركها معه من ماضيه ، وإذا بالكنعانيين لايزالون فى الأرض .

وهذه الروح تدخل حتى فى الخدمة والتعليم .

ففرع من فروع الخدمة ، يرفض المنهج العام ، ويظل ينتقد : هذا المنهج فيه أخطاء كذا وكذا ، وينقصه كذا وكذا . ومنهج فرعنا أفضل !... ويتحول هذا الفرع إلى «قطاع خاص» فى محيط الخدمة ، ولا تهمه وحدة التعليم فى الكنيسة . [الذات] لاتزال باقية . لم تمت حين بدأت التوبة...

وروح الإنتقاد تجعل جماعات منغلقة على نفسها .

كأنها جزائر داخل الكنيسة ، لا تتصل بأرض أخرى . قد تخرج منها سفن إلى هذه الأرض أو تلك ، وقد تأتيها سفن من أراض أخرى . ومع ذلك هى جزائر قائمة بنفسها ، داخل الذات ، التى ظلت باقية بعد التوبة .

ولا تكتفى بهذه الإنفرادية ، وإنما تنتقد كل وضع آخر، بكل عنف . فإن سألت واحداً منهم « لماذا كل هذا ؟ » يجيبك بعبارة أرمياء النبى « ليت عينىّ ينبوع دموع ، فأبكى نهاراً وليلاً قتلى بنت شعبى » (أر ٩ : ١) .

يا أخى إبكِ على خطاياك ، قبل أن تبكى على الشعب .

ولكن هذا النوع للأسف ، لا يرى له خطايا تحتاج إلى بكاء ... !

إنه بعد أن بدأ التوبة ، لم يعد مشغولاً إلا بخطايا غيره ، ولذلك يحيا باستمرار فى جو مشبع بالإدانة والإنتقاد للآخرين ، فى غير رأفة . أما من جهته هو، فيضع نفسه تحت عبارة « لا يحتاجون إلى توبة » (لو ١٥ : ٧) . لذلك يعيش فى منهج الفريسى لا العشار (لو ١٨ : ٩- ١٤)... الفريسى الذى يصوم و يعشر أمواله ، وليس هو من الظالمين الخاطفين الزناه . ولكنه يستبقى الكنعانيين فى الأرض...

٥ ـ وقد يتوب الإنسان ، ولكنه يستبقى فى طباعه : الكسل .

ربما يكون إنساناً كسولاً و يتوب . ولكنه يترك خطاياه الأخرى ، ويحتفظ بالكسل . فترى هذا الكسل واضحاً فى خدمته ، فى عبادته ، فى تداريبه ، فى قراءاته ، فى حضوره للإجتماعات ، فى مواظبته على الإعتراف . وإن سأله أحد كيف يسمح لنفسه بالبقاء فى هذا الكسل؟ يجيب « يكفينى إنى أحب يسوع » !

وتتعجب ، هل محبته لرب المجد سبباً لكسله !؟

هوذا الرسول يدعونا أن نكون « حارين فى الروح . غير متكاسلين فى الإجتهاد . مواظبين على الصلاة » (رو ١٢ : ١١ ، ١٢) . ولكن يبدو أن محاولات تغطية الخطايا تكاد تصبح عادة عند البعض... أما الإدعاء « بكفاية محبة الرب ، فالرد عليها بسيط ، وهو أن الرب نفسه قال : من يحبنى يحفظ وصاياى (يو ١٥ : ١٠) . فأين حفظ الوصايا بالنسبة إلى هذا الكسل ؟!

٦ ـ وربما إنسان يتوب ، ويستبقى معه خطية (التحايل) .

قبل أن يتوب ، كان هذا الطبع . يعرف أن يصل إلى غرضه بالأساليب

الملتوية ، باللف والدوران ، بالحيل البشرية ، بالدهاء ، بطرقه الخاصة... وبعد أن تاب ، استبقى هذا الطبع معه... وصار يلجأ إليه أحياناً ، كما لجأ يعقوب إلى خديعة أبيه لأخذ البركة !!

ربما تقع الكنيسة فى مشكلة ، أو تقع الخدمة فى مشكلة . ويحتار الكل كيف يكون حل الموضوع ، فيتدخل هذا الإنسان و يقول « أتركوا لى هذا الموضوع لأحله » ... وكيف تحله ؟ « أحله بطرق الخاصة... أنا أعرف هذه اللعبة جيداً » ... طبعاً يعرفها لأنه كان يلعبها من قبل ، قبل أن يتوب . ولا مانع من أن يلعبها الآن...

و يتساءل البعض كيف أتى بذلك الحل ؟ والجواب واضح . من الكنعانيين الذين لايزالون فى الأرض ، يعطونه المشورة (الطيبة) !

وتشعر فى حله للمشكلة أنه لم يتب بعد ...

ومع ذلك ضميره لا يتعبه ! قديماً كان يلجأ إلى اللف والدوران وإلى الطرق الملتوية من أجل أمور العالم... أما الآن فيلجأ إلى كل هذا من أجل الله !! لا داعى إذن لأن يوبخه ضميره ! وهكذا ينحدر خارج التوبة . ولا يشعر فى توبته أنه قد تغير... الشخصية القديمة مازالت كما هى لم تغير أساليبها ... وبنفس الوضع ينحدر إلى ما هو أسوأ...

ويبقى معه الإعتماد على الذراع البشرى ، حتى فى توبته .

و يؤثر هذا الأمر على روحياته كلها ، وقد ينتهى إلى فشله فى حياة التوبة . ولكن ما كان يتنبه إلى هذه النقطة ، إذ كان يظن أن التوبة هى مجرد ترك الخطايا (الكبار) أمثال الزنا والسرقة والسكر والقمار... الخ

٧ ـ وربما شخص يكون قد (تاب) ولكنه استبقى تبرير الذات .

اعتبر أن الدفاع عن النفس شيء عادى . ولكنه صار يدافع عن نفسه فى كل شيء ، كأنه لا يخطىء فى شيء ، حتى أبعد عنه كل ذى نصيحة أو عتاب . وربما عن طريق تبرير الذات يقع فى أخطاء لا تحصى ، مهما وصل إلى درجات فى الخدمة ...

وهناك نوع آخر غير كل هؤلاء . كان محارباً بالكآبة ...

٨ ـ ويتوب هذا الإنسان ، ويستبقى الكآبة وباقى حروبها .

وإذا بك تجده يتعب فى حياته الروحية بسبب أية مشكلة ، وينهار، ويضطرب

ويفقد سلامه. ويقول: «لا فائدة منى. لقد يئست. لقد تعقدت من الموضوع الفلانى».

إن الكآبة حرب من الشيطان، أو تعب فى الأعصاب. وليست هى صفة من صفات أولاد الله، لأن من ثمار الروح: فرح وسلام (غل ٥: ٢٢). وممكن بهذه الكآبة ينحرف الإنسان عن طريقه الروحى، ويضل الطريق عن الله...

إذن علينا أن نفحص أنفسنا جيداً، لنرى ما الذى قد استبقيناه من حياتنا الأولى قبل التوبة، لنتخلص منه.

لئلا نظن أننا قد دخلنا كنعان فعلاً، بينما نكون لانزال تائهين فى البرية. والذى يطهر نفسه من كل رواسب الحياة القديمة، يمكنه أن يشق طريقه إلى الله بسهولة، ولا ينتكس فى توبته.

وبالذات بالنسبة إلى الخطايا التى قد تأخذ صورة غير صورتها.

٩ ـ مثال حب المال أو حب القنية.

وقد يقول شخص: ولكن هذا الأمر واضح. كيف يمكن أن ينخدع به إنسان فى التوبة؟ أقول لكم كيف تتم الخدعة...

إنسان كان يحب المال، أو كان بخيلاً لا يحب أن يصرف مما معه. ثم تاب، أو ظن أنه تاب. وعاش فى الحياة الجديدة مع الله. وربما صار خادماً معروفاً، أو راهباً فى دير. ثم تجد هذه الخطية القديمة تأخذ مظهراً كنسياً.

يرجع حب المال، ولكن ... من أجل الكنيسة، من أجل الدير!

ويكون ذلك بأسلوب قد لا يتفق مطلقاً مع حياة التوبة، أو مع الروحيات عموماً. وقد يعتذر بقوله: أنا لا آخذ لنفسى شيئاً. أنا أجمع لله! هذا حق، ولكنه يجمع بطريقة علمانية غير روحية، لا تتفق مع عدم محبة المال، ولا مع النسك والزهد!

وقد ترى عجباً من بعض المسئولين عن مال الكنائس والجمعيات. وتسأل أين حياة التوبة؟ ولكن أمثال هؤلاء قد استبقوا بعض الكنعانيين فى الأرض.

وينطبق على هذا، الكنائس الغنية التى لا تساعد الكنائس الفقيرة.

أليس المال كله هو مال الله. وسواء عند الله تم الصرف على هذه الكنيسة أو تلك. ولكن محبة المال تدعو إلى جمعه هنا، وليس هناك... وما أكثر أمناء الصندوق

لا تعرجوا بين الفرقتين (١)

قال إيليا النبى للشعب « حتى متى تعرجون بين الفرقتين ؟ إن كان الرب هو الله فاتبعوه . وإن كان البعل فاتبعوه » (١مل ١٨ : ٢١) .

التعريج بين الفرقتين ، يدل على أن القلب غير ثابت فى محبة الله ، وعلى أن التوبة غير صادقة أو غير كاملة .

إن وصلت التوبة إلى كمالها ، لا يعرج الإنسان بين الفرقتين ، بين الله والعالم . أما إن بدت نظراته تهتز بين هنا وهناك ، فإن هذا يدل على أنه بدأ يعاودد النظر فى التوبة . فتى يحدث هذا ؟

يحدث أحياناً إن الإنسان يقدم الإرادة لله ، من أجل الطاعة . ولكنه لا يقدم القلب ، كل القلب . يسلّم يده للملاك ليقوده خارج سدوم ، وقلبه لا يزال داخلها .

قد تكون توبته مجرد محاولة لإرضاء الله ، وليست محبة للبر .

أو ربما يكون قد ترك الخطية من أجل مخافة الله فقط ... لأجل خوف العقوبة ، لمجرد الحرص على أبديته ، دون أن تكون محبة الله أو محبة البر ثابتة فى قلبه . لذلك فإن أية هزة تتعبه من العدو ، إما أن ترجعه إلى الخطية أو تميل قلبه ...

ويحدث هذا أيضاً إن كان هدف التوبة غير سليم .

حنانيا وسفيرا باعا ممتلكاتها وقدما الثمن للرسل ، ليس زهداً فى المال وحباً لله ، إنما لكى يجاريا الجو الروحى السائد فى العصر الرسولى ، مجرد مجاراة ، مع عدم إيمان قلبى بتفاهة المال ... لذلك لم يقدما المال كله ، وإنما احتجزا منه جزءاً ، لأن محبة العالم كانت لا تزال داخل القلب (أع ٥) .

فهل أنت كذلك ؟ هل دخلت التوبة مجاراة للجو الروحى ؟

أقصد لمجرد المجاراة أو التقليد ، دون أن يتطهر القلب فى الداخل من محبة الخطية ، ودون أن تقتنع تماماً بدنس الخطية وبشاعتها ... !

إن التوبة بسبب المجاراة ، قد تدعو إلى التعريج بين الفرقتين .

إن راحيل تركت بيت أبيها لابان ، وذهبت مع يعقوب ، ربما محبة ليعقوب ومجاراة

---

(١) عن محاضرة ألقيت فى الكاتدرائية الكبرى مساء الجمعة ١٩٧٥/٢/٧ .

له فى ترك ذلك الوسط المتعب . ولكن الهدف الأساسى ـ الذى هو ترك مكان تُعبد فيه الأصنام ـ لم يكن موجوداً . ولهذا أمكن أن تخرج راحيل من بيت لابان ، وتأخذ معها أصنام أبيها لابان... ! وهكذا كانت تعرج بين الفرقتين (تك ٣١ : ٣٤)...

وأنت : هل دخلت الحياة الجديدة محبة لشخص كيعقوب أم محبة لله ؟

ربما محبة شخص روحى ، تقود إلى الطريق الروحى . ولكن هذه ينبغى أن تكون نقطة البدء فقط ، وتتحول إلى محبة لله . لأنه لو بقى هذا الدافع وحده ، بقيت الحياة الروحية معلقة بمحبة هذا الشخص الروحى . وأصبح التائب عرضة للرجوع .

بنو اسرائيل تركوا مصر تابعين موسى . ولكنهم ما كانوا قد كونوا علاقة ثابتة مع الله . لذلك تقلقلوا ورجعوا .

مجرد أن غاب موسى عنهم أربعين يوماً ، حينما كان مع الله على الجبل ، جعل هذا الشعب يعيدون التفكير فى علاقتهم مع الله ، وانتهوا إلى عبادة عجل ذهبى (خر ٣٢) . بل إن أية ضيقات كانت تحدث لهم فى البرية ، كانت تدعوهم إلى التذمر ، وإلى اشتهاء العودة مرة أخرى إلى مصر... واشتهاء اللحم والبطيخ والكرات (عدد ١١ : ٤ ، ٥) .

إذن لا بد من تكوين علاقة ثابتة مع الله خوف الإنتكاس .

نقطة البدء فى التوبة ، لا يصح أن تبقى حيث هى . إنما ينبغى أن ينمو التائب فى روحياته ، ودوافعه ، وعلاقته مع الله ، حتى لا يعود القلب فيشتاق الحياة السابقة فى الخطية . وكلما كانت العلاقة ثابتة مع الله ، لا يتعرض التائب إلى مشاعر التعريج بين الفرقتين ، وشهوات الرجوع إلى الخطية .

وما أسهل أن يُحارب بالجمع بين الأمرين معاً : الله والعالم !

على الرغم من صراحة قول الكتاب « محبة العالم عداوة لله » (يع ٤ : ٤) .

شمشون حاول أن يجمع بين كونه نذير الرب ، وصديقاً لدليلة فى نفس الوقت ، ففشل وفقد نذره . ولوط حاول أن يجمع بين محبة الأرض المعشبة الخاطئة وكونه رجل الله ، ففقد كل ما كان له فى سدوم . حقاً إنه لا شركة بين النور والظلمة (٢ كو ٦ : ١٤) .

كذلك ملاك كنيسة ساردس حاول أن يجمع بين الخدمة والإهمال . وملاك كنيسة

لاودكية حاول أن يجمع بين الخدمة والفتور. وكل منها أُرسل إليه إنذار من الله (رؤ ٣: ٣، ١٦).

عجيب إن شاول الملك أراد اللجوء إلى العرافة، وإلى صموئيل النبي، فى نفس الوقت (١صم ٢٨: ١١)!

على التائب أن يكون دقيقاً فى البعد عن العالميات.

فقد قال الرب فى وضوح إنه لا يستطيع أحد أن يخدم سيدين (لو ١٦: ١٣). وفى البعد عن العالميات اتقاء للتأثير المضاد الذى يجذب الإنسان بعيداً عن التوبة... حقاً إنه تاب. ولكن العالميات لا تزال لها حروبها وضغطاتها، وليس الإنسان معصوماً فى التعامل معها. لذلك يجب الحرص والدقة.

وقد يحاربه العدو بما يسمونه « الطريق الوسطى ».

ومعروف المثل القائل « الطريق الوسطى خلصت كثيرين ». ويستخدمه بعض الآباء الروحيين فى نصح الذى يندفع فى تطرف روحى قد يتعبه. ولكننا نقول إن البعد عن التطرف، ليس معناه البعد عن التدقيق. فالذى يبعد عن التدقيق إنما يحاول الوصول إلى الله من الباب الواسع والطريق الرحب. وهذا ضد الوصية (متى ٧: ١٣).

كل ما نخشاه فى هذا الأمر أن التائب يتعود التساهل فى حياته. وهذا التساهل يحدره إلى أسفل حتى يفقد حرارة التوبة، ثم يفقد التوبة ذاتها ويخطىء...

وقد يحارب التائب أيضاً بشكلية العبادة، وشكلية الروحيات.

إنسان تائب تدفعه حرارة التوبة إلى النمو فى العبادة. وقد يأخذ هذا النمو مقياس الطول وليس مقياس العمق. فيكثر من الصلوات ولو بغير روح، ويكثر من القراءات ولو بغير فهم، ويكثر من التناول ولو بغير استعداد، ويكثر من إرهاق الجسد ولو بغير فائدة... وشيئاً فشيئاً قد يتحول إلى شكلية العبادة. وهذه الشكلية لا تنفعه، وقد يشعر بهذا فيتركها، ثم يسأم الحياة الروحية، فيشتاق إلى حياته الأولى!

والتائب هنا يحتاج إلى قيادة وإلى إرشاد روحى.

لكى يعرف ما هى روحانية العبادة، وكيف يسلك فيها؟ وكيف أن الله كان يرفض العبادة الشكلية والمظهرية. وأنه يريد القلب أولاً. وكل صور العبادة من صلاة

وتأمل وقراءة وصوم وتناول واعتراف، ينبغي أن تكون صادرة من قلب محب لله، وينبغي أن تمارس بفهم وبعمق روحي وبحب نحو الله. وتكون صادرة من القلب. وليضع التائب أمامه توبيخ الرب للعبادة الخاطئة بقوله «هذا الشعب يعبدني بشفتيه. أما قلبه فيبتعد عني بعيداً» (متى ١٥ : ٨).

إن مظهرية الحياة الروحية، تبعد عن حياة التوبة.

فالروحيات ليست مظاهر وشكليات. وهذه لا تدل على علاقة مع الله. وقد وبخ الرب الكتبة والفريسيين، على الرغم من تدقيقهم الشديد في حفظ الوصايا، تدقيقاً وصل بهم إلى الحرفية والبعد عن الروح! ولم يقبله الله منهم وقال لهم إنهم يهتمون بتنظيف خارج الكأس فقط... ويقيناً لم يكن الكتبة والفريسيون تائبين. على الرغم من كل ما كانوا يفتخرون به من دقة في تنفيذ الناموس، كانوا بعيدين عن التوبة.

فلا تكن في توبتك حرفياً، ولا تهتم بالمظهرية.

لأنك إن فعلت هذا سترتد وتفقد توبتك. إنما اهتم بالروح قبل كل شيء. إهتم بمحبة الله. ولتكن كل روحياتك صادرة عن هذه المحبة. بهذا تحفظ توبتك. وبهذا تضمن أنك سوف لا تعرج بين الفرقتين.

إن بلعام كان يهمه أن يكون مظهره من الخارج سليماً، لا تُمسك عليه خطية ولا كلمة خاطئة، بينما قلبه من الداخل لم يكن مع الله (عدد ٢٤، ٢٥، يه ١١). كان يريد أن يتمتع بالخطية، دون أن يظهر بمظهر الخطية. ولكن الله هو فاحص القلوب...

قلب بلعام لم يكن سليماً أمام الله. كان يعرج بين الفرقتين. يحب أموال بالاق، ويريد أن يرضيه. وفي نفس الوقت لا يقول بلسانه كلمة تغضب الرب. وهلك بلعام.

إن الذي يعرج بين الفرقتين، قد يصل إلى هذا الوضع:

قد يرتكب الخطية، إن وجد باباً للهروب من مسئوليتها.

الذي تشغله إذن هي المسئولية، وليست نقاوة القلب، وليست محبة الله. لذلك هو بعيد عن حياة التوبة.

فلا تكن أنت كذلك. ليكن قلبك ثابتاً في محبة الله، لا يعرج على طريق الخطية. ولكي يكون قلبك ثابتاً في محبة الله، إهتم بغذاء روحك...

الفصل بين النور والظلمة (1)

إن كنت قد تبت ، ودخل نور اله إلى قلبك :

فلكى تحتفظ بتوبتك ، إفصل نفسك عن كل أعمال الظلمة .

إنها قاعدة وضعها الله لنا منذ البدء ، يرويها سفر التكوين بقوله « ورأى الله النور أنه حسن . وفصل الله بين النور والظلمة » (تك ١ : ٤) . وتستمر القاعدة فى العهد الجديد إذ يقول « أية شركة للنور مع الظلمة ؟! » (٢كو ٦ : ١٤) .

لا يمكن أنَ يجمع إنسان روحى بين الإثنين فى حياته . لذلك فكل من يسير فى طريق الله :

لا بد أن يفصل ذاته عن كل أسباب الخطية والعثرة .

فهكذا أراد الله منذ بدء الخليقة . ولكن القاعدة كسرت فتسببت الخطية . أول كسر لهذه القاعدة كان عندما جلست حواء مع الحية (تك ٣) ، ورأينا كيف طغت الظلمة على النور . ويحدثنا الكتاب عن كسر آخر خطير لهذه القاعدة ، حينما يروى قبيل الطوفان أن « أولاد الله رأوا بنات الناس أنهن حسنات ، فاتخذوا لأنفسهم نساء من كل ما اختاروا » (تك ٦ : ٢) . وكانت النتيجة أن شر الإنسان قد كثر ، واضطر الله إلى تطهير الأرض من الفساد بالطوفان . إذ أن الظلمة للمرة الثانية طغت على النور .

وعاد الله ففصل بين النور والظلمة ، بواسطة الفلك .

إختار جماعة مقدسة هى نوح وأسرته ، وفصلهم عن العالم الشرير ، حتى يستبقى له مجموعة بارة لا تفسد بفساد العالم ... وبالوقت لما دخل الفساد فى أولاد نوح ، اختار الله إبرآم وفصله عن العالم الشرير ، فقال له « إذهب من أرضك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك إلى الأرض التى أريك . فأجعلك أمة عظيمة وأباركك ... وتكون بركة » (تك ١٢ : ١ ، ٢) . وكأن الله يقول لعبده إبرآم :

أترك مكان الخطية ، لتحتفظ بنقاوة قلبك ، بعيداً عن الشر .

يجب أن ينفصل النور الذى فيك عن الظلمة التى فيهم .

وبنفس الوضع أمر الرب شعبه أن لا يصنعوا عهداً مع شعوب الأرض ، ولا يتزاوجوا معهم (خر ٣٤ : ١٥ ، ١٦) . ومنعهم من النساء الغريبات الأجنبيات (أم

(١) عن محاضرة ألقيت فى الكاتدرائية الكبرى مساء الجمعة ١٩٧٦/١/٣١ .

٢ : ١٦) . إن الله يريد لأولاده أن يبعدوا عن كل خلطة شريرة (مز ١) .

وأمر الرسول أن لا يؤاكلوا ولا يخالطوا الخطاة (١ كو ٦ : ١١) .

وأن يعزلوا الخبيث من بينهم . وبنفس المنهج قال القديس يوحنا الحبيب «إن كان أحد يأتيكم ولا يجيء بهذا التعليم ، فلا تقبلوه فى البيت ، ولا تقولوا له سلام . لأن من يسلم عليه يشترك فى أعماله الشريرة» (٢يو: ١٠ ، ١١) .

لأنه يجب الإنفصال عن الخطية والخطاة ، سلوكاً ومعرفةً .

إن كانت التأثيرات الخارجية قد أسقطت شمشون وداود وسليمان ، فليحترس بالحرى الضعفاء وليبعدوا فهذا أسلم لهم...

وهكذا كانت الكنيسة فى العصر الرسولى ، وفى القرون الأربعة الأولى للمسيحية بوجه خاص ، تعزل الخطاة خارج الكنيسة ، ويبقى المؤمنون كلهم كجماعة مقدسة منفصلة عن الشر والأشرار . كما حدث فى قصة حنانيا وسفيرا (أع ٥) . وخاطىء كورنثوس (١ كو ٥ : ٥) .

أول اعتزال يعتزله الإنسان عن الشر ، هو فى المعمودية .

حيث يجحد الشيطان معتزلاً عنه وعن كل أعماله الرديئة وشروره القبيحة ، وعن كل جنده وحيله وسلطانه . وكما يعتزل عن الشيطان ، يعتزل عن الإنسان العتيق الذى يدفن فى المعمودية ، ليولد بدله إنسان جديد على صورة الله . ويضع أمامه طول حياته أن يعيش منفصلاً عن الخطية والخطاة .

ولعل إنساناً يسأل : وكيف يمكننا أن نفعل ذلك ؟

إن لم تستطع أن تنفصل عن الخطاة مكانياً ، فانفصل عنهم عملياً . إنفصل عنهم فكراً وأسلوباً ومنهج حياة .

أنت لا تقوى على عدم مخالطة كل الخطاة الذين فى العالم ، وإلا كان عليك أن تترك العالم كما قال بولس الرسول (١ كو ٥ : ١٠) . ولكن لتكن خلطتك فى حدود الضرورة فقط . وفكرك منفصل عن أفكارهم ، وأسلوبك غير أساليبهم . وحياتك غير حياتهم . بل ألفاظك أيضاً غير ألفاظهم ، كما يقول الكتاب « لغتك تظهرك » (متى ٢٦ : ٧٣) .

لهذا يقول القديس يوحنا الرسول : أولاد الله ظاهرون (١ يو ٣ : ١٠) .

إذا جلسوا مع أهل العالم ، يظهر الفاصل تماماً : ليس الفاصل فى المكان ، وإنما فى نوع الحياة ، وفى التعامل ، بل حتى فى شكلهم وملامحهم ونظراتهم وحركاتهم... روحهم تميزهم . وترى عملياً كيف أن الله قد فصل بين النور والظلمة .

ولكنى أحب أن يكون هذا الفصل عن غير كبرياء .

لا نريد لإنسان الله الذى يحيا حياة التوبة ، منفصلاً عن الخطاة ، أن يكون انفصاله عن تشامخ وتعالٍ وكبرياء ، كأنه أفضل منهم... ! مثلما كان الفريسيون والكتبة يفعلون... ويلومون المسيح على مجالسته للعشارين والخطاة .

إنما نقصد ألا توجد شركة معهم فى أى عمل خاطىء .

ولا توجد مجاراة للأخطاء ، أو تقليد للطباع ، أو مجاملة على حساب الحق . فالرسول يقول «لا تشاكلوا هذا الدهر» (رو ١٢ : ٢) . أى لا تصيروا شكلهم...

التائب لا يجارى الخطاة فى أخطائهم . وفى نفس الوقت لا يدينهم ، بل يشفق عليهم ، ويصلى لأجل خلاصهم . ويقول من جهة عدم خلطته بهم :

أنا من أجل ضعفى ، لا أقوى على هذه الخلطة .

إننى أبعد ، لأننى سريع التأثر ، سهل الإنجذاب . تستطيع العوامل الخارجية أن تقوى على إرادتى . لذلك البعد لى أضمن ، والهروب أليق . وليس الأمر تعالياً ، لأننى لا أنسى خطاياى القريبة العهد .

وهكذا يختلف عن موقف الرعاة ، الذين يزورون الخطاة ويفتقدونهم .

ويفعلون هذا لكى يجذبوهم إلى التوبة ، ويصلحوهم مع الله . على شرط أن يكون الرعاة فى أمثال هذه اللحظة ، متحفظين ، لا يفقدون هيبتهم الروحية ، ولا يندمجون مع الخطاة فى لهوهم وعبثهم . بل يكونون شهوداً للحق ، وسفراء للرب ، وقدوة أمام هؤلاء...

كان السيد المسيح يجلس فى موائد العشارين ويدخل بيوتهم ، لكى يجذبهم إلى التوبة ، ولكى يرفع معنوياتهم . فيدركون أن لهم نصيباً فيه ، وأنه ليس للأبرار فقط .

أما التائب فيقول : لست أنا فى مستوى الرعاة ، ولا فى قوة المسيح . إننى أضعف من هذه الخلطة . فلأبعد عنها .

أنا لم أصل بعد إلى مستوى من يهدى غيره ويقوده إلى التوبة ، فأنا مازلت محتاجاً

إلى من يهديني ، و يثبتني في توبتي .

لذلك فهو يعتزل الخطاة،محتفظا بانسحاق قلبه . لا يحتقر أحداً منهم . ولا يرى في داخله إنه نور ينفصل عن الظلمة . فمجرد هذا التميز في ذهنه لا يتفق مع مشاعر التوبة .

وفي قلبه يعرف من الذين قيل عنهم إنهم نور .

الإنسان البار ، الذي هو نور ، أو من ضمن الذين قال لهم الرب « أنتم نور العالم » (متى ٥ : ١٤) . هذا إذا حلّ في أي مكان تختفي الظلمة بسبب نوره . مثلما إذا وضعت مصباحاً في أي مكان مظلم ، تنقشع ظلمته و يصير مضيئاً . كذلك وجود الأبرار في أي مكان يحلون فيه ، ينتشر فيه النور، وتختفي الظلمة .

هكذا هؤلاء القديسون : الذين بسبب هيبتهم الروحية ، لا تستطيع الظلمة أن تجد مجالاً لها في وجودهم .

بل يستحي الخطاة منهم ومن وقارهم ومن قدسيتهم . ولا يجرؤ أحد في وجودهم أن يتصرف تصرفاً شائناً ، أو يتلفظ بلفظة خارجة . بل يخجل من ذاته ومن تصرفه . و يشعر الموجودون أن جواً روحياً قد ساد المكان ، بحلول أحد من هؤلاء الأبرار فيه... وإن كان هناك حديث خاطىء قبل دخولهم ، فإنه ينتهي و يصمت الكل ، وتختفي الظلمة . ولا يستطيع أحد أن يخطىء في وجودهم...

فهل أنت هكذا ؟ هل صرت بعد توبتك نوراً ؟

هل صرت ولو شمعة صغيرة ، تعطي نوراً خافتاً ، ولكنه على أية الحالات يبدد الظلام . إن لم تصر نوراً هكذا ، فاحترس كل الإحتراس من الظلمة . واذكر كل حين قول الرب « لتكن أحقاؤكم ممنطقة ، ومصابيحكم موقدة » (لو ١٢ : ٣٥) .

وليكن نورك أولاً من أجل ذاتك .

من أجل أن تبصر جيداً . من أجل أن تكون لك البصيرة الروحية التي تميز طريق الله ومشيئته . كإحدى العذارى الحكيمات (متى ٢٥) ، اللائي كان لهن زيت في مصابيحهن ، فأضأن وكن مستحقات الدخول مع العريس...

بهذه المصابيح الموقدة ، إكشف الظلمة وابعد عنها ...

ومن أجل الإحتفاظ باتضاعك ، خذ الظلمة بمعناها الموضوعي ، وليس بالمعنى الشخصي . خذها بمعنى الخطية في كل صورها . وافصل نفسك عنها .

إفصل نفسك عن كل فكر شرير وشهوة شريرة .

لكى تستطيع فى توبتك أن تحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل فكرك حسب الوصية (تث ٦ : ٥) . وكيف يكون الحب من كل القلب ، إن لم يكن القلب منفصلاً عن كل شعور خاطىء ، وليست له خلطة بأفكار العالم وشهواته .

وكلما يحاربك فى توبتك فكر من أمور العالم ومحبته وملاذه ، أذكر قول الرسول :

لا تحبوا العالم ، ولا الأشياء التى فى العالم (١ يو ٢ : ١٥) .

وقوله « إن أحب أحد العالم ، فليست فيه محبة الآب » ، « العالم يمضى وشهوته معه » (١ يو ٢ : ١٥ ، ١٧)... ولكى تبعد عن محبة العالم ، إبعد عن التفكير فيه وفى شهواته . أنت لا يمكنك حالياً أن تنفصل عنه مكانياً ، فانفصل عنه فكرياً وشعورياً .

وقل للرب كما نقول فى صلاة القسمة فى القداس الإلهى :

كل فكر لا يرضى صلاحك ، فليبعد عنا ...

وكن دقيقاً جداً ، وسريعاً جداً ، فى فصل ذاتك عن الأفكار الخاطئة... لأن الخطية يمكن أن تدخل إلى قلب الإنسان ، ولو من ثقب بسيط . وتظل توسع لها مكاناً فيه حتى تضيعه .

فاجلس إلى نفسك وافحصها واسأل : هل ما زالت فى داخلى أية خلطة مع أسباب الخطية ، ومع أفكارها ومشاعرها . وإن وجدت شيئاً من ذلك فيك ، إنتهره واطرده وقل له : لقد فصل الله بين النور والظلمة ...

الإهتمام بالروح [1]

الإهتمام بالروح هو الناحية الإيجابية اللازمة لحفظ التوبة .

فما ذكرناه عن طرد الكنعانيين من الأرض ، وعدم التعريج بين الفرقتين ، والفصل بين النور والظلمة ، إنما يمثل الحرص من الناحية السلبية . أما الإهتمام بالروح فيمثل العمل الإيجابى . لأن الروح القوية يمكن أن تحفظ الإنسان طاهراً .

لذلك يلزم أن يهتم الإنسان بروحه ، كما هو يهتم بجسده . يهتم بالإثنين معاً ، ويحفظ

---

(١) عن محاضرتين ألقيتا فى هذا الموضوع فى القاعة المرقسية بدير الأنبا رويس مساء الجمعة ١٥/١٠/١٩٦٥ ، ومساء الجمعة ٢٢/١٠/١٩٦٥ .

النظام والتوازن بينهما . و يراعى هذه القاعدة :

إن العناية التى تبذل لأجل أحدهما ، ينبغى ألا تضر الآخر .

أقول هذا لأن البعض ربما فى اهتمامه بالجسد وصحته ، يمنعه عن الصوم ، وهكذا يضر بروحه . وكثيراً ما يقع آباء وأمهات فى هذا الخطأ فى تربية أولادهم ، وكأنهم يربون أجساداً فقط بغير أرواح ... ! إننا فى تربية الحيوانات إنما نهتم بأجسامها ، فإما أن نعمل على تقويتها لأجل الشغل ، أو نعمل على تسمينها لأجل الذبح . ولكن هل نفعل نفس الأمر بالنسبة إلى الإنسان ، فنربى له جسداً لكى يأكله الدود . عار أن نهتم بالجسد الإنسانى فقط . لذلك إهتموا بصحة أولادكم جسدياً ، واهتموا أيضاً بصحتهم الروحية . وكذا بصحتكم .

إن صحة الروح نافعة للروح وللجسد أيضاً .

فإذا مرضت الروح ، يمكن أن يمرض الجسد معها ، وبعض أمراض الجسد ترجع إلى أمراض روحية .

وإن كان مرض الروح يضر الجسد ، فليس بالضرورة أن مرض الجسد يضر الروح . بل على العكس غالباً ما ينفعها . إن أشد أمراض الجسد يمكن أن تنفع الروح ، وتقود الإنسان إلى التوبة ، وإلى الصلاة ، وتوقظ نفسه ونفوس الذين حوله ، وتعلمهم الزهد فى الحياة . إهتم إذن بصحة روحك أكثر مما تهتم بصحة جسدك .

لا تكن حنوناً جداً على جسدك ، بينما تهلك روحك .

فإن السيد المسيح طلب عكس هذا ، حينما قال « إن كانت عينك اليمنى تعثرك ، فاقلعها والقها عنك... وإن كانت يدك اليمنى تعثرك ، فاقطعها والق عنك » (متى ٥ : ٢٩ ، ٣٠) . وأرانا بهذا أن الروح هى الأهم . ومن أجلها تضحى بالجسد...

روحك هذه هى صورة الله ومثاله . وهى غالية عنده جداً .

من أجلها تجسد . ومن أجلها بذل دمه الطاهر على الصليب . إذن ثمن روحك هو دم المسيح ، وكل ما تحمله المسيح من آلام لأجلك .

روحك أيضاً وحيدة ، لا يوجد لديك غيرها .

إن فقدتها فقدت كل شىء ، وإن ربحتها ربحت كل شىء . إنها أغلى من العالم

كله . لذلك قال الرب « ماذا ينتفع الإنسان ، لو ربح العالم كله وخسر نفسه ؟! أو ماذا يعطى فداء عن نفسه » (متى ١٦ : ٢٦) .

روحك هذه ، لا يستطيع أحد أن يؤذيها ، إلا أنت .

قد يتمكن إنسان من أن يحبس جسدك . ولكنه لا يستطيع أن يحبس روحك . حتى فى السجن تبقى طليقة . وقد يستطيع إنسان أن يقتل جسدك ، ولكنه لا يقدر أن يقتل روحك ...

روحك عنصر سماوى . هى التى تعطى الحياة للجسد .

إذا اهتممت بها يمكن أن ترفع الجسد إلى فوق ، وتجعله فى حالة روحية سامية . وتصير أنت شبه ملاك أرضى . ينبغى إذن أن تهتم بها ، حتى لو ضعف جسدك فى سبيل ذلك . فهوذا الرسول يقول «إن كان إنساننا الخارج يفنى ، فالداخل يتجدد يوماً فيوماً» (٢كو ٤ : ٦) . إنساننا الخارجى هو هذا الجسد . والداخلى هو الروح ...

هذا الجسد شبهه الرسول بخيمة نحن ساكنون فيها (٢ كو ٥ : ١) . والأهم أن الساكن فى الداخل هو الله . ليتنا إذن نهتم بأرواحنا هذه ، حتى لا تخطىء ، ويخطىء الجسد معها ...

أنت تغذى جسدك كل يوم . فيجب أن تغذى روحك أيضاً .

إن الروح تتغذى كما يتغذى الجسد . يقول الرب « طعامى أن أعمل مشيئة الذى أرسلنى » (يو ٤ : ٣٤) . وتتغذى الروح أيضاً « بكل كلمة تخرج من فم الله » (متى ٤ : ٤) . فهل روحك تتغذى بكلام الله وبصنع مشيئته . وتأخذ هذا الغذاء كل يوم ؟

الجسد يتغذى بثلاث وجبات كل يوم .

فى أول النهار وفى المساء وما بينهما . فهل تحرص أن تعطى روحك غذاءها مرات كل يوم أم تهملها فتضعف ؟

والجسد يتناول أنواعاً متعددة من الأغذية ليستوفى كل العناصر اللازمة .

إنك تعطيه غذاءً كاملاً فيه المواد الدهنية والسكرية والكربوهيدراتية ، وفيه البروتينات والفيتامينات والمعادن... وتحرص ألا ينقصه شىء مما يلزمه . فهل تعطى روحك مثلما تعطى الجسد كل ما يلزمها ؟ هل تعطيها غذاءها من الصلوات والتسابيح

والتأملات والقراءات الروحية والمطانيات؟ وهل تعطيها ما يلزمها من محبة الله؟ وهل هذا الغذاء تأخذه كل يوم، ودفعات فى اليوم؟ مع باقى الأغذية الأخرى...

وأنت لا تكتفى بأن تعطى جسدك غذاء كل يوم، ومرات فى اليوم، وعناصر متنوعة متكاملة. وإنما فى غذائه أيضاً:

تعطيه طعامه بكميات كافية، بقدر ما يحتاج من سعرات حرارية.

فهل تعامل روحك بنفس المعاملة؟ هل تعطيها من الصلوات ما يشبعها، أم تصلى دقائق معدودة وتسأم؟ وهل تعطيها من القراءات الروحية ما يشبعها من الكتاب المقدس وسير القديسين والموضوعات الروحية؟ أم أنت غير مواظب وغير مهتم، ولا يهمك أن تستوفى الروح غذاءها، بينما هى تجوع وتعطش إلى البر (متى ٥: ٦).

والجسد لا يكتفى بكل الكميات والأنواع السابقة من الطعام، إنما يشترط:

أن يكون الطعام جيد الطهى حسن المذاق لتقبله شهيته.

فهل أنت تقدم لروحك أطعمة جيدة حسنة المذاق، أم تقدم لها صلوات سريعة بلا فهم بلا عاطفة بلا حرارة بلا روح وممزوجة بطياشة الفكر؟! هل تظن هذه الصلوات يمكن أن تستفيد بها الروح؟ وهل أنت تقدم لها قراءات بلا تأمل بلا عمق بلا فهم بلا تطبيق؟ أتستطيع الروح أن تهضم هذا الغذاء وتستفيد به لنموها؟ وهكذا فى باقى الوسائط الروحية... إهتم إذن بروحك، واعلم أنه:

كما يضعف الجسد ويمرض لقلة الغذاء، كذلك الروح أيضاً.

الجسم يهزل لقلة الغذاء، والروح تفتر وتفقد حرارتها. ما أكثر الذين يصابون بأنيميا روحية أو بهزال روحى. وكما يمرض الجسد لسوء التغذية وبالعدوى، كذلك الروح تمرض بهذه جميعها. وتحتاج إلى وقاية وحصانة كما يحتاج الجسد تماماً.

والجسد إذا مرض يحتاج إلى أطباء، وكذلك الروح...

وأطباء الروح هم آباء الإعتراف والمرشدون الروحيون. والأدوية الروحية معروفة وكثيرة، ويحتاج إلى تناولها كل من يشعر بنقص فى ناحية معينة. ونحن نقول للرب فى القداس الغريغورى «ربطتنى بكل الأدوية المؤدية إلى الحياة»...

ونقول له «أيها الطبيب الحقيقى الذى لأنفسنا وأجسادنا...»

لا شك أن الجسد يلاقى من الإنسان إهتماماً كبيراً لا تلاقيه الروح. ولذلك فإن

أحد الآباء قرأ مرة فى سفر الجامعة قول الحكيم :

رأيت عبيداً على الخيل ، ورؤساء ماشين على الأرض كالعبيد (جا ١٠ : ٧). فقال إن العبيد الراكبين على الخيل هم الأجساد التى نكرمها أزيد مما يلزم. والرؤساء الماشين على الأرض كالعبيد هم الأرواح التى لا تجد إكراماً كالأجساد ، بل تجد إهمالاً من كل ناحية... الروح التى لها السيادة بحكم طبعها ، نهملها حتى تفقد سلطتها وتخضع للجسد ، وتمشى على الأرض كالعبيد... !

إننا نهتم بالجسد فنعطيه غذاءه . ونجمله بالزينة .

وكما يتزين الجسد ويلبس ، ينبغى أيضاً أن تتزين الروح .

والروح تتزين بالفضائل ، زينة الروح الوديع الهادىء كما يقول الرسول (٢بط ٣ : ٤) . وتلبس «لباس العرس» (متى ٢٢ : ١١ ، ١٢) . الذى يستحق لابسوه الدخول مع الرب فى ملكوته . وتلبس البز (الحرير) الذى هو تبررات القديسين (رؤ ١٩ : ٨) . وتقف أمام الله فى ثياب بيض...

فهل أنت تزين روحك بكل ثمار الروح (غل ٥ : ٢٢) . أم تقف أمام الله عرياناً مثل ملاك كنيسة لاودكية (رؤ ٣ : ١٧) . واعرف أن كل زينة الجسد من الخارج لا تنفع ، كما يقول المزمور:

كل مجد إبنة الملك من داخل (مز ٤٥) .

مع أنها « مشتملة بأطراف موشاة بالذهب ، ومزينة بأنواع كثيرة» ، فلتقف روحك فى اليوم الأخير بكامل زينتها أمام الله «كعروس مزينة لعريسها» (رؤ ٢١ : ٢) .

ومن جهة لباس الروح ، ما أجمل تلك العبارة التى قيلت عن المعمودية «لأن جميعكم الذين اعتمدتم للمسيح قد لبستم المسيح» (غل ٣ : ٢٧) ، يوم خرجت الروح من المعمودية فى أكمل بهائها... ويضاف إلى هذا أيضاً :

ما تلبسه الروح من أكاليل ، نتيجة لجهادها وانتصارها .

فما الذى تلبسه روحك من كل هذا ؟ هل أنت مثل تابوت العهد الذى كان مصفحاً بالذهب من الداخل ومن الخارج (خر ٢٥ : ١١) ؟

*** وفى الإهتمام بالروح ، ضع أمامك هذه الوصايا :**

١ ـ اسلكوا بالروح ، فلا تكملوا شهوة الجسد (غل ٥ : ٦) .

٢ ـ إمتلئوا بالروح (أف ٥ : ١٨) .

٣ ـ حارين فى الروح (رو ١٢ : ١١) .

وهكذا تعبد الله بالروح (فى ٣ : ٣) . وتصلى بالروح ، وترتل بالروح (١كو ١٤ : ١٥) . وتثمر ثمار الروح (غل ٥: ٢٢) ، عالماً أن «من يزرع للروح ، فمن الروح يحصد حياة أبدية» (غل ٦ : ٨) . إن سرت هكذا يمكنك أن تحفظ توبتك ولا ترجع إلى الوراء ...

إعط روحك غذاءها . أما جسدك فاعطه ما يقوته ، لا ما يشتهيه .

إن تقويتك لروحك تحفظك من السقوط ...

إن التجارب والإغراءات والحروب الروحية يتعرض لها الكل . ولكن يثبت الأقوياء روحياً كالبيت المبنى على الصخر (متى ٧ : ٢٤ ، ٢٥) .هؤلاء الذين تغذت أرواحهم بكلمة الله ، وقويت بكل التداريب الروحية ، وأصبحت لها خبرة بحروب الشياطين ، وقدرة على قتالهم ... صاروا أقوياء من الداخل ، كمدن محصنة . ولكن لماذا يسقط البعض ؟

يسقطون ، لأنه لا توجد مقاومة فى الداخل ، ولا حصانة .

كمرض يهاجم بلدة بأسرها ، فيصمد له الأقوياء ، و يقع الضعفاء .

إن كان الأمر هكذا ، حاول إذن أن تتقوى بالروح ، حتى إن أتتك الخطية ، لا تجد قبولاً ولا تجد استسلاماً ، فتعبر وتمضى... كوّن لك رصيداً روحياً ينفعك فى السنوات العجاف ...

غالبية الذين يسقطون ، والذين ينتكسون بعدتوبتهم ، اكتفوا بترك الخطية فى بدء التوبة . وفى نفس الوقت تركوا أرواحهم بلا تغذية ، بلا تقوية ، بلا عناية ، حتى أصبحت فى حالة من الضعف تجعلها سهلة السقوط .

أما أنت فلا تكن هكذا ... فلتكن لك وسائط روحية تربطك بالله ، تسير عليها فى نظام ، وبمواظبة . ولتكن لك الإجتماعات الروحية ، والأصدقاء الروحيون ، والقراءات الروحية ، وجو روحى يحيط بك من كل ناحية ، مع الأب الروحى وإرشاداته وتوجيهه ...

١ ـ مما يساعد على حفظ التوبة ، أن تستوفى نصيبها من الإنسحاق .

وذلك حتى يدرك الإنسان تماماً بشاعة الخطية ومرارة نتائجها ، ويختبر عذاب الضمير، فلا يعود إلى الخطية مرة أخرى... ولقد تحدثنا فى باب سابق عما يصحب التوبة من شعور بالخزى ، مع حزن ودموع ، كما فى قصص القديسين... وكذلك ما يصحب الإنسحاق من بعد عن المتكئات الأولى ، ومجالات القيادة التى تجعل الإنسان ينسى خطاياه . غير أن البعض للأسف الشديد ، يحاول من بدء توبته أن يقفز سريعاً إلى الفرح ، دون أن يعبر على مرحلة الإنسحاق والندم والحزن ، ناسياً أن الفرح هو مرحلة متأخرة ، لا يختطفها لنفسه ، إنما يمنحها الرب للذين أثبتوا بانسحاقهم صدق وثبات توبتهم...

التائب الذى يسرع إلى الفرح ، سهل رجوعه إلى خطاياه القديمة .

أما الإنسحاق فهو سور متين يحمى التوبة ، ويحفظ القلب يقظاً ، و يدعوه باستمرار إلى الحرص والتدقيق ، و يثبت فيه مخافة الله . كما أن الإنسحاق يحفظ التائب فى تواضع القلب . والنعمة تعمل فى المتواضعين وتحفظهم من السقوط . وطالما يكون التائب منسحقاً ، فإنه يتذكر ضعفه وسقوطه ، وهذا يدعوه إلى الإحتراس الدائم .

أما الشيطان فيحرضك على سرعة الفرح ، ليقودك إلى الامبالاه .

يشعرك أنك خرجت نهائياً من دائرة الخطية ، وتقدست وتجددت ، ولم يعد للخطية سلطان عليك ، لأنك محروس ومحفوظ بالنعمة . وهكذا يجعلك لا تبالى... ! حقاً إن النعمة تحفظنا ولكنها لا تلغى إرادتنا ، ولا تجعلنا مسيرين نحو الخير . فماذا يحدث إذا لم نتعاون نحن مع عمل النعمة فينا ؟

لذلك إن دعيت إلى الفرح ، قل أنا لا أستحقه . وإن أنعم الله عليك ببهجة خلاصه (مز ٥٠) ، فلتكن هذه البهجة سبباً لمزيد من الإنسحاق ، مع توبيخك لنفسك...

فى نظام الآباء الأول ، كانت هناك قوانين عقوبات شديدة .

ونتيجة لهذه العقوبات ، كان كل تائب يشعر بمقدار الخطأ الذى وقع فيه فينسحق

قلبه ، و يشعر بعدم استحقاقه حتى لدخول الكنيسة . وفى ذلك الزمان كانت الكنيسة أكثر قداسة ، وكان المؤمنون أكثر جدية وتدقيقاً فى حياتهم . ولما وقفت تلك العقوبات دخل الاستهتار إلى نفوس كثيرين . فياليت كل تائب يضع أمامه قول القديس أبا مقار الكبير «أحكم يا أخى على نفسك ، قبل أن يحكموا عليك» ...

لأننا إن كنا نندم على خطايانا كما ينبغى ، فإن الندم على الخطية ، سيساعدنا على عدم الرجوع إلى الخطية . إذ كيف نرجع إلى ما نندم عليه ...

٢ - ومن أسباب النكسة الروحية ، والرجوع إلى الخطية ، المفاهيم الخاطئة عن الروحيات وعن محبة الله ...

كثيراً ما يركز البعض على محبة الله وغفرانه ومسامحته ، تركيزاً ينسيهم صلاح الله وقداسته ، و ينسيهم مخافة الله أيضاً . فلا يكون عندهم الخوف الذى يدفعهم إلى الحرص . وإن سقطوا لا يندمون كثيراً . معتمدين على محبة الله . وهكذا تصبح الخطية سهلة أمامهم ...

ومن المفاهيم الخاطئة أن يظن البعض أن الإعتراف ، هو مجرد أن يذكر خطاياه للكاهن و يأخذ عنها حلاً و ينتهى الأمر... دون أن يقرن الإعتراف بالتوبة الصادقة ، وبالندم الشديد ، وتبكيت النفس ، والعزيمة الصادقة على ترك الخطية والبعد عن كل أسبابها ...

إن سهولة الإعتراف ، ربما تكون سبباً فى رجوع الإنسان إلى الخطية .

ومن المفاهيم الخاطئة أن يظن الإنسان أن التوبة مجرد تغيير سلوك بسلوك ، من تصرف خاطىء إلى حياة الفضيلة ، دون التركيز على وجود علاقة مع الله . أما أنت فقل :

لو أننى أعطيت كل الفضائل من غيرك يارب ، لا أريدها .

إننى فى توبتى أريدك أنت . وما الفضيلة سوى تعبير عن التصاق بك... هل أقول أعطيك قلبى كمجرد طاقة تطل بها على مشاعرى ؟ كلا ، بل أعطيك فى هذا القلب كل الحب ، لأحيا معك وأثبت فيك .

فالتوبة ليست هى وصولى إلى الفضيلة ، إنما وصولى إليك .

بهذا الوضع يمكن للتوبة أن تثبت ... التوبة المؤسسة على محبة الله والإلتصاق به .

فإن المحبة كما قال الرسول «لا تسقط أبداً» (١كو ١٣ : ٨). وكما قيل في سفر النشيد «مياه كثيرة لا تستطيع أن تطفىء المحبة» (نش ٨ : ٧).

٣ ـ ومن أسباب النكسة الروحية أيضاً : نسيان وعودك لله .

تلك الوعود التي قلتها للرب يوم توبتك . وربما تكون قد قطعت مع الله بتفاصيل معينة! لذلك إن حوربت بالخطية ارفضها ، وتذكر مواعيدك وعهودك . قل «أنا قد اتفقت مع الله . ولا يمكن أن أرجع في عهودي معه . لقد وعدت . وأريد أن أكون رجلاً حسب وصية الكتاب «تشدد وكن رجلاً» (١مل ٢ : ٢).

لا تكن مثل الأرض التي ألقيت فيها البذار ، وأتت الطيور فالتقطتها ... أو أحاطت بها الأشواك فخنقت ما قد نما فيها .

٤ ـ ومن أسباب النكسة الروحية أيضاً : الضمير الواسع .

ذلك الضمير الذي يتسع لكل شيء ، ويبرر كل شيء ، ويبلع الجمل (متى ٢٣ : ٢٤). وقد يساعده عقل يكون في خدمة كل انحراف تحارب به النفس ، فيقدم الأدلة والبراهين ، وربما الآيات وقصص القديسين ، لكي يؤيد بجهالة كل رغبة خاطئة للنفس ...

لذلك يعوزك الإرشاد المستمر حتى لا تنحرف .

ضع نفسك تحت قيادة إرشاد حكيم . وتذكر أن « الذين بلا مرشد يسقطون مثل أوراق الشجر» . وقد قال أحد القديسين إن أعظم سقطة لشاب هي : أن يسلك حسب هواه» . وقال الحكيم «على فهمك لا تعتمد» (أم ٣ : ٥).

والمرشد يحفظ التوازن في حياة التائب . فلا يجعله يغالي في الكآبة التي قد توقعه في قطع الرجاء . كما لا يغالي في طلب الفرح والبهجة ، فيقوده ذلك إلى اللامبالاة .

" إعملوا لا للطعام البائد ، بل للطعام الباقي "
" يو ٦ : ٢٧ "

بعض أسئلة عن التوبة

١ خطيتى أمامى كل حين

سـؤال إلى أى مدى ننفذ عبارة « خطيتى أمامى كل حين » (مز ٥٠) ؟
هل معنى هذا أن نتذكر خطايانا باستمرار؟

الجـواب : المفروض أن نتذكر باستمرار أننا خطاة ، وتكون خطايانا أمامنا كل حين ، لكى تجلب لنا الإتضاع وانسحاق القلب ، وتشعرنا بضعفنا فنزداد حرصاً ، ونطلب معونة الله بالصلاة...

أما إن كان التذكار يعيد إلينا الخطية ، فلنمتنع عنه ...

متذكرين ما نقوله فى القداس الإلهى : « تذكار الشر الملبس الموت » .

وحسب تعليم الآباء ، من الصالح لنا أن نبعد عن تذكر الخطايا الشهوانية والخطايا الإنفعالية ، لأن تذكرها قد يعيد إلينا حروب الخطية .

فإن تذكرنا خطية شهوانية ، لا ندخل فى تفاصيلها لأنها معثرة .

خطية الزنا مثلاً ، لا يجوز للتائب أن يتذكر تفاصيلها وخطوات ارتكابها ، لئلا تعود إليه شهوة الخطية مرة أخرى . حتى إن لم تحاربه الشهوة فى أول مرة يذكر فيها هذه التفاصيل ، يمكن أن تحاربه فيما بعد .

ومثل شهوة الزنا أيضاً ، شهوة العظمة والمناصب ، وشهوة المتكآت الأولى ، وما يتبع كل ذلك من أحلام اليقظة .

فإن دخل التائب فى تفاصيل آماله هذه وأحلامه ، وما كان يشتهيه من أوضاع ومراكز وشهوة وتقدم على الآخرين وحب للمديح والكرامة ، ما أسهل أن ترجع إليه هذه المشاعر مرة أخرى ، وتدغدغ حواسه ، ويطيش فيها بلذة ، وربما تكون سبب لأحلام من هذا النوع أو تطيش فيها أفكاره وقت الصلاة . والأحرى به أن يهرب من كل هذا .

لذلك فخطية الحسد ، لا يجوز الدخول فى تفاصيلها .

إذ سيتذكر من كان يفوقه فى شىء ما ، أو يتمتع بشهوة كان هو يريدها ولم يستطع . وهذه التذكارات تعيد إليه حروب شهواته القديمة ، بل قد تعيد مشاعر عدم محبة نحو ذلك المحسود...

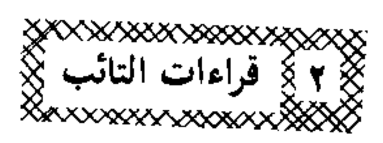
وبالمثل خطايا الغضب من إساءات الناس ، ظاهراً أو مكبوتاً .

مع تذكر أسباب تلك الإساءات ومظاهرها ، وما تحرك فى القلب من مشاعر الغيظ أو الحقد أو الرغبة فى الانتقام .

إن تذكر التائب هذه التفاصيل ، ربما يشعر أنه بدأ يسخن من الداخل و ينفعل ، بدلاً من أن يتبكت على غضبه ! هذا إن دخل فى التفاصيل .

على أية الحالات ، فليكن الإنسان رقيباً على مشاعره .

الخطايا التى يذكرها أو يذكر تفاصيلها بطريقة ألمية تعيده إلى مشاعر الخطية ، فليبعد عنها . أما التذكار الذى يجلب له الندم والدموع وانسحاق القلب ، فليستمر فيه مادام هو داخل مشاعر التوبة .



سؤال أنا إنسان حديث العهد بالتوبة . ما هى القراءات التى تنصحنى بها لفائدتى الروحية فى هذه الفترة؟ وعن أى شىء أمتنع ؟

الجواب **إبعد عن القراءات المعثرة ، والتى تجلب الفتور وإدانة الآخرين**

وكذلك القراءات التى تثير فيك الجدل أو حب التعليم ، أو الشعور بالتفوق وسعة الاطلاع . وأيضاً القراءات التى تبرد حرارتك الروحية ، وتجفف دموعك ، وتدخلك فى جو من اللهو والهزل...

ومن النافع لك جداً قراءة سير القديسين .

وكذلك شخصيات الكتاب المقدس ـ لأن هذه القراءات تقدم لك مثاليات عملية

تشتاق أن تحيا مثلها ، فتعطيك طاقة وحرارة روحية .

وكذلك تنفعك قراءة الكتب الروحية والكتب النسكية .

لأنها تنير لك الطريق ، كما أنها تحفظ فكرك فى جو روحى نقى . والمهم أن تختار الكتب التى لها عمق ، والتى تتأثر أنت بها ، وتدفعك إلى الالتصاق بالله ، وتبكتك على خطاياك ، وتفتح أمامك آفاقاً سامية ، وتجعلك تتضع مهما بلغت فى توبتك .

ومن النافع لك أيضاً قصص قديسى التوبة .

مثل سيرة القديس أوغسطينوس واعترافاته ، وسيرة القديس يعقوب المجاهد ، والقديس الأنبا موسى الأسود وغيرهم . وكذلك سير القديسات التائبات مثل مريم القبطية ، وبيلاجية ، ومرثا ، وأفدوكية ، ومريم إبنة أخى ابراهيم المتوحد ...

ومن الكتاب المقدس تخير لك فصولاً معينة تتأثر بها .

مثل سفر الجامعة ، وسفر الأمثال ، ويونان ، ويوئيل ، وسفر التثنية ... ومن العهد الجديد : الرسالة إلى فيلبى ، وإلى أفسس ، والرسالتين إلى كورنثوس ، وإلى تيموثاوس .

واكتب فى مذكرة الآيات التى تأثرت بها لتحفظها ...

٣ التداريب الروحية ومحبة الله

سؤال أيهما أصلح لى فى فترة التوبة : التداريب الروحية ، أم الدخول فى محبة الله بقوة تجعل الطريق قصيراً .

الجواب **فى هذه النقطة ، ليس جميع الناس نوعاً واحداً .**

البعض ينعم عليه فى توبته ، بمحبة ملتهبة فى قلبه ، تكتسح أمامها كل الضعفات السابقة وكل الخطايا والنقائص .

على أن هناك من يشق طريقه وسط صخر ، ويحتاج إلى جهاد كبير يقاوم به كل خطية ، بتداريب قاسية شديدة ، وبسهر منتبه جداً على خلاص نفسه ، مثلما نبه القديس بولس العبرانيين قائلاً :

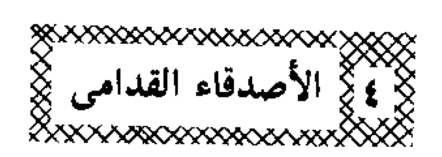
لم تقاوموا بعد حتى الدم ، مجاهدين ضد الخطية (عب ١٢ : ٤) .

وهنا يدرب الإنسان نفسه ، ويحاسبها كيف سلكت فى كل تدريب .

والتداريب عاش فيها القديسون أيضاً فى الأمور الخاصة بحياتهم الروحية وبنموهم الروحى . فيقول القديس بولس الرسول : « لذلك أنا أيضاً أدرب نفسى ، ليكون لى دائماً ضمير بلا عثرة من نحو الله والناس » (أع ٢٤ : ١٦) . وقال أيضاً « فى كل شيء... قد تدربت أن أشبع وأن أجوع ، أن أستفضل وأن أنقص » (فى ٤ : ١٢) .

لذلك حسبما يمنحك الرب ، هكذا أسلك .

إن أشعلك بالحب ، سر فى طريق الحب ... وإن قادك خطوة بجهاد وتعب ، جاهد أنت أيضاً واتعب ، لكى تصل...



٤ الأصدقاء القدامى

سؤال هل تظن أنه من السهل التخلص من الأصدقاء الذين عشت بينهم سنوات طويلة قبل التوبة ، بعشرة لاصقة بالقلب وعلاقة عميقة ، وكانوا موضع ثقتى وعندهم أسرارى... كيف أتركهم ؟

الجواب صديقك الحقيق ، هو رفيقك فى طريق الملكوت ، يشترك معك فى الحياة الروحية ، ويشجعك عليها ، وتشجعه أنت أيضاً .

أما كل علاقة أو عشرة خارج محبة الله ، فينبغى التخلص منها . لأن الرب يقول « من أحب أباً أو أماً أكثر منى ، فلا يستحقنى... » (مر ١٠ : ٢٩) . فإن كان أصدقاؤك القدامى يعثرونك ، أو يقودونك بعيداً عن حياة التوبة ، إبعد عنهم ، باقتناع وفى حزم .

إن استطعت أن تجذبهم معك إلى التوبة ، فلا مانع .

وإن لم تستطع ، فاجعل علاقتك بهم سطحية . وإن كانوا خطراً عليك ، فينبغى أن تفضل علاقتك بالله على علاقتك بهم .

حتى إن وجدت صعوبة ، إحتمل من أجل الرب . وتذكر أن ابرام أبا الآباء ، لما دعاه الرب ترك أهله وعشيرته وبلده وسار وراء الله (تك ١٢ : ١) .

وأنت أيضاً ، لتحتفظ بتوبتك ، أترك من أجل الله كل من يعوقك...

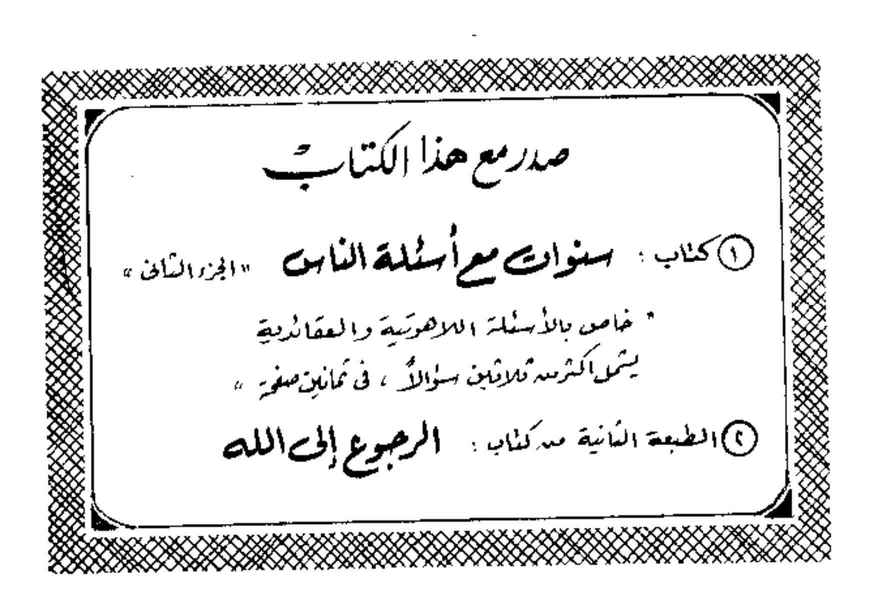
قصيدة كيف أنسى

سوف أنسى الأمس واليوم وقد أنسى غداً	وسأنسى فترة فى العمر قد ضاعت سدى
غير أني سوف لا أنسى سؤالاً واحداً	حين قال القلب يوماً فى ارتباك كيف أنسى
كيف أنسى فترة الطيش وآثام الصبا	حين كان القلب رخواً كلما قام كبا
أسكرته خمرة الإثم فنادى طالباً	كلما يشرب كأساً يملأ الشيطان كأساً
كم دعانى الرب يوماً فأشحت الوجه عنه	وأرانى قلبه الحانى أنا الهارب منه
قال كن صدراً لقلبي غير أنى لم أكنه	كان قلبي فى صدرى مثل صخر كان أقسى
قال هل تحضر يا صاحب عرسى فاعتذرت	فأعاد القول فى رفق وعطف فضجرت
فتولى بعد أن قال انتظرنى فانتظرت	لم تكن فى القلب أشواق لكى أحضر عرسا
كجحيم ذلك الماضى كشيطان مريع	قائم ضدى فى صحوى وأيضاً فى هجوعى
كم مضى الليل وقد بللت فراشى بدموعى	إيه ياظلمة نفسى هل ترى أبصر شمساً
قرأ الكاهن حِلاً فوق رأسى فاسترحت	قال لى هيا اصطلح بالرب هيا فاصطلحت
قلت أنسى الأمس لكن صرخ العقل فصحت	حسن يا قلب أن أنسى ولكن كيف أنسى
كيف أنسى فترة الطيش وآثام الصبا	كيف أنسى الرب مصلوباً وقلبي صالباً

* * *

كتبت هذه القصيدة حوالى سنة ١٩٦٠ .

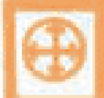
محتويات الكتاب


صدر مع هذا الكتاب
(١) كتاب : سنوات مع أسئلة الناس « الجزء الثانى »
« خاص بالأسئلة اللاهوتية والعقائدية
يشمل أكثر من ثلاثين سؤالاً ، فى ثمانين صفحة »
(٢) الطبعة الثانية من كتاب : الرجوع إلى الله









بسم الآب والابن والروح القدس
الإله الواحد آمين

ليست التوبة مرحلة نجتازها ونتتهي منها، إنما هي حياة

إنما عمل يومي نمارسه كل يوم، لأننا في كل يوم نخطىء، ونحتاج إلى توبة. كلنا بلا استثناء.

إذن فهذا الكتاب لجميع الناس. لكل إنسان يعترف أنه خاطىء، تقرأ فيه: ما هي التوبة؟ وما كمالها؟ وما أهميتها؟ والدوافع التي تدفع الإنسان إلى التوبة.

ويشرح أيضاً: كيف تتوب؟

وما هي علامات التوبة؟ وكيف تحفظ توبتك مستمرة بلا نكسة.

وما هي حياة النقاوة وكيف تختبر؟

ومع ذلك فالموضوع طويل يحتاج إلى تكملة. لذلك إقرأ أيضاً كتب:

البقظة الروحية. السهر الروحي
الرجوع إلى الله. مخافة الله

شنوده الثالث

